موسوعة

الدكتور

محاضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الأول

مَوسُوعَةُ

الدكتور

محَاضِير بن محُمَّد

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الأول

موسوعة

الدكتور

محضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الأول

الإسلام والأمة الإسلامية

الناشرون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب - ماليزيا

دار الفكر - كوالالمبور

موسوعة

الدكتور

محاضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

● الترجمة والمراجعة

نخبة من كبار المترجمين والأساتذة المتخصصين من جامعات القاهرة والأزهر والأسكندرية وعين شمس وحلوان.

د. عبدالرحمن الشيخ

د. ياسر شعبان

أ. فاروق لقمان

أ.طلعت الشايب

د.توفيق علي منصور

أ.احمد محمود

أ.عبدالحميد دابوه

د.رمضان بسطاويسي

أ.احمد عبدالحميد

أ. محمد رشدي

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل تليفون : ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ / ٣٩٢٤٦١٤

القاهرة ص.ب: ١٥٦ عتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا: كتا مصر - القاهرة

فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

Fax: (202) 3924657 القاهرة Att: Mr. Hassan El-Zein

دار الكتاب اللبناني

بيروت

شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول - بيروت

تليفون: ٧٣٥٧٣٢ / ٧٣٥٧٣١ ص.ب ٨٣٣٠ - ١١

بيروت - لبنان . برقيا: داكلبان - فاكسيملي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

Fax: (9611) 351433 بيروت Att: Mr. Hassan El-Zein

DARULFIKIR – Kuala-Lumpur — دار الفكر - كوالالمبور

العنوان:- 329B Jalan Abd Rahman Idris, off Jalan Raja Muda, 50300 Kuala-Lumpur

Tel:- 603-26981636 / 603 - 26913892 Fax:- 603 - 26928757

First Edition 2004 A.D - 1424 H

الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

I.S.B.N 977-238-738-7

رقم الإيداع ٩٧١٢/ ٢٠٠٣

المحتويات

الفصل الأول

كرامة الأمة الإسلامية في خطر*

انعقدت الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامى الذى يشكل منبرا يلتقى فيه قادة ٥٦ دولة وحكومة ، بالعاصمة القطرية ؛ الدوحة ، على خلفية الصمود الأسطورى للشعب الفلسطينى ، الذى يتصدى ببسالة نادرة لعمليات التقتيل البشعة التى تمارسها عصابات الصهاينة يوميًا فى فلسطين المحتلة ، مستخدمة القذائف والقنابل والمدافع والزخيرة الحية فى مواجهة محتجين عُزّل لا يحملون إلا الحجارة .

هذا الشعب يقدم تضحيات جسيمة تطول شبابه وأطفاله ونساءه ومسنيه ، وعلى نحو يومى فى مقاومة شرسة من أجل انتزاع حريته وكرامته ، ودفاعًا عن الإسلام بطبيعة الحال .

لكننا للأسف ، نلاحظ أن الدول الإسلامية التى تشكل أكثر من ثلث أعضاء الأمم المتحدة ، تقف موقف المتفرج وعاجزة تماما عن فعل أى شىء لوقف هذه المجازر اليومية ، بينما إسرائيل مستمرة فى تصعيد عمليات القمع والتقتيل ضد الفلسطينيين الأبرياء دون رادع أو عقاب . هذه الحملة الصهيونية الشرسة لا تستهدف بالطبع الشعب الفلسطينى وحده ، بل إنها تمثل تحديا لوحدة المسلمين واستهانة بكرامتهم أيضا .

ومما لا شك فيه أن مصير الشعب الفلسطينى مرتبط بالأمة الإسلامية كلها على نحو لا فكاك منه . ويعيش الفلسطينيون تحت احتلال يرفض تماماً الاعتراف بحقوقهم المشروعة فى الحرية وإقامة دولتهم المستقلة على ترابهم الوطنى .

إن الحملة القمعية الواسعة التى يشنها الإسرائيليون على الفلسطينيين ما هى إلا حملة على المسلمين فى كل مكان وبالقدر نفسه . وعليه فإن الدول الإسلامية لا يمكن أن تقف

* كلمة بمناسبة القمة الإسلامية التاسعة التى انعقدت بالدوحة فى ١٢ نوفمبر ٢٠٠٠م .

مكتوفة الأيدى تتفرج على عمليات القتل الإسرائيلية ضد الفلسطينيين والتى تجد الدعم والحماية من بعض الأطراف . إن بإمكاننا نحن ، بوصفنا مسلمين ، التحرك باتجاه فعل شىء لِلَجْم الصلف والعنف الإسرائيليين وحماية إخواننا العزل فى فلسطين .

وفى تقديرى ، إن التطورات الجارية حاليًا فى منطقة الشرق الأوسط ، تستدعى تعزيز التضامن والتآزر بين أبناء الأمة الإسلامية نظرا لأن ما يحدث للفلسطينيين اليوم يمكن أن يحدث فى أى وقت لأى شعب من شعوبنا الإسلامية . إن ما يجرى للمسلمين فى يوغوسلافيا وفى الشيشان وفى مناطق أخرى من العالم ، لهو أبلغ دليل على ما ذهبنا إليه . فهل من الحكمة أن نقف مكتوفى الأيدى نتفرج على يجرى لإخواننا فى العقيدة فى تلك البقاع دون أن نحرك ساكنًا إلى أن يلتهمنا الأعداء الواحد تلو الآخر؟

وبهذا الصدد ، فإن منظمة المؤتمر الإسلامى والقمة الحالية بصفة خاصة ، يمكن أن تلعب دورا مهمًا وبنّاء على صعيد استقطاب الدعم للقضية الفلسطينية ، من الأوساط الإسلامية فى كل مكان والانتصار لها .

لابد من أن نرفع صوتنا عاليا وجليًا لمناصرة الشعب الفلسطينى ، وهناك إجراءات عديدة يمكن أن نقوم بها لكى تصل رسالتنا هذه إلى كل مكان .

ومن بين تلك الإجراءات ؛ الالتزام الصارم بموقفنا الثابت بعدم تقديم أى تنازل فى وضع مدينة القدس الشريف ، باعتبارها مدينة فلسطينية على المستويين السياسى والتاريخى .

ولابد لنا أيضا من أن نتمسك بموقفنا الثابت من قضية استعادة بقية الأراضى الفلسطينية والأراضى العربية الأخرى بما فيها الجولان السورية التى مازالت تحت الاحتلال الإسرائيلى .

إلى جانب ذلك ، ينبغى علينا أن نوفر كل أنواع الدعم للجهود المبذولة على أكثر من صعيد بما فيها مبادرات الأمم المتحدة ، الهادفة إلى إيجاد تسوية سلمية للنزاع العربى- الإسرائيلى وفى مقدمته القضية الفلسطينية وإنقاذ العملية السلمية لصالح السلم والأمن فى

منطقة الشرق الأوسط .

كما ينبغى علينا أن ندعم القيادة الفلسطينية أيضا بتقديم كل أنواع المساعدة الممكنة لها .

إننى على قناعة بأن انعقاد هذه القمة فى هذا الوقت بالذات ، مُوات تماما لاتخاذ موقف جماعى لمعالجة هذه المشكلة ودعونا نعمل بتناغم كمنظمة يجمع بين قادتها حد أدنى من التوافق فى الرأى والمواقف وكقيادات ملتزمة دينيا ، لإيجاد حل للمسألة الفلسطينية . ودعونا أيضا أن نحمل تلك الجهات التى تتبارى لإدانة ممارسات قمعية مزعومة ، فى وقت تصمت فيه تماما عن التنديد بانتهاكات فاضحة لحقوق الإنسان تحدث على الملأ ، دعونا نحملها على الاعتراف بازدواجية خطابها والإحساس بالخجل من هذا الموقف غير النزيه .

لقد قاتل الفلسطينيون بما فيه الكفاية وتحملوا من المآسى والنكبات والعذاب أكثر من طاقتهم ، وآن الأوان ليحصلوا على حقوقهم المشروعة بدعمنا نحن .

إننى على وعى تام بالتعقيدات التى يستبطنها دفاعنا وتجديد دعمنا وتأييدنا للقضية الفلسطينية . فبقدر ما نسعى لتقديم أنواع الدعم بكافة صوره لهم ، فإن العقبات المختلفة التى تخرج عن نطاق قدرتنا وسيطرتنا ستظل قائمة . وتقتضى الواقعية ألا نتجاهل القوة الإسرائيلية من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية كما ينبغى ألا نقلل من خطورتها .

كما إننا بالقدر نفسه ، لا يمكن أن نتجاهل الانحياز الأمريكى المعلن لصالح إسرائيل ، والذى ساهم بتشكيل الأحداث والتطورات فى المنطقة ، والتى تفاقمت من عذابات الفلسطينيين ومآسيهم .

لكل ذلك ، ينبغى أن تتسم تصوراتنا وحماستنا لهذه القضية بالواقعية التى تجعل من تطبيقها وتنفيذها أمرا ممكنا . وانطلاقا من موقفنا القوى الثابت من القضية الفلسطينية ووحدة هدفنا ، فإننى على ثقة بأننا سنمضى فى الاتجاه الصحيح ونحقق الأهداف المرجوة .

عندما دخل العالم الألفية الثانية ، كانت الحضارة الإسلامية فى أوجها ونحن نعيش حاليا فى الألفية الثالثة الميلادية . إلا أننا ، ونحن فى مطلع الألفية الميلادية الثالثة قد تراجعنا وأصبحنا فى حالة يرثى لها من الضعف والهوان . فى بداية الألفية الثانية كانت مراكز العلم والمعرفة فى دمشق وبغداد وقراطبة وسمرقند ، فأين هى الآن؟

وبالمناسبة ، فإن البلدان الإسلامية كانت ومازالت تمتلك النسبة الغالبة من الموارد الطبيعية فى العالم .

لكن بالرغم من ذلك ، فإن معظمها غارق فى مستنقع الفقر والنزاعات الداخلية العنيفة . ونلاحظ أن النزاعات والحروب المسلحة بين البلدان الإسلامية بعضها بعضا ، أكثر من النزاعات التى تقع بين المسلمين وغير المسلمين .

وبالنظر إلى الأوضاع المتردية فى البلدان الإسلامية ، وما حل بها من نكبات وكوارث ، فإن مفهوم «السلام والتنمية» الذى اتخذناه شعارا لقمتنا الحالية ، يجئ فى وقته المناسب . ذلك أن هذه القمة تتيح لنا فرصة مناسبة لاستخلاص الدروس والعبر والتجارب من الماضى ، وتسمح لنا فى الوقت نفسه باستشراف الرؤى والمفاهيم والبرامج الجديدة ، لإحداث التنمية فى بلداننا الإسلامية . هذان الأمران لابد من تناولهما بكل أمانة وشفافية ، علما بأن معالجتهما هى مسئولية جماعية تقع على عاتقنا كلنا .

دعونا فى هذا المقام ننظر إلى كلمة «السّلام» ، فقد وردت هذه الكلمة التى تشكل جزءا أساسيا من مقومات حياة الإنسان المسلم ، وردت فى ثلاث وخمسين آية من آيات القرآن الكريم . هذه الكلمة «السّلام» ينطق بها المسلمون فى كل لحظة وفى كل ساعة وفى كل يوم وفى أى بقعة من بقاع العالم ؛ لأنها هى اللفظ الذى يحيون به بعضهم بعضا .

لذلك ، فإن من واجب المسلم أن يسعى إلى التمكين للسلام كأسلوب للحياة ، بما يمكن من إحداث التنمية . وبالمقابل فإن تصيد الأسباب لإفشاء الخصومات والحروب بين بعضهم بعضا ليس من الإسلام فى شىء . إن السلام والتنمية تحديان متلازمان يواجهان الأمة

الإسلامية وهما متكاملان لا يمكن فصلهما عن بعضهما بعضا ، ولا أن يتحقق واحد دون الآخر .

وبما أن منظمة المؤتمر الإسلامى قد أنشئت فى الأساس لتعزيز فرص الوحدة الإسلامية والتعاون ، فإنها مطالبة ببذل جهود عملية فى سبيل تحسين فرص السلام والتنمية وتعزيزها . بمعنى أن المنظمة مطالبة بالعمل الدؤوب والمنهجى للتأكيد على نشر وغرس ثقافة جديدة فى الدول الإسلامية وبين المسلمين بعامة معنية بالسلام والتنمية .

لقد شهد العالم فى زماننا تغييرا مهما لصالح صيغة «الاعتماد المتبادل» وقد بات جليًا أن مصالح متعددة الوجوه ولاعبين يقيمون إئتلافات واندماجات على أسس ديناميكية غير ثابتة ، يتحكمون فى مصير العباد ، ونلاحظ فى سياق هذا المناخ المستجد ، أن البلدان قد بدأت تغير جلودها ، وأن الأصدقاء والأعداء يتم صنعهم ويعاد رصُّهم فى المواقع حسب المصلحة ، ولم يعد أى شىء مغلقا ولا محرمًا ، بل مفتوحا لكل التفسيرات والتغييرات والتحالفات ، فى وقت تمت فيه إعادة صياغة أدوات لتحقيق رؤى وأهداف جديدة .

فى ضوء هذه الحقائق الجديدة فإن التساؤل الحاسم الذى يطرح نفسه بإلحاح هو : هل منظمة المؤتمر الإسلامى قادرة على إعادة تحديد هويتها وتجديد نفسها لتفعيل دورها فى معالجة التحديات والآمال المعلقة عليها ، وإعادة صياغة بنيتها الهيكلية ومنهجيتها ، بما يمكنها من بلورة استراتيجيات جديدة كفيلة بمعالجة التحديات المرتبطة بالسلام والتنمية؟

إن الصعوبات التى تواجه المنظمة ستفرض عليها ، عاجلا أو آجلا ، إعادة صياغة بنيتها المؤسساتية وآلياتها فى العمل . ومادام الأمر كذلك فمن الأجدى أن تبادر المنظمة بالتحرك بأسرع وقت ممكن لإنجاز تلك المهام الضرورية ، ولا داعى للتأخير . ويقينى أن من حق الأمة الإسلامية على المنظمة أن تستعجل إنجاز هذه المهمة .

إن الصعوبات التى اعترضت مسيرة منظمة المؤتمر الإسلامى طوال الفترة الماضية ،ترجع فى معظم الأحيان ، إلى تباين المصالح والخلافات الإيديولوجية بين الدول

الأعضاء ، إضافة إلى طموح بعضنا إلى الهيمنة على الآخرين . نحن مطالبون فى الوقت الحالى بتجاوز سلبيات الماضى ، ومن المؤكد أن أحدا ما كان لينجح بفرض رؤاه وتصوراته على أكثر من مليار مسلم . ومن الأفضل لنا أن نقر ونقبل بأوجه الخلاف والاختلاف بيننا ، وأن نتركها جانبًا لنركز على التعاون الجماعى المشترك .

فى ضوء الشعار الذى تنعقد القمة الحالية فى إطاره ، ينبغى أن تعنى عملية الإصلاح بتفعيل وتعزيز دور المنظمة ودعمه وبصفة خاصة على صعيدى السلام والتنمية فى البلدان الأعضاء والأمة الإسلامية بصفة عامة .

ولكى نضمن أن يكون تجديد المنظمة لنفسها ، منسجما مع الأهداف والاحتياجات ، وأن يطور فى الوقت نفسه من فاعليتها وكفاءتها فى معالجة قضاياها ، فإن عملية الإصلاح لا بد أن تؤسس على إجماع جديد بين الدول الأعضاء حول دور منظمة المؤتمر الإسلامى ووظائفها الرئيسية وأولوياتها والمجالات التى يمكن أن تنجح بمفردها فى أدائها على النحو الأفضل ، وما يفترض فيها أن تبتعد عنه ، تاركة أداءه للآخرين .

إننا ندرك تمامًا مدى التعقيد والصعوبات التى تعترى هذه المهمة ، والتى يتطلب نجاحها إحداث تغيير فى بنية المنظمة ومنهجيتها فى العمل ، وهذا بدوره يتطلب تضافر مواقف الحكومات وجهودها مع الجهد الذى تبذله الأمانة العامة للمنظمة .

ومما لاشك فيه ، أن العولمة الاقتصادية التى تطول تأثيراتها العالم كله وأوجه الحياة كافة بما فى ذلك المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تجسد وجه وشكل العالم الجديد . ويقينى أن مفهوم العولمة الذى يطرح علينا فى الوقت الحالى مخاطر وتحديات مخيفة ، يمكن أن يصبح إسلاميا (بمفهوم الإسلام للأمة) أكثر منه قطريًا ، كما يمكن أن يشكل قوة ديناميكية فعالة لتعزيز وتدعيم التعاون بين بلداننا الإسلامية ويوفر زخماً جديداً لدفع النمو والتنمية فيها إلى الأمام . هذه القناعة يمكن أن تتحقق متى ما ضمنا أن منافع العولمة وإيجابياتها تشمل جميع الناس ، وأنها ليست محتكرة لصالح فئة قليلة مهما كانت المبررات .

وبما أن النشاط التجارى يلعب دورا مهمًا ومتعاظمًا فى التنمية الاقتصادية ، فإن الوقت قد حان للدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى لتعزيز التعاون التجارى بينها وتوسيعه من خلال رفع الحواجز التى تعوق التدفق السلعى عبر حدود البلدان المنضوية تحت عضوية المنظمة . إن رفع الحواجز التى تحد من تدفق النشاط التجارى سيسهم فى إنشاء سوق ضخمة من الدول الإسلامية تتوفر فيها كل عناصر وعوامل الجذب لاستقطاب الاستثمارات الأجنبية المباشرة . كما يمكن بلورة برنامج علمى مدروس لترويج الاستثمارات الإسلامية المباشرة بين الدول الأعضاء فى المنظمة . ولا بد من الإشارة فى هذا المقام إلى أن الحصة الغالبة من الاستثمارات الأجنبية المباشرة تتجه إلى الدول المتطورة نظرًا لتشابك المصالح والعلاقات بينها .

وبالعودة إلى خطة ترويج الاستثمارات الإسلامية فى الدول الأعضاء بالمنظمة ، فإن الأمر يتطلب تشجيع الرأسماليين المسلمين فى العواصم الغنية ، على توظيف استثماراتهم فى البلدان الإسلامية التى تمتلك المهارات والتكنولوجيا ، لكنها تفتقر إلى رؤوس الأموال . وبالمقابل يمكن للمستثمرين من البلدان الغنية وتلك التى ينقصها رأس المال ، أن يشكلوا مجموعات استثمارية «كونسورتيوم» للاستثمار فى الدول الإسلامية الغنية بمواردها الطبيعية التى ينقصها رأس المال والمهارات والتكنولوجيا . ونذكر أن نسبة كبيرة من السلع والبضائع التى تستوردها الدول الإسلامية يمكن أن يكون مصدرها بلدان إسلامية أخرى وبالجودة والكلفة نفسها .

لكن لابد لنا من أن ندرك أن جذب الاستثمار الأجنبى والاستثمار الإسلامى المباشرين ، وإنشاء الصناعات فى الدول الإسلامية ، يتطلب فى المقام الأول ، توفر بيئة استثمارية جاذبة ومغرية . هنا لابد من أن ننوه ونوه إلى الآثار السلبية التى تترتب على محاولات بعض الجهات تغيير الشروط التى يتم الاتفاق عليها عند إبرام الاتفاقيات التى تحكم الاستثمار ، وهو أمر غير مقبول مهما كانت الأسباب ، بما فى ذلك التغييرات السياسية ؛ لأن

ذلك يهدد الاستثمارات القائمة ويقوض استقطاب فرص جديدة .

لقد ظل البنك الدولى للتنمية (أى .دى .بى) يقوم بوظيفة مهمة على صعيد تمويل المشروعات ، لكنه يمكن أن يقدم خدمات أفضل من ذلك من خلال إتاحة الفرصة للدول التى تجابه بعض الصعوبات للإفادة من الصناديق . أما النظام المصرفى الإسلامى فيمكن أن يكفل للبنوك فرض أرباح فعلية على القضايا المتصلة بالاستثمارات والأعمال التجارية .

فى ضوء ما تقدم ، فإن منظمة المؤتمر الإسلامى حرىٌ بها أن تعيد تعريف نفسها وهويتها وصياغة وظائفها واهتماماتها لمواكبة التطورات والتحديات الحالية ، بما يمكّن الأمة الإسلامية خلال الثلاثين سنة المقبلة من تكييف نفسها مع العولمة وعصر المعلومات .

وغنىٌ عن القول إن من أكثر واجبات الدول الأعضاء فى المنظمة إلحاحًا أن تعمل وتدفع باتجاه إحداث تلك التغيرات .

وبينما لا ينبغى أن نسمح بنجاح أى محاولة لتهميش أو تناسى القمع والاضطهاد والقهر الواقع على إخواننا الفلسطينيين والمسلمين فى كل مكان ، ينبغى علينا أيضا ألا ندع ذلك يعمينا عن أهدافنا طويلة الأمد . أنا على ثقة تامة بأن مداولات هذه القمة المباركة ستسفر عن نتائج ملموسة وعملية من أجل بلورة توجه جديد لمنظمة المؤتمر الإسلامى يمكّنها من تحقيق السلام والتنمية بما يهيئ الأمة الإسلامية لمجابهة التحديات التى فرضها القرن الحادى والعشرون .

إن منظمة المؤتمر الإسلامى مدعوة إلى الاضطلاع بدور قيادى من أجل تحقيق أهدافها ، ونحن من جانبنا لن ندخر جهداً- بحول الله تعالى- لوضع أمتنا الإسلامية فى مكانة تمكنها من مساعدة نفسها بنفسها وحل مشاكلها من خلال التعاون والدعم المشتركين .

إن بلادى بحكم عضويتها فى منظمة المؤتمر الإسلامى ، حريصة كل الحرص وجادة بالاستمرار فى تعزيز نفوذ المنظمة ودعم أنشطتها وبرامجها .

إننا نقدر عاليا هذه القمة التى نعتبرها قمة الألفية الثالثة ، ونرى فيها منبرا مهمًا يثير حوارات ومداولات بناءة لتنمية الأمة الإسلامية ، ويطيب لى بهذا الصدد أن أطلب إنابة عن الشعب الماليزى وحكومته ، من الأخوة الأعضاء أن يمنحونا شرف استضافة القمة الإسلامية العاشرة المقرر عقدها فى عام ٢٠٠٣م . وأرجو أن يحظى هذا الطلب بترحيب موافقة كل الأخوة الأعضاء .

الفَصْلُ الثَّانِي

الإِسْلَامُ وَالعَوْلَمَةُ *

العولمة ، بحسب الصياغات المتداولة حاليا ، هى اختراع من بنات أفكار دول شمال الأطلسى ، ويمكننا أن نقول وبكل ثقة ، إنها مصممة لزيادة ثروة أهل تلك البلدان وتعزيز هيمنتهم التى فرضوها منذ زمن بعيد على الشعوب الأخرى فى مختلف بقاع العالم .

نعم ، لقد فرضت تلك البلدان هيمنتها على العالم منذ أمد بعيد لكنها مازالت تسعى فى الوقت الحالى إلى إحكام سيطرتها وتعزيز قبضتها بما يكفل لها عدم بروز أى منافس حقيقى ، سواء من البلدان الكبرى فى شرق آسيا أو حتى من الدول الإسلامية التى لم تفق من غفوتها بعد .

لقد أثبتت الوقائع التاريخية أن الشعوب الأوروبية بطبيعتها تنطوى دائماً على نزعة عدوانية وتتملكها روح السيطرة على حقوق ومقدرات وأراضى الآخرين .

فعندما كانت تلك الشعوب غير قادرة على عبور المحيطات ، لم تتوقف فى يوم من الأيام عن محاربة بعضها بعضا بغرض التوسع داخل القارة الأوروبية ، باحتلال أراضى الأمم المجاورة . ويستفاد من التاريخ أنه لم يمر عام واحد على مدى الألفيتين الماضيتين دون أن تقع حرب بين مجموعتين أو أكثر من المجموعات الأوروبية المتناحرة .

ولعل الثقافات والأنظمة الاقتصادية الأوروبية ذاتها تقوم فى الأساس على الحروب والتوسع ؛ إذ لا ينفك الأوروبيون عن التفكير فى كل وقت على ابتكار وإنتاج الأسلحة الجديدة الأكثر فتكًا بالجنس البشرى . وحتى يومنا هذا نرى الأوروبيين مولعين بابتكار أدوات

---

* كلمة أمام جمع من المثقفين المسلمين ورجال الأعمال بالدوحة فى ١١ نوفمبر ٢٠٠٠م .

جهنمية جديدة لقتل البشر بفعالية أكثر . كما نلاحظ أنهم لا يتورعون عن إجراء التجارب لاختبار مدى كفاءة هذه الأسلحة فى بلدان أخرى متى وأينما كان ذلك ممكناً ، بما يؤدى إلى قتل العشرات ، بل والآلاف فى بعض الأحيان ، لكن هذه المرة بذريعة حفظ الأمن والسلام فى العالم فى أعقاب إجادتهم لفنون الإبحار ، اتجه الأوروبيون بنزعتهم العدوانية التوسعية ، إلى بقية أنحاء المعمورة . ولم تكد تمضى سنوات معدودة من مطلع القرن الماضى حتى وقع معظم أجزاء العالم تحت حكمهم الاستعمارى الاستغلالى . ومن الناحية العملية كانت لكل دولة أوروبية منطقة تسمى مستعمرة باسمها .

لم يقتصر الأمر على إخضاع الدول الآسيوية والإفريقية وفى الأمريكتين ، للحكم الأوروبى الاستعمارى المستبد والوحشى المباشر فحسب ، بل تم استغلال ثروات وموارد تلك الدول ونهبها لتنمية وتعزيز البلدان المستعمرة . وقد افترض الأوروبيون فى الأجناس الأخرى فى مختلف بقاع العالم ، أنها وضيعة ومتخلفة ، وتعاملوا معها من هذا المنطلق ، لدرجة أنهم أبادوا بعض الجماعات بها .

كان الأوروبيون يقتلون السكان الأصليين فى أستراليا (الأبورجين) على الملأ بشكل لا يختلف عن قتل الحيوانات ، وتسببوا فى انقراض إنسان تسمانيا المنسوب إلى ولاية تسمانيا بالكومنولث الأسترالى . لم يجرؤ أحد فى ذلك الوقت على الكلام ولو بالمصادفة عن حقوق الإنسان ؛ لأن ذلك كان يتعارض تمامًا مع مصالحهم وأهدافهم الخاصة .

وبنهاية الحرب العالمية الثانية ، بدأ الأوروبيون يتخلون تدريجيًا عن سيطرتهم على البلدان الأخرى بمنحها الاستقلال ، لكن ذلك لم يكن نابعا أبدا من تغيير فى ذهنيتهم التوسعية ، كما حاولوا الإيحاء لضحاياهم ، لكنهم كانوا فى الواقع يخشون من أن تشق الشعوب المضطهدة عصا الطاعة عليهم بالتمرد والانضمام إلى المعسكر الاشتراكى الذى برز آنذاك كبديل آخر ، فى غمرة المواجهة بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى ، فيما عُرف بالحرب الباردة .

ولا بد من الإشارة فى هذا المقام إلى أن الأوروبيين المستعمرين لم يتخلوا أبدا عن فكرة الهيمنة . ففى أثناء انسحابهم من المستعمرات الواحدة تلو الأخرى ، كانوا يقومون بتعضيد نفوذهم بما يضمن لهم استمرار الهيمنة على العالم ، وبعد ذلك أدركوا الحاجة إلى تقارب بعضهم من بعض ، فشكلوا المجموعة الاقتصادية الأوروبية التى تحولت فى وقت لاحق إلى الاتحاد الأوروبى ، كما كونوا منظمة معاهدة شمال الأطلسى المعروفة بحلف شمال الأطلسى (الناتو) وعندما انتهت الحرب الباردة بانهيار المعسكر الاشتراكى ، اقتضت مصالحهم أن يندمجوا ، فصاروا الآن كيانًا أوروبيا أكثر تماسكًا تقوده الدول السبع الأقوى فى العالم .

لقد كشر الغربيون فى الوقت الحالى عن أنيابهم ، وكشفوا نواياهم الرأسمالية الكالحة . فبعد أن اطمأنوا إلى أن الشيوعية لم تعد تشكل خطراً يهدد مصالحهم ، طرحوا «عقيدتهم» الجديدة التى تتمثل فى حرية التجارة التى أصبحت تشكل لهم كل شىء لأنها ، بحسب زعمهم ، ستؤدى إلى جلب الثراء لكل البشرية وسوف تحقق جنة الله على الأرض ، لكن كثيراً من الناس تناسوا وعوداً مماثلة قطعها البعض بجعل الدنيا فردوسا عندما كانوا يبشرون بالشيوعية والمساواة المطلقة . الآن عاد الغربيون يبشرون من جديد بذات الوعود ، ويبدو أن البعض منا مازال على استعداد لأخذ الأكاذيب الغربية على محمل الجد .

إن حرية التجارة التى يروج لها الغرب الاستعمارى ، تعنى رفع أو إزالة الحواجز التجارية كافة بما يسمح للسلع والخدمات بالتدفق عبر الحدود دون عائق . وتوصف حرية التجارة على أنها بمثابة تسوية وتهيئة لأرض الملعب ، وهو أمر يفهم من ظاهره أنه يكفل منافسة عادلة للاعبين ، لكن المفارقة تكمن فى تعمُّد تلك الأصوات إغفال الحديث أو الإفصاح عن حجم وقدرات اللاعبين .

ويبدو أن تلك الوعود أصبحت بمثابة عامل مخدر للشعوب ؛ إذ إن دولا فقيرة عديدة أخذت تتحدث عن تهيئة المسرح لتحرير التجارة ، متناسية أنها لا تملك شركات أو مؤسسات عملاقة ولا بنوك ضخمة ، ولا منتجات تؤهلها للمنافسة من خلال عرض بضاعتها فى

الأسواق . ومن الواضح بجلاء أن أولئك الذين يملكون المال والمنتجات هم وحدهم القادرون على فرض سيطرتهم ومنتجاتهم على الأسواق .

إن قضية تحرير التجارة التى لم تكشف أبعادها الخطيرة عند بدايات طرحها ، اكتسبت نوعًا من القدسية عبر الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة (جات) ومنظمة التجارة العالمية . كما وجدت فى الوقت نفسه دعما وترويجًا كبيرين من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ووسائل الإعلام الدولية الخاضعة للسيطرة الغربية . ويلاحظ أن تلك الجهات درجت على تصوير كل معارض لتحرير التجارة على أنه مهرطق وكافر يعمل على عدم اسعاد الفقراء ويسعى لإبقائهم فى حالة دائمة من العوز والفقر والتعاسة . !

لم تكشف الأيام عن الأبعاد الحقيقية المدمرة لحرية التجارة ، إلى أن بلغت حرية الاتجار بالعملات ذروتها بالمأساة التى ضربت فى صيف عام١٩٩٧ منطقة شرق وجنوب شرق آسيا ، ممثلة بالأزمة المالية والاقتصادية الطاحنة . فقد انهارت تلك الاقتصاديات الغنية الناشئة فجأة ودون مقدمات بسبب تخفيض قيمة عملاتها والاتجار بها لجنى الأرباح الطائلة . وزعم التجار المضاربون بالعملات أن النظم الاقتصادية «للنمور» الآسيوية صدئة وفاسدة تلوثها الممارسات القائمة على المحاباةوالمحسوبية ، الأمر الذى تسبب فى تدهور قيمة عملات تلك الدول من تلقاء نفسها .

غير أن الواقع ليس كذلك ؛ إذ وجد المضاربون بالعملات فرصة سانحة لجنى ومراكمة أرباح هائلة من خلال تخفيض عملات النمور الآسيوية . وقد حصد هؤلاء المغامرون مليارات الدولارات فى لمح البصر ، لا لاستثمار أقاموه ولا لرأسمال وظفوه ، بل بواسطة تدمير ثروة بذلت شعوب هذه المنطقة تضحيات جسيمة لمراكمتها عبر عقود عديدة من الزمن .

الأخطر من ذلك ، أن الأزمة المالية الاقتصادية فى بلدان النمور الآسيوية تسببت فى إفقار شعوب تلك البلدان ، وألقت بالملايين منهم فى الشوارع ودفعتهم إلى الركون إلى

أعمال الشغب والتظاهرات والتى تفاقمت واتسعت ، لدرجة أدت إلى مقتل عدد كبير من المواطنين فى مختلف دول المنطقة ، وأطاحت بحكومات بكاملها . ورغم وقوع هذه الأزمة فى صيف عام ١٩٩٧م ، فإن شرائح واسعة من المواطنين الذين كانوا أغنياء قبيل ذلك ، مازالوا حتى يومنا هذا يتخبطون على غير هدى بسبب الفقر وانعدام التوازن والاستقرار .

من الواضح أن تحرير التجارة وما تمخض عنه من مآسٍ غير مسبوقة بمنطقة شرق وجنوب شرق آسيا ، والذى يقف شاهداً لا يدحض على المخاطر الحقيقية لتلك العملية ، لم يكن كافيًا لإقناع بعض الفئات بأن هذه التجربة لا تشكل مطلقاً حلاً للصعوبات الاقتصادية للدول الفقيرة وشعوبها .

وللأسف الشديد ، نجد أن قضية تحرير التجارة بمآسيها التى شهدناها ، قد تم تطويرها تحت مسمى جديد هو (العولمة) التى تعنى عالما دون حدود أو حواجز . ويحاول الغربيون مرة أخرى أن يسوقوا لنا هذه الصيغة (العولمة) على أنها سوق تجلب الثراء لكل الناس فى كل شبر من المعمورة !!

دعونا نقف قليلاً لنتفحص محتويات العولمة . هذه العملية تشتمل من بين جوانب عديدة ، على ممارسة الأنشطة (التجارية والاقتصادية) دون أن تكون للدولة ولاية أو سيادة على إقليمها الجغرافى القطرى الذى يصبح مجرد اسم يطلق على منطقة بعينها على خارطة المعمورة . لذلك فإن الدولة القطرية تصبح عاجزة تماما عن تحصين نفسها وراء حدودها لوقف أو منع جحافل الغزاة القادمين من الدول الغنية ، من أن يدمروا مؤسساتها النامية وبنوكها وصناعتها الناشئة ، إلى أن يتم الإجهاز عليها تماما .

هذا الغزو السافر يتم التمهيد له من خلال الآلة الإعلامية الجهنمية الغربية التى تروج له بالقول : إن احتكار الشركات الأجنبية العملاقة للأنشطة الاقتصادية فى البلدان النامية والفقيرة ، سيؤدى إلى رفع الكفاءة والارتقاء بنوعية المنتجات والخدمات التى يتلقاها مواطنو البلد المستهدف ، وتحسين المستوى المعيشى والحياتى بوجه عام .

نعم ، ربما يتحسن مستوانا المعيشى ، وربما نكسب مزيدا من النقود ، لكننا قطعًا سنصبح خدمًا للأجانب . بيْد أن المأساة لا تكمن فى هذا الجانب فحسب ، فالأسوأ من ذلك أن هذه الأعمال التجارية الضخمة ستسيطر على اقتصادنا تمامًا ، وتزحف فى وقت لاحق لبسط هيمنتها على حكوماتنا . هذه الوضعية سوف تجعل من بلداننا أسوأ من «جمهوريات الموز» ، حيث يكون أصحاب المؤسسات الأجنبية أقوى وأكثر نفوذا من قادة تلك البلدان ورؤساء حكوماتها .

ولا شك أن مالكى هذه المؤسسات العملاقة سيحددون بمفردهم من يحكمنا من قادة ورؤساء حكومات . والسؤال الذى يطرح نفسه : هل يجوز لنا فى هذه الحالة أن نقول : إن بلداننا مستقلة ومكتملة السيادة؟ ! بالطبع لا يمكن لعاقل أن يدعى ذلك ، ولا يمكن له أن يزعم أننا نقرر مصائرنا ومصائر شعوبنا وبلداننا كما نشاء . نحن فى هذه الحالة نكون عمليا قد عدنا القهقرى دورة كاملة لنخضع مجدداً للاستعمار الأوروبى .

فى بداية هذه المحاضرة قلنا إنه متى ما جاء الأوروبيون بفكرة ما ، فإنها لا تعنى غير تكريس هيمنتهم على العالم . وعليه فإن العولمة من بنات أفكارهم ، وسنرى كيف أنها تصب فى اتجاه يكرس إعادة بناء إمبراطوريتهم العالمية . ونشير هنا إلى أن الدول النامية ستدفع ثمنًا باهظا إذا ما استمرت فى الأخذ بكل ما يأتى من أوروبا من رؤى وأفكار دون فحصها بعين بصيرة ناقدة .

وانطلاقاً من حقيقة كونها بلداناً نامية ، فإن الدول الإسلامية كلها ستصير فى يوم من الأيام جزءاً من إمبراطورية شمال الأطلسى إذا ما سارت العولمة بمفاهيمها المطروحة ، والتى نراها ماثلة أمامنا فى الوقت الحالى ، وتقتضى المصلحة أن نقر بأن الصورة مروعة دون أدنى مبالغة ، ذلك أن الدول الإسلامية كافة ضعيفة ولا يوجد بينها من يمتلك الأسباب التى تمكنه من التأثير فى الشئون الدولية . لقد مضى الآن قرن كامل والمسلمون يعانون فى صمت من القهر والاضطهاد . هذه الوضعية المأساوية تنطبق تمامًا على ما يجرى حاليًا فى الأراضى

الفلسطينية المحتلة . فنحن نشاهد يوميا على شاشات التلفاز جنود الاحتلال الإسرائيلى يتصدون بالرصاص الحى للأطفال الفلسطينيين الذين يلقون الحجارة عليهم . فى المقابل نجد أن أكثر من مليار مسلم يقفون مكتوفى الأيدى يتفرجون على ما يجرى فى فلسطين اللهم إلا من مناشدات للمجتمع الدولى واللاعبين الأساسيين على المسرح العالمى ، للتحرك لوضع حد لهذه المذابح . لكن لسخرية القدر ، أن ردود الفعل الصادرة عن تلك الجهات تطالب المسلمين بالتحرك لوقف «العنف» الفلسطينى ، بمنع الأطفال من رشق الإسرائيليين بالحجارة أولاً قبل التحدث عن العنف الإسرائيلى الذى يأتى ، بحسب رأيها ، فى سياق «الدفاع» عن الجنود والمستوطنين الصهاينة ! إنها حالة شاذة كونها تعنى أن رد الفعل الطبيعى لأى جندى أو شخص ما يتعرض للرشق بالحجارة ، أن يضغط على زناد بندقيته ويلقى بالشخص الآخر صريعًا ! ومع ذلك فإن هذه الجهات التى تدافع عن أعمال التقتيل والبطش والتعذيب التى تمارسها قوات الاحتلال الإسرائيلى ضد الأطفال والنساء والشيوخ الفلسطينيين العزل ، تتحدث فى الوقت نفسه وباستمرار ، عن حقوق الإنسان والعدالة وحكم القانون ! !

لقد ركزت فى الشق السابق على الوجه الكالح للعولمة وكيف أنها يمكن أن تكون سببا فى قمعنا والرجوع بنا القهقرى ، لنعود خدمًا للمستعمرين الأغنياء . لكن ذلك لا يعنى بالضرورة أن تنتهى هذه العملية إلى هذه النتائج السلبية فى كل الحالات . بمعنى أن العولمة يمكن أن تكون على عكس تلك الصورة وأن تتمخض عن نتائج تصب فى مصالحنا وخدمة قضايانا كدول إسلامية وبلدان نامية .

ولكى نسخر العولمة لتحقيق مصالحنا وخدمة قضايانا ، علينا أولا أن نشخص ونستوعب تمامًا الكيفية والأدوات التى تعمل بها فى ضوء التفسيرات والمفاهيم المتوفرة عن هذه الظاهرة فى وقتنا الحالى . هذه النقطة حاسمة ومهمة ، ولنأخذ التجربة الماليزية لندلل على أهميتها . فعندما تعرضت بلادنا لهجوم تجار العملات فى صيف عام ١٩٩٧ م ، أغشتنا الصدمة لأننا اكتشفنا فى وقت حرج جداً مدى جهلنا وعدم إلمامنا بالأنظمة المالية الدولية

وكيف يتم الاتجار بالعملات وكيف يتم تحويلها من دون نقل فلس واحد !!

نحن نطالع فى الوقت الحالى أن مئات المليارات من الدولارات يتم تسديدها لشركات من قبل أخريات ترغب فى النمو السريع والتوسع بواسطة الاكتساب (دمج شركات أخرى) . كما نقرأ عن اندماج شركات ومؤسسات عملاقة لتكون عملاقة أكثر من وضعها الذى هى فيه ، لكننا نجهل الكيفية التى يفعلون بها ذلك ، ومن أين يأتون بتلك الأموال الهائلة . هؤلاء المضاربون قد أفلحوا فى إيجاد أساليب وابتكارات أخرى مكنتهم من توظيف مبالغ طائلة من الأموال لخدمة مصالحهم . وإذا كنا نحن على علم مسبق ودراية كافية بهذه السبل والصفقات ، لتسنى لنا لعب دور مماثل وفق القوانين والنظم الخاصة بنا ، ولربما كان بإمكاننا اختراق شبكاتهم على الأقل على النحو الذى تتسلل به الفيروسات ، لشل قدراتهم وحركتهم ، وبث اليأس فى نفوسهم .

وقد يبدو لنا أن هذه الشركات من الضخامة بما يوحى بأنها محصنة ضد أى محاولة استهدافية ، غير أن الحجم لم يكن كافياً فى أى يوم من الأيام لمنع الفشل . هذه المجموعات يمكن أن تفشل مثلما يحدث فى عدد كبير من الحالات ، ويمكن أن تخسر تريليونات الدولارات وتدمر نفسها بنفسها .

إننا نعرف قصة صندوق إدارة رأس المال بعيد الأجل (ال .تى .سى .إم)– صندوق استثمارى طويل الأجل– الذى كان من الضخامة بما يعجز كثيرون عن تصوره ، وكان يتعامل بمليارات الدولارات ، لكنه خسر فجأة . ولولا الدعم الذى وجده من المحسوبين والمنتفعين من داخل الحكومة ، لأطاح بالنظام المالى للأثرياء .

إن البنوك العملاقة والمؤسسات الضخمة يمكن أن تتعرض لأزمة شبيهة بأزمة (ال .تى .سى .إم) إذا لم تكن إدارتها على قدر عال من المهارة والكفاءة . ومما لا شك فيه أن انهيار مؤسسات مالية أو استثمارية أو صناعية بهذا الحجم ، يمكن أن يتسبب فى انهيار واضمحلال دول بكاملها مهما بلغت من القوة .

لقد تمكن المسلمون فى يوم من الأيام من بسط نفوذهم على العالم قبل أن تضمحل حضارتهم وينحسر نفوذهم وتسقط دولتهم . ونتج الاضمحلال والسقوط عن المشاحنات والخصومات التى مزقت وحدة المسلمين ، والتى نتجت بدورها عن الخلافات فى تفسير العقيدة والتعاليم والأحكام الإسلامية . وقد ظلت الحكومات الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامى ، عرضة لهجات وحملات الغلاة المتشددين فى أوساط المسلمين . وتسبب انشغال المسلمين وحكوماتهم بالمعارك الجانبية فى تراجعهم عن مركز الصدارة والريادة وإضاعتهم فرصة الإفادة من الثورة الصناعية التى كانت آنذاك تنمو وتتسع فى أوروبا . وقد تراجع المسلمون وتخلفوا ؛ لأنهم لم يسهموا ولم يشاركوا فى الثورة الصناعية فى أوروبا ، وبالتالى لم يكن بوسعهم الإفادة منها . بمعنى آخر إن تراجع المسلمين عن ركب الأمم ، لم يقتصر على الناحية الكمية بخصوص الثروة والممتلكات ، ولكنه شمل أيضاً تخلف قدراتهم الصناعية وملكاتهم الإبداعية والابتكارية ، إضافة إلى ضعف القدرة على إبداع وتصميم وإنتاج أدوات ووسائل التقدم والتطور . لقد انتهى المسلمون إلى مرحلة اعتمدوا فيها كل الاعتماد على استيفاء حاجياتهم الأساسية وأدواتهم الدفاعية مما ينتجه غيرهم ، بمن فيهم الأعداء .

إننا نشهد فى وقتنا الحالى بزوغ فجر عصر المعلومات فى كل مكان ، لكن يبدو أن المسلمين سيضيعون للمرة الثانية فرصة الإفادة من الثورة المعلوماتية بمثل ما سبق لهم أن فرطوا فى المساهمة والإفادة من الثورة الصناعية وللأسباب نفسها ؛ إذ أنهم مازالوا منشغلين بخصوماتهم الجانبية التافهة ، دون إعارة القضايا والتحديات الجوهرية الاهتمام الذى تستحق .

ومما يؤسف له حقّا أننا كمسلمين نملك قدرات وطاقات لا حد لها ومن شأنها أن تتيح لنا المساهمة فى تطوير تقنية المعلومات وفى تطبيقاتها اللامحدودة ، لكننا مازلنا مكتفين بدور المستهلك .

هناك بالطبع عدد كبير من العلماء والخبراء المسلمين الماهرين والمؤهلين تأهيلاً عاليا فى

مجالات علمية وتكنولوجية متطورة ، غير أنهم يعيشون حاليا ببلدان شمال الأطلسى . هؤلاء الخبراء والعلماء لم يختاروا الإقامة خارج بلدانهم الأصلية طواعية ، لكنهم لم يجدوا البيئة والمناخ الملائمين للبحث العلمى والتقنى ، فاختاروا الهجرة إلى أرض الله الواسعة ، حيث يتوفر ما يفى بحاجاتهم البحثية وتطلعاتهم الإنسانية .

لذلك نجد أن أبناء أمتنا وإخواننا فى العقيدة يساهمون دون اختيارهم فى بعض الأحيان فى بناء الرصيد المعرفى والمهارات ذات الصلة بعصر المعلومات فى بلدان أجنبية قد تلجأ فى يوم من الأيام إلى استخدام تلك الحصيلة المعرفية والتقنية ضد البلدان الأصلية للعلماء الذين أنتجوها .

إن الفرصة على أى حال ، مازالت متاحة أمامنا لإغراء هؤلاء العلماء والخبراء للعودة إلى بلداننا للإفادة من مهاراتهم وإمكاناتهم التقنية العالية فى تطوير وتعزيز قدراتنا فى مجال تقنية المعلومات ، بما يمكننا من مجابهة النتائج السلبية المترتبة على العولمة على دولنا ودرئها .

إن هناك أساليب عديدة يمكن من خلالها العمل سويًا لتوفير الحماية اللازمة لاقتصادياتنا وبلداننا على السواء . بمعنى أننا يمكن أن نبقى على بعض الحواجز والقيود للحد من تدفق السلع والمنتجات التى نرى أنها لا تناسب بيئتنا أو أسواقنا ، إلى حين تكييف وإعداد البيئة المحلية ، بما يمكننا من درء سلبياتها ويمكننا أيضاً أن ندخل التعديلات التى تناسبنا على معنى ومضامين العولمة ، كأن نطلق عليها تعريفا أكثر شمولية يتضمن التأكيد على حقوق مواطنى الدول الفقيرة فى العبور السلس إلى الدول الغنية .

هذه الخطوة ستساهم فى كسر حدة الفقر وتضييق نطاقه فى بلداننا من خلال التحويلات التى يرسلها المهاجرون إلى بلدانهم الأصلية . كما أن زيادة حجم وعدد الجاليات الإسلامية فى البلدان الغربية والغنية ، سيمكن المهاجرين منا من المحافظة على معتقداتهم وثقافتهم ، بما يمكن أن يعزز نفوذهم على مختلف الصُّعد فى بلدان المهجر . وننوه هنا إلى أن الوضع الديموجرافى العالمى سيتغير إلى حد بعيد خلال بضعة عقود ، لن يتمكن أى بلد فى

العالم من المحافظة على النقاء العرقى لسكانه الأصليين ، وهذه نقطة يمكن توظيفها أيضاً لصالح الأمة الإسلامية إذا ما نجحنا فى استغلالها بذكاء .

وهناك وجهة نظر ترى أن العولمة قد تنتهى بفرض المؤسسات العملاقة لسيطرتها على الدول التى تزاول أنشطتها فيها . فى هذه الحالة فإن المهاجرين من الدول الفقيرة بإمكانهم ، إن لم يؤخذوا على حين غرة ، أن يلعبوا دورا ما على الأقل فى إدارة وتصريف شئون الحكم فى بلدان المهجر . كما يمكن أن يتوفروا على الأسباب التى تمكنهم من كبح الاضطهاد والقمع الذى يتعرض له المسلمون فى بقاع العالم كافة .

إن السؤال الجوهرى هو : هل سيتراجع المسلمون ويفقدوا دورهم فى ظل أمة كونية واحدة بعيدا عن الدول القطرية ، بما فيها الدول الإسلامية؟ الإجابة بالإيجاب طبعا . إذا ما اكتفى المسلمون بدور المتفرج على ما يجرى من أحداث وتطورات متسارعة على الصعيد العالمى . ويستحسن فى هذا المقام أن نقف عند بعض الحقائق المهمة ؛ إذ أن تعداد المسلمين فى العالم بلغ فى الوقت الحالى نحو ؛ مليار نسمة ، بمعنى أن هناك شخصا مسلما من بين كل ستة أشخاص فى المعمورة . غير أن المشكلة الحقيقية تتمثل فى تجاهل المسلمين لمبدأ الأخوة الإسلامية . وبينما يسعى غير المسلمين إلى التوحد وتعضيد قوتهم ومنعتهم ، فإننا فى البلاد الإسلامية لا نأبه بمزيد من التمزق والتشتت ولا نعمل شيئا لوضع حد لما يجلب الشحناء والبغضاء بيننا ويوسع الشُّقة بين صفوفنا .

إن المسلمين مواجهون بتحديات ضخمة ومروعة ، ذلك أن تجليات العولمة التى نلحظها بعيوننا حاليًا ، تشكل خطرا وتهديداً على المسلمين ودينهم الذى هو الرسالة المحمدية الخاتمة . إننا مطالبون بألا ننفث غضبنا وإحباطاتنا بالركون إلى أساليب العنف المعزول غير المجدى . وبدلاً من ذلك ، ينبغى علينا أن نلجأ إلى التخطيط وإحداث التنمية على مستوى البلدان الإسلامية ، بما يمكننا من التسلح بتقنية المعلومات وامتلاك القدرات الضرورية لمعالجة التحديات التى يطرحها عصر المعلومات فى كل يوم . هذا هو الجهاد الحقيقى الذى ينبغى

على المسلمين أن يتدافعوا للانضمام لركبه ، وإننى على يقين بأننا نمتلك المواهب والقدرات التى تكفل لنا النجاح فى هذا الجهاد .

لقد تعلمنا من القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى ، لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن نعقل البعير ونتوكل على الله من بعد ، إذا علينا نحن المسلمين أن نسعى بأنفسنا لمساعدة أنفسنا ، وأن نعقل البعير قبل أن نتوكل .

أنا لست الآن فى وضع يسمح لى بالاقتباس من القرآن الكريم والحديث ، ولا حاجة لى بالاستطراد فى جدال حول المعانى الواردة فى الكتاب والسنة ، بما يدعم ما ذهبت إليه فى اتجاه التحرك لمجابهة التحديات التى تفرضها العولمة الكونية على العالم الإسلامى .

وختامًا ، لا بد من أن نؤكد أن مشيئة المولى عز وجل قادرة على أن تعيننا على السيطرة على العولمة وتطويعها بما يمكننا من استعادة العصر الذهبى للأمة الإسلامية .

الفصل الثالث

القوانين الإسلامية في العالم المعاصر *

القانون هو مجموعة القواعد التى يتم الاحتكام إليها ، بما يكفل تحقيق المساواة والعدالة . لكن هناك قوانين رديئة لا تكفل العدالة مثل تلك التى كانت تجيز الاسترقاق وتسمح بمعاملة الرقيق معاملة قاسية . هذه القوانين سيئة السمعة ، تم إلغاء مفعولها مع تطور المجتمعات البشرية ، وحلت محلها قوانين أكثر عدلاً وإنصافاً .

فى وقتنا الراهن تمخضت الأفكار الليبرالية ، عما هو صواب وما هو خطأ وما هو عادل وما هو غير ذلك ، عن تحقيق العدالة لبعض الفئات إلا أنه قد نتج عنها أيضا ظلم وانتهاك لحقوق فئات أخرى . وتأسيسًا على ذلك ، فإننا نجد فى بعض الديمقراطيات الليبرالية أن حقوق الأغلبية يتم تجاهلها والتنكر لها ، فى سبيل حماية حقوق الأقلية ودعمها ، بل حقوق أفراد بعينهم فى بعض الأحيان . وبطبيعة الحال فإن النتيجة دائماً ما تكون صورة زائفة ومشوهة للعدالة والديمقراطية . لقد أثبتت التجارب عبر التاريخ ، أن المبالغة والإفراط فى محاولة إصلاح أى خلل ، تؤدى فى معظم الأحيان ، إلى ردة فعل عنيفة فى الاتجاه المعاكس ، وهو أمر لا يقل خللاً وعيبا .

لقد أصبح مفهوم المساواة فى وقتنا الحالى أقرب ما يكون إلى الحكم الدينى القاطع . فالناس كلهم متساوون فى نظر القانون ولا يجوز معاملة شخص ما على نحو مميز بسبب منزلته الرفيعة أو ثروته الطائلة والعكس صحيح لقد كان المجتمع البشرى صفويًا حتى وقت قريب ولم يكن مبدأ المساواة فيه مسلم به على نحو مطلق . بمعنى أن ملاك العبيد والمخدومين

---

* ألقيت فى السمنار الدولى عن القوانين الإسلامية فى العالم المعاصر ، الذى نظمه المعهد الماليزى للفهم الإسلامى (اى . كى . اي . ام) بكوالالمبور - ماليزيا ، ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م .

كانوا يجدون معاملة متميزة تختلف تماما عن المعاملة التى يلقاها الخدم والعمال .

عقب ذلك ، انعطف اتجاه البندول انعطافًا حادًا ؛ إذ تم تحرير الرقيق ، وبدأ العمال يطالبون بمعاملة تضعهم على قدم المساواة والعدل مع مخدوميهم وتطورت الأمور إلى أن وعى العمال خطورة عددهم ، فتكتلوا مشكلين قوة لا يستهان بها . وعندما وصل الشيوعيون إلى الحكم خطوا خطوة أبعد من ذلك ؛ إذ استولوا على ممتلكات الأثرياء من المخدومين وقتلوا معظمهم ، فيما أخضعوا الباقين لمعاملة مذلة لكرامة الإنسان ، وبعيدة كل البعد عن روح المساواة والعدالة . هذه التطورات أوضحت بجلاء أن السعى إلى انصاف العبيد والعمال قد انتهى إلى إلحاق الظلم والجور بفئات أخرى .

ربما يقول قائل إن ما سقناه ما هو إلا عدالة شاعرية ، لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئا ، فالظلم ظلم أينما وجد ومهما كان . إن نزوع الضحايا نحو الانتقام ممن سبق أن ساموهم العذاب والذل ، قوى جدًا ، إلا أن هذا لا يغير من طبيعة الظلم حتى لو لحقت بإنسان ظالم .

إن المبدأ يقتضى بالطبع أن نوفر العدالة لكل الناس دون تمييز حتى للذين يمارسون الظلم . ومن الواضح أن الإنسان لم يتعلم منهم مقومات العدالة ، ونتيجة لذلك فإن الظلم بين المجتمعات البشرية لن يختفى من على وجه المعمورة ، ويعود السبب فى ذلك إلى اختلاف مفهوم العدالة والمساواة نفسه من مجتمع لآخر باختلاف ثقافات الشعوب . ذلك أن ما يبدو عادلاً وفق قوانين بعينها فى مجتمع ما ، قد يبدو مجافيًا تمامًا للعدالة والمساواة فى قوانين ونظم أخرى . ومع ذلك فإن فى العدالة جوانب عالمية مشتركة بين الشعوب المختلفة بثقافاتها ، وعاداتها ، وموروثاتها المتميزة ، فعلى سبيل المثال ، إنزال العقاب بالمجرم أمر شائع ويعتبر عين الصواب فى كل المجتمعات ، بينما تعتبر معاقبة الضحية ظلم ما بعده ظلم أينما وجد وبمقتضى أى قانون .

لقد جاء سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم برسالته من المولى عز وجل إلى مجتمع كان بكل المقاييس يقوم على القمع والعسف والظلم ، حيث كان العبيد يعاملون

بقسوة وكأنهم ليسوا بشراً . وكانت البنات يتم وأدهن وهن أحياء ، فيما كانت النساء يعاملن معاملة القطيع ، وكان من حق الرجل أن يتزوج بمن يشاء وبأى عدد وأن يهجر من يشاء دون نفقة أو دعم . إلى جانب ذلك كان الأغنياء يضطهدون الفقراء وكانت الخلافات الشخصية تتحول إلى حروب قبلية لا نهاية لها ، حيث يأكل القوى الضعيف بصرف النظر عن الصواب والخطأ والعدل والظلم .

حمل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى هذا المجتمع بكل تخلفه وجهله وقمعه وحروبه ، شريعة المولى سبحانه وتعالى ، وكذلك المعانى والمفاهيم الحقيقية للعدالة والمساواة . وقد أولى القرآن الكريم ، ومن بعده السنة النبوية اهتماما خاصًا بالعدالة ورفعا من شأنها إلى أسمى الدرجات . وتنص التعاليم الإسلامية بوضوح على تحريم وعدم جواز أى عمل أو فعل يكون من نتائجه الظلم . هذا هو جوهر القوانين الإسلامية وهذه هى العدالة التى نادى بها ديننا الحنيف .

إن الدين الإسلامى لم يعر فى يوم من الأيام القضايا والجوانب الشكلية أهمية أبدا على حساب الجوهر والمعانى الحقيقية لكل الممارسات والشعائر . ذلك أن الكيفية التى نؤدى بها صلواتنا لم تكن من الأهمية فى شىء فى يوم من الأيام مقارنة بالنية والإخلاص فى أداء هذه الشعيرة . بمعنى أن أداء الجوانب الشكلية فى الصلاة مثلا من حركات ووقوف وغيره ، يمكن القيام بها متى ما كان ذلك ممكنًا ، لكن إذا كان الظرف لا يسمح ، فى حالات المرض والسفر والموانع المرتبطة بالزمن وغيرها من الظروف الأخرى ، فإن الجوانب الحركية يمكن اختصارها أو تقليصها أو إلغاؤها تمامًا فى بعض الأحيان . لكننا للأسف نجد أن عدداً كبيرا من المسلمين يؤمنون بالجوانب الشكلية فى الإسلام أكثر من إيمانهم بجوهره . فعلى سبيل المثال اهتم الإسلام بمفهوم الأخوة الإسلامية ونص صراحة على مراعاته والحرص عليه ، لكن الغالبية العظمى من المسلمين لا تعدم حيلة لتوفير كل الأسباب التى تؤدى لإهمال وتجاهل هذا المفهوم . فى الواقع كثيرا ما يهتم المسلمون بالخلافات الصغيرة التافهة بين بعضهم بعضا

ويستندون إليها فى تكفير خصومهم فى الرأى والفكر بما يكرس روح العداء بينهم واسقاط مفهوم الأخوة الإسلامية .

نحن نعلم تمام العلم أن القرآن الكريم يشتمل على أحكام وأوامر إلهية محددة لا تترك مجالاً للتأويل أو سوء التفسير . لكن فى الوقت نفسه نجد أن القرآن يتخذ من ضرب الأمثال والعظات والقصص أسلوبًا ليرشدنا إلى الطريق القويم من خلال الاتعاظ بتجارب الأمم السابقة ، وهو أمر يؤدى إلى تفسيرات مختلفة لبعض النصوص . ونحن نعلم أيضًا أنه حتى الأحكام والأوامر الإلهية المحددة ، قد وردت مقيدة ومشروطة فيما عدا تلك المتصلة بالعدالة والتى وردت بصيغ مطلقة تضع العدالة فى مراتب رفيعة وسامية ، مما يعكس مكانتها فى الإسلام . لكن لسوء الحظ فإن بعض إخواننا المسلمين يقدسون الجوانب الشكلية ولا يولون العدالة المكانة والاهتمام اللتين تستحقهما . هذا التبجيل والاهتمام بالشكل يقود إلى اعتبار الظلم عدلا طالما استوفيت الشروط المتصلة بالشكل ، مما يجعل العدالة الإسلامية تبدو فى نظر كثيرين من الناس قاسية ومجردة من الرحمة .

المشكلة الأخرى التى تواجه الملتزمين الداعين إلى تحكيم مبادئ العدالة الإسلامية ، تتمثل بالنزوع إلى خلط القيم والثقافات القبلية العشائرية بالإسلام . لتوضيح ذلك ، قد حدث مؤخرا أنَّ امرأة ما كانت على علاقة غير شرعية برجل ما أرغم على الزواج منها لكنه طلقها لاحقًا . ولدى عودتها إلى منزل ذويها رأى شقيقها فى عودتها عيبا ما بعده عيب على الأسرة يستوجب إزهاق روحها . ونفذ ذلك بمفرده دون وجه حق . هذا السلوك لا يستند إلى أى مبرر قانونى ولا يجيزه الإسلام على الإطلاق ؛ لأن ديننا الحنيف ينهى عن قتل النفس التى حرَّم الله قتلها إلا بالحق . لكننا نجد أن الانطباع الذى يخرج به عامة الناس هو أن تصرفه هذا متفق مع التعاليم الإسلامية . نحن بالطبع لا يمكننا النظر لهذه الحادثة إلا فى سياق منظومة القيم التى كانت سائدة فى فترة الجاهلية والتى تئد البنت فى صغرها لإغلاق الباب الذى يمكن أن يأتى منه العار على الأسرة والقبيلة .

ويبدو أن عدم الاهتمام بتصنيف وتنظيم القوانين الإسلامية وتدوينها ، ومن ثم تطبيقها على نحو دقيق يكفل العدالة ، قد فتح الباب لتفسيرات عديدة وتأويل يتناقض فى بعض الأحيان ، مع جوهر العقيدة الإسلامية . نحن فى ماليزيا ، كان لنا شرف السعى لتدوين وتطبيق الأحكام والقوانين الإسلامية ذات الصلة بالأنشطة والممارسات الاجتماعية . لكن نظرًا لطبيعة المجتمع الماليزى القائم على التعددية العرقية والدينية ، فإن صعوبات وعقبات جمّة حالت دون استكمال هذا الجهد . ومع ذلك فإن القوانين المعمول بها أساسا فى البلاد ، ليست من جنس تلك القوانين التى تتناقض مع مبادئ القوانين الإسلامية والعدالة الإسلامية . صحيح أننا قد نجد اختلافًا فى العقوبات ، غير أن المبادئ العامة للقوانين لا تختلف عن المفهوم الإسلامى .

وحرىٌّ بنا أن نوضح أن القوانين الإسلامية ليست مرفوضة من قبل الحكومة الماليزية ، لكن هناك إجماع واسع على أن تطبيقها على نحو كامل فى ظل الظروف السائدة حاليا فى البلاد ، غير ممكن . أما إذا نظرنا إلى تجربة بعض البلدان الإسلامية ، فنلاحظ بوضوح أن القوانين الإسلامية ليست مدونة ولا مطبقة على الأقل على نحو متكامل . ومن الواضح أيضاً أن هناك شبه استحالة فى أن نعثر على تجربة عملية متكاملة فى مجال تدوين وتطبيق القوانين الإسلامية فى تلك البلدان .

هذه الخلفية تجعل من الصعوبة بمكان تحديد الجوانب الإجرائية التى يتم اتباعها فى مراحل نظر الدعاوى القضائية وما يترتب عليها من تطبيق وتنفيذ للقوانين الإسلامية .

نتيجة لذلك نلاحظ أن بعض الاعتقالات فى بلدان إسلامية على سبيل المثال ، طالت أناسًا من بينهم أجانب ، لكنها تمت على نحو عشوائى بعيدا عن سلطان القانون والحكم الشرعى . بعبارة أخرى فإن القوانين الإسلامية ذات الصلة التى تم الاستناد إليها لتبرير الاعتقالات لم تحدد ، ولم يبلغ المتهمون بكنهها وماهيتها . ومما لاشك فيه أن ماصدر من أحكام بحق المعتقلين ومن قبلها التحقيق والاستجواب ، لم تستند إلى نظام إجرائى واضح

القسمات .

ونحن لا نستبعد أن يكون قاضى المحكمة التى أصدرت الأحكام ، قد استند إلى أى نص قانونى أو أى كتاب بهذا المجال ، أو ربما اعتمد على القرآن والسنة ، غير أن الإجراءات التى اتبعت فى المحاكمة غير واضحة ولا تساعد الدفاع الذى هو الطرف الآخر فى المعادلة ، على إعداد مرافعته . ربما يعود ذلك ، وكما ينبغى أن يكون ، إلى أن القوانين الإسلامية تستند مباشرة إلى القرآن والسنة ، غير أن هذين المصدرين يثيران تفسيرات مختلفة باستمرار . نحن لا نستبعد أبدا أن يطرح قضاة مختلفون تفسيرات مختلفة وربما متباينة فى دعوى واحدة ، مما يؤدى إلى اختلاف فى الأحكام التى تصدر بحق المتهمين فى ذات الدعوى ، مع ملاحظة أن العدالة تقتضى ألا تختلف العقوبات التى تصدر ضد متهمين ارتكبوا الجرم نفسه . أما فى حال صدور أحكام متباينة بحق متهمين ارتكبوا الجرم نفسه ، فإن التساؤل الذى يطرح نفسه هو : هل تنسجم تلك الأحكام مع العدالة الإسلامية وتتوافق معها؟

تلك الخلافات التى تقود إلى الظلم ومجانبة العدالة ، كانت كافية لحمل ماليزيا على تدوين وتصنيف مجموعة القوانين الإسلامية ؛ لأن الاختلاف فى تفسير النصوص القرآنية والأحكام الشرعية أمر شائع بين المسلمين . بمعنى أن هناك اختلافات بين السنة وبين الشيعة فى فهم وتفسير التعاليم والأحكام الإسلامية ، وهناك اختلافات بين السنة أنفسهم فى تفسير بعض القضايا مثلما هو الحال لدى الشيعة ؛ لأن الطائفتين تنقسمان إلى مدارس وفرق بحسب آراء الأئمة فى كل طائفة .

واستنادا إلى ذلك ، فإن تدوين وتوحيد القوانين الإسلامية سيؤدى إلى تضييق أوجه الاختلاف بين الطوائف والمدارس الإسلامية إلى حدها الأدنى ، بما يكفل عدم وجود اختلافات بين أتباع الطائفة الواحدة أو المذهب الواحد على الأقل ، حول الأحكام الإسلامية .

إن التجربة الماليزية فى مجال تدوين القوانين الإسلامية تكشف تمامًا مدى الصعوبات التى تعترى محاولات إيجاد نسق معيارى فى التعاليم والأحكام الإسلامية . ذلك لأن الشئون

الدينية الإسلامية فى البلاد ليست من اختصاص الحكومة الاتحادية ، بل هى جزء من السلطات الخالصة لسلاطين الولايات . وبالرغم من أن الملايويين الذين يشكلون السواد الأعظم من المسلمين فى البلاد ، من السنة ويتبعون المذهب الشافعى ، فإن الولايات المختلفة تطبق قوانين إسلامية مختلفة ، بل متناقضة فى بعض الأحيان . هذه الاختلافات بين الولايات وفى بلاد واحدة ، مهمة لدرجة أنها تدفع مسلما إلى الهرب من ولايته واللجوء إلى ولاية أخرى لتفادى تطبيق قانون إسلامى بعينه . لقد بذلت ماليزيا جهودا مقدرة لإيجاد صيغة معيارية للقوانين الإسلامية فى ولاياتها المختلفة ، غير أن هذه الجهود لم تحقق نجاحًا كاملا .

وعليه ، إذا كانت القوانين الإسلامية التى تحكم أناسًا من طائفة واحدة ومدرسة واحدة وفى ذات البلاد ، لا يمكن توحيدها فى نسق معيارى واحد ، فما مدى صعوبة توحيد القوانين الإسلامية فى كافة بقاع العالم ، أو حتى لأتباع طائفة واحدة من المسلمين فى المعمورة؟ ! يبدو أن هناك حاجة ملحة لأن يجلس المسلمون من كل الطوائف مع بعضهم بعضًا ليقارنوا ما بين أيديهم من نصوص وقوانين إسلامية وكيفية تطبيقها فى البلدان الإسلامية كل على حدة .

إذا تناولنا الأمر بمزيد من الدقة ، يجب أن تؤدى الأمور إلى رأس الدولة فى البلاد أو الشخص المسئول عن إدارتها ، باعتباره المرجع الذى يفصل فى القضايا على نحو نهائى . وإذا نظرنا إلى العهد الإسلامى الأول لوجدنا أن سيدنا محمدا – صلى الله عليه وسلم – كان الحكم فى كل شئ ، أو على الأقل المرجع الذى يؤول له القول الفصل . وينص القرآن الكريم صراحة وعلى وجه التحديد ، على وجوب طاعة المسلم لولى الأمر بما فى ذلك القبول بسلطته فى البتّ فى المنازعات ، وما يصدر عنه من أحكام ضد المذنبين . لكن باتساع الأمصار الإسلامية وزيادة عدد المسلمين ، أصبح هناك استحالة عملية فى الرجوع للحاكم فى كل القضايا القانونية ، فظهرت فكرة القضاة الذين يتم تفويضهم من المركز للبتّ فى قضايا الناس .

ترتبت على هذا التطور نتائج مهمة على صعيد الجوانب التطبيقية فى القوانين

الإسلامية وصلتها بالعدالة الإسلامية ، فبينما كان من غير الممكن أن تصدر عنه أحكام متباينة في معالجة قضايا متماثلة ، نجد أن القضاة صاروا ينتهون إلى أحكام مختلفة في قضايا متشابهة ؛ لأن كل واحد منهم ينطلق من تقييمه الشخصي للحالة التي ينظر فيها وبالتالي أصبحت تصدر عن القضاة في الأمصار الإسلامية أحكام مختلفة في معالجة جرائم متطابقة تمامًا في طبيعتها ، وهو أمر مجحف غير ملائم لمفهوم العدالة الإسلامية .

من الواضح أن هناك حاجة ملحّة لجمع القوانين الإسلامية وتنسيقها وتدوينها بهدف توحيدها والوصول إلى صيغة معيارية في الجوانب الإجرائية المتصلة بتطبيقها ، إضافة إلى توحيد العقوبات التي تصدر في الجرائم المتشابهة . إن العدالة الإسلامية كما حددها القرآن الكريم والسنة النبوية لا يمكن أن يقال عنها أنها غير عادلة أو غير نزيهة . لكن الحقيقة هي أن مظاهر الضعف البشري هي التي أفسدت القوانين وشوهت العدالة وهو ما يحاول الناس إغفاله .

مهما يكن من أمر ، وبصرف النظر عن الأسلوب الذي يتم به تطبيق القوانين الإسلامية ، فإن المسلمين والبلدان الإسلامية في ظل عالمنا المعاصر ، لا يمكن أن يكونوا معزولين عن الشعوب والبلدان الأخرى ، وأن الحاجة تقتضي أن نوضح للآخرين بكل جلاء أن القوانين الإسلامية عادلة بطبيعتها ، وأن تطبيقها يتم على نحو عادل ونزيه . ربما يقول قائل : إن القوانين الإسلامية قد لا تتطابق تمامًا مع التفكير الليبرالي الحديث ، بيد أنها يمكن أن تتفق وتتناغم مع المفاهيم العالمية للعدالة . صحيح أن القوانين الإسلامية لا يمكن أن تتغاضى عن الشذوذ الجنسي ، الذي لا يعد مخالفًا للقوانين في المجتمعات الغربية ، بمعنى أن الإسلام يعالج قضية الانحراف الجنسي على أنها جريمة يعاقب عليها القانون حتى لو اعتبر الغرب ذلك منافيًا لحقوق الإنسان ومنافيًا للعدالة . غير أن العدالة الإسلامية لا تختلف عن العدالة الغربية عندما تتعلق المسألة بمعاقبة المجرمين وإنصاف المظلومين ، لا يمكن للإسلام بالطبع أن يعاقب مظلوما ويترك للمجرم فرصة الإفلات من العقاب .

هناك طائفة من المسلمين ترى ، أنه إذا اقتضى تنفيذ القوانين الإسلامية إنزال العقوبة بالضحية فى ظل إفلات المجرم من العقوبة ، فإن هذا يعتبر أيضًا نوعًا من العدل . بمعنى أنه إذا تعرضت امرأة للاغتصاب لكنها لم تتمكن من إثبات التهمة على الجانى بشهود ، فإنها تعتبر مذنبة بارتكاب الزنى إذا حملت .

وفى هذه الحالة فإن المذنب لا يمكن محاكمته بالطبع إلا بشهود الإثبات ، فيمضى طليقاً دون عقوبة ، بينما تنتهى المرأة إلى القتل بالرجم ؛ لأن الشريعة الإسلامية تقضى برجم الزانى والزانية بالحجارة .

فى نظر عدد كبير من المسلمين يمكن أن يكون هذا مناقضا للعدالة ، إلا أن البعض الآخر يرى فيه العدل كله على نحو أو آخر ، نظراً لأنه حدٌّ من الحدود التى أتى بها الإسلام . هؤلاء لا يقيمون وزنًا لتشديد الإسلام على ضرورة التزام العدل فى كل الأمور ، ويعتبرون ذلك أمراً لا يستحق حتى مجرد التفكير فيه ، طالما تمَّ استيفاء الإجراءات الصحيحة فى المحكمة ، وأن الأحكام الصادرة كانت نتيجة لتلك الإجراءات .

وعندما يفسر المسلمون التعاليم الإسلامية على هذا النحو ، فإن ديننا الحنيف يبدو فى نظر غير المسلمين وحتى غالبية المسلمين ، غير عادل ولا منصفًا ، ومجردا من الرحمة والتسامح . ومع ذلك فإن المشرعين الذين يذهبون لمثل هذه التفسيرات المشتطة ، يُنظر إليهم على أنهم فى موقف صائب ، لا لسبب سوى أنهم يتمسكون بمواقفهم المتزمتة إزاء القوانين الإسلامية دون النفاذ إلى جوهرها .

ولا شك أن استدعاء الحالات التى يمكن أن تخفف من الغلواء فى مفهوم بعض الناس للقوانين الإسلامية وتسهم فى تحقيق العدالة الإسلامية الحقيقية ، من شأنه أن يتسبب فى فتور حماسة بعض الناس لعقيدتهم . كما أن غُلاةَ المتشددين لن يترددوا فى إدانة أى محاولة لتخفيف المواقف المتعصبة إزاء هذه القضية ، حتى لو كانت تهدف إلى تقديم الإسلام للآخرين على أنه أكثر عدلا من الصورة المشوهة المرسومة عنه . هذه الفئة من المسلمين تنطلق

من موقف متطرف مؤداه أن المؤمنين الحقيقيين ينبغى أن يتجاهلوا آراء ومفاهيم غير المسلمين فى كافة ما يتصل بالتشدد فى التمسك بالأحكام والأوامر التى أتى بها الإسلام . وهؤلاء لا يمكن أن يخطر ببالهم أبدا أن تفسيرهم للإسلام يمكن أن يجانب الصواب أو يحيد عنه . إنهم يؤمنون تماما بأن إلحاق مزيد من العقوبات والمعاناة بأنفسهم وبالآخرين ، من شأنه أن يقوى ويعمق عقيدة المسلم وإيمانه . كما أنهم يفسرون أية محاولة لتحدى وجهات نظرهم ومناقشة مواقفهم المتزمتة ، على أنها ضعف فى الإيمان بالعقيدة .

إن الدين الإسلامى هو العقيدة التى حملت العدالة للعرب الوثنيين فى الجاهلية وأقامتها ونشرتها بينهم ، مما أقنع القبائل العربية باعتناق الدين الإسلامى بعد أن تبين لهم مدى سفاهة عبادة الأوثان . وكان النبى عليه أفضل الصلاة والسلام- قدوة ومثالا أعلى للعدل ؛ إذ لم يرفض وجود وسريان قوانين أخرى فى ظل سريان القوانين الإسلامية . لذلك عندما اعترف يهوديان بممارسة الزنا ، قضى بقتلهما ؛ لأن القوانين اليهودية تنص على ذات العقوبة لهذا الجرم ، بمعنى أنه حاكمهم بقوانينهم .

توخّى سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – الحذر والحيطة فى مناسبات كثيرة ، ولم يتعجل إنزال العقوبة ببعض المذنبين إلى أن يثبت بالدليل القاطع الذى لا يدانيه شك ، أن المتهم قد اقترف ما نسب إليه من ذنب . هذا الحذر يدل دلالة كافية على أن الرحمة متأصّلة ومتجذرة فى نفسه الكريمة . وليس بمستغرب أن العرب الوثنيين تدافعوا زرافات ووحدانا لاعتناق الإسلام الذى جسّد لهم قمة العدالة التى كانوا يفتقرون إليها فى مجتمعاتهم .

وينبغى أن نشير فى هذا المقام إلى أن الصِّرب المسيحيين فى أوروبا الشرقية قد قبلوا الحكم الإسلامى التركى ؛ لأنه خلصهم من بطش حكامهم الطغاة وسادتهم المتسلطين المتجبرين وقمعهم . وقد سمح الأتراك المتصرون للفلاحين بتلك المناطق بامتلاك وفلاحة أراضيهم لقاء دفع الضريبة المعهودة . وينسحب هذا الموقف على الأمصار الإسلامية التى كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون فيها إلى جوار بعضهم بعضا فى مساواة تحت راية

القوانين الإسلامية . وعندما استعاد المسيحيون الكاثوليك إسبانيا وطردوا المسلمين من الأندلس ، فإن اليهود والمسلمين الذين بقوا هناك ، خُيِّروا بين خيارين لا ثالث لهما : إما الارتداد باعتناق المسيحية أو الطرد . ومن المواقف المشهودة التى تدل على سماحة الإسلام والمسلمين ، أن اليهود اختاروا الهجرة للإقامة مع المسلمين فى بلدان المغرب العربي بدلا من البقاء بإسبانيا فى ظل حكمها المسيحى . وإلى يومنا هذا فإن أكثر من مليون يهودى يعيشون فى المغرب .

غير أن المسلمين اليوم ومنهم الماليزيون ، صاروا أقل سماحة واعتدالا ولا يراعون وجهات نظر الآخرين وحقوقهم ، لدى ممارسة التعاليم الإسلامية وتطبيقاتها ، وكأن الواحد منهم لن يكون مسلما حقًا ما لم يتشدد فى تطبيق القوانين الإسلامية ويبدو أن الفئات المتشددة تميل إلى مزيد من التشدد والتزمت حتى فى الحالات التى يسمح فيها الإسلام بإبداء المرونة هذا . مفهوم يقوم على أن المسلم لا يكون مسلما ومؤمنًا حقاً ما لم يكن أكثر تشددا وتعصُّبًا .

لقد أدت المنافسة السياسية بين الجماعات الإسلامية المختلفة إلى التشدد فى تفسير التعاليم والأحكام الإسلامية ، معياراً للحكم على مدى عمق الإيمان والالتزام بالإسلام لدى الطرف المناوئ . وقد بلغ الأمر ببعض الناس إلى تفسير أى مؤشر على التسامح والمرونة فى بعض القضايا ، على أنه ضعف فى الإيمان بالعقيدة الإسلامية . كما بلغ الأمر بفئات أخرى أن تتعمد النقل والتفسير الخاطئ لإظهار نفسها بأنها أكثر تمسكًا والتزاماً بالإسلام من الفئة الأخرى . وقد انتهت محاولات الطوائف والمجموعات المتنافسة للقدح بإيمان والتزام بعضها بعضًا بالعقيدة ، إلى إظهار الإسلام وكأنه دين يقوم على التعصب والتطرف ولا علاقة له بالتسامح . ونتيجة لذلك ، أصبح الإسلام الذى اهتم بالعدالة أيما اهتمام ورفع من شأنها إلى أعلى الدرجات ، يبدو فى نظر الآخرين على أنه دين قمعى لا مجال فيه للرحمة .

لقد أضحى الإسلام مختلفا تماما اليوم عن دين الرحمة والتسامح والسلم الذى أتى به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . كما أصبح الإسلام فى نظر المؤمنين وغير المؤمنين نموذجا

للتطرف والتعصب والتشدد وعدم التسامح وانتهاك العدالة ، بسبب الصورة المشوهة التى يعكسها عنه المتطرفون وأصحاب الغلو والمصالح الشخصية .

نتوقف هنا لنقول بملء أفواهنا ، إنه إذا ما أُريد للإسلام أن يستعيد صورته ومكانته كدين قائم أساسًا على العدل والمساواة ، فعلى المشرعين المسلمين أن ينظروا مجددا ويتمعن فى معنى التفسيرات الصحيحة القديمة للتعاليم الإسلامية ، وخاصة المرتبطة منها بالعدالة ويسبروا جوهرها . وأنا على يقين لا يدانيه شك بأن الإسلام يكفل العدالة ويدعمها ، وإذا ما بدا عكس ذلك فى أى وقت من الأوقات ، فإنَّ الخطأ والعيب لا يكون فى الإسلام ، بل فى القائمين عليه وفى المسلمين بوجه عام .

الفصل الرابع

مستقبل المسلمين في القرن الحادى والعشرين *

القرن الحادى والعشرون فى الأساس ، ما هو إلا محطة زمنية قائمة على التقويم الجريجورى المسيحى ، لكن ينبغى ألا يمنعنا ذلك من اعتماده كحدث يمثل مرحلة من مراحل التاريخ المهمة فى حياة البشرية ، وننطلق منه لتقييم أحوال المسلمين وأوضاعهم فى وقتنا الحاضر ونحاول استشراف ما يمكن أن يكون عليه حالهم فى المستقبل . وينبغى علينا فى الواقع أن نجعل من بداية هذا القرن سببًا يستوقفنا لإعادة النظر فى أنفسنا وإعادة فحص الاتجاه الذى اتخذناه هدفًا لمسيرتنا .

فإذا نظرنا قليلاً إلى الوراء وتأملنا ما كان يجرى عند بزوغ فجر الألفية الثانية تحديدا ، لوجدنا أن المسيحيين كانوا آنذاك يتوقعون قيام يوم الحساب ، فى وقت كان المسلمون يعيشون أزهى حالاتهم بتصدرهم قائمة الريادة وإنتاجهم واحدة من أعظم الحضارات فى العالم .

كان المسلمون وقتها يمثلون القوة العظمى فى العالم ، وكان قادتهم هم قادة المجتمع الدولى ، وكانت مدنهم تفخر بأنها من أشهر العواصم من ناحية التجارة والمعرفة ، وكان علماؤهم ودارسوهم يعدون أفضل من ملكوا ناصية العلم والمعرفة ، ولا يقلون درجة عن العبقريات الفذة التى برزت فى الغرب . كان العالم الإسلامى يمثل مركز النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى العالم . لقد كان ابن سينا(٩٨٠-

* ألقيت فى لقاء جمعه بالمثقفين والمهنيين المسلمين فى لندن فى ٣ أكتوبر ٢٠٠٠م .

١٠٣٧) طبيب وفيلسوف زمانه ، فيما كان ابن الهيثم أعظم طبيب وفيزيائى مسلم حاز الريادة فى علوم البصريات ، كما شكلت القواعد التى أرساها فى هذا المجال أسس علوم الفضاء الحديثة . أما الألفية الثانية فقد كانت زمن البيرونى (٩٧٣-١٠٤٨) المؤرخ الرياضى وعالم الفلك العربى الذى ربما كان أفضل علماء الفلك فى زمانه ؛ إذ قال : «إن الأرض تدور حول محورها» ، والشىء نفسه ينطبق على أبى القاسم الزهراوى (٩٦٣-١٠١٣) الذى يعد أفضل الجراحين العرب ؛ لأنه ابتكر آلات جراحية عديدة وأتى بالعجائب فى مجال الطب والجراحة .

التساؤل الملح هو ؛ أين صنائع وإنجازات المسلمين اليوم مقابل هذه الصفحات الناصعة المليئة بأمجاد غير مسبوقة حققها أسلافنا فى العصر الذهبى للأمة الإسلامية؟ إننا نبدو عاجزين تماما عن إنتاج مثل أولئك العظماء من جديد أو تحقيق ما أنجزوه من أمجاد . لدينا بالطبع قادة سياسيون ، لكنهم لم ينجحوا فى إقامة دول عظمى ، ناهيك عن إنتاج حضارات عظيمة من ذلك القبيل . إنهم قادة لم يشتهروا إلا بما يجلبوه من جدل مثير ، ولن يتركوا ذكرى فى أذهان شعوبهم بمثلما نجد من ذكرى عطرة وحية لأولئك العلماء والدراسين المسلمين الذين مازالت الأمة الإسلامية تعيش على ما تركوه من أمجاد ومساهمات من أجل إسعاد البشرية .

وعندما نتأمل كيفية اضمحلال وسقوط أعظم إمبراطوريتين إسلاميتين فى التاريخ الإسلام ، لا يمكننا أن نلقى بالا كبيرا للقوى الخارجية بقدر ما علينا أن نتوقف عند ما أصاب هاتين الإمبراطوريتين من فساد وانحراف ، ذلك أنه منذ عهد انشقاق الخوارج على سيدنا على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وانتهاء بعصرنا الحاضر ، فإن من يحتكرون الإسلام ويزعمون أنهم يمثلون الفئة الناجية الوحيدة دون غيرهم ، لا ينفكون يدبجون الخطب التى تدين التيار الغالب فى صفوف المسلمين وتصنفهم على أنهم غير مسلمين أو غير ملتزمين بأمور دينهم فى أحسن الأحوال . هذه

الفئة بلغت مبلغا من الشطط لدرجة دفعتها إلى إلصاق تهمة الكفر بسيدنا علي- كرم الله وجهه ، وشنت عليه أعنف الحملات .

وفي وقت لاحق من التاريخ الإسلامى نجد أنه ما من مجتمع إسلامى أو دولة بعينها بدأت سعيًا حثيثاً لإحداث التنمية وامتلاك المعارف والمهارات المختلفة لتعزيز قدراتها ، بما يوفر لها إمكانية حماية الأمة الإسلامية ، إلا وثار الجدل الدينى العنيف والخلافات الحادة حول توجهها الجديد ، الأمر الذى يؤدى إلى صرف العقول وتبديد طاقات المجتمع من خلال الانجرار وراء حملات الدفاع عمن يسمون أنفسهم بالمسلمين التقدميين فى مواجهة هجوم السلفيين . وحتى إذا كان أعداء الإسلام يقفون على الأبواب ، فإن المسلمين لن يجدوا حرجا فى تصعيد الخلافات والصراعات التى تعصف بمجتمعهم ، وهى صراعات لم ينجحوا على مدى التاريخ فى حلها .

إنَّ الجدل العنيف لن يتوقف أبداً ؛ فالطرفان وربما غيرهم فى بعض الأحيان ، ينضمون إلى ذلك الجدل العقيم ويقتبسون من القرآن والحديث وكتابات وتفسيرات وأقوال عدد من العلماء المرموقين فى الماضى والحاضر . ومهما يكن من أمر ، وبغض النظر عن المصدر الذى يقتبسون منه ، لن يكون هناك إجماع فى يوم من الأيام على تفسير بعينه ، أو طريقة بعينها فى أداء العبادات يمكن اعتبارها تمثل طريق الإسلام القويم والصحيح . وعندما تتسع دائرة الجدل الرسمى وغير الرسمى فى الخطب والأحاديث والمحاضرات وفى عناوين الصحف ومواقع المجلات فى الإعلام الإلكترونى والإنترنيت ، فإن الدفاع عن المسلمين وبلدانهم والدفاع عن الأمة فى مواجهة المجدفين وأعدائها الحقيقيين ، سينتهى إلى الإهمال والنسيان .

وهكذا نلاحظ أن انشغال المسلمين بخلافاتهم بين بعضهم بعضًا واندفاعهم باتجاه تصعيدها ، غالبًا ما يقودهم إلى الاستعانة بالكفار للقضاء على أعدائهم من

إخوانهم المسلمين ، ويمكننا أن نجزم أن كل الفرق المتحاربة ، أو المتخاصمة فى أوساط المسلمين دون استثناء ، لن تجد حرجًا فى أن تربط نفسها بالتزامات مع حلفائها من غير المسلمين ، وتكون رهن إشارتهم فى كل الأمور .

ومما يؤسف له حقًا أنه بعد مرور ١٤٠٠ عام من الهجرة ، مازال المسلمون منغمسين فى جدل عقيم لا متناه عما إذا كان يجب قطع رأس المرتد . ورغم أننا لن نستطيع عمليا تنفيذ تلك العقوبة بحق المرتد ، إلا أنه لابدَّ للجدل والخلافات من أن تستمر لإحداث مزيد من الفرقة فى صفوف المسلمين وتصعيد الاتهامات بين بعضهم بعضا ، والركون بصفة خاصة إلى محاولات التكفير بين مختلف الطوائف . وإذا كانت تلك الفرق والطوائف التى تدعى احتكار الإسلام ، على حق فيما تذهب إليه من تكفير بعضها بعضا ، فيمكن الاستنتاج أنه لا يوجد شخص مسلم فى هذه المعمورة . وإذا ما افترضنا صحة ادعاء أحد طرفى الصراع بأنه يمثل الإسلام الصحيح وأن الطرف الآخر قد ضل السبيل ، فإن ٥٠ فى المئة من المسلمين اليوم ينبغى ألا تكون لديهم علاقة بالإسلام بحسب زعم الجهة التى تحتكر الإسلام .

ونتيجة لانشغال المسلمين بالجدل العقيم حول أيهم أحق بادعاء الإسلام الصحيح ، فإن مسيرة بلداننا الإسلامية تمضى فى اتجاه عكسى ،متراجعة عن ركب التطور فى العالم ؛ لأنها عاجزة عن مواكبة التحولات التى تجرى من حولها ، يسهل على الآخرين الهيمنة عليها . وبينما تحاول الأطراف إلقاء اللائمة على المستشرقين بزعم أنهم ضللوا المسلمين عن النهج الإسلامى القويم ، فإنه لا يوجد أى طرف من بينها يجرؤ على تجاهل المستشرقين ، أنا على يقين بأنه حتى إذا لم يكن هناك مستشرقون ، فإن المسلمين لن يعدموا سببا للاختلاف والجدل حول التفاصيل التافهة بشأن الدين والعقيدة .

عندما تفجرت الثورة الصناعية فى أوروبا ، لم يرصد المسلمون ما سيترتب على ذلك التحول من آثار مهمة بوعى تام ، بل الأسوأ من ذلك أنهم لم يهيئوا أنفسهم للإفادة منها بما يمكن من تعزيز قوتهم ويسهم فى تطوير بلدانهم وتنميتها . وبينما كانوا من قبل يتصدرون ريادة المخترعين والمنتجين للسلع الصناعية ، اكتفى المسلمون بدور المراقب الذى يرصد حجم الإنتاج الضخم لسد الحاجة المتزايدة من سلع وبضائع متنوعة . كما أصبحوا يعتمدون اعتماداً كاملا على منتجات غير المسلمين للتزود لاحتياجاتهم الدفاعية ، حتى من بعض الأطراف التى تدور بينهم وبينها الحروب .

لقد ظللنا منذ زمن طويل جداً ومازلنا نلهث ونهرول من موقع متأخر جداً فى سبيل اللحاق بركب الأمم الصناعية غير أن تلك الأمم لم تتوقف عند تلك النقلة التاريخية ؛ إذ انتقلت فى الوقت الحاضر من عصر التصنيع إلى ثورة المعلومات التى دكت الحصون ولم تترك لنا ما نختبئ خلفه وراء الحدود . بمعنى أننا وجدنا أنفسنا عاجزين تماما عن وقف تدفق رؤوس الأموال وحركة التجارة وانتقال المعلومات عبر الحدود دون حاجز أو رقيب . وقد أصبحت عقيدتنا ومعتقداتها تتعرض للتشويه من خلال المشاهد الإباحية والمادة البذيئة المتوفرة على شبكة الإنترنيت ووسائل الإعلام الإلكترونية الأخرى .

بيد أن هذه التحولات الجذرية ، بما تستبطنه من آثار عميقة ، لم تثنِ المسلمين عن المضى قدما فى جدلهم حول من هو أحق بادعاء الإسلام الصحيح ، والمساهمة فى تصعيد الخلافات والصراعات بين مختلف الطوائف الإسلامية . فى ماليزيا ، على سبيل المثال ، ظهرت مجموعة متطرفة أقنعت نفسها أنها ستكون محصنة وخفية عن أنظار ورقابة العباد من خلال تلاوة بعض أى من الذكر الحكيم ، فقررت شن عصيان مسلح ضد ما تسميه الحكومة الكافرة فى البلاد . فى ظاهره قد يبدو هذا التطور مجرد حادثة سخيفة مضحكة ، غير أنه فى الواقع واحد من عوارض الوباء الذى أصاب الأمة

الإسلامية منذ قرون عديدة .

لقد حصلت ماليزيا على استقلالها الوطنى منذ ٤٣ عامًا وهى فترة ليست طويلة مقارنة بأعمار الشعوب . وقد نجحت البلاد خلال تلك الفترة فى المحافظة على الاستقرار والسلام الاجتماعى ، برغم ما يتوفر بها من إمكانات الانفجار ممثلةً بالتعددية الدينية وسط السكان الأصليين (الملاويين) وأولئك الذين ينحدرون من أصول صينية وهندية وغيرهم . ويعتنق الملاويون الذين يشكلون غالبية سكان البلاد ، الدين الإسلامى ، بينما يدين المواطنون من أصل صينى بالبوذية ، والمواطنون من أصل هندى بالهندوسية . هناك صعوبة حقيقية فى أن يقبل هؤلاء الناس المختلفون على العيش فى مكان واحد . فالملاويون المسلمون يمقتون لحم الخنزير الذى يسيل له لعاب المواطنين من أصل صينى ، بينما يمتنع المواطنون من أصل هندى عن تناول لحم البقر الذى يحبه الملاويون . مع ذلك فإن المواطنين الماليزيين بمختلف معتقداتهم وتباين جذورهم الثقافية ، نجحوا فى إيجاد معادلة تكفل لهم الجلوس مع بعضهم حول طاولة واحدة لتناول الطعام ، وكل واحد منهم يقدر إحساس الآخر تمام التقدير ، ويراعى شعوره حق المراعاة ومما لا شك فيه أن الفضل فى هذا الإنجاز يعود للقيادة المسلمة التى تهيمن على مقاليد الأمور فى البلاد . هذه القيادة نجحت فى إحداث التنمية فى ماليزيا بمعدل عال وسريع لتتحول البلاد من دولة تعتمد كلَّ الاعتماد على المطاط والقصدير ، إلى واحدة من أكبر الدول المنتجة والمصدرة للرقائق الإلكترونية (مايكروتشبس) والثلاجات ومكيفات الهواء . أصبحت السلع الصناعية تشكل ٨٢ فى المئة من صادرات ماليزيا التى تحتل المرتبة السابعة عشرة فى قائمة الدول الأكبر حجمًا فى النشاط التجارى على مستوى العالم .

تعتمد ماليزيا نظامًا ديمقراطيا تجرى فيه انتخابات تشريعية كل خمس سنوات ، يخوض المعركة فيها مرشحون من صفوف المعارضة ، وتتوفر لهم فرص النجاح كافة ،

لدرجة أن بعض أحزاب المعارضة نجحت أكثر من مرة فى الهيمنة على حكومات ولايات عدة . وقد ظل ائتلاف الجبهة الوطنية الذى يتألف من ١٤ حزبًا يشكل المسلمون غالبيتها ، يسيطر على الحكومة الاتحادية منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا ، عن طريق انتخابات حرة ونزيهة .

ويعد الحزب الإسلامى الماليزى الذى يعرف اختصاراً بـ(باس) أكثر الأحزاب اعتماداً على العنف فى البلاد ، وقد ظل هذا الحزب يزعم أن من يعطى صوته لمرشحيه فى الانتخابات ، سيضمن مقعده فى الجنة فى الآخرة ، ويسعى إلى تضليل عامة الناس بأنه يجسد الإسلام الصحيح ، وأن المسلمين الآخرين فى البلاد ما هم إلا كفارٌ وعصاة . ورغم أننا كنا نعتقد أنَّ هذه المزاعم لن تنطلى على أحد ، إلا أنَّ قيادة وأعضاء (باس) استمروا فى هذا المنهج الخطير ، فشنوا حملات واسعة ابتداء من رياض الأطفال ومرورا بالمراحل التعليمية المختلفة وانتهاء بالجامعات ، لتأجيج الكراهية ، والحقد بين المواطنين . وقد نجحوا للأسف ، فى غرس الكراهية بين عامة الناس ، وألّبوهم ضد الائتلاف الحاكم فى البلاد ، لدرجة أنهم نجحوا مؤخرا فى الاستيلاء على الحكومة فى ولايتين . ويلاحظ أن أعداء ماليزيا بالخارج الذين لا يريدون للبلاد استقراراً وتقدما ، وجدوا ضالّتهم فى هذا الحزب ، فأخذوا يشجعون أنشطته ، لا لغرض يصب فى مصلحة الإسلام والمسلمين ، بل لخلق عدم الاستقرار فى البلاد وتهديد وحدتها وتقويض الرفاه الذى تحقق فيها .

نحن لا نود أن نعير هذه الفئة المارقة اهتماما يذكر ، لكننا نشعر بالقلق ؛ لأنها سادرة فى أنشطتها لدرجة أن عدداً متزايدا من المواطنين أصبح يؤمن أن نظام الحكم القائم فى ماليزيا نظام كافر لا علاقة له بالإسلام . ولا أظننى بحاجة لأن أذكركم بأن المجموعة التى تسمى نفسها «المعونة» والتى دبرت مؤخرا محاولة مسلحة للإطاحة بالحكومة الماليزية المنتخبة ، هى فرع أصيل من منظمات الحزب الإسلامى الماليزى

(باس) وكانت ومازالت تؤمن إيمانا قاطعا بأن النظام الحاكم بعيد كل البعد عن الدين الإسلامى ، وينبغى تغيره باستخدام العنف والقوة .

نحن مستعدون بطبيعة الحال وفى أى وقت لخوض المنافسة فى الانتخابات البرلمانية على المستوى الاتحادى وعلى مستوى الولايات ، والتى تجرى فى البلاد كل خمس سنوات ، ونقبل بما تسفر عنه من نتائج ونتقيد بها ، لكن أن يفكر أى شخص كان فى تغيير النظام بأسلوب التمرد المسلح ، فهذا شيء آخر ولا يمكن السكوت عليه .

ويبدو أن المجتمع الماليزى المسالم الآمن غير محصن من البغضاء والكراهيات الدينية التى انتشرت فى معظم الدول الإسلامية وجعلت الحياة فيها أشبه بالجحيم وأقعدتها عن تحقيق التنمية والتطور .

من الجوانب الجديرة بالملاحظة ، أن المسلمين يبحثون دائما عن أسباب تسوغ لهم شن حرب الجهاد ، لكنهم لم ولن يتوخوا الدقة الكافية فى المشروعية الدينية للجهاد ، مما أدى إلى إضعاف الدول الإسلامية . ومن الواضح أن مفهوم أولئك المسلمين عن الجهاد هو أن يذهب المرء لجبهة القتال غير مبال بالموت ، ليفوز بالشهادة ويصبح شهيدا ضحى بحياته من أجل الإسلام ونصرة قضاياه ، وهو أمر يكفل للمؤمن مكانة رفيعة فى الجنة . هذه العقلية لا تهتم كثيراً بكون تضحية الإنسان بنفسه قد لا تسهم بمثقال ذرة فى دفع قضايا المسلمين الرئيسية إلى الأمام . كما أنه لا يهمها فى شيء كون ما أتت به من صنيع قد تسبب فى حدوث نكسات خطيرة لمسيرة الأمة الإسلامية ، لم تتخلص من آثارها السلبية على مدى عقود ، بل قرون .

إن أعداء المسلمين وقوى الكفر لا حصر لهم ، غير أن من يدعون لأنفسهم البحث الدائم عن الشهادة ، لا يستهدفون الكفار بقدر ما يسلطون سهامهم على المسلمين أنفسهم ، ويركزون مخططاتهم العنيفة نحوهم . ورغم أن المولى عز وجل قد

نهى عن قتل المسلم لأخيه المسلم إلا بالحق ، فإن الجماعات المتطرفة لا تجد صعوبة فى الالتفاف حول هذا الأمر الإلهى من خلال رمى الناس بالكفر ، ولا تعدم المبررات التى تسوغ لها قتل المسلمين حتى إذا كانوا من الملتزمين بأوامر الله بإيمان عميق ، ويؤدون الشعائر والطقوس الدينية كلها ، ويعيشون حياة إسلامية خالصة . هذه الجماعات تنظر إلى كل من لم يندرج تحت لوائها ، على أنه ليس بمؤمن مئة فى المئة ، وهو بذلك كافر ينبغى قتله .

ثمة قناعة وسط المتطرفين بأن الحكومات فى البلدان الإسلامية دون استثناء ، غير ملتزمة بالإسلام وينبغى تأليب الناس عليها . وبصرف النظر عن كل ما تفعله تلك الحكومات فى سبيل الامتثال لأوامر الله جل شأنه والعقيدة الإسلامية ، فإنها تظل غير إسلامية بالدرجة التى تراها الجهات المتطرفة مطلوبة أو كافية . إنها مجرد حكومات وثنية تسيطر عليها شرذمة من المرتدين . وبما أنها حكومات يهيمن عليها مرتدون ، فإن قتلهم ومشايعيهم واجب لا يخالف التعاليم والأوامر الإلهية . دعونا نتأمل تجربة الخوارج الذين بلغ بهم الغلو والتطرف مرحلة لم يتورعوا فيها عن تصنيف سيدنا على- كرم الله وجهه ، الخليفة الرابع وابن عم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، والذى قاتل إلى جوار النبى وأبلى بلاء حسنا فى مجاهدة الوثنيين- على أنه كافر !!!

هؤلاء الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم صفة «المجاهدين» قتلوا من المسلمين أكثر مما قتلوا من الكفار أعداء الإسلام . وقد تسببوا فى إعاقة مسيرة الحكومات الإسلامية وعطلوها عن إحراز أى تقدم نحو الانتقال ببلدانها إلى مرحلة النمو الاقتصادى الشامل بما يساعد على إعادة بناء الحضارة الإسلامية واستعادة الأمجاد الإسلامية الغابرة .

صحيح أن هذه الجماعات المتطرفة استهدفت بعنفها أهدافاً غير إسلامية أكثر من

مرة ، لكنها لم تجن من تلك الهجمات غير قتل الأبرياء وإيقاع التخريب والدمار بالمبانى والطائرات والممتلكات الأخرى ، وهى نتائج لم تحمل غير المسلمين على الخضوع والانصياع لمشيئة الغُلاة ، وجلبت فى المقابل سمعة سيئة لديننا الإسلامى ومعتنقيه .

لا شك أن المسلمين لم يجنوا من سلوك وممارسات تلك الجماعات غير التعاسة والبؤس والمزيد من الكراهية والإدانات من المجتمعات الأخرى إضافة إلى تعطيل مسيرة التنمية والتقدم فى البلدان الإسلامية ، وإحباط أى جهد يهدف إلى تأهيل الأمة الإسلامية . ومما يحز فى النفس كثيراً أن هذه الجماعات ستنتقل بحقدها الأعمى وعنفها غير المبرر إلى المستقبل لإفساد حياة الأجيال المقبلة . بمعنى أن علماءنا المعنيين بشئون الدين يسهمون فى تكريس التطرف والعنف فى ذهنية الشباب من خلال ما يطلقوه من مواعظ فى أحاديثهم وخطبهم دون مراعاة لطبيعة الأوضاع ، وهو أمر يصب فى المجرى العام للغلاة والمتعصبين الذين يجدون معينا لا ينضب لاستقطاب الناشئين فى المستقبل . إن قصور علمائنا الذين يفترض فيهم تربية أجيالنا القادمة تربية إسلامية صحيحة ، عن إدراك خطورة الأوضاع فى الوقت الراهن وطبيعة المستجدات والتحديات القائمة حاليا ، يسهم بغير قصد فى إلحاق ضرر كبير بالإسلام وقضية المسلمين .

إن التساؤل المطروح بإلحاح هو ماذا سيكون عليه مستقبل المسلمين فى القرن الحادى والعشرين الميلادى؟ أقول بكل صراحة : إننا فى القرن الخامس عشر الهجرى وأنا غير متفائل . نحن ندرك أن المسيحيين كانوا فى القرن الخامس عشر الميلادى يحرقون السحرة وكانوا يعرضون صكوك الغفران للبيع . كان جميع المسيحيين دون استثناء ، يعتبرون خارجين عن دينهم أو على الأقل غير ملتزمين به وتتم إدانتهم بالردة وقتلهم ميدانيا . وقد وجد الناس ضالتهم فى العالم الجديد (الأمريكتين) فلجأوا إليه آحاداً وزرافات هربا من القمع الدينى .

اليوم ينبغى ألا يغيب عنًّا أن عددا كبيرا من المسلمين يعيشون فى الشتات بالأمريكتين تحديدا ؛ لأنهم اضطروا للهرب باعتبارهم غير مرغوب فيهم فى بلدانهم الإسلامية .

وكما كان الحال بالنسبة للاجئين المسيحيين الذين نجوا بجلدهم من جحيم ومحارق المسيحية ، فإن معظم جموع المسلمين الذين اضطروا للهجرة من بلدانهم ، أناس موهوبون وحرفيون بارعون وعلى قدر عال من المعرفة والكفاءة . ورغم أن هذه الجماعات مازالت على دينها الإسلامى وملتزمة بأداء شعائرها وطقوسها الدينية ، ألا أنه لا أمل لها فى أن تتمكن من تحويل بلدانها بالتبنى إلى بلدان إسلامية . وسيظل المسلمون فى المهجر يشعرون بالغربة وسط الأغلبية غير المسلمة ، التى لن تخفف من حدة عدائها لهؤلاء الغرباء بأكثر من وجه .

لقد تمكنت أعداد كبيرة من المسلمين المهاجرين من إسداء خدمات جليلة لا تقدر بثمن لبلدانهم بالتبنى ، وساهمت سواء برغبة منها أو على مضض ، فى مراكمة مزيد من الثروات لتلك المجتمعات غير الإسلامية ، ورفدتها ببعض المواهب والمهارات على قدر بالغ من الأهمية . وبالمقابل فإنهم اضطروا لحرمان بلدانهم الأصلية (الإسلامية) من تلك المواهب والمهارات السديدة رغم حاجتها الملحة لها فى الواقع . نعم إن بلداننا الإسلامية بحاجة ماسة لتلك المواهب والمهارات الرفيعة أكثر من بلدان الشتات والمهجر ، غير أن هؤلاء المهاجرين لن يجدوا للأسف إمكانية توظيف مواهبهم ومهاراتهم وكفاءاتهم العالية فى حال إذا ما قرروا العودة إلى بلدانهم الأصلية . ذلك أن هذه البلدان من الدول الفقيرة ويعيش مواطنوها حالة فقر مدقع ، ولا تتوفر فيها الإمكانات والتجهيزات اللازمة للبحث والتجريب والعمل . إذا ما تركنا قضية شح الموارد المالية بالبلدان الإسلامية جانبًا ، فإن الأعمال والإنجازات الجليلة التى يمكن أن يسديها هؤلاء المهاجرون لبلدانهم الأصلية ، لن تجد التقدير والتقييم السليمين بينما لا

توجد ضمانات بعدم اتهام العائدين بعدم الالتزام بالإسلام أو حتى الكفر والزندقة ، حتى إذا كانت سمات الصلاة تكسو وجوههم .

إننى لعلى يقين تام بأن عددا مهمًا من المسلمين الذين هاجروا بحثًا عن فرص أرحب وحياة أفضل ، مازالوا يولون بلدانهم الأصلية ولاءاً ما بعده ولاء ، ويهتمون بها اهتماما خاصًا ، ولن يترددوا عن إسداء كل جميل لها ولبنى جلدتهم ، ويحنون دائما للعودة إلى مسقط رؤوسهم ، غير أن عوامل كثيرة تحول دون ذلك .

لكل تلك العوامل والأسباب ، فإن عددا محدودا جدًا من أولئك المهاجرين سيفكرون فى العودة إلى بلدانهم الأصلية ، لكن الأخطر والأمرَّ هو أن بعضا منهم قد يفكر فى التخلى عن عقيدته الإسلامية (ردة) لكى يتم إدماجه على نحو كامل فى بلاده بالتبنِّى ، وتسكَن هواجسه ويشعر بالأمن والاستقرار فى مجتمعه الجديد . هذا سيناريو تراجيدى لما سيكون عليه حال المسلمين فى المستقبل . لكن ينبغى ألا نسلم تمامًا بأن هذا السيناريو قادم .

وإذا جاز لى ، فإننى سأعرِّج قليلا على منهج المسلمين الماليزيين فيما يتصل بالعمل على إعادة الصحوة والريادة للأمة الإسلامية .

نحن فى ماليزيا نؤمن بأن استعادة أمجاد المسلمين الضائعة تتطلب وقتا طويلا قد يستمر لبضعة عقود أو حتى قرون عديدة ، الأمر الذى يُحتم علينا أن نتحلّى بسعة الصدر والصبر والجلد فى مجابهة الصعاب والعقبات وحتى يتسنى لنا المضى قدما فى مشروعنا الحضارى ، فإننا نعمل على إرساء دعائم السلام والأمن والاستقرار فى البلاد ، ونقيم إدارة مستقيمة وفاعلة لتضطلع بتنفيذ السياسات والتنمية التى تقرها حكومة يتم انتخابها من قِبل الشعب الماليزى ، فى عملية انتخابية حرة ونزيهة كما أننا نعمل على تأهيل المواطنين المسلمين تأهيلا عاليا فى مجالات الآداب والفنون والعلوم

والتكنولوچيا ، دون أن يكون ذلك على حساب إلمامهم بالمعرفة المتصلة بالدين الإسلامى وأداء الشعائر الدينية . ذلك لا يعنى بالطبع ، أننا نسعى لتمييز المسلمين على المواطنين الآخرين ، بقدر ما نحاول إعدادهم للمنافسة والإفادة من فرص مراكمة الثروة على نحو شرعى وعادل . نحن نعمل على إعداد الماليزيين روحيا بما يمكنهم من مجابهة التحديات التى تطرحها المجتمعات المعادية للإسلام والمسلمين . كما نسعى لإعدادهم لعدم الركون والاستسلام للعاطفة ، ومجابهة الصعاب بواسطة التخطيط العلمى ووضع الاستراتيچيات ، على أن يتحلُّوا بالشجاعة والصبر فى مواجهة التحديات ، وأن يعملوا على الإلمام بنقاط الضعف والقوة لدى الخصم ، بما يمكِّنهم من التخطيط السليم للتغلب على المخاطر وإحراز النجاح والنصر . نحن قطعًا نعمل على ألا ينجرف المسلم الماليزى فى معركة مع عدو له ، دون معرفة بنقاط ضعف الأخير ومكامن قوته ، ومن معرفة لكيفية إدارة المعركة ، لا لسبب إلا لاعتقاد لا يقوم على أساس لنيل الشهادة .

إننا على قناعة تامة بأن جهادنا ينبغى أن يتركز أولاً على بناء دولة إسلامية يقودها إداريون ومسئولون يتحلُّون بالعقلانية وعلى قدر عال من المهارة والكفاءة ، وملمون بالعلوم التكنولوچية وخبراء مطلعون على قضايا التجارة والصناعة ، وضالعون فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، على أن يتصفوا بالنزاهة والاستقرار والتوازن الروحى . فى تقديرنا أن دولة يقودها كادر بهذه المواصفات والمؤهلات ، قادرة على تقديم الكثير والكثير لخدمة قضايا الإسلام والمسلمين . هذا هو عين ما يسعى لتحقيقه المسلمون الذين يهيمنون على الحكومة الماليزية فى الوقت الحالى ، علمًا بأن زملاءنا فى الائتلاف الحاكم من غير المسلمين لا اعتراض لهم على خطط إعادة تأهيل المسلمين ؛ لأننا أوضحنا لهم على نحو مقنع أن حكومة يقودها المسلمون ستكون عادلة ومنصفة لهم ولغيرهم من الكتابيين وبقية المواطنين بالبلاد ، دون أن تخالف التعاليم الإسلامية

السمحة .

إننا فى ماليزيا نأمل بطريقة أو بأخرى ، أن نضىء الطريق الذى يقود المسلمين والبلدان الإسلامية باتجاه إحداث النهضة الإسلامية وبعث الأمة من جديد . ونأمل أن يجد إخواننا فى العقيدة فى تجربتنا ما يمكن أن يصلح ليكون نموذجاً يحتذى . هذا الأمل مازال قائما رغم أننا رأينا فى ماليزيا مؤخراً ظهور صراعات بين المسلمين أنفسهم ، وهى صراعات يمكن أن تتسبب فى انحراف مسيرتنا عن مسارها وهدفها . ومما يؤسف له حقًا أننا رأينا عددا من المهنيين الماليزيين المتعلمين ينزلقون بتأثير من حقد أعمى ، وراء حملة عدائية لأناس كان لهم فضل تعليمهم والارتقاء بهم إلى مراتب مرموقة فى سلم الوظيفة العمومية . كيف لهؤلاء المتعلمين أن ينساقوا وراء المتطرفين وأن يجعلوا جلَّ تفكيرهم مُنصبًا على نيل الشهادة من خلال إحداث القلاقل فى المجتمعات المسلمة ، أكثر من التفكير فى أمن واستقرار الأمة الإسلامية وإعادة تأهيلها لإعادة إنتاج الحضارة الإسلامية فى ثوب جديد

أحاول بقدر المستطاع ، أن أكون متفائلاً بمستقبل المسلمين فى القرن الحادى والعشرين من الألفية الثالثة الميلادية ، لكننى حقيقة أجد صعوبة فى أن أكون كذلك ؛ لأننى لا أجد إلا عددا محدوداً من المسلمين ممن يدركون الحقيقة والواقع . نحن نلاحظ أن الغالبية العظمى من المسلمين تعيش فى عالم وهمى ، يصور فيه الضعف على أنه قوة ، ويعد الإخفاق نجاحا . ويبدو أنه على الرغم من مرور نحو ١٤٠٠ سنة على مجىء الرسالة المحمدية إلا أن عددا كبيرا من المسلمين مازال عاجزا عن فهم وإدراك طبيعة رسالة عقيدته نفسها ، هذا الرسالة التى لم تكن فى يوم من الأيام عبئاً على أحد . . ومن الواضح أننا سنستمر فى جدلنا العقيم وخلافاتنا الحادة حول التعاليم التى جاء بها ديننا الحنيف . وسوف تتصاعد هذه الخلافات وتؤدى إلى الاحتراب بيننا ليقتل بعضنا بعضا - ونسدى دون وعى - خدمة كبيرة لأعدائنا ، طالما أننا نحارب بعضنا بعضا بدلا

من إعداد العدة لمنازلة أعداء الإسلام .

أنا آسف لأننى لم أر فى أفق القرن الحادى والعشرين نهضة حضارية إسلامية . نحن لم نستيقظ بعد على حقائق عصر الثورة الصناعية ، ناهيك عن عصر المعلومات . ومما لا شك فيه أن عدداً محدوداً منا يدركون المستجدات والتحديات الهائلة ، لكنهم ليسوا فى وضع يمكنهم من فعل شئ يذكر ، نظرا لضآلة عددهم . هذه الشريحة المستنيرة منا مضطرة للعيش فى المنافى وستلحق بها أعداد متزايدة فى المستقبل .

لدى أمل بأن يكون هناك أناس آخرون فى صفوفنا ينظرون إلى المستقبل بنظرة إيجابية ليحملونا على الاقتناع بأن القرن الحادى والعشرين سيشهد استعادة الحضارة الإسلامية بكل ما تعنيه من عنفوان وإنجازات . إننى أتطلع إلى أن أقتنع بوجهة نظر هذه الفئة من المسلمين ، بما يمكننى والمسلمين الآخرين من المساهمة بقدر المستطاع بما يؤدى إلى النهضة .

الفصل الخامس

أهمية الحج ومغزاه الحقيقي *

الحج حدث فريد لا نظير له فى العالم ، حيث يأتى أكثر من مليونى من كل بقاع الأرض ومختلف مشارب الحياة ، وغالبا ما يسافرون مسافات طويلة ويتحمَّلون أشد الصعاب ليتجمعوا فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى صعيد عرفات ، كى يؤدوا شعائرهم ونسكهم ، ملبين خاشعين لله سبحانه وتعالى ، مجددين تأكيد إيمانهم بدينهم . .الإسلام .

فالحج إذا ليس مجرد شعيرة دينية وإنما هو أيضا مؤتمر جامع للأمة الإسلامية ، يسوده الوئام والشعور الحقيقى بالوحدة والأخوة الإسلامية بين الحجاج الذين يفدون من بلاد عديدة مختلفة ، وهذا هو المغزى والمكسب الحقيقى للحج ، إلى جانب أدائه كفريضة تمثل الركن الخامس للإسلام .

وعندما يؤدى الحجاج شعائرهم ويكثرون من الدعاء لأنفسهم ولجميع المؤمنين ، فإنهم يكسبون الحسنات ويحققون السَّكنية والطمأنينة الذاتية الشخصية . لكننا نجد أن الشعور بالأخوة الإسلامية فى الحج يشكل رسالة لجميع المسلمين والأمة الإسلامية التى أصبحت منذ سنوات ، بل قرون عديدة منقسمة إلى طوائف وأمم كثيرة متفرقة ومتنازعة فى أغلب الأحوال ، تحارب بعضها بعضا ، ولم يعد المسلمون يشعرون بأنهم أخوة ، رافضون مبدأً أساسيًا فى الإسلام ألا وهو أنهم أمة واحدة .

---

* ألقيت فى المؤتمر الدولى للحج المنعقد بالعاصمة الماليزية كوالالمبور فى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٠م .

وبطبيعة الحال ، فإن الامتناع عن النزاع والقتال هو جزء أصيل من الحج ؛ لأن القتال محرم خلال الشهر الحرام وفى المناطق المحرمة ، وهذا أمر كان كذلك منذ أيام الجاهلية . غير أن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ إذ حرم قتل المسلم للمسلم فى أى مكان وزمان .

الآن بات واضحا تماماً أن المسلمين يخالفون هذا الأمر بشكل صارخ ؛ إذ يحارب بعضهم بعضا ويرمون مخالفيهم من إخوانهم المسلمين بالكفر والردة عن الدين فى بعض الأحيان ليبرروا قتلهم ، بل إن الأمر بلغ بهم مبلغا جعلهم لا يقلقون ولا يلقون بالاً وهم يمارسون الحروب والقتل والتكفير بين بعضهم البعض . بمعنى آخر يمكننا القول إن كثيراً من إخواننا المسلمين قد عادوا القهقرى إلى الجاهلية الأولى قبل الإسلام حين كانت القبيلة هى محط الولاء عند القبائل العربية ، وينحاز المرء إلى قبيلته حتى لو كانت على خطأ .

واليوم ، تنطبق هذه الحال على المسلمين ودولهم وأحزابهم السياسية ، حيث يدينون لها بالولاء ويحاربون ويقتلون مسلمين آخرين من أجل ولاءات ضيقة ، ويرون أن دولهم وأحزابهم وطوائفهم لا يمكن أبدا أن تكون على خطأ .

وهكذا ، رغم الحج والأمر بعدم قتال المسلم للمسلم ، نجد المسلمين منقسمين بشدة فيما بينهم ، يتقاتلون بلا ضمير أو شعور بالندم ، بل حتى إنهم يساندون غير المسلمين من أجل أن يروا أعداءهم المسلمين مهزومين ، أذلاء خاضعين ومضطهدين . إنهم فى الحقيقة لا يأبهون للإخوة فى الإسلام ، إنما ينقضونها لتبرير هجومهم على المسلمين الآخرين ، فمعاناة هؤلاء لا تعنى شيئا لهم . وحتى إذا تعرض أخوان لهم فى الإسلام للقمع والمذابح فلن يهبُّوا لنجدتهم ؛ لأنهم أيضا مشغولون بنزاعاتهم الخاصة بالحروب فيما بينهم .

يخبرنا القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف كيف أن الرسول محمداً- صلى الله عليه وسلم ، أبطل الولاءات الضيقة والعصبية للقبائل العربية خصوصًا أهل المدينة المنورة (الذين آخى بينهم) عبر تعاليم الإسلام التوحيدية ، وأسس أول دولة إسلامية من قبائل عديدة . وقد ألحق المسلمون المتحدون الهزيمة النكراء بعدوتهم قريش ، فأصبحت شبه الجزيرة العربية بكاملها موحدة لأول مرة . كما يحدثنا التاريخ أن المسلمين مضوا قُدما بعد ذلك لا ليفتحوا معظم مناطق العالم المعروف فى ذلك الوقت فقط ، بل ليوحدوا الشعوب من مختلف الأعراق والعقائد ، وليقيموا إمبراطورية لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل ورغم أن الكثيرين فى تلك الإمبراطورية ظلوا على أديانهم الأصلية ، إلا أن الغالبية اعتنقوا الإسلام وتركوا لغاتهم ليتحدثوا باللغة العربية ، ونما المجتمع الإسلامى ليصبح أكبر كثيرا من جملة مجموع العرب ، وسار فى طريقه لتحقيق المجد والعظمة لوجه الله سبحانه وتعالى طوال ثلاثة عشر قرنًا .

وطوال تلك الفترة لم يعد هناك حديث عن أن الدنيا الفانية ما هى إلا ملك ومتاع للكفار ، وأن الله سبحانه وتعالى أعد للمسلمين الدار الآخرة التى لا تفنى ، وبالتالى يجب على المسلمين ألا يسعوا لكسب عرض زائل لتوسيع أرضهم أو يجتهدوا لزيادة عددهم .

وقد كان المسلمون فى العصر الذهبى لدولتهم متسامحين ، فدرسوا أعمال العلماء السابقين بمن فيهم فلاسفة اليونان من أجل أن يزيدوا معارفهم ويطبقوها ، واليوم نقرأ عن علماء مسلمين أجلاَّء وعلماء رياضيات وفلكيِّين وبحارة بارعين وخبراء مهرة فى معالجة المعادن والزجاج ومنتجين لأجود أنواع السلع من أجل سد حاجات شعوبهم وبقية شعوب العالم ، لكننا عجزنا تماما فى وقتنا الحالى عن إضافة أى اسم جديد لتلك الكوكبة ، ولا يوجد بيننا من يهتم بتحقيق المجد والعظمة التى حققوها فى الماضى . نحن نعلم أننا معشر المسلمين اليوم أقل تسامحا ولانهتم إلاَّ بعلوم

الدين والعبادات ، مع أن فقه الشعائر الدينية ليس هو الشئ الوحيد الذى ألزمنا به الإسلام أصلاً ؛ أى أننا ننظر لأى أمر لا يتصل مباشرة بقضايا الدين ، على أنه لا يجلب حسنة ولا منفعة وينبغى ألا نشغل به بالنا ونضيع من أجله وقتنا . إن الدين متصل بالشعائر وبقية العبادات الأخرى التى يجب علينا أن نؤديها لكى يجزينا المولى جزاءً حسنًا فى الدار الآخرة .

إن هناك صعوبة فى تحديد تاريخ بعينه لنقول إن ذلك هو اليوم الذى أصبح فيه المسلمون أقل تسامحا ، ورفضا لما نصفه بأنه لا دينى (دنيوى) ولا يمت للدين بصلة ، بل يذهب البعض منا أبعد من ذلك كثيرا ليصف كل شئ لا يتعلق مباشرة بالمعارف الإسلامية والشعائر الدينية بأنه علمانى ويجب رفضه جملة وتفصيلاً . ولاشك أن تدهور وانحطاط المسلمين قد جاء متزامنًا بالضرورة مع بداية رفضنا لكل ما نصفه بأنه غير إسلامى . نحن نقول أن ما يحدث فى الحياة الدنيا لا يهمنا كثيرا ؛ لأن مصيرنا الجنة . أما أولئك الناجحون فى هذه الدنيا فسينتهون إلى الجحيم ! فهل نحن يقينا أننا بلا ذنوب وأننا سندخل الجنة حتما؟

لقد كلفنا القرآن الكريم بأن نحافظ على سلامة أنفسنا بوصفنا مسلمين وألاَّ نلقى بها إلى التهلكة ، وأن نعد ما استطعنا من قوة وأن نتجهز بكل الضروريات الدينوية لكى ندافع عن أنفسنا ونرهب أعداءنا ، إلا أننا لم نأتمر بهذا التكليف كما هو واضح تمامًا . ونتيجة لذلك فإن المسلمين فى جميع أنحاء العالم مضطهدون ، وقد أرغم كثير منهم على اللجوء والهجرة إلى دول غير إسلامية . وفى هذه الحالة لا يمكن الزعم بأننا نقتدى بالمسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى دولة الحبشة المسيحية للنجاة بأنفسهم من اضطهاد كفار قريش ، لقد فرَّ أولئك بدينهم من مكة غير الإسلامية ، بينما يفرُّ المهاجرون المسلمون اليوم من بلادهم الإسلامية ومن إخوانهم المسلمين .

هل يمكننا إذًا ، هل القول أن اعتمادنا على غير المسلمين لتأمين حاجاتنا الدفاعية يتفق مع تعاليم الإسلام؟ نحن نؤدى الحج كل عام قادمين على طائرات صنعها غير المسلمين ، وأحيانا يقودها طيارون غير مسلمين ، وهذا يعنى أنه بدون تكنولوچيا هؤلاء الناس فلن يؤدى شعيرة الحج إلا عدد قليل منا .

ونحن نقول إن مساعدة أحد ما على أداء عبادة واجبة ، فهى واجب لا يقل عن العبادة نفسها . لكننا نجد أن ما فعلناه قليل ، بل أننا عاجزون عن مساعدة إخواننا المسلمين على أداء فريضة الحج . هل نصدق أننا لم نعص أوامر ديننا ولم نرتكب إثمًا لفشلنا فى أداء فرض الكفاية عن طريق الإعداد للدفاع عن الأمة ومساعدتها فى أداء فريضة واجبة؟ وهل نصدق حقًا أن لنا مكانًا فى الجنة رغم هذه الإخفاقات وإخفاقات أخرى كثيرة؟ !

ينبغى ألا نكون متصالحين مع أنفسنا للغاية وما نزعمه لها من أن لها مكانًا فى الآخرة ، بل يجب أن نختبر حقيقة ما إذا كان المطلوب منا فقط هو التركيز على أداء فرض العين وإهمال واجباتنا الدنيوية . فالإسلام لا يعلمنا أن نكون أنانيين نؤدى العبادات لكسب الأجر لأنفسنا فقط وأن نتجاهل واجباتنا المفروضة علينا لصالح المجتمع الإسلامى .

إننا نقول بفخر إن الإسلام دين غير عادى . وإنَّه منهج متكامل للحياة يجب أن يمارسه المسلمون ولا يقتصر تحديدا على الاستعداد للآخرة فقط وإهمال مصالح الأمة كلَّ الإهمال ، والاكتفاء بموقف المتفرج بينما نرى إخواننا المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا ونرى الآخرين يمارسون ضدهم أبشع أنوع القمع دون أن نهبَّ لنجدتهم .

إذا كنا نعتقد أن موقفًا من هذا القبيل هو ما نقصده بالمنهج المتكامل فى الحياة ، فعلى الدنيا السلام ، لكننى لا أعتقد أن منهج الإسلام فى الحياة يقتصر على أداء الشعائر

الدينية الواجبة فرضًا وتحصيل المعرفة التى تكسب الثواب للآخرة .

إن منهج الإسلام فى الحياة هو الإسلوب الذى يكفل للإسلام والمسلمين الاحترام والتقدير ويحميهم من اضطهاد الآخرين ، ويضمن أن تكون الحكومات الإسلامية ماهرة فى إدارة شئون الحكم ، وتوفير ضرورات الحياة ، وتسيير دولاب الحكم على نحو عقلانى وعادل بما يكفل الريادة للمسلمين فى مجال العلوم الدنيوية ، ويمكنهم من استغلال الموارد التى حباهم المولى عز وجل بها من أجل رفاهيتهم ومدّ يد المساعدة للفقراء والمحتاجين والبؤساء من المسلمين وغير المسلمين ، مما يجعل منهم نموذجا لكل القيم النبيلة والصفات المحببة للجنس البشرى بصفة عامة .

هناك من يعتقد أن الشعائر الدينية التى نؤديها هى مجرد تعبير عن الإيمان ولا تمثل إرشادات لحياة المسلمين ، ويكفى فقط أن تحقق لنا الأجر ، وليس هناك شىء آخر يمكن أن نتعلمه من أدائها . لكن آخرين يعتقدون أنها تعلمنا الكثير حتى نكون مسلمين صالحين ، ومن هذا المنطلق فإن الحج له وظيفة ودلالة أكثر من كونه مجرد عبادة ، ويجب أن يتعلم المسلمون منه المزيد من الدروس ، وأن يكون هناك مغزى من تعبيرنا عن الخضوع التام لله سبحانه وتعالى .

أنتم هنا اليوم فى هذا المؤتمر الدولى تعبرون عن مغزى أهداف شعيرة الحج لتعملوا على توسيع معرفتنا واستجلاء الدروس والعبر المستفادة منها ، و أنا واثق من أن الله سبحانه وتعالى سيهبكم الرشد ويهديكم إلى الصراط المستقيم بما يمكنكم من إضاءة الطريق أمامنا وينير سبيل الأمة الإسلامية بأسرها .

ولا شك أن المسلمين اليوم فى حاجة ماسة لمن يهديهم إلى الرشد والطريق القويم ؛ لأن كثيرين منهم فقدوا جادة الصواب ، ونحن نريد العودة إلى الطريق الصحيح القويم ، لكننا مضطربون ومحتارون بسبب التفسيرات المتضاربة ، التى لا

تحصى ولا تعد ، لدينا الحنيف لدرجة جعلتنا أعجز ما نكون عن استخلاص مغزى وجوهر الرسالة المحمدية ، وبما يجعلنا من أتباعها الحقيقيين المخلصين ، ويعيد للأمة الإسلامية أمجادها من جديد .

نحن ندرك تمامًا أنكم لن تتمكنوا من إيجاد حل لكل التساؤلات والقضايا المطروحة على بساط البحث فى هذا المؤتمر ، لكننا نأمل حقًا فى الاستزادة والاستنارة بمداخلاتكم ومداولاتكم الثرية . وما التوفيق إلا من عند الله .

الفصل السادس

التجربة الماليزية - دروس وعبر للأمة الإسلامية *

أود فى البداية أن أعبر عن خالص تقديرى وامتنانى لبيت التمويل الأمريكى (لاريبا) لتشريفى من خلال إسباغه علىَّ جائزة الإنجاز لمدى الحياة ، اعترافا بدورى فى معالجة الأزمة الاقتصادية التى ضربت بلادى ضمن بلدان أخرى ، منذ صيف عام ١٩٩٧م ، أنا فخور بهذا التكريم سيما أننى علمت أن شخصى المتواضع هو أول من منحت له هذه الجائزة المرموقة .

إننى أتقبل هذا التقدير والتكريم بتواضع جم ، لكن يجدر بى أن أعترف بأن أبناء الشعب الماليزى هم الذين يستحقون هذه الجائزة . فمن خلال دعمهم ومؤازرتهم الخالصة وتفهمهم العميق وتعاون الغالبية العظمى منهم ، كللت جهودنا بحماية اقتصادنا من المحاولات المتعمدة التى قامت بها قوى بعينها بغرض تخريبه ودفعه إلى الانهيار . لقد وفِّقنا وكسبنا هذه المعركة بفضل جهودنا ورؤانا الخالصة دون مساعدة من أى دولة أخرى . ولهذا فإننى أقبل هذه الجائزة المرموقة من مؤسسة (لاريبا) كوسام شرف أو نوط جدارة لأضعه على صدر كل فرد من أبناء شعبى .

إن العالم الإسلامى اليوم يعج بالمتناقضات والمفارقات . فبالرغم مما تملكه بلداننا الإسلامية من موارد غنية ، إلا أن شعوبنا فقيرة اقتصاديًا وضعيفة عسكريا . بينما يعيش بعضنا فى رغد من العيش والوفرة والثراء الفاحش ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين تعيش فى حالة فقر مدقع . وبينما يسجل العديد من دول العالم ابتكارات واختراقات فى مجالات العلوم والتكنولوجيا ، نجد أن معظم المسلمين مازالوا يقبعون فى براثن الجهل والتخلف .

---

* خطاب بمؤسسة «لاريبا» الأمريكية بشيكاغو ، التى أسبغت عليه جائزتها للإنجاز – ١ سبتمبر ٢٠٠٠م .

هناك بون شاسع بين هذا العصر الذى يجسد حال الانحطاط بين المسلمين ، والعصر الذهبى للأمة الإسلامية الذى حفل بإنجازات رائدة على المستويين الدنيوى والروحى . كان ذلك عصر انتصارات المسلمين وامتداد نفوذهم وتفوقهم فى جميع المجالات ، حيث دانت لهم الإمبراطورية الفارسية وجزء كبير من البيزنطية ، وانتشر الإسلام فى وقت وجيز وسريع ، مشكلا نظاما جديدًا امتد من جزر البيرنية إلى جبال الهملايا ، متفوقًا على الإمبراطورية الرومانية فى أوج عظمتها ومجدها .

أنظر إلى أى درك انحدر المسلمون اليوم مقارنة بما كانوا عليه فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية؟ لقد حان الوقت لكى يقف المسلمون وقفة جادة وينظروا لحالهم الراهن بعين ناقدة ، وليحددوا إن كانوا يريدون السير قدمًا وكيف يمكنهم ذلك .

أنا أقول إذا كنا نريد الانطلاق إلى الأمام ؛ لأن عددا مهمًا منا لا يريد لمسيرتنا أن تتقدم ، والبعض الآخر يخشى معارضة أعداء التقدم الذين يزعمون أن مواقفهم مستمدة من الإسلام ، بل إن ممارساتهم وسلوكهم هما تجسيد للإسلام الحقيقى ! من العبث بطبيعة الحال أن نوهم أنفسنا بأننا يمكن أن نمضى بمسيرتنا إلى الأمام ما لم نقرر ذلك أولاً . نحن فى ماليزيا نؤمن بتحرير التجارة ورفع القيود عن الصادرات والواردات مثلما كان الحال بالنسبة لأسلافنا من المسلمين الأوائل . وترحب بلادنا بالاستثمارات الأجنبية المباشرة ، ولا تفرض قيداً على إعادة تصدير الأرباح ورأس المال . وقد قمنا فى ماليزيا بإنشاء نظام مالى إسلامى ليساعد المواطنين المسلمين على الإفادة من المنافع والفرص التى يوفرها أى نظام مالى حديث ، يتفق مع النظرة الإسلامية لهذا المجال .

إننا لا نشك فى أن بلادنا تنتهج نظام إدارة مالية يتميز بقدر عال من التعقل والكفاءة ، ودرجنا على تسديد قروضنا الخارجية كلما كان لدينا موارد مالية فائضة ، فى وقت لم تلجأ فيه الحكومة على مدى عمرها منذ الاستقلال إلى البنك المركزى للتمويل بسبب العجز . وقد أنشأنا سوقًا للأوراق المالية يتميز بحيوية عالية لتمكين الشركات الماليزية من تكوين رأس مال

بكل بساطة . كما أننا طبقنا الخصخصة على نطاق واسع جداً . وقد طبقنا كل ذلك انطلاقًا من إيماننا بأن الحكومة ينبغى أن تكون واقعية وعملية فى سياستها التنموية ، وألا تتردد فى تجريب أى نموذج أو تجربة أجنبية أثبتت نجاحا فى بلاد أخرى .

نحن فى ماليزيا نعتبر أنفسنا مثل أسلافنا المسلمين فى العصر الذهبى ؛ لأننا نلتزم رؤية ومدخلاً أصيلاً ينسجم مع روح وجوهر الإسلام . وكان لابد لنا من أن نبدأ أولاً بتحقيق النمو . وفيما قمنا بتطبيق مختلف الحزم المعيارية اللازمة لحفز نمو الناتج المحلى الإجمالى ، اتخذنا التدابير التى تكفل المساواة ، الأمر الذى لم يحظ باستحسان الغرب الذى يؤمن بأن البقاء والثراء هما فقط للأقوياء على حساب الفقراء .

إن مفهوم اقتران التنمية بالمساواة فى الفرص بماليزيا ينطوى على أهمية خاصة ؛ نظراً لأن مجتمعنا يقوم على التعددية العرقية والدينية . ذلك أن السكان الأصليين الذين يعرفون بلفظ (بوميبترا) يشكلون نحو ٦٠ فى المئة من مجموع سكان البلاد . لكننا عندما نتحدث عن الثروة والمداخيل ، فإنهم يحتلون موقعًا متأخرا مقارنة ببقية السكان الذين ينحدرون من جنسيات أخرى . هذا الواقع دفعنا إلى أن ندشن فى عام ١٩٧٠م ، سياسة اقتصادية جديدة تم تصميمها بما يكفل للبوميبترا الحصول على نصيبهم من الكعكة الاقتصادية . هذه السياسة لم يتم تطبيقها على أساس انتزاع جزء من ثروة وممتلكات وفرص الأغنياء لتمليكها للفقراء ، بقدر ما أنها قامت على تخصيص قسط أكبر للمواطنين الأصليين (البوميبترا) من كعكة اقتصادية متسعة باطّراد .

هذه السياسة أحرزت نجاحًا نسبيًا على صعيد إعادة الهيكلة الاقتصادية والاجتماعية ، فى وقت حافظت فيه البلاد على استقرارها السياسى والاجتماعى . وبما أن ٩٠ فى المئة من البوميبترا مسلمون ، فإن السياسة الاقتصادية الجديدة كأنما كانت تعنى رفع وتعزيز الأوضاع الاقتصادية للأمة الإسلامية فى ماليزيا بوجه عام .

كنا أصيلين كذلك فى إجراءات الخصخصة التى طبقناها فى ماليزيا . فقد اعتمدت

الممارسة فى البلدان النامية الأخرى التى تبنت الخصخصة ، على بيع الأصول والشركات الحكومية للمستثمرين الأجانب ، لكننا قمنا بدلاً من ذلك ببيعها للمواطنين الماليزيين . وبما أن مبدأ اقتران التنمية بالمساواة كان ينبغى أن يتم تطبيقه على جميع المستويات ، فإن البوميبترا أسندت لهم فرص أكبر فى عملية الخصخصة بما يكفل تواجدهم وتمثيلهم فى أعلى المستويات . وبطبيعة الحال فإن هذا الموقف أثار حفيظة الغربيين كما كان يحدث فى كل مرة ؛ لأنهم رأوا أن الثروات والأرباح التى أتاحتها الخصخصة فى ماليزيا ذهبت للمواطنين الماليزيين ، فاتهموا حكومتنا بالمحسوبية والفساد . فى المقابل كنا مقتنعين تمامًا بالنجاح الذى حققناه على صعيد إصلاح الخلل فى توزيع الثروة والفرص فى مجتمع يقوم على التعددية العرقية .

كما قمنا أيضاً بتطبيق نظام مصرفى إسلامى فريد أطلقنا عليه اسم النظام المزدوج ، ووفرنا له كل الشروط اللازمة لتمكين النظام المصرفى الإسلامى من العمل وأداء وظائفه جنبًا إلى جنب مع النظام المصرفى القياسى السائد . هذا النظام لم يصمم لخدمة المسلمين فحسب ، بل أتيحت خدماته ومزاياه لجميع المواطنين بمن فيهم غير المسلمين .

إنها معالجة وجدت القبول من كل الأطراف الماليزية بصرف النظر عن المعتقدات الدينية ، خاصة أنها لم تتسبب فى إحداث إرباك فى الأنشطة الاقتصادية ، ولم تؤثر سلبًا على معدلات النمو .

كذلك أنشأنا نظامًا لترتيبات الدفع الثنائى مع٢٦ دولة من البلدان النامية من أجل خفض الاعتماد على العملات الأجنبية لتمويل التجارة . وقد نتج عن ذلك أن ازداد حجم تجارتنا مع البلدان النامية بنسبة ٤٠٠ فى المئة .

وبالنظر لاستراتيجيتنا التنموية ، فإنها حققت نجاحًا مهمًا ؛ إذ نما الناتج المحلى الإجمالى للعام ١٩٩٦ بنسبة ٨,٥ فى المئة للسنة العاشرة على التوالى ، وهو معدل نمو كان يمكن أن يستمر لسنوات عديدة . وبحلول عام ١٩٩٧ بلغ حجم تجارتنا الخارجية ١٥٧ مليار دولار ،

قافزًا بماليزيا إلى المرتبة الثامنة عشرة فى قائمة الدول الأكبر حجما من حيث الاستيراد ، وهذا ما شهدت به منظمة التجارة العالمية .

وقد ظلت الحكومة الماليزية تحقق فائضاً ماليًا سنويًا ، فى حين ظل الدين الخارجى للبلاد منخفضًا ؛ إذ لم يتجاوز ٤٠ فى المئة من الناتج المحلى الإجمالى . كذلك انخفض الحساب الجارى لميزان المدفوعات من ناقص ١٠ فى المئة إلى خمسة فى المئة من الناتج المحلى الإجمالى ، وكانت كل التوقعات تشير إلى أنه ماض نحو تحقيق نتائج أفضل . ونجحت بلادنا فى الإبقاء على معدل التضخم منخفضاً بنسبة ١,٢ فى المئة .

على الجبهة المالية ، فقد تميز النظام بالأداء السليم المنضبط ، وقد انعكس ذلك بوضوح من خلال القواعد الرأسمالية والأصول القوية للبنوك ، وطبيعة الأصول الاستثمارية رفيعة المستوى وقد بلغ معدل الإدخار فى ماليزيا نسبة ٤٠ فى المئة من الناتج المحلى الإجمالى ، وهو من أعلى معدلات الإدخار فى العالم . وتجدر الملاحظة إلى أن الإدخار القومى الماليزى بلغ مرحلة تكفى لتمويل ٩٥ فى المئة من جملة المشاريع الاستثمارية فى البلاد .

قبيل وقوع الأزمة المالية التى عصفت باقتصاديات المنطقة فى يوليو ١٩٩٧ ، كان واضحاً أن ماليزيا تسرع الخطى فى طريق التنمية المستدامة باتجاه بلوغ مرحلة الدولة المتطورة بحلول عام ٢٠٢٠ . لقد تسببت تلك الأزمة فى خفض قيمة العملة الوطنية الماليزية (رينجت) بنسبة ٥٠ فى المئة عما كانت عليه قبل الأزمة ، وكان لا بد لنا من المسارعة إلى اتخاذ إجراءات عديدة لوقف التدهور ، غير أن كل وسائل العلاج التى جربناها انتهت إلى الفشل . فى هذا الوقت العصيب توقع عدد كبير من المراقبين أن نلجأ إلى صندوق النقد الدولى طالبين منه القروض التى تمكن من وقف الأزمة ، لكننا اسقطنا هذا الخيار . كنا ندرك أن أية محاولة للاقتراض من الصندوق ستجلب كارثة جديدة على الأمة الماليزية ؛ نظراً لأن جوهر السياسة الاقتصادية الجديدة (آنفة الذكر) لا يتفق مع فلسفة هذه المؤسسة المالية الدولية القائمة على المنافسة المطلقة غير المقيدة ، والتى يأكل فيها القوى الضعيف دون اعتبار لأى

جانب آخر . بمعنى أن المساواة فى الفرص ومراعاة الفقراء لا تدخل فى أجندة صندوق النقد الدولى ، بقدر اهتمامه أولاً وأخيرا بالكفاءة والقدرة ومضاعفة الربح للأغنياء على حساب الشرائح الأخرى من المجتمع .

كان علينا فى ماليزيا أن نشحذ فكرنا لاستنباط حل لمجابهة تلك الأزمة ، وفى الوقت نفسه نحافظ على استقرار قرارنا . وبفضل ثقتنا فى الله سبحانه وتعالى أولاً ، وبأنفسنا فى المرتبة الثانية ، تمكنا من الخروج بصيغة كفلت لنا إنقاذ البلاد والأمة الماليزية من حافة الانهيار . لكن قبل أن أدخل فى تفاصيل هذه الصيغة (نظام التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى) دعونى أصف ما حدث فى يوليو ١٩٩٧م .

عندما أطاحت الأزمة المالية بقيمة العملة الوطنية التايلاندية (البات) فى يوليو ١٩٩٧ ، لم نستشعر نحن فى ماليزيا أى نوع من القلق ؛ لأننا ندرك تمام الإدراك أن الوضع المالى فى البلاد كان أكثر قوة ومنعة مما كان عليه الحال فى تايلاند . وقد كان التايلانديون يقترضون كميات كبيرة من القروض قصيرة الأجل من صناديق التمويل وفروع البنوك بالخارج بما يمكنهم من تمويل المشاريع التايلاندية المحلية طويلة الأجل . وقد وجدت هذه الاستراتيجية هوى فى نفوس المقيمين بتايلاند ؛ نظراً لأن سعر الفائدة على الدولار الأمريكى كان منخفضا جداً مقارنة بسعر الفائدة على البات (العملة المحلية) . المهم أن هذه الاستراتيجية اعتمدت تمامًا على أساس أن سعر البات مستقر تمامًا مقابل سعر الدولار الأمريكى .

لهذا السبب ، حاول البنك المركزى التايلاندى التدخل لحماية البات فى أثناء المراحل الأولى من بداية هجمات المضاربين بالعملة الوطنية وبطبيعة الحال فإن انخفاض قيمة العملة الوطنية التايلاندية يعنى أن تسديد الديون بالعملات الأجنبية يكلف مزيدا من الباتات . وإذا عجز المقترضون التايلانديون عن كسب باتات بكميات كافية ، فإن أزمة مالية ستضرب البلاد ، الأمر الذى يطيح بقيمة البات ، بما يؤدى فى نهاية المطاف إلى تعميق الأزمة المالية .

بهذه الطريقة حاول البنك المركزى التايلاندى الاستماتة فى الدفاع عن البات إلى أن

بلغ مرحلة استنفد فيها عمليا كل احتياطاته وإمكاناته الدفاعية ، الأمر الذى اضطره إلى اللجوء إلى تعويم قيمة البات ، وهو إجراء تسبب فى إحداث مزيد من الانهيار السريع فى قيمة العملة المحلية . فى نهاية المطاف وجدت تايلاند نفسها فى أزمة مالية واقتصادية فشلت فى معالجتها بإمكاناتها الذاتية .

فى ماليزيا ، كان الأداء المالى منضبطًا ودقيقًا وسليمًا بدرجة تسمح بتسديد القروض ، ومع ذلك فإن قيمة عملتنا الوطنية (الرينجت) كانت هدفًا للمضاربين فوجدوا فى نظرية العدوى وسيلة لنقل الأزمة إلى أسواقنا المالية ، فبدأ تجار العملات فى التخلص من كميات الرينجت التى كانت بحوزتهم لحماية أنفسهم من الخسائر . لكن فى واقع الأمر لم يكن هؤلاء التجار يملكون أى رينجت بقدر ما وجدوا ظاهريا سببا مقبولاً للعمل على انهيار العملة الماليزية الوطنية ، فاندفعوا بتهور لتحقيق مكاسب لأنفسهم .

وكما هو معلوم ، فإن العملات وحدها لا تملك قرون استشعار أو أدوات تمكنها من الرصد والتفاعل مع الأداء الاقتصادى والمالى فى الدول المعنية . بمعنى أن عملة بعينها لا تدرك أن البلاد التى تستمد منها هويتها ، قد اقترضت مبالغ كبيرة أم صغيرة ، وما إذا كان بمقدورها سداد القرض أو العجز عن ذلك ، وإذا ماكانت عملات البلدان المجاورة مصابة بمرض معد أم كان نظام الحكم فى تلك البلدان صالحا أو طالحًا يقوم على الفساد والمحسوبية ومحاباة الأصدقاء والأنصار . العملات بكل تأكيد لا تدرك هذه العلل ، غير أن الناس يعرفون ذلك وتجار العملات بصفة خاصة هم أكثر من يدرك ذلك . والأخطر من ذلك هو أن تجار العملات يعلمون أن بإمكانهم بكل بساطة المضاربة والتلاعب بسعر صرف أى عملة من خلال بيع أو شراء كميات ضخمة من تلك العملة . وعندما يشعر هؤلاء التجار المارقون أن عملة ما مهددة بالانهيار لا يحتاجون لأكثر من اقتراض كميات ضخمة من تلك العملة وإعادة بيعها على نحو متكرر ، بما يكفل انهيارها وبالسرعة التى يرغبون فيها . إن عمليات بيع العملة التى يقوم بها هؤلاء التجار ، هى التى تتسبب فى انهيار قيمة تلك العملة لأبعد مما يمكن تفسيره بالأداء

الاقتصادى الضعيف للبلد المعنى .

عندما ضربت أزمة صيف عام ١٩٩٧ تايلاند ، تجاهل التجار المضاربون الأصول الاقتصادية الماليزية القوية تمامًا ، وجاهروا بالصياح مهددين بانتقال العدوى من بانكوك إلى كوالالمبور ، وشرعوا فى الاقتراض وبيع الرينجت الماليزى على نحو حاد مقابل الدولار الأمريكى ، وتزامنت هذه العملية مع عمليات سحب لرؤوس الأموال الأجنبية قصيرة الأجل من سوق الأوراق المالية الماليزية ، الأمر الذى أدى إلى خفض قيمة القواعد الرأسمالية والأصول السوقية القوية فى البلاد إلى ثلث قيمتها الأصلية ، فأصبحت الشركات مهددة بالإفلاس ومعرضة للبيع بأسعار زهيدة .

ذلك الوضع الصعب جعل قيادة البلاد لا حول لها ولا قوة ، وراح المسئولون يلقون باللائمة على تجار العملات ، متهمين إياهم بخفض قيمة الرينجت الماليزى . وكما هو متوقع فقد صب القادة الماليزيون جام غضبهم على هؤلاء التجار الذين كشفوا عن وجههم البشع والخطير . وبدورها لم تسلم قيادة البلاد من إدانات جميع الأطراف بدءا من وكلاء ومدراء الوكالات الدولية ، وانتهاءً بمن جعلوا من أنفسهم خبراء ماليين وتجار عملات . كل تلك الشرائح تواضعت على أن السبب فى تدهور قيمة الرينجت الماليزى هو سوء الحكم والإدارة ، وذهبت تروج إلى أن إعادة الثقة بالأسواق الماليزية وضمان إعادة العافية للعملة الوطنية ، لن تتأتى إلا باستبدال نظام الحكم القائم بنظام آخر يتميز بالمسئولية والانضباط .

فى بداية الأزمة المالية ، أدركت ماليزيا وحدها ، المخاطر طويلة الأجل للمضاربة بالعملات . وعقب تطبيق مجموعة من الإجراءات التقليدية التى فشلت فى وقف التدهور ، قررنا البدء بتطبيق صيغة التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى غير التقليدى التى أشرنا إليها آنفا . هذا النظام تم تطبيقه فى الواقع فى حده الأدنى ، ومن أهم الإجراءات التى اشتمل عليها :

١- وقف سوق تداول العملة الوطنية (الرينجت) فى الخارج ومنع المضاربين بالعملات من

النفاذ إلى الصناديق التى يتوفر فيها الرينجت . وقد تم تطبيق ذلك بواسطة تجميد حسابات الرينجت بالخارج غير المقيمة بالبنوك الماليزية . وهذا الإجراء سمح لغير المقيمين بالاستمرار فى الاستثمار فى ماليزيا بكل حرية ، مستخدمين مدخراتهم بالرينجت ، لكنه حرمهم من إمكانية إقراض أو بيع تلك المدخرات للآخرين . وقد اضطر المضاربون لوقف عملياتهم التخريبية عندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على شراء أو اقتراض الرينجت .

٢- تثبيت سعر صرف الرينجت عند ٣,٨ مقابل الدولار وهو السعر الذى كان سائداً عند فرض مجموعة إجراءات التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى .

٣- فرض نظام يقضى بمنع إعادة تصدير السندات والأوراق المالية إلى بلدان المنشأ لمدة ١٢ شهراً ، وهى فترة ضرورية فى ضوء عدم الاستقرار الذى كان يعصف بالأسواق المالية فى البلاد . هذا الإجراء كان ضروريا لمجابهة إمكانية تسبب الحملة العدائية التى شنت ضد ماليزيا عقب تطبيقها حزمة التحكم والسيطرة ، بحفز رؤوس الأموال قصيرة الأجل بكميات هائلة . هذا الإجراء نفسه تم استبداله عقب مرور ستة أشهر من تطبيقه ، بعد أن بدأ السوق يشهد نوعاً من الاستقرار ، بفرض ضريبة على رؤوس الأموال الجديدة ، ليتم فيما بعد تخفيف هذه القيود الضريبية إلى الحد الأدنى ، وقصر جبايتها على حصص أرباح الأسهم فى سوق الأوراق المالية .

من المفارقات الملفتة للنظر أنه بانتهاء مدة سريان هذا الإجراء (١٢ شهراً) فى سبتمبر ١٩٩٩ ، لم تشهد ماليزيا تدفقًا مهمًا لرؤوس الأموال ، ويبدو أن مفاهيم وتوجهات السوق قد شهدت تغيرا دراميا خلال الفترة الممتدة من سبتمبر ١٩٩٨ إلى الشهر نفسه من العام التالى . ومن الملفت للنظر أيضًا أن المستثمرين الأجانب كانوا سعداء جداً بزيادة القيمة السوقية لحصصهم فى بورصة كوالالمبور خلال الفترة المذكورة آنفا .

كان الهدف الرئيسى من وراء تطبيق حزمة التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى فى سبتمبر ١٩٩٨ ، هو تمكين ماليزيا من بسط سيطرتها على اقتصادها بوقف هجمات

المضاربين والمناورين فى السوق لتغيير الأسعار ، بما يمكن الماليزيين من تحديد مصير البلاد . هذه الحزمة من الإجراءات تم تصميمها بعناية فائقة ، واهتمت اهتماما بالغا بتفعيل وتعزيز الجوانب الإيجابية من العولمة وطرح السلبى منها . بالنسبة للجوانب الإيجابية التى تم الإبقاء عليها وتعزيزها تضمنت الحرية التامة فى القضايا المتصلة بالتجارة الدولية والاستثمارات المباشرة الأجنبية . كما تم تثبيت النظام الليبرالى الذى ينظم المبادلات التجارية والاستثمارات المباشرة الأجنبية ، على حاله دون تغيير . أما الجوانب السلبية فى العولمة والتى تم التخلص منها فتشتمل على وقف الأسواق الخارجية للاتجار بالرينجت الماليزى وحرية تدفق التمويلات قصيرة الأجل والتى تتسبب فى حدوث عدم استقرار فى اقتصاد البلاد بكل سهولة وبساطة . ومن هنا اتخذت هذه الحزمة صفة الانتقائية فى التحكم والسيطرة .

والتساؤل الذى يطرح نفسه هو كيف نجحت ماليزيا باستنباط هذه الوصفة العلاجية ، فى وقت فشل فيه الآخرون فى معالجة الأزمة المالية التى عصفت باقتصاديات بلدانهم؟ لاشك أن السبب يكمن فى أننا تعاملنا مع حجم الأزمة بالجدية الكافية لمعرفة الكيفية التى تعمل بها أسواق التحويلات الأجنبية . لقد أنفقنا عدة أشهر ندرس آليات عمل أسواق التحويلات الأجنبية ومفهوم الرينجت الماليزى بالخارج ، ودوافع تجار التحويلات الأجنبية (من جشع ومخاوف) وآليات تسعير العملات . وبالطبع لم يكن الأمر بالبساطة التى قد تتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ، لكنه لم يكن من العسير أيضًا أن نستنبط الحلول التى تمكن من تحييد نشاط المضاربين بالعملات ، بمجرد إلمامنا بكيفية عمل أسواق التحويلات الأجنبية . وفى الوقت نفسه ، حاولنا دراسة واستيعاب الكيفية التى تسمح لسوق غير رسمى لتداول الأوراق المالية من الإنجاز بالسندات الماليزية انطلاقاً من سنغافورة . هذا النشاط تسبب فى خلق مشاكل وصعوبات كثيرة فى سوق الأسهم الماليزية ؛ نظرا لكثافة عمليات البيع قصير الأجل للحصص الماليزية والتى كانت داخل هذا السوق غير الرسمية فى سنغافورة . وبما أن هذه السوق كانت خارج نطاق السيادة والتشريع الماليزيين ، لم يكن أمامنا من فرصة لتنظيمها ، لكننا نجحنا بوضع حد لنشاطها فى سبتمبر ١٩٩٨ بمجرد إلمامنا بتفاصيل آلية

عملها .

لقد شهد الرينجت الماليزى وسوق الأسهم استقراراً مقدرا بمجرد تطبيق إجراءات التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى ، وضرب السوق غير الرسمية لتبادل الأوراق المالية فى سنغافورة . وعقب هذا الاستقرار النسبى اتخذت الحكومة مبادرات عديدة لإنعاش الاقتصاد الماليزى ، من بينها خفض قيمة الفائدة ورفع سقف الائتمان وزيادة النفقات الحكومية من خلال البدء بتنفيذ واستكمال المشروعات الاستثمارية التى توقف العمل فيها أثناء الأزمة المالية . وقد ساهمت المقاولات والتعاقدات فى مساعدة قطاع الأعمال على الإنتعاش من جديد .

فى عام ١٩٩٧ أقامت ماليزيا أيضا مجلسًا وطنيًا للنشاط الإقتصادى (ان .ايه .أى .سى) كانت لجنته التنفيذية تجتمع يوميًا على مدى فترة الأزمة . هذه اللجنة اهتمت اهتماما خاصا بعمليات شركة (داناهارتا) لإدارة الأصول وشركة (دانامودال) لإعادة رسملة (إعادة تمويل رأس المال) البنوك بالإضافة إلى لجنة لديون الشركات وإعادة الهيكلة لـ(سى .دى .ار .سى) والتى أنشئت لمعالجة مشاكل الديون المعدومة وإعادة رسملة البنوك . كانت مهمة داناهارتا تتمثل فى الاهتمام بمشاكل الديون المعدومة بما يسمح للنظام المصرفى بإعادة تركيز جهوده على عمليات الإقراض والتسليف لإنعاش الاقتصاد . أما دانامودال فقد كانت مهمتها تتلخص فى إعادة رسملة المؤسسات المالية وزيادة القوة الرأسمالية للنظام المصرفى والانتقال بها إلى مستوى أكثر قوة . وبدورها عنيت شركة ديون الشركات وإعادة الهيكلة (سى .دى .ار .سى) بتوفير منبر يمكّن الشركات والبنوك من العمل سويًا لاستنباط برنامج لإعادة هيكلة الديون بعيدا عن الإجراءات الرسمية .

هذه الهيئات الثلاث (داناهارتا- دانامودال- سى .دى .ار .سى) بدأت تعمل بطاقتها القصوى بمجرد بدء تنفيذ حزمة إجراءات التحكم والسيطرة بالتبادل الانتقائى . وبحلول ٣١ مارس١٩٩٩ تمكنت داناهارتا من استخلاص ديون معدومة بلغت نحو ١٦ مليار ريجنت

ماليزى ، فيما تمكنت داناموادال من إعادة رسملة عشر مؤسسات بنكية بنحو ٢ , ٦ مليار ريجنت ماليزى . أما لجنة (سى .دى .ار .سى) فقد انقطعت تمامًا لإعادة هيكلة عدد مهم من الشركات الضخمة التى تأثرت على نحو كبير بالأزمة .

ظلت اللجنة التنفيذية للمجلس الوطنى للنشاط الاقتصادى تقوم يوميًا بفحص مختلف الأنشطة والجوانب الأخرى المرتبطة بالاقتصاد الماليزى . وكانت المعلومات والبيانات الخاصة بالأداء التجارى فى البلاد ، والاحتياطات الخارجية وأسعار الفائدة وعمليات الاقتراض بالبنوك والمبيعات العقارية ، وفى مجال السيارات وآليات النقل الأخرى والبيع القطاعى (التجزئة) وشحنات السفن وعدد الحاويات التى تم نقلها أو استقبالها فى الموانئ الماليزية ، وعدد المسافرين وكمية البضائع المنقولة عبر المطارات ، وعدد الشركات التجارية الجديدة وعدد البنوك المفلسة وحجم البطالة وعدد الفرص الشاغرة والأجور والمشاريع والمقاولات الحكومية ، وكمية استهلاك الكهرباء وغيره . كانت تعد وتوضع يوميًا أمام أعضاء اللجنة لتتم مناقشتها بما يمكن من اتخاذ الإجراء المناسب لمعالجة أى خلل أو تعزيز نقاط القوة فى القطاع المعنى .

ومما لا شك فيه أن التجربة الماليزية فى معالجة الأزمة الاقتصادية والفوضى المالية التى ضربت البلاد (من بين دول المنطقة) فى صيف ١٩٩٧ ، غنية بالدروس والعبر المفيدة والمهمّة للبلدان النامية ، وبخاصة الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى . ومن بين أهم الدروس المستخلصة من هذه التجربة الحاجة لإدراك واستيعاب الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى انكماش النشاط الاقتصادى والكيفية التى تعمل بها ، والعلاقات المتداخلة للقطاعات الاقتصادية المختلفة .

إن وضع وهندسة الاستراتيجيات التى تمكن من مكافحة الأزمة وإصلاح الخلل ليس بالأمر الصعب على الإطلاق ، بمجرد وضع اليد على العوامل المسببة واستيعاب طريقة عملها . وبطبيعة الحال فإن جهات الاختصاص تقوم بطرح حلول عديدة لكل علة ، لكن

لابد من مناقشة وتشريح كل على حدة وإخضاعه للتجربة بما يوفر بدائل جاهزة فى حال فشل الحل الذى تم اختياره فى البداية كأفضل خيار من الخيارات . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عملية تطبيق الاستراتيجيات أو الحلول تتطلب تضافر جهود صانعى القرار ، بالإشراف على الإجراءات والخطوات التنفيذية على الأقل ، واتخاذ القرارات التى من شأنها معالجة الخلل وإزالة العقبات التى يمكن أن تعترض مسيرة الإصلاح .

إن توفر المعلومات والبيانات وضمان تدفقها باستمرار عن كل ما يجرى على الأرض ، أمر على قدر بالغ من الأهمية والحيوية . بمعنى أن الأرقام والرسومات التخطيطية (جرافيك) تعد من أفضل الوسائل لتوصيل المعلومة ، مقارنة بالأساليب الأخرى بما فيها التقارير الإنشائية . وفى الوقت نفسه ، ينبغى أن يقوم معدو ومحررو التقارير بشرح وتوضيح مضمونها للمسئولين شفاهة . ولا شك فى أن المسئولين الذين ترفع لهم هذه التقارير والبيانات ينبغى أن يكونوا على معرفة ودراية كافية بموضوع التقارير تمكنهم من تقييم الوضع على نحو سليم واتخاذ القرار الناجع بشأنه .

بالطبع هناك حاجة لوجود نظام فاعل سواء أكان على المستوى الحكومى أم الإدارى أم الاقتصادى ، إلا أن العنصر البشرى الذى يقوم بتشغيل هذا النظام هو العامل الحاسم والمهم فى مختلف جوانب العملية . ولا شك أن النظام الممتاز يمكن فى أفضل الأحوال ، أن يوفر حلولا جزئية لما يطرأ من أزمات . غير أن العامل البشرى هو الذى يحدد كيفية وكفاءة تشغيل هذا النظام .

ومن بين الدروس المهمَّة المستفادة من التجربة الماليزية أيضًا أن الحكومة لا بد من أن تولى إدارة اقتصادها اهتمامًا كبيراً ومستمراً ، وينبغى ألا تسمح لنفسها بالتراخى والضعف فى كل ما يتصل بالمحافظة على قوتها الاقتصادية والمالية . إن اليقظة المطلقة كانت وحدها الكفيلة بمحافظة ماليزيا على تحقيق معدلات نمو عالية ، والتى من شأنها أن تدفع بالبلاد باتجاه بلوغ مرتبة الدولة المتطورة بحلول عام ٢٠٢٠ م .

ونحن على يقين من أن الأزمة المالية بمنظمة شرق وجنوب شرق آسيا لم تكن حتمية ، وما كان لها لتحدث إذا كان هدف النظام المالى الدولى مجرد تسهيل لتدفق والتفاعل الاقتصادى بين الأمم ، بما فى ذلك الاستثمارات المباشرة الأجنبية . بيد أن القوة الرأسمالية المهيمنة كانت ومازالت ترغب فى الاستئثار بكل شئ . إنها ترغب فى نشر أجندتها السياسية التى تجعل النظام المالى الدولى لا يسمح فقط ، بل يشجع فى بعض الأحيان ، على الاتجار بالعملات ،وهو نشاط غير ضرورى على الإطلاق ويدمر ثروات أكبر مما يحققه المضاربون من أرباح .

إن مستقبل الأمة الإسلامية على الصعيد الاقتصادى بأيدى المسلمين أنفسهم . صحيح أننا نعيش فى عالم تهيمن على اقتصاده وسياسته دول غير إسلامية ، وصحيح أننا نعيش فى عالم لا يحظى فيه المسلمون بأقل قدر من التعاطف ، غير أنه لا يوجد ما يمنع أمتنا الإسلامية من النهوض مجددا متى ما أبدت الجدية اللازمة تجاه هذا الهدف .

ولعل من أهم القضايا التى ينبغى على المسلمين أن يبدأوا بها لإعداد أنفسهم لمجابهة التحديات المستجدة ، هى أن يكيفوا أنفسهم مع الواقع الراهن وأن يوفقوا أوضاعهم معه دون أن يتخلوا عن جوهر وأصول الدين الإسلامى الحنيف . لقد استخدمت كلمة أصول الإسلام وأعنى أساسيات وأصول ديننا التى تم إرساؤها خلال العصر الإسلامى الذهبى حينما غطت حضارتنا معظم بقاع العالم المعروف آنذاك . وأجد لزامًا علىَّ أن أشير هنا إلى أن من يدَّعون الأصولية اليوم يسعون فى الواقع إلى الالتفاف حول الإسلام على حساب جوهر وأصول ديننا الحنيف . إن ممارسات وسلوك هؤلاء المتطرفين لن تجلب للإسلام والمسلمين إلا مزيدا من التمزق والتجزئة والتخلف ، وتؤجج حقد وعداء ونفور الآخرين من غير المسلمين على ديننا وأتباعه فى كل مكان .

إننى مقتنع تمامًا بأن الجهاد الحقيقى ما هو إلا جهاد المسلم لتحقيق الوحدة الإسلامية ، واكتساب فنون الحكم وإدارة الدولة وتحصيل المعرفة والتسلح بالمهارات العالية ، بما يؤدى إلى

تحرير المسلمين من الاضطهاد والقمع ، ويمكنهم من إعداد أنفسهم للمساهمة بفاعلية فى إعادة إنتاج الحضارة الإسلامية المقبلة على غرار ما شهده العالم من قبل .

الفصل السابع

الارتقاء بمفهوم الإسلام وتعزيزه لدى وسائل الإعلام *

أبدأ كلمتى هذه بالتأكيد على أن هذه الحلقة الدراسية ستساعد أجهزة الإعلام المحلية والأجنبية ، إسلامية أو غير إسلامية ، فى تكوين صورة أكثر وضوحا عن الإسلام ، ويحدونى الأمل فى أن تسهم فى إيجاد فهم أوضح للإسلام من قِبل هذه الأجهزة دون استثناء .

ولو جاز أن أقتبس من تشرشل قوله : «لم يحدث أبدا فى تاريخ البشرية أن مكن شىءٌ بهذا الحجم الصغير مثل هذا العدد الضخم من الناس فى الوصول إلى مثل هذه الكمية الضخمة من المعلومات» وأنا متأكد أن تشرشل سيعذرنى عن هذا «التشويه» لتصريحه الشهير فى أثناء الحرب العالمية الثانية الذى عنى به سلاح الجو الملكى البريطانى . لكنَّ ، حقًا ، فإن هذه الرقائق الدقيقة مكنت الستة بلايين شخص على وجه الأرض عمليا من الوصول إلى جميع المعلومات التى يريدونها ، بل أكثر ، كما أتيح للبشرية استخدام هذه الخدمة لأى غرض كان .

وللمرء أن يتخيل أن هذه الفرصة هى هبة من الله للبشر . ففى الأزمان القديمة عندما اخترع الإنسان الكتابة لتسجيل وإيصال الرسائل بطريقة أخرى غير الكلمة المنطوقة ، لم يجد فى هذا الاختراع الجديد ما يفيد إلا عدداً قليلاً من الناس كانوا يستطيعون القراءة والكتابة . كما كانت عملية الكتابة على الحجارة وأوراق الشجر مملة ومرهقة ، وبعث الرسائل بهذه الطريقة إلى أى مسافة كان أمرا غير عملى تماما . لكننا نجد اليوم أن بإمكاننا أن نرسل حالا الكلمات المكتوبة ، والأصوات ، وحتى الصور يمكن إرسالها حالا إلى أى مكان عبر

---

* كلمته فى أعمال الندوة الدولية حول ترقية وتعزيز مفهوم الإسلام - كوالالمبور ٣٠ يونيو ٢٠٠٠م .

المعمورة . وهكذا فإن كل المعارف التى تراكمت على مدى ثلاثة آلاف عام ، وكذلك تلك التى نتجت عنها فى الوقت الحالى ، يمكن تعلمها واستخدامها لتحسين مستوى حياة كل إنسان فى كل مكان والارتقاء بها . وسيصبح العالم مجالا أفضل بالتأكيد بعد أن أصبحت المعلومات فى متناول الجميع . ببساطة أنقر على حروف لوحة مفاتيح الكمبيوتر فستأتيك المعرفة متدفقة على شاشة البيانات فى الجهاز ، ومعها ستأتى جميع أنواع المهارات ، فتجعل الفرد أكثر تأهيلا للعمل وأكثر إنتاجًا وأقدر على كسب دخل أعلى ، وبالتالى سيغتنى الأفراد وستصبح المجتمعات والأمم أغنى نتيجة لتوفر المعرفة وسهولة الحصول عليها وما ينجم عن ذلك من تطور هائل فى قدرات البشر أنفسهم ونوعيتهم .

إننا نسمع أن كل محتويات مكتبة الكونجرس الأمريكى بما تحتويه من معرفة فى كل المجالات ، متوفرة على شبكة الإنترنيت . وقد أدى توفر أنواع البرمجيات الكمبيوترية وتطور وتعدد أدوات البحث إلى أن يصبح الحصول على المعرفة والمهارات أمرا فى غاية السهولة . وبالطبع هناك آلاف المصادر الأخرى من المعلومات والمعارف المتدفقة عبر الكمبيوتر ، والتى تتوفر لقاء ثمن زهيد يكاد لا يذكر .

إنه عالم سحرى عجيب ، عالم المعرفة الفورية غير المحدودة . لقد احتلت وسائل الإعلام مكانا مركزيا فى بث ونشر المعلومات والمعرفة حول كل شئ عبر الكلمات المكتوبة والصورة عبر الإذاعة والتلفزيون وعبر الإنترنيت . لا شك أن وسائل الإعلام لا يمكن احتواء أو تقييد حريتها ، فحدود الدول لا تعنى شيئا لوسائل الإعلام التى بها وعبرها يمكن الوصول إلى أى مكان فى العالم على نحو فورى وفى أى وقت . وإذا لم تستطع الكلمات أن تصف الحدث ، فإن الصور يمكنها أن تنطق بما يعادل مليون كلمة .

وتتوفر الآن فرصة خيالية رائعة لوسائل الإعلام كى تلعب دورا فى نشر الحقيقة عن كل شئ ، من تنقية الهواء وتوفير فرص التفاهم وتعزيز كل ما هو جيد ، إضافة إلى إمكانية مساهمتها فى محاربة كل ما هو سلبى وسيئ . وهناك فرصة ذهبية لوسائل الإعلام لتسهم فى

بناء عالم أفضل وأكثر عدالة ومساواة مثلما تتوفر الفرصة لها فى المساهمة فى تحقيق مزيد من الثراء فى المعمورة ، وزيادة ثروة كل فرد فى كل مكان فى العالم .

هناك سوء فهم عميق فى هذا العالم ، نابع من المعلومات الخاطئة أو عدم القدرة على تلقى المعلومات الصحيحة . وبسبب ذلك فإن الدول والأقاليم والناس والأعراق وأتباع الأديان المختلفة ، يكرهون بعضهم بعضا ، وفى أحوال كثيرة جداً ينظرون شزرا إلى بعضهم بعضا ، ويتقاتلون . إذن فإن المعلومة الصحيحة يمكن أن تساعد فى تحقيق العداء والشكوك فيما بينهم ، إن جمع المجموعات البشرية جمعاء ربما يمكن من خلق عالم أفضل وأرحب .

دعنا نأخذ المفهوم العام للإسلام كمثال ؛ إذ لا نجد دينا آخر أُسئ فهمه أكثر من الإسلام ، ليس من قبل غير المسلمين فقط ، بل من المسلمين أنفسهم ، وبسبب سوء الفهم هذا ، هناك نزاع دائم ومواجهة بين المسلمين وغير المسلمين وبين المسلمين أنفسهم .

إن الآراء والتصنيفات الانتقائية النمطية تعبير من أخطر أسلحة المتعصبين . فالإرهاب على سبيل المثال يتورط فيه أناس من كل الديانات مسيحية كانت أم إسلامية ، هندوسية أم بوذية وما يتفرع عنها من طوائف .

ولكن فى حين يُربط الإرهاب دائما بالدين الإسلامى حيثما ارتكبه مسلمون ، فإن إرهاب غير المسلمين لا يُربط بأديانهم ومعتقداتهم ، حتى إذا ارتكبوه من أجل إعلاء مصلحة وباسم دينٍ بعينه . فقد هاجم الهندوس على سبيل المثال ، المسلمين باسم الهندوسية ، لكن لم يُطلق عليهم إرهابيون هندوس . وسممت طائفة «أيوم شينريكيو» البوذية فى اليابان الناس بإطلاق الغاز السام ، ولم يعتبر ذلك إرهابا بوذيًا . وأرهب الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا الشمالية بعضهم بعضا ، لكن لم يطلق عليهم إرهابيون مسيحيون . إلا أنه إذا هاجم مسلمون مضللون أناسا غير مسلمين أو مسلمين آخرين . دُمغوا بأنهم إرهابيون . إذا لماذا هذا التحيز ضد المسلمين من قبل وسائل الإعلام؟

هناك شواهد كثيرة أخرى على عدم نزاهة وسائل الإعلام فى تناولها لقضايا الإسلام

وانتهاجها أسلوبا متحيزا ضده . لقد أصبح الإسلام دينا لم يسئ فهمه فقط ، بل دينا يعاديه وسبه غير المسلمين دون أى سبب وجيه .

مع ذلك فإن أمام وسائل الإعلام فرصة كبرى لتصحيح المعلومات المشوهة والفهم الخاطئ للإسلام ، وإذا ما استغلت هذه الفرصة فإنها يمكن أن تسهم كثيراً فى إيجاد تفاهم أكبر بين المسلمين وأتباع الأديان الأخرى ، وبالتالى جلب توافق أكبر وسلام إلى العالم . ويجب أن يقتحم وسائل الإعلام عدد كبير من الذين يرغبون فى فعل الخير والمساعدة فى حلّ بعض مشكلات العالم . وتستطيع وسائل الإعلام المساهمة فى خلق تفاهم بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى ، من خلال مساعدة الناس على فهم بعضهم بعضا .

أن الإسلام هو دين السلام . فالمسلمون يحيون بعضهم بعضا ويحيون الآخرين بتحية السلام عليكم ، وهذا يعنى الرغبة فى السلام ، فنحن نريد السلام للجميع . لكن لا أحداً يصدق اليوم أن المسلمين مسالمون ويريدون السلم للجميع ، مسلمين أو غير مسلمين . وأنا أعترف أن اللائمة فيما أصبح يعرف عنا من صورة سيئة ، تقع علينا نحن معشر المسلمين قبل غيرنا . فهناك أناس بيننا يقومون عمداً بتصرفات تجعل الآخرين يكرهون الإسلام . إنهم يفعلون ذلك باسم الإسلام ، لكن ما يفعلونه ليس من الإسلام . فالإسلام لايقرّ التطرف أو عدم التسامح ، بل إننا مأمورون بأن نكون متسامحين وأن نمتنع عن استخدام القوة . لكن هناك جماعات إسلامية متطرفة لن تجد حرجًا ولا وازعًا فى السعى إلى حمل الناس بالقوة على أن يكونوا ورعين متى ما استولت على السلطة ، متناسية بالطبع أن الورع المفروض بالقوة ليس ورعًا على الإطلاق . وبالرغم من ذلك فإن المُنتقصين من قدرنا لا يمكن إعفاؤهم من اللوم ، فهم ووسائل إعلامهم قد ألحقوا بالمسلمين هذه الصورة السيئة .

إننا كمسلمين مستعدون لتصحيح تلك الصورة المشوّهة ، لكننا نحتاج إلى تعاون وسائل الإعلام ، خصوصًا الغربية منها . إذا نظر المرء حوله سيجد أن المسلمين مضطهدون فى كل مكان ويتمّ طردهم من أوطانهم ، إنهم فى الحقيقة ملة الشتات (الدياسبورا) فى

العصر الحديث) . فهم يغادرون أوطانهم لأنهم يتعرضون للاضطهاد من قِبل مسلمين آخرين ، ولكننا نجد أن غير المسلمين يحاولون اضطهادنا على نحو أبشع وأكثر من ذلك . لقد أصبح المسلمون ضحايا للظلم والاضطهاد وهم أحوج ما يكونون للتعاطف والحماية . لكن بدلاً من ذلك فهم المُتهمون عمومًا بممارسة الاضطهاد ، بأنهم يستحقون المصير المُحزن الذى يلاقونه على نحو ما نشهد فى وقتنا الحالى .

انظروا إلى البوسنة والهرسك وكوسوفو والشيشان والبلاد الأخرى التى سأكون غير دبلوماسى إن ذكرتها بصوت عال . المسلمون مضطهدون فى كل مكان ، وهذه قصة يجب أن تُحكى . القتل الجماعى فى سريبرنيتشا يجب أن يُحكى . عمليات الاعتقال والتعذيب والقتل يجب أن تُحكى . وبينما الإرهابيون ذوو العقيدة الإسلامية يقال إنهم إرهابيون مسلمون ، فلا أحد يتحدث عن المسلمين الذين اضطهدوا وذُبحوا وطُردوا من أوطانهم الأم ؛ لأنهم ضحايا مسلمين . لا جريمة سوى أنهم مسلمون . نعم لقد أفضى بهم اليأس إلى القتال دفاعًا عن النفس وبضراوة فى بعض الأحيان ، وارتكبوا أعمالاً إرهابية فى أحيان أخرى . وصحيح إنهم غالبًا ما يقتلون من دون رحمة وبلا تمييز ، لكنهم ليسوا الوحيدين الذين يفعلون ذلك بدافع الغضب والإحباط . فهل يعنى ذلك أن الظلم الذى وقع عليهم ينبغى ألا يُكشف للعالم ودون تحيز؟ وهل نتركه يمر مرور الكرام دون الإدانة المعتادة؟ ألا يمكن ذكر الأسباب الحقيقية التى دفعتهم لارتكاب الأعمال الوحشية ظاهريًا؟ ألا يمكن أيضًا أن نقوم بوصف الأسلوب والطريقة اللتين تم إرهاب المسلمين بهما وما حلّ بهم من اضطهاد من قبل أعدائهم وجلاديهم؟

دعنا نأخذ العراق كمثال . أنا لا أتفق مع العراق فى مبرّراته لغزو جارته الكويت . وربما يكون للعراق ادّعاء تاريخى ، لكن كثيرين منا لديهم ادّعاءات تاريخية على ملكية أراض مجاورة . ماليزيا لديها ادّعاء فى تايلاند الجنوبية ، لكن ذلك كان تاريخًا ، لقد قبلنا بها كجزء من تايلاند ، ولن نقول أى شىء أكثر من ذلك حولها . ولن ندعم عمليات التمرد والعصيان

ضد تايلاند . وبالتأكيد فإن العراق يجب أن يقبل بأن الكويت الآن دولة مستقلة . لكن الحقيقة هى أن العراق هاجم الكويت وانهزم أمام ما أُطلق عليها اسم «القوة الدولية» وكان بمقدور القوات المهاجمة أن تتقدم وتأسر زعيم العراق ، لكنها لم تفعل . وفى المقابل فإن من يُسمّون بمحررى الكويت فرضوا جميع أشكال القيود على العراق ، قيود عاقبت المدنيين والأطفال والكبار والمرضى والنساء . وطوال عشر سنوات تُرك شعب العراق يعانى ؛ لأن قائده غير محبوب لدى الغرب .

فهل من العدل فى شىء أن نعاقب شعبًا بأجمعه على أفعال رجل واحد لم ينتخبه ولا يستطيع إزاحته؟ . .ألا ينبغى أن تعكس وسائل الإعلام مأساة العراق الحقيقية ومعاناة شعبه؟ ألا يتعين أن تنظم الصحافة حملة من أجل إنهاء العقوبات؟ مع ملاحظة أنه حتى ضباط الأمم المتحدة المكلفون بمراقبة نشاطات العراق (الإجرامية) بحسب تعبير القوى المهيمنة قد أدانوا البربرية ضد ذلك البلد واستقالوا . ومع ذلك فإن قصة أولئك النفر الذين استقالوا لم تُنشر بالكامل ، ولا يزال شعب العراق يعانى .

هل سبب ذلك أنهم مسلمون وأن وسائل الإعلام تتجاهل معاناتهم؟ نتمنى أن يكون الجواب بالنفى . لكننا نعتقد أحيانًا أن السبب هو لأنهم مسلمون . بالمقابل فإن العقوبات ضد صربيا لم تُفرض بفاعلية ، فهل لأنهم مسيحيون ، وفوق ذلك ؛ لأن ما ارتكبوه من جرائم كانت ضد مسلمين؟ !

ما يجب ذكره هو أن غالبية المسلمين مثل غالبية المسيحيين والهندوس والبوذيين ، أناس طيبون لا يقصدون إلحاق أى أذى بأى شخص رغم أن صورة كل واحد منهم لدى الآخرين مشوّهة تمامًا . ولا شك أن وسط أى شعب أو أية أمة يوجد البعض غير العقلاء ومن يتّسمون بالتطرف والعنف . وعدد أمثال هؤلاء بين المسلمين ليس أكبر من عددهم بين المجموعات الدينية الأخرى . نحن وغيرنا مطالبون بالسعى لأن نفهم لماذا صار الإرهابيون والمتطرفون والمتزمّتون على ما هم عليه من حال !

إن تطرف هذه الفئات لا صلة له بالإسلام ؛ لأن ديننا الحنيف لا يقرّ التطرف ، والإسلام ينبذ ويمقت الفوضى . ومن الضرورى أن يفهم الآخرون أن الإعداد للحرب فى الإسلام مطلوب فقط لحماية المسلمين إذا ما هوجموا فى إطار الدفاع عن أنفسهم .

ورغم أن أعمال الإرهاب لا مكان لها فى الإسلام ، إلا أن هناك بين المسلمين عدداً من المتهورين والمحبطين بشدة ، بسبب الظلم الواقع عليهم وعلى بلادهم ، ولدرجة أنهم ينسون تعاليم الإسلام ، ويحاولون أن يحاربوا باسم قضيته بطريقتهم الخاصة ، أو فى الحقيقة بالطريقة التى ينتهجها الآخرون تجاه المسلمين . لقد تعلم المسلمون خطف الطائرات ، من غير المسلمين ، لكننا نجد أن من ابتدعوا هذه الفعلة لم يدمغوا بالأرهاب ولم يلصق ذلك بدينهم .

أما الخاطفون المسلمون فليسوا مجرمين عاديين يريدون إثراء أنفسهم ، إنما هم أصحاب قضية ويعتقدون بكل إخلاص وصدق أنهم يخاطرون بأرواحهم لصالح المسلمين . فإذا عرّضوا الآخرين للخطر وأوقعوا خسائر فى صفوف غير المحاربين ، من مدنيين وغيرهم ، ألا يفعل أولئك الذين يضطهدون المسلمين الشىء نفسه ، من قصف وقتل بحق المدنيين الأبرياء؟ هذه وجهة نظرهم بالطبع ، لكن العالم الإسلامى لا يقبل مثل هذه الأعمال . نحن نحاول أن نتفاوض ، ونحاول أن نوضح ، لكننا نجد أنفسنا أمام حائط أصمّ . هناك عدم استعداد مطلق للاستماع إلى وجهة نظرنا فى هذه القضية . فالدول غير الإسلامية القوية لديها وجهة نظر منحازة ضدنا . ووسائل الإعلام الغربية متحيزة دائمًا ، وتقاريرها وتحليلاتها وأخبارها مُحرَّفه ومشوّهة ، بهدف إبراز أفعال وممارسات قلّة من المسلمين المُضلّلين والمُحبَطين وكأنها تُجسّد رغبات وتوجهات الأمة الإسلامية التى تتألف من بليون نسمة .

ومع ذلك ، فإن وسائل الإعلام يمكنها أن تخفف من هذا التحيز والتحامل بإعطاء الصورة الحقيقية للوضع وقول الحقيقة . لكن الإعلام الغربى ، دون استثناء تقريبا ، يسهم بمفاقمة الأمور عن طريق المبالغة وتقديم أخبار مُحرّفة عن المسلمين الإرهابيين ، هل نسيت وسائل الإعلام أن الإرهابيين فى العديد من مستعمرات الغرب أصبحوا فيما بعد يوصفون

بأنهم رجال دولة ، وكانوا فى الحقيقة مقاتلين من أجل الحرية ، يناضلون لتحرير بلادهم؟ وبعدما حققوا الاستقلال تمّ الاعتراف بهم كقادة مسئولين لحكومات دولهم المستقلةّ ! من هو چومو كينياتا رئيس كينيا؟ ألم يكن يُصنَّف فى عداد الإرهابيين؟ ألا يمكن أن يصبح من يُطلق عليهم الإرهابيون المسلمون اليوم ، رجال دولة ، غداً يقودون شعوبهم فى سلام ووئام مع بقية دول العالم؟ بطبيعة الحال يصعب الآن تخيّل أن هؤلاء المناضلين الذين يناضلون ضد الاضطهاد ، والذين لم يأتوا بكبيرة فى الواقع سوى أنهم يردون للغرب بضاعته من قتل وسفك دماء وإرهاب ، لكنهم ينطلقون من أجل قضية ، يمكن أن يصبحوا فى يوم من الأيام ، رجال دولة أو قادة لشعوبهم ، على الإطلاق . لكن هل نستطيع حقًا القول بأن حدوث شىء من هذا القبيل مستحيل تمامًا؟

الحقيقة التى يجب أن يعترف بها الجميع هى أن المسلمين والعالم الإسلامى لم يتمّ تهميشهم فقط ، بل إنهم اضطهدوا على نحو بشع ؛ لأنه لا توجد اليوم قوة إسلامية واحدة فى العالم يمكن أن تتصدى لحماقات الآخرين . إنهم مجرّدون تمامًا من القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، ويعتمدون تمامًا على حكامهم المستبدين وعلى أولئك الذين هم ضدهم سراً أو علنًا . ويلاحظ أن كل نوع من أنواع الظلم يمكن أن يمارس ضد المسلمين ، غير أن مرتكبيه لا ينجون بجرمهم فحسب ، بل غالبا ما يتم تمجيدهم ، وخلق أبطال منهم .

ففى البوسنة والهرسك كان العالم يشاهد يوميًا على شاشات التلفاز الفظائع التى يرتكبها الصرّب فى حقّ المسلمين البوسنيين . وفى إحدى الحالات ، كان ضابط بريطانى منزعجًا وغاضبًا للغاية وهو يدين إحراق منزل به نساء وأطفال أحياء . الآلاف قتلوا على أيدى الصرب فى سربيرنيتشا ، ومع ذلك تراجعت القوات الأوروبية التى كان يفترض أن تحميهم ، وأدارت ظهرها إلى الجهة الأخرى . وقد ماطلت الدول الأوربية وأمريكا فى التحرك لاتخاذ عمل ضد الصرب فى البوسنة والهرسك وفى صربيا خشية تدخّل روسى للدفاع عن الصرب . غير أنهم فى أماكن أخرى لم يخافوا من الروس ، حيث قصفوا العراق بكل حرية

وهو حليف لروسيا . أما فى يوغسلافيا فقد خافوا من رد فعل روسيا ، لذلك سمحوا للفظائع الصربية بأن تمضى قدمًا ، أكثر من ٢٠٠ ألف بوسنى كانوا ضحايا مذابح جماعية ودفنوا فى مقابر حُفرت على عجل .

كثيرون من الناس علّقوا ساخرين بالقول بأنه لو كانت البوسنة والهرسك تنتج النفط للغرب ، أو لو كان الصرب مسلمين لرأينا تدخلاً سريعًا ضدهم !

الآن نرى الروس يمسحون الشيشان من على وجه الأرض ، إن ما يحدث فى الشيشان هو إبادة جماعية بكل معنى الكلمة . المقاتلون الشيشان يعرفون أنهم لا يستطيعون هزيمة الروس ؛ لأن المعركة غير متكافئة فهناك مليون شيشانى ضد ٢٦٠ مليون روسى مسلحين جيدًا وقساةً لا يرحمون ، لكن الشيشان أرادوا الاستقلال لدولتهم الصغيرة؟ !

لا شك أنه لا يوجد بلد واحد يقدم على التخلى عن بوصة مربعة من أرضه وليس من الحكمة أن يقوم بلد بدعم انفصال إقليم من أى دولة ؛ لأن مثل هذه السابقة قد تستخدم لاقتطاع أرض من إقليم ذلك البلد نفسه . لكن الاتحاد السوفيتى تم تفكيكه وبرزت منه دول مستقلة عديدة . فلماذا لا يستقل الشيشان؟ يجب ألا ننسى أن المجتمع الدولى ساند مؤخراً انفصال تيمور الشرقية عن إندونيسيا . هناك دول إسلامية أخرى تبدو سعيدة بالبقاء جزءاً من الاتحاد الروسى ، لكن الشيشان تريد أن تكون مستقلة .

وبالطبع نحن فى ماليزيا مثل جميع الدول الأخرى لا نشجع الانفصال ولن نعترف بدول منشقة ؛ لأن بلادنا نفسها تتكون من اتحاد ولايات ، ولن نسمح بأى انفصال لأية واحدة من ولاياتنا .

ولكن للشيشان كيانها مثل الدول الأخرى فى الاتحاد الروسى أو الاتحاد اليوغوسلافى ، والشيشانيون شعب يتميز بنزعة استقلالية شديدة ، وهم بالمصادفة مسلمون أيضًا . ألا يمكن أن تحل مشكلة انفصالهم سلميًا؟ لكن الذى يحدث اليوم هو عكس ذلك . . يجرى الاستئساد عليهم وإبادتهم وتدميرهم نفسيًا من قِبل الروس . كم من الناس

تساءلوا عن انتهاك روسيا لحقوق الإنسان وإساءة استخدام قوتها؟ الموضوع برمته غير نزيه وغير عادل .

لقد أحسّ المسلمون على نطاق العالم بالظلم ، غير أن ما كان يجرى على الأرض فى الشيشان لم يتم تسجيله وبثه بالأسلوب الصحيح وبالدقة التى تكشف حجم تلك الفظائع . ولقد تعمدت وسائل الإعلام غضّ الطرف عن تلك الممارسات الوحشية اللاإنسانية ، فى وقت درجت فيه على رصد وبثّ مظالم ثانوية وتافهة ، لا لسبب إلا لأنها وقعت من قِبل أطراف إسلامية .

إن كل ما تفعله جماعات أو دول إسلامية لا يكون صحيحًا بنظر الإعلام الغربى ، فإذا احتجز أى شخص دون محاكمة فهذا ظلم . وعندما تكون هناك محاكمة مفتوحة أمام أنظار الجميع يقولون أيضا إنها غير عادلة ؛ لأنه لن تكون هناك براءة .

المسلمون لا يطلبون من وسائل الإعلام أن تكون منحازة لهم ، بل كل ما يأملون به هو التغطية الخبرية النزيهة على الأقل بعد كل تقرير متحيز أو غير مستحسن يجب أن يعطوا فرصة للاستماع للمسلمين لعرض وجهة نظرهم فى شأن القصة المطروحة . دون شك فإنهم لن يستطيعوا توضيح وتبرير كل الممارسات التى يأتون بها باسم الإسلام أو العدالة أو غير ذلك ، لكن العالم قد يجد فرصة كى يرى الأشياء بموضوعية ليحكم عليها من منطلق مستقل وغير متحيز .

نحن نعلم أن وسائل الإعلام قوية وواسعة النفوذ وعندما تعمل مجتمعة تزداد قوة على قوة . ونحن نعلم أيضا أن القوة أو السلطة عامل مساعد على إفساد الذمم والضمائر . وتأسيساً على ذلك فإن قوة وسلطة الإعلام الغربى المطلقة يمكن أن تجلب فساداً مطلقاً بذات القدر .

الإعلام له أجندته الخاصة فى الوقت الحالى ؛ لأنه يريد تشكيل العالم ، وليس العالم أو فكر قادته هو الذى يشكل التغطية الإعلامية . إن ما تراه وسائل الإعلام أو ما تعتبره صحيحا

للعالم ، هو الذى تعتد به الآن وتأخذه فى الحسبان وتبعا لذلك ، إذا كانت وسائل الإعلام مع أى شيء أو ضد أى شيء فإن تقاريرها ستعكس هذا الأمر . لكنها مثل أية مجموعات مصالح قد تكون مخطئة . وحتى حين تصر على ترويج وجهات نظرها الخاصة فالضرر الناتج عن ذلك قد يكون فادحًا .

نحن نعلم أن وسائل الإعلام خاضعة اليوم لهيمنة غربية شبه تامة . ورغم أن الحكومات الغربية لا تسيطر عليها على نحو مكشوف على الأقل ، إلا أن آراءها تعكس الانحياز الغربى والسياسات الغربية . وبما أن الغالب الأعمّ من وجهات النظر الغربية هى ضد المسلمين ، فإن وسائل الإعلام تروج عن عمد لهذه الآراء المعادية للمسلمين .

وتجدر الملاحظة ، أن المسلمين ليسوا بالضرورة معادين للغربيين ، فقد يكون البعض منهم موال للغرب ، بل أشد موالاة له . لكنهم بصفة عامة يظلون مسلمين بنظر الغربيين ، وهذا الأمر ينطبق أيضًا على بلدانهم كدول إسلامية . فماداموا مسلمين فهم لا يستحقون التعاطف أو التغطية النزيهة من قبل وسائل الإعلام . وبما أن التغطية غير نزيهة ، بل متحيزة تماما ، فإنها تعكس سوء فهم وتحيز الشعوب الغربية ضد المسلمين . وهكذا فإن وسائل الإعلام تسهم فى إدامة المواجهة بين المسلمين وغير المسلمين .

ربما يترتب عن ذلك بعض المكاسب ، لكن بالتأكيد سيكون الكسب أكبر عندما تنتهى المواجهة بين المسلمين وغير المسلمين ، ويراعى بعضهم بعضا بوصفهم أعضاءً فى الجنس البشرى مُعرَّضين للخطأ مثل كل البشر .

إن وسائل الإعلام بما لها من قوة وتأثير يمكن أن تسهم بفاعلية فى إيجاد تفاهم أكبر بين الشعوب ، وبين أتباع الأديان المختلفة . ولقد تعززت سطوة وسائل الإعلام بشكل هائل مع تكنولوچيا المعلومات الحديثة . وإذا اختارت أن تفعل الخير فبمقدورها أن تجلب السلام والتفاهم إلى العالم حقًا .

كما أنه يمكن لوسائل الإعلام أن تقدم الكثير من أجل توسيع دائرة تفهم الآخرين

للإسلام والمسلمين . وبالطبع يجب أن يفعل المسلمون شيئاً لأنفسهم أيضًا ، لكن دور الإعلام كبير جداً وقوته من الضخامة بحيث إن التزام المسلمين بالسلوك الحسن وحده لن يكون كافيًا أو مجديًا ، ما لم يحصلوا على تعاون وسائل الإعلام .

المسلمون ليسوا ضد الغرب أو المسيحيين أو اليهود بالفطرة ، المسلمون يريدون السلام بقدر ما يريده الآخرون . نحن نريد تقاسم خيرات هذه الأرض ، نحن لسنا شعوبًا عنيفة مجلوبة على الرعب والسلوك الفوضوى . قد يسيء بعضنا السلوك لكن ذلك ليس أكثر مما يفعله الآخرون ، ولا يجب دمغنا بطلاء واحد هو الإرهاب والتزمت ، ولا شك أن الغالبية العظمى من المسلمين ما هم إلا أناس طيبون وعقلانيون ومحبون للسلام .

يجب على وسائل الإعلام أن تعطينا حقنا ، وأنا متأكد تماما من أننا معشر المسلمين ستتجاوب إيجابيًا معها ، ربما ليس كلنا ولكن الأغلبية الساحقة منا .

نحن نتحدث الآن عن القرية الكونية حيث لا يستطيع أى منا أن يعيش الآن فى جزيرة معزولة ، بل ينبغى أن نكون جيران متفاهمين كسكان قرية واحدة ، وكل ما نحتاجه هو أن نجتمع ونحل خلافاتنا كما يفعل القرويون ، لا أن يكونوا فى مواجهة بعضهم بعضًا إلى ما لا نهاية .

هنا يمكن لوسائل الإعلام أن تلعب دوراً كبيراً فى تطوير ثقافة القرية الكونية ، حيث يعيش المسلمون وغير المسلمين ويعملون معًا ويتقاسمون ثمار عملهم معًا بالحسنى والتساوى (بالإحسان والعدل) إن توفُّرت تقنيات الاتصالات الفورية على مستوى العالم وعلى نحو غير محدود ، وفَّر معه فرصة ذهبية ، وينبغى على وسائل الإعلام ألا تدع الفرصة تفلت منها .

إن ما يمكن أن يسهم به أى شخص فى سبيل تفهم بقية العالم للإسلام والمسلمين ، يشكل مساهمة أيضًا فى بناء القرية التى تتكون على نحو سريع جداً الآن . فإذا قامت هذه القرية على أسس مشوهة فستكون مشوهة طوال هذه الألفية الثالثة ، وإذا أنشأناها على قاعدة سليمة وجميلة ، فستدوم جمالاً إلى الأبد .

هذا هو التحدى الذى تواجهه وسائل الإعلام . نحن المسلمين نصلى لله ونأمل أن تتعاون معنا تلك الأجهزة من خلال تعزيز جهودنا بقوتها ونفوذها الواسع ، بما يمكننا سويًا من دحض هذه الصورة المشوهة الزائفة التى كوّنها العالم عن الإسلام والمسلمين ومحوها .

الفصل الثامن

دور الدين في مجتمع متعدد الأديان *

يُعدُّ الدين الإسلامى أكثر عقيدة أسيء فهمها فى وقتنا الحديث من قِبل المسلمين أنفسهم ومن قبل غير المسلمين بطبيعة الحال . وقد بلغ المسلمون درجة من إساءة فهم دينهم تسببت فى خلق حاجز يقف عائقًا دون النفاذ إلى جوهر هذه العقيدة ، ويمنع غير المسلمين من السعى للتواصل والإحتكاك بهم . ويبدو أن المسلمين تناسوا أن أسلاف الغالبية العظمى منهم كانوا من غير المؤمنين بالرسالة المحمدية ، لكنهم اعتنقوا الإسلام نتيجة للاتصال والتفاعل بينهم وبين المسلمين .

لنفترض أن المسلمين الأوائل كانوا قد آثروا التقوقع على أنفسهم ووضعوا الحواجز والعقبات فى وجه كل محاولة من غيرهم للاتصال بهم ، إذا صح ذلك فإنه ما كان لأسلافنا فى بقاع كثيرة من العالم ليسمعوا بالدّين الإسلامى ، ولربما ماتوا على دين آبائهم من قبل أن يدركوا الإسلام . وبالتالى فإن مسلمى اليوم فى بقاع واسعة ربما ولدوا فى ملل غير إسلامية أو ربما اعتنقوا رسالة غير الرسالة المحمدية الخاتمة .

ثمة تجليات تكشف بوضوح لأى مدى أساء المسلمون فهم دينهم ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر ؛ رفض مفهوم الأخوة الإسلامية . ذلك أن كل مجموعة من أتباع الطوائف الإسلامية المختلفة تنظر إلى الأخرى على أنها غير مسلمة أو أنها على أحسن الفروض ، منحرفة عن الطريق الإسلامى القويم وترفض بالتالى معاملتها من منطلق الأخوة

---

* كلمة ألقاها في المؤتمر العالمى للدراسات الدينية : مجابهة الألفية . كوالالمبور – ماليزيا – ٣٠ ديسمبر ١٩٩٩م .

الإسلامية .

ويظهور الأحزاب السياسية فى عصرنا الحديث بدأ أعضاء بعض التنظيمات ينظرون إلى خصومهم السياسيين على أنهم غير ملتزمين بالإسلام يعاملونهم على نحو أسوأ من معاملتهم لغير المسلمين .

مظهر آخر من مظاهر سوء فهم المسلمين للإسلام ، يتمثل فى حالة العداء والحروب التى تقع بين عدد مهم من البلدان الإسلامية على نحو شبه مستمر ، وهو واقع لا يمتّ إلى مفهوم الأخوة الإسلامية بصلة . وحرىّ بالمسلمين إذا تفهموا المعانى السامية لعقيدتهم أن يعتبر كل واحد منهم الآخر أخاه فى الإسلام ، بصرف النظر عن الاختلافات السياسية والتمايز العرقى .

هناك حالات صارخة تصل إلى رفض بعض الجماعات الإسلامية أداء الصلاة مع جماعات أخرى ، لا لسبب سوى الاختلافات السياسية . وقد حضّ ديننا الحنيف المسلم على أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا ، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا . غير أن عددًا كبيرًا من المسلمين يعتقد أن سعى العبد ينبغى أن يكون خالصًا للحياة الأخرى دون غيرها . إن اعتقادًا كهذا يدفع المسلمين إلى إهمال الجوانب المتصلة بإشباع حاجيات الإنسان المادية والاستسلام انتظارا لما تسطره الأقدار ، ويترتب على ذلك أن يظل المسلمون فقراء معدمين غير قادرين على تحرير إرادتهم وعاجزين تمامًا عن الدفاع عن أنفسهم ضد قهر واستغلال الآخرين .

ومما لا شك فيه أن الأوضاع المأساوية فى البوسنة والهرسك وكوسوفا وعدد من دول غرب ووسط آسيا ، تقف شاهدًا على حالة الضعف المهينة وحالة التخلف اللتين تعيشهما الأمة الإسلامية . إن إخفاق المسلمين فى استيعاب وإدراك معانى ومغزى دينهم لا يساوى شيئا مقارنة بإخفاق غير المسلمين وبصفة خاصة الأقليات الأوروبية ، فى فهم الذهنية الإسلامية وعقيدتها . ولا شك أن هذا الأمر متجذّر فى التاريخ ولم ينبع من فراغ . ذلك أن

الهيمنة الإسلامية الطويلة على أجزاء مهمَّة من أوروبا وبسط حكم الدولة الإسلامية على تلك الأجزاء ، ظلّ على الدوام معياراً يشكل النظرة الغربية إزاء الإسلام ويؤثر فيها باستمرار .

ومن الواضح أن الحروب الصليبية والمعارك الحامية التى شُنت لطرد المسلمين من ربوع أوروبا ، لم تنته بعد رغم انتهاء الحكم الإسلامى لتلك الربوع منذ قرون عديدة . لقد هبّ الأوروبيون آنذاك للدفاع عن الديانة المسيحية وإنقاذها من الإسلام الزاحف ، غير أن ما تستشعره تلك الشعوب من خزى وعار فى ضوء بسط الدولة الإسلامية لنفوذها على بلدانهم ، ظلّ هو الذى يؤثر فى طريقة تفكيرهم تجاه الدين الإسلامى والشعوب المسلمة إلى يومنا هذا .

إن حالتى الضعف والتجزئة اللتين تعيشهما الأمة الإسلامية وشعوبها ، لا تسمح حاليًا بمحاولة إعادة الهيمنة الإسلامية على أوروبا أو جزء منها كما حدث فى الماضى . بيد أن المخاوف الأوروبية لم تهدأ بعد ، إن لم تكن تعمّقت على نحو تصاعدى . وكرد فعل لتلك الهواجس ، يسيطر على الأوروبين نوع من الريبة والشك حيال المسلمين ، ويعملون دائما على اضطهادهم أينماوجدوا .

هذا السلوك اللاواعى إزاء المسلمين ، يسيطر على الأوروبيين لدرجة نجدهم فيها يخاطبون أناسًا من المسلمين فى بعض الأحيان ، عن الحاجة لقمع واضطهاد جماعات إسلامية أخرى دون أن يدركو أن الآخرين قد لا يشاطرونهم وجهة النظر نفسها ، ولا يبدون أدنى درجة من التعاطف مع طرحٍ من ذلك القبيل .

لقد أخضعت الإمبراطورية العثمانية معظم أراضى أوروبا الشرقية لسيطرتها لقرون عدة ، وكادت أن تستولى على ڤيينا ، الأمر الذى كان بالإمكان أن يفتح الباب أمام المدّ الإسلامى الزاحف آنذاك لاجتياح البقاع الأوروبية كافة .

وبإلقاء نظرة على ما يجرى فى دويلات يوغوسلافيا السابقة ، يلاحظ المرء أن أقليات

أوروبية قد اعتنقت الإسلام وظلت على التزامها ووفائها له حتى فى أحلك اللحظات التاريخية إبّان حقبة الحكم الشيوعى الصارم . ولم يكن مستبعداً على الإطلاق أن يكون الإسلام دين عدد كبيرٍ من الأوروبيين فى الوقت الحالى ، إذا ما قُدِّر للمسلمين بسط نفوذهم وسيطرتهم على أوروبا الوسطى وقتئذ . غير أن حدثًا من هذا القبيل كان من الممكن أن يكون بمثابة عملٍ ذى كارثةٍ للأوربيين المسيحيين الملتزمين والذين يعتنقون المسيحية اسميًا على حدّ سواء .

لقد رتّب الأوروبيون سقوط الإمبراطورية العثمانية وعمل الفرنسيون والبريطانيون على وجه الخصوص على إشعال جذوة النزعة القومية العربية ، ومدّوا يد العون للحركات الوطنية لمساعدتها على التخلص من الحكم التركى . بيد أن العرب أدركوا عقب هزيمة الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى مباشرة ، أن هبّتهم القومية لم تفض إلى الاستقلال نظراً لأن البريطانيين والفرنسيين حلّوا محل الأتراك وأحكموا هيمنتهم على الدويلات العربية . وفى وقت لاحق أدرك العرب أيضًا أنهم لم يفعلوا شيئًا سوى استبدال حكم ذى هيمنة أوروبية مسيحية بحكم إسلامى هذه المرة . ولابد من الإشارة إلى أنه بقدر ما ظلت ذكرى الحكم الإسلامى لأجزاء من أوروبا حية فى وجدان الأوروبيين وأذهانهم ، فإن العرب يذكرون بذات القدر الخديعة التى انطلت عليهم بطرد الأتراك المسلمين والوقوع فريسة سائغة للإستعمار من جديد ، ولكن هذه المرة على أيد مسيحية أوروبية .

ويحدثّنا التاريخ الإسلامى أن المسلمين كانوا قد نجحوا من قبل فى التعايش مع المسيحيين جنبًا إلى جنب ، لكن مجيء الاستعمار الأوروبى الحديث جعلهم يربطون بين المسيحية وبين المستعمرين الجدد ، مما تسبب فى تفشى نزعة عدائية للديانة المسيحية فى أوساط المسلمين .

وتجدر الملاحظة إلى أن تلك النزعة العدوانية لم تقتصر على المسلمين فحسب ، بل إن العرب المسيحيين كانوا يمقتون المستعمرين الجدد أيضا ، ولم يخفف من كراهيتهم

للأوروبيين كونهم مرتبطين معا برابطة العقيدة الواحدة . وفى أعقاب زوال الإمبراطورية العثمانية شن العرب فى غربى آسيا وشمال إفريقيا مقاومة لسنوات طويلة لتحرير بلدانهم من ربقة الاستعمار الأوروبى الفظيع ، فخاضوا حروبًا تقليدية معززة بحروب عصابات فى بعض الأحيان ، فنجحوا فى إلحاق خسائر فادحة فى صفوف الاستعمار . وقد تعمّق الإحساس بالمرارة إزاء الأوروبيين لدرجة لم يعد من الممكن معها كبح مظاهر الغضب والإحباط ، إلى أن كُلّلت تلك المسيرة النضالية الشاقة بحصول البلدان العربية على استقلالها الوطنى .

بيد أن الدولة الإسلامية الموحدة قد تم تمزيق أوصالها إلى دويلات حملت فى ثناياها بذور الضعف . كان هناك شبه استحالة فى الواقع لتحل أى من الدول الناشئة مكان الإمبراطورية العثمانية ، نظرًا لأن الأخيرة كانت قوة أوروبية ونجحت بتوفير نوع من الحماية للمسلمين طوال فترة حكمها . كما أن الدول العربية نشأت ضعيفة بسبب التنافس فيما بينها ، وبرهنت على أنها لا يمكن أن تتطور إلى قوة يُحسب لها حساب فى المعادلات الإقليمية والدولية آنذاك .

ورغم ذلك ، كان بالإمكان أن تهدأ خواطر العرب وتخفّ حدة عدائهم إزاء الأوروبيين عقب حصول البلدان العربية على استقلالها . لكن لسوء الحظ ترك المستعمرون جرحًا نازفًا لا يندمل فى الجسد العربى ، بمعنى أن الأوروبيين رضخوا لمطالب محمياتهم بحقها فى الاستقلال وحكم نفسها بنفسها ، لكنهم أبوا إلا أن يجعلوا من فلسطين وطنًا لليهود ليريحوا أنفسهم وشعوبهم من مشكلة اليهود الأوروبيين إلى الأبد .

ونشير فى هذا المقام إلى أنه فى الوقت الذى اتُّخذ من فلسطين وطنًا لليهود ، كان هناك أقليات يهودية تعيش فى سلام ووئام وسط غالبية ساحقة من الشعوب العربية بالمنطقة العربية نفسها .

وبطبيعة الحال ، كان لابد للعرب أن يعتبروا قيام دولة إسرائيل فى فلسطين عملا سافرًا

لمصادرة أرض أبائهم وأجدادهم من أجل استرضاء اليهود من خلال حلّ ما كان يُعرف «بالمشكلة اليهودية» على حساب العرب . تلك التطورات شكّلت نقطة تحول مهمة بتدشينها عقلية الرفض العربى لكل ما هو أوروبى ولكل ما يمثله الغرب .

إن الحروب التقليدية لم تُمكن العرب من إزاحة إسرائيل من محيطهم ، واتضح بجلاء أن حرب العصابات هى الأسلوب الأمثل لردّ العدوان وإحباط الظلم الفادح الذى ألحقه المستعمرون بالعرب ، وإعادة الأمور إلى نصابها بتحرير فلسطين ولعل من المفيد أن نشير إلى أن الأوروبيين ظلوا على مدى العصور التاريخية يوفرون للآخرين أحدث ما ابتكرته التكنولوچيا العسكرية فى مجال الأسلحة وأدوات الحرب الأخرى . كما أن الأساليب الإرهابية التى تتضمن بين أشياء أخرى ، تهديد الأبرياء وإزهاق أرواح أعداد كبيرة منهم ، فى كثير من الأحيان ، هى من بنات أفكار الأوروبيين . والأدهى والأمر أن بعض أنواع الإرهاب فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى كانت من صنُع الدولة الأوروبية ؛ إذ انتشرت العصابات الإرهابية فى أوروبا مثل عصابة «بادر ماينهوف» فى حين تقع مسئولية اختطاف أول طائرة تجارية على عاتق الأوروبيين . وتُعدّ أيرلندا الشمالية مسرحًا ثريًا للعمليات الإرهابية التى تستهدف الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة فى الأماكن العامة دون تمييز بين المجرم والبرئ .

لقد لجأ العرب إلى استيراد تلك الأساليب الإرهابية مدفوعين بغبن دفين إزاء استلاب فلسطين ، فبدأوا باختطاف الطائرات وتفجير المرافق العامة وحسم الصراعات بينهم بالبندقية التى استخدموها أيضًا ضد الأوروبيين .

ومما لا شك فيه أن تلك الأساليب إرهابية من حيث أتت ، لكن بينما يُشار إلى الأجانب على أنهم إرهابيون فحسب ، أصبح العرب يُعرفون «بالإرهابيين المسلمين» . ومن القضايا التى لا جدال فيها أن هناك إرهابيين عربًا يدينون بالدين المسيحى ، لكنهم أصبحوا أيضًا يُعرفون «بالإرهابيين المسلمين؟ ، وهذا تصنيف يمكن إدراجه فى سياق تجليات إساءة الغرب

فهم العقيدة الإسلامية ، إن الإسلام فى الواقع هو دين السلام ويدل على ذلك كلمة «إسلام» نفسها التى ترجع بجذورها إلى الكلمة العربية «السلام» بيد أن هناك صعوبة فى إقناع الآخرين بذلك .

قبل مجئ الدين الإسلامى ، كان العرب منقسمين إلى قبائل لا حصر لها تمزّقها الحروب الداخلية التى تكاد لا تتوقف على الإطلاق . وكان هؤلاء البدو يتوقون إلى السّلم ، لكنهم لم يتمكنوا من تحقيقه . وكما هو الحال فى الصين التى كانت المجاعات تعصف بسكانها والتى درج الناس فيها على أن يحيّوا بعضهم البعض بعبارة «هل تناولت طعامك؟» ، فإن العرب كانوا يتوقون للسلم من شدة ما فتكت بهم الحروب ، لدرجة أنهم يلقون التحية على بعضهم البعض بعبارة «السلام عليكم» .

ومن المصادفات المثيرة للاهتمام ، أن اليهود الذين ينتمون إلى منطقة غرب آسيا يحيّون بعضهم البعض بكلمة «شالوم» التى تحمل مدلولاً مرادفًا لكلمة «السلام» العربية .

لذلك كان من الطبيعى أن يشدد الإسلام على كلمة «السّلم» بما يفضى إلى توحيد القبائل العربية المتحاربة وجمع المسلمين مع بعضهم فى أمن ووئام وسلام . وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام يرفض الحرب كأسلوب لحل المنازعات بين الناس على نحو قاطع ، ولا يقرّ حقًا للمسلم فى القتال إلا فى حال رد العدوان . مع ذلك فإن المؤرخين الغربيين بدون استثناء يعزون انتشار الإسلام إلى استخدام القوة والسيف . ويستفاد من التاريخ المسيحى أن هناك حالات تمت فيها ممارسة العنف والتعذيب والحرق كأساليب لنشر المسيحية ، غير أن المؤرخين المسلمين لم يتحدثوا قط عن تلك النماذج من العنف كمظهر شائع لنشر الديانة المسيحية . وعندما يتحدث الأوروبيون بعفوية عن «الإرهابيين المسلمين» فإنهم يميلون إلى تناسى أو تجاهل نزوعهم إلى العنف ، متجاهلين أن عددًا كبيرًا من المسلمين قد قتلوا على أيدى غير المسلمين فى البوسنة والهرسك ، مقارنة بعدد الذين لقوا حتفهم من غير المسلمين على أيدى «الإرهابيين المسلمين» . ويلاحظ أن الأوربيين لا يتحدثون أبدًا عن إرهاب مسيحى أو بوذى

أو هندوسى ، بينما لا يتركوا فرصة دون أن يربطوا أى عمل إرهابى بالمسلمين متى ما وقع هذا . دليل آخر يقف شاهداً على مدى ما بلغه الأوروبيون من سوء فهم للإسلام .

إن الملاويين الماليزيين مسلمون عن بكرة أبيهم ، ويشكلّ تاريخ شبه جزيرة مالايا نموذجًا للتعايش السلمى بين السكان الأصليين المسلمين وبين غير الملاويين الذين يعتنقون ديانات أخرى . ورغم وقوع أحداث عنف وصدامات عرقية بالعاصمة الماليزية كوالالمبور عام ١٩٦٩ إلا أنها لم تكن تستبطن أى بعد دينى على الإطلاق . ومنذ ذلك التاريخ ظل السكان الملاويون يعيشون فى أمن وسلام وانسجام مع المستوطنين من غير المسلمين من ذوى الأصول الصينية والهندية وغيرهم . ورغم أن ماليزيا تخضع لنظام حكم يهيمن عليه الملاويون المسلمون ، إلا أنه لم يتمّ قط استغلال لتلك الهيمنة لقمع أو اضطهاد غير المسلمين أو لهضم حقوقهم فى البلاد . وتتميز الحكومة الماليزية على الدوام بالاعتدال والمرونة ، وتؤكد دائمًا على احترام ومراعاة المعتقدات الأخرى للمجموعات الدينية المختلفة فى البلاد . ربما لاحظنا فى الآونة الأخيرة ظهور بعض مظاهر الانحراف عن قاعدة التعايش الدينى بين مختلف الأديان فى البلاد ، غير أن ذلك لا يعدو كونه استثناء يثبت القاعدة وليس العكس .

إن بلادا تقودها غالبية مسلمة فى الحكم ، تكفل بلا شك العدل والقسط لكافة مواطنيها بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وانتماءاتهم العرقية .

ينبغى التنويه إلى أن العقيدة تنطوى على أهمية خاصة فى البلدان متعددة الديانات مثل ماليزيا ، وتقتضى الحكمة عدم محاولة القفز فوق ذلك الواقع أو تجاهله . ذلك أنه من غير الممكن إقامة مجتمع علمانى فى ماليزيا ، ولابد من إتاحة الفرصة لكافة المعتقدات فى أن تعبر عن نفسها وأن تقوم بدورها فى صياغة المجتمع . ورغم أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة ، إلا أنه لا يوجد حظر أو تضييق على ممارسة شعائر الديانات الأخرى التى يعتنقها بعض مواطنى البلاد .

ويلاحظ فى البلدان التى يكون فيها الدين الرسمى للدولة هو فى ذات الوقت دين السواد الأعظم للسكان ، ألا تشكل حرية ممارسة الشعائر الدينية فيها هاجسًا يشغل البال ، نظرًا لأنها لا تنطوى على تبعات يمكن أن تكون خطيرة . وبعكس ذلك ، فإن حرية ممارسة الأديان فى ماليزيا التى يدين ٦٠ فى المئة من سكانها بالإسلام ، ليست مهمة تنطوى على معان عديدة فحسب ، بل لأنها شديدة الدلالة على مدى تسامح الغالبية العظمى من السكان واستعدادهم للتعايش مع غير المسلمين .

هنا تكمن ضرورة فهم الدين الرسمى . فإذا كان الإسلام الذى هو الدّين الرسمى لماليزيا ، يبدو غامضا وتتمّ ممارسة شعائره فى الخفاء ، فإن ذلك يُشكل سببًا كافيا للاعتقاد بأن السلطات الرسمية سوف تسعى لفرضه على أتباع الديانات الأخرى ، وستضع العقبات أمام ممارسة العقائد الأخرى وتعمل جاهدة لحمل المواطنين من غير المسلمين على اعتناق الإسلام .

ازاء هذا الواقع تقتضى الضرورة أن يمارس المسلمون فى ماليزيا شعائر دينهم أمام الناس وفى وضح النهار من دون تخف أو عزلة بغض النظر عن معتقدات بقية المواطنين . بينما لن يُطلب من غير المسلمين فى ماليزيا المشاركة فى الطقوس الدينية الإسلامية ، ينبغى فى الوقت نفسه عدم حرمانهم من فرص التواجد وحضور أداء تلك الطقوس . وربما كان من حُسن الطالع أن نجد أن أداء الصلاة فى ماليزيا وما يصحبه من تلاوة وغيرها لا يقلق أحدًا ، وهو أمر مقبول من كافة السكان ، وبإمكان أى فرد من أفراد المجتمع الماليزى أن يؤدى شعائر دينه كما يفعل المسلمون فى عباداتهم .

من الظواهر الأخرى التى تميّز المجتمع الماليزى ، مشاركة كل المواطنين على نحو أو آخر فى الاحتفالات التى تقام فى المناسبات الدينية المختلفة . ولنأخذ على سبيل المثال الدعوات العامة التى تُعرف (بالبيوت المفتوحة) والتى يقيم فيها المواطنون الولائم احتفالا بالأعياد (رمضان والأضحى) ، نجد أنها تستقبل أفراد المجتمع الماليزى من مختلف الديانات ليلتقوا فى

منزل واحد لتناول الطعام والتحاور والتعارف ، الأمر الذى يساهم فى تعميق تفهم المواطنين لثقافات بعضهم البعض على الأقل ، إن لم نقل معتقداتهم المختلفة .

ومن الجوانب المثيرة حقًا للاهتمام ما يحدث فى شهر رمضان الفضيل حيث درجت الفنادق الماليزية على تقديم الإفطار الجماعى للمسلمين (بوفية) لكننا نجد أن مواطنين من غير المسلمين ينضمون لتلك الموائد ليتناولوا طعام الإفطار إلى جانب إخوانهم الصائمين . ويلاحظ فى هذا المقام أن الغالبية العظمى من أتباع الديانات الأخرى يمتنعون عن تناول الطعام فى رمضان أثناء النهار احترامًا لمشاعر إخوانهم المسلمين ومراعاة لحرمة هذا الشهر العظيم .

هناك مجتمعات عديدة تنظر إلى التعددية الدينية على أنها نقمة وليس نعمة ؛ لأنها كثيرًا ما تجلب العنف والصراعات المسلحة ، لكنها فى ماليزيا تشكل عنصرًا مهمًا لجمع وتقريب المواطنين من مختلف الديانات إلى بعضهم بعضًا مما يسهم فى تعزيز الوحدة الوطنية .

إن ما حققته ماليزيا من وحدة وطنية ما هو إلا ثمرة لممارسة الشعائر الدينية وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام ، فى وضح النهار وبعيدًا عن العزلة . لا شك أن للدّين دوره ومكانته فى القرن الحادى والعشرين ، ونحن نرى أن الغرب ينزلق كل الانزلاق باتجاه المادية البحتة ، ويعتقد الغربيون أن الثروة وحدها كفيلة بجلب السعادة وتوفير مستوى حياة أفضل .

وقد جربنا فى ماليزيا كيف أن الجشع وحب مراكمة الثروة غير المحدودة يمكن أن يتسبب فى تدمير مكتسبات شعوب بكاملها ، ويؤدى إلى تهديد أمنها واستقرارها . ولولا الإيمان بالله ، لأصيب الماليزيون باليأس والقنوط ، لكنهم تمكنوا من احتواء آثار الأزمة الاقتصادية التى ضربت المنطقة فى صيف ١٩٩٧م ، وتجاوزها من خلال التحصّن والتسلح بقيمهم الروحية . وقد حافظ الماليزيون على تماسكهم ورباطة جأشهم بفضل تلك المعتقدات

الروحية ، وأصابوا فى تشخيص الصعوبات المادية الناجمة عن الأزمة ووُفقوا فى مجابهتها وتجاوزها .

فى ضوء تلك التجربة ، يمكننا القول إن هناك صعوبة حقيقية فى معالجة التحديات التى طرحها القرن الحادى والعشرون دون التمسك بالقيم الروحية ،آخذين فى الاعتبار تجارب مجتمعات أخرى تحلّلت من قيمها الدينية ، ففقدت توازنها وأقعدها الإحساس بالضياع .

وبرغم مقولة كارل ماركس بأن «الدّين أفيون الشعوب» ، فإن الأديان استمرت بالانتشار تصاعديًا وستستمر بالوتيرة نفسها ، بينما ذهبت الأيديولوچية الماركسية إلى أضابير كتب التاريخ والمتاحف ، وهذا دليل كاف على أن الأيديولوچيات التى يضعها الإنسان ، لن تحل محلّ الأديان أبدًا .

الفصل التاسع

دور الإسلام في تشجيع وتعزيز التسامح والتحاور بين الأديان *

نحن نعيش فى مقتبل ألفية جديدة ، ولابد لنا من أن نتفكر مليًا فى ما حدث فى الماضى وما يمكن أن يحدث فى المستقبل ، وبهذا الصدد فإن استعراض الماضى هو الأسهل بطبيعة الحال . فعندما دخل العالم الألفية الثانية كانت الحضارة الإسلامية فى قمة أوجها ، بينما حلّت الألفية الثالثة فينا والأمة الإسلامية تعيش أقصى حالات الجزر والانحطاط . ورغم أن الأمم الإسلامية نالت استقلالها السياسى عن المستعمرين ، إلا أنها مازالت خاضعة إلى حد كبير لهيمنة قوى أجنبية . ويتعرض المسلمون فى مواقع عديدة إلى مذابح وعمليات إبادة جماعية أودت بحياة مئات الآلاف منهم ، فى وقت يكتفى فيه إخوانهم فى العقيدة بدور المتفرج العاجز عن وقف أعمال التقتيل .

ينبغى ألا نشعر بالدهشة والانزعاج إزاء عدم الإعتراف بالدور الذى لعبه الإسلام والحضارة الإسلامية فى مجال حوار الأديان وتفهّم بعضها بعضًا . أقول قولى هذا نظرا لأن المفهوم السائد عن الإسلام فى وقتنا الراهن من قبل كلٍّ من المسلمين وغير المسلمين ، يختلف اختلافاً كاملاً ، ويتباين فى أحيان كثيرة مع التعاليم الإسلامية التى اتبعها ومارسها المسلمون الأوائل خصوصًا فى فترة العصر الذهبى التى بلغت فيها الحضارة الإسلامية أوج مجدها .

إن النظرة السائدة عن المسلمين اليوم هى أنهم منعزلون متقوقعون على أنفسهم ،

* خطاب فى ندوة عن دور الحضارة الإسلامية فى تشجيع وتعزيز التسامح والتحاور بين الأديان ، نظمه المعهد الماليزى للفهم الإسلامى (IKIM) - كوالالمبور - ماليزيا ٢٥ مايو ١٩٩٩م .

خاصة عندما يعيشون فى مجتمعات يشكل غير المسلمين فيها نسبة كبيرة ، ومن النادر جداً أن يُنظر إليهم على أنهم فاعلون يسهمون فى توسيع وتعزيز دائرة التفاهم والتحاور بين الأديان .

ونحن نشير إلى أن اللائمة تقع جزئيًا على عاتق غير المسلمين ؛ لأنهم يروّجون فى معظم الأحيان أفكاراً ومفاهيم سلبية عن الإسلام والمسلمين .

كما يلاحظ أن ذكرى الجهاد وسيطرة المسلمين على الأراضى الأوروبية قبل قرون خلت ، مازالت حية فى أوساط المجموعات الإثنية الأوروبية . كما يلاحظ أن هناك توجهًا عامًا لتضخيم أى خطأ أو أى ممارسة غير مقبولة تأتى من طرف فرد من المسلمين ، والسعى دائماً لربطها بالدّين الإسلامى مهما بعدت الصلة بينها وبين الإسلام .

ذلك الموقف المنحاز لا يعترف أبدًا بأن المسلمين هم أناس عاديون مثل بقية البشر ، يختلفون باختلاف أعراقهم وثقافاتهم ، وأنهم مُعرّضون لنقاط الضعف الإنسانى ، مثلهم مثل أى كائن آخر من البشر . وبدلاً من ذلك فإن الآخرين ينظرون إلى المسلمين على أنهم متحدون فى كيان واحد وأنهم من طينة واحدة .

هذا المفهوم الخاطئ يقود دائما إلى إصدار أحكام عامة مثل إلصاق أى جريمة أو سلوك خاطئ تقوم به فئة محدودة ، بثقافة وممارسة المسلمين كافة .

لذلك نجد أن الشخصية النمطية للمسلم تُصوّر دائمًا على أنها متخلفة وغير مُنظّمة وغير اجتماعية ومتعصبة ، تميل إلى الإرهاب ، ولا يُشار أبدًا إلى أن الإرهاب ليس حكراً على المسلمين وحدهم ، أو أنه وباء متفش فى كل المجتمعات .

ويلاحظ أيضًا أن كل الأعمال الإرهابية التى تقع على المسرح العالمى ، تُنسب مباشرة إلى المسلمين ، إلى أن يثبت العكس . والحديث عن الإرهاب يقودنا إلى التأكيد على أن الإثنيات الأوروبية لا يوجد لها مثيل أبدًا فى مجال القمع والاضطهاد والتقتيل المنظّم ، ذلك

أن المجازر التى ارتكبها النظام النازى فى حقّ اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية والتى راح ضحيتها نحو ستة ملايين يهودى ، تُعدّ من أبشع الجرائم التى شهدتها البشرية . كما أننا نشاهد فى الوقت الحالى عمليات إبادة جماعية ضد ألبان كوسوفو ، وسبق أن تتبعنا فى السنوات القليلة الماضية المجازر فى البوسنة والهرسك ، والتى أودت بحياة مئات الآلاف من المسلمين . غير أن كل تلك الممارسات والعمليات البشعة التى ارتكبتها مجموعات إثنية أوروبية ، لا تصنَّف على إنها إرهاب أوروبى أو مسيحى .

إلى جانب ذلك ، نجد أن الجزرة التى نفذتها الطائفة البوذية المتطرفة فى اليابان ، والمذابح التى يرتكبها المتطرفون الهندوس من وقت لآخر ضد المسلمين فى الهند ، تقف شاهدًا على الإرهاب البوذى والهندوسى ، لكنها لا توصف على إنها كذلك .

فى المقابل ، لا يكف العالم عن وصف أى عملية يقوم بها المسلمون فى فلسطين (بالإرهاب الإسلامى) عن عمد حتى لو وقعت دفاعًا عن النفس . كما يُصنَّف كلٌّ من يقوم بعملية من ذلك القبيل على إنه «إرهابى إسلامى» بصرف النظر عن كونه إرهابيًا أم غير ذلك .

خلاصة القول ؛ إن العمليات الإرهابية التى تقوم بها المجموعات العرقية الأوروبية أو المسيحيون أو اليهود المتطرفون أو البوذيون ، لا يتم الربط بينها وبين تلك الديانات ، فى وقت لا يكفّ فيه غير المسلمين عن الحديث عن الإرهاب الإسلامى .

وتلك محاولة فاضحة للتنكّر لوجود إرهابيين مسيحيين ويهود وبوذيين ومسيحيين أرثوذوكس ، ممثلين بالمتطرفين الصرب ، فيما لا يجرأ أحد على القول بأنَّ من يوصفون «بالإرهابيين» من بين المسلمين قد دفعوا دفعًا لارتكاب أعمال مُصنفة فى خانة الإرهاب .

وبمعنى آخر ، فإن الإرهاب يتّم إبرازه على أنه حكرٌ على المسلمين ، بينما يُصوَّر الإرهابيون من غير المسلمين على أنهم إرهابيون فقط ، ولا يتّم ربط ذلك بالإثنيات التى ينتمون لها ، ولا بالثقافة السائدة فى مناطقهم أو الدّين الذى يعتنقونه .

ودون أدنى شك فإن أكثر الناس عُرضة للاضطهاد فى وقتنا الحاضر هم المسلمون الذين كانت ومازالت حقوقهم الأساسية من حريات وحقوق مدنية وسياسية ، مهضومة ويتمّ انتهاكها على نحو مستمر . كما أن عدداً من بلدان العالم الإسلامى يتعرض من وقت لآخر للعقوبات والقصف وكل أنواع الإذلال والتحقير . فهل فى الأمر ما يثير الدهشة إذا ما أبدى المسلمون امتعاضًا دائمًا؟ وكشفوا عن مواقف عدائية إزاء غير المسلمين ورفضوا اتباع قواعد السلوك وأساليب الحياة التى يعتقد الآخرون أنها لازمة مرتبطة بالمجتمعات المتحضرة؟ صحيح أن المسلمين يبدون وكأنهم يرفضون ديانات الآخرين ، كما يبدون وكأنهم لم يسهموا فى تعزيز الحوار والتفاهم بين الأديان . وينبغى أن نعترف بأن المسلمين مسئولون بدرجة لا تقل عن غير المسلمين عما لحق بسمعتهم وصورتهم من تشويه ، وما يعيشونه من عزلة مضروبة عليهم . لكن هذا الوضع غير الطبيعى ، لم يكن كذلك فى كل الأوقات . بمعنى أن المسلمين الأوائل كانوا يجوبون الأرض شرقًا وغربًا ، وقدموا للشعوب الأخرى نماذج تُحتذى فى التسامح واحترام عقائدهم وحاولوا استنباط الجوانب المشتركة بينها وبين الإسلام وتبنّيها ، علمابأن التعاليم الإسلامية لا تنهى عن هذا الأسلوب المتحضر الذى يُشكّل قاعدة للحوار بين الأديان . وقد حثّ الإسلام المسلمين على الاعتراف بوجود ديانات أخرى وقبول الأساليب المختلفة التى يتعبّد بها أصحاب تلك الديانات ، ناهيًا فى الوقت نفسه عن حمل غير المسلمين على اعتناق الإسلام بالقوة . كل ذلك يُبيّن بجلاء أن المسلمين مطالبون بالتسامح مع الكفار وإبداء قدر من التفهم لمعتقداتهم وعدم اعتبارهم أعداء دون أسباب . إذًا ما هى تلك الممارسات المستقاة من التعاليم الإسلامية التى قدّمها المسلمون الأوائل لغير المسلمين؟

وردت الإشارة أعلاه إلى أن الإسلام ذكر على وجه التحديد أهل الذّمة الذين يتبعون ديانات أخرى ويمارسون شعائرهم الدينية بأساليب مختلفة . وقد ذهب الإسلام فى الواقع إلى أبعد من ذلك ، فحثّ المسلمين على عدم الإستهزاء بالديانات الأخرى ، وعدم انتقاد الأساليب التى يتعبّد بها أصحاب تلك المعتقدات ؛ لأن ذلك يمكن أن يدفع غير المسلمين إلى إبداء ملاحظات سلبية ومسيئة للدين الإسلامى ، وهو ما لا يرضاه المسلمون .

إن القرآن الكريم لم يأمر بحمل الناس على اعتناق الإسلام بالقوة ، وقد حثَّ القرآن سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم ، على ألا يقنط إذا امتنعت طائفة من غير المسلمين عن اعتناق الإسلام ؛ لأن الأمر كله مرتبط بمشيئة الله ، وإذا شاء المولى عز وجل ذلك ، لاهتدت تلك الطائفة إلى الرسالة الخاتمة . وقد شاء الله تعالى أن يهدى عدداً كبيرا من ألد أعداء الإسلام الأوائل ، إلى اعتناق الرسالة المحمدية ، وأبلوا بعد ذلك بلاءً حسنًا . كما ذكر القرآن أيضا في معنى الآية الكريمة أن الله خلق هذه الأرض وعمرها بقبائل وشعوب مختلفة للتعارف ، وبيّن فى الوقت نفسه أن العرب ليسوا هم أكرم الناس ولا أعلى منهم مرتبة ، وحدّد التقوى وحدها كمعيار للتفضيل بين الخلق .

وعليه ، فإن المسلمين الأوائل لم يكتفوا بإبداء أكبر قدر من التسامح مع غير المسلمين فحسب ، بل ذهبوا كما حثّهم دينهم فى طلب العلم والمعرفة ، إلى التتلمذ على غير المسلمين وبصفة خاصة اليونانيين ، ليتعلموا مبادئ العلوم والرياضيات . وحرص هؤلاء المسلمون على الإفادة من الإنجازات الحضارية للشعوب الأخرى ، فقاموا بترجمة الكتب اليونانية ودرسوها فاستوعبوها وساهموا فيما بعد فى تطوير تلك العلوم .

وقد ساهمت الجامعات ومراكز العلم الإسلامية والعلماء الذين نهلوا العلوم بها ، فى قيادة العالم وأصبحت محط أنظار الأوروبيين الذين تقاطروا عليها للاستزادة بالعلم والمعرفة منها . لقد بلغت الحضارة الإسلامية فى إسبانيا قمة مجدها عندما كان المسلمون يتحلون بأقصى درجات التسامح وأبدوا قدراً عاليًا من الاستعداد للتعلم والإفادة من غيرهم . وكان المسلمون فى الأندلس يعيشون إلى جوار المسيحيين واليهود الذين كانوا يشغلون عدداً كبيراً من الوظائف فى دواوين الحكام المسلمين وحكوماتهم . وعندما بدأ انهيار الدولة الإسلامية بإسبانيا فى أوروبا قبيل أوروبا الشرقية ، انبرى العلماء والمثقفون والقضاة المسلمون لتفسير التعاليم الإسلامية ، فافترضوا أن المسلمين قد ابتعدوا عن التعاليم الإسلامية القويمة بمجرد أن بدأوا يسعون إلى اكتساب المعارف والعلوم غير الإسلامية ، وعاشروا غير المسلمين . واعتبر

أولئك العلماءُ العلوم والرياضيّات وضروب المعارف الأخرى التى استحدثها المسيحيون أموراً دنيوية ولا حاجة للإسلام بها ، مؤكدين على ضرورة تكريس حياة المسلم كلها للأعمال الخيرية التى يُثاب عليها الإنسان فى الآخرة . وقد اهتم العلماء المسلمون بالقوانين الإسلامية وبتركيز خاص على العقوبات التى ينبغى تطبيقها على المتهمين بالانحراف عن الطريق القويم . فى ذلك الوقت بدأ المسلمون ينظرون إلى العناصر الإسبانية واليهودية التى اعتنقت الإسلام ، بنوع من الشك والريبة وبدأ صدرهم يضيق بهم ، فى دلالة واضحة على بداية النهاية للتسامح . فى تلك الظروف أدار المسلمون ظهورهم لكل أنواع المعارف والعلوم التى لا تعنى تمامًا بشئون الدين ، فتراجعت قدراتهم ومهاراتهم على نحو مريع ، فضعفوا أمام الأوروبيين وعجزوا عن مجاراة التطور العلمى المتسارع وما ينتج عنه من تطور فى مجال القوة العسكرية والإمكانيات التسليحية . وانتهى الأمر بالمسلمين إلى خيارين كان أحلاهما مُرّ : إما الإرتداد عن الإسلام لاعتناق المسيحية . أو الطرد المهين . ومن سخرية الأقدار أن الإمبراطورية العثمانية انتهت إلى المصير نفسه . فعندما بلغت الإمبراطورية العثمانية قمة مجدها ، انزلقت بطانة الحكم فى جدل عقيم حول مدى توافق التعاليم الإسلامية التى كانوا يمارسونها مع الإسلام الصحيح .

بينما شرع الأوروبيون فى عملية تحديث شملت جميع مناحى الحياة ، واكتشفوا وسائل جديدة وتقنيات متطورة لحماية أنفسهم وبلدانهم من المؤسسة العسكرية التركية المتوثبة ، كان الأتراك يتجادلون حول قضايا تافهة ويتساءلون هل يحل الإسلام ارتداء السروايل الضيقة؟ إلى غير ذلك من التساؤلات الهامشية .

وبينما كانت القوات التركية فى بداية عهدها مجهزة بأفضل وأحدث أنواع العدة والعتاد المتوفرة آنذاك ، بدأت قدراتها المعرفية والتصنيعية تتراجع تدريجيا وعجزت فى نهاية المطاف عن مجاراة الثورة العلمية والصناعية التى جعلت من أوروبا عملاقًا فى كل مجال . وانشغل علماء الدين الأتراك بالسعى لضمان التزام الأمصار والرعية التزامًا صارمًا بالفتاوى

الدينية التى يصدرونها والامتثال لتفسيرهم للتعاليم الإسلامية ، فى حين لم يفتح الله عليهم بكلمة واحدة حول مظاهر الضعف التى اعترت الدولة ، فتراجعت قدارتها الدفاعية مقارنة ببقية الدول الأوروبية من حولها .

فى تلك الأثناء تمردت الأمصار التى كان يقطنها مواطنون من غير الأتراك على الإمبراطورية العثمانية وتشجعت على الانشقاق عنها الوحدة تلو الأخرى . وأقامت كل واحدة دولة مستقلة بذاتها بعيداً عن سيطرة الأتراك . أما العرب الذين انتظروا طويلاً للتحرر من الهيمنة التركية فقد فوجئوا بحلفائهم الأوروبيين يخدعونهم ويحلون محلّ الأتراك ، فلم يجنوا شيئًا ، بل بدّلوا استعماراً أوربيًا مسيحيًا بحكم إسلامى ، وخضعت البلاد العربية فى المشرق إلى الاستعمار الفرنسى والإنجليزى . وفى شمال إفريقيا احتل الإسبان والفرنسيون المقاطعات الإسلامية . بينما بسط الشيوعيون الروس حكمهم على دويلات أسيا الوسطى الإسلامية وفرضوا عليها أيديولوجيتهم الإلحادية . وعندما أدرك المسلمون أن مجدهم قد ولّى إلى غير رجعة ، كانوا قد بلغوا أقصى درجات التخلف وضعفوا أمام الآخرين ، فانتهو إلى الخضوع والاستسلام للحكم الأجنبى .

لقد بلغ المسلمون مرحلة من الخضوع كانوا يضللون فيها أنفسهم ، معتقدين أن حظهم فى هذه الحياة الدنيا جدّ قليل لقاء وعد بجنة عرضها السماوات والأرض فى الآخرة ، متناسين أن القرآن الكريم شدد على ضرورة أن يسعى المسلم فى هذه الحياة الدنيا لاكتسب الحسنات ، واعتقدوا أن الإعداد للآخرة يتّم عبر أداء الطقوس الدينية فحسب ، فأهملوا الاهتمام بأمر مجتمعاتهم وبنوا الحواجز بينهم وبين ما يجرى فى بقية أنحاء العالم ، ورفضوا السعى للتزود بالعلوم والمعارف ، فيما عدا تلك التى كانوا يعتبرونها جزءاً من التعاليم الإسلامية .

ولقد انكفأ المسلمون على أنفسهم وتراجعوا من موقع الأمة الأكثر تحضراً وامتلاكًا لناصية العلم ، ليصبحوا أكثر الأمم تخلفًا وضعفًا . ولعل هذا التراجع يفسّر لنا عدم بروز أية

قوة عظمى إسلامية فى عصرنا الحديث ، وعدم سطوع نجم أية دولة إسلامية فى مجال المعرفة والتكنولوجيا والمهارات والقدرات الإدارية والتنظيمية . وكرد فعل على الهيمنة والقمع الذى مارسه غير المسلمين عليهم ، تأجج فى أوساط المسلمين شعور بالغبن والكراهية السافرة للمستعمرين . لقد درج المسلمون على إلقاء اللائمة تمامًا على عاتق أعدائهم فى كل النكبات والكوارث التى حلّت بهم ، دون أن يتساءلوا عن الدور الذى لعبوه فى انهيار دولتهم وما تعرضوا له من صنوف البطش والاضطهاد على أيدى الأعداء فيما بعد .

وتعود أسباب سقوط الدولة الإسلامية جزئيًا على الأقل ، إلى التفسير المتّسم بالضيق والضحالة للدين الإسلامى والذى ظهر عقب ازدهار الحضارة الإسلامية . وانطلاقا من مفهوم خاطئ مؤداه أن المسلم لا حاجة له بالعلوم الدنيوية ، وانسجامًا مع الجدل الذى كان يحتدم فى كل يوم حول ماهية التعاليم الإسلامية الصحيحة . أهمل المسلمون جزءًا مهمًا من تلك التعاليم التى أمر بها القرآن الكريم حرفيًا مثل : إعداد العدة للدفاع عن النفس . لقد أمر القرآن المسلمين بأن يقذفوا الرعب فى قلوب الأعداء من خلال إعداد رباط الخيل والعدة الأخرى . ومن البديهى أن القرآن ما كان ليأمر المسلمين بإعداد العدة لقذف الرعب فى قلوب الكفار فى ذلك الوقت المبكر من خلال تصنيع الدبابات والمقاتلات والقنابل والمدافع بدلاً من الخيل والسيوف ؛ لأن ذلك ما كان ليجد صدى فى نفوس أولئك الأعراب الجهلاء . وقد تجلّت الحكمة القرآنية فى مخاطبة الأعراب بما تدركه عقولهم وتستوعبه آنذاك . بيد أن الأمر القرآنى كان معنيًا بإعداد قوة دفاعية كفيلة بردع الأعداء فى كل زمان ومكان . ولو قدر للمسلمين آنذاك أن يدركوا مغزى هذا الأمر ، لما زهدوا فى العلوم الدنيوية الضرورية لابتكار وإنتاج أسباب القوة المتجددة من أسلحة وعدة بقدر التحديات المطروحة .

كانت النتيجة بالطبع هزيمة ساحقة للجيوش الإسلامية التى دكت حصون الأعداء من قبل فى كل مكان ، فخضعت البلدان الإسلامية للسيطرة الأوروبية ، ومع ذلك فإن المسلمين لم يفلحوا فى تشخيص أسباب تلك النكسة واستمروا فى جدل عقيم حول الإسلام

والتشريع الإسلامى وممارسات المسلمين على الصعيد العملى . وقد تسبب ذلك الجدل والاختلاف فى إحداث انقسامات فى صفوف المسلمين فتفرقوا إلى طوائف تعادى بعضها بعضًا .

ويُلاحظ أن حصول الدول الإسلامية على استقلالها الوطنى لم يؤد إلى إدراك الحاجة الماسة إلى اكتساب المعرفة والمهارات الأخرى الضرورية للدفاع عن الأوطان والعقيدة واللحاق بركب الأمم المتقدمة . وبدلاً من ذلك ، احتدام التنافس بين المسلمين الذين نالوا تعليمًا دينيًا وأولئك الذين نهلوا من العلوم الدنيوية ، للسيطرة على أجهزة الدولة ، ولم يكن ذلك التكالب على السلطة لدوافع دينية بقدر ما كان لإشباع طموحات شخصية بحتة .

ونظراً للنزعة الدينية المتجذرة فى الأوساط الإسلامية آنذاك ، فإن تلك الطوائف كانت تحاول إلغاء بعضها بعضًا بادّعاء الوصاية على الإسلام والالتزام بالمبادئ والتعاليم الإسلامية الصحيحة .

وفى خضمّ تلك الصراعات ، ابتدعت الجماعات المتعصبة مصطلح «العلمانية» وأصبحت تصنّف كل ما لا يمتّ بصلة مباشرة للعبادة والطقوس الدينية ، وما لا ينفع فى الحياة الأخرى ، بأنه علمانى وبالتالى فهو مخالف ومتعارض مع الدين . ولسوء الحظ فإن مؤسس وبانى نهضة تركيا الحديثة الزعيم كمال أتاتورك أخطأ خطأ فادحًا بتحميل الإسلام مسئولية انهيار الإمبراطورية التركية ، متناسيًا أن ديننا الحنيف برئ من هذه التهمة ، وأن تفسيرنا الخاطئ وممارساتنا المنحرفة هى التى تسببت فى هزيمة الدولة الإسلامية . واعتقاداً منه أن الحلول للمشاكل والقضايا التى أقعدت بلاده عن النهوض ، تكمن فى رفض الإسلام ، ولم يتردد أتاتورك فى فرض العلمانية ؛ عقيدةً للدولة التركية . وقد عمل أتاتورك على تغييب الإسلام عن الحياة التركية إيماناً منه بأن العلمانية تقتضى ألا يجد الدين طريقه للتأثير فى شئون الدولة . وتوقع الزعيم التركى أن البلاد التى تنجح فى حمايتها من الأطماع اليونانية ستكون شبيهة بالبلدان الأوروبية التى تفصل تمامًا بين الدولة والكنيسة . وقد تسببت العلمانية

التى فرضها أتاتورك على بلاده فى إثارة غضب وهواجس المسلمين فى تركيا وفى العالم الإسلامى بوجه عام ، واتهموا تركيا بالارتماء فى أحضان أوروبا وتبنّى القيم المسيحية على حساب الإسلام ، متسببين بخلق فجوة ونوع من الخوف من كل ما يندرج فى سياق العلمانية . وأدت تلك الموجة العاطفية الغاضبة إلى حجب الذهنية الإسلامية عن التفكير بمعنى العلمانية التى لم يتّم النظر إليها أبداً من منظور إسلامى .

هناك إمكانية للفصل بين الكنيسة والدولة وبين العلمانية والعقيدة فى الديانة المسيحية ، إلا أن ذلك غير وارد فى الإسلام ، نظراً لأن الدين الإسلامى بطبيعته يشكّل منهج حياة متكاملاً ، وأن أى أسلوب حياة كهذا لا يمكن أن يقتصر على العبادة الصرفة وممارسة الطقوس الدينية فحسب . كما أن نظام الحياة لا يمكن أن يكرّس كل التكريس للحياة الأخرى ، ولابدّ من أن يستوعب الأنشطة والممارسات اليومية التى يؤديها المسلمون والبشر بصفة عامة . وعليه فإن دراسة العلوم والتكنولوچيا الحديثة واستيعابهما للإفادة منهما ، أمر لا غنى عنه لحياة المسلم ومرتبط تمامًا بقضايا الدفاع عن الأمة الإسلامية . إنّ إنشاء الأعمال التجارية والشركات الاستثمارية ومراكمة الثروة ، أمور ضرورية لأنها تصبّ فى المجرى العام لإصلاح حال المسلمين والأمة الإسلامية فى هذه الدنيا . وكيف لنا أن نتوقع من المسلمين إخراج الزكاة والصدقات لمساعدة الفقراء والمحتاجين من غير هذه الأعمال؟ كما أن تطوير وسائل السفر قد انعكس إيجابًا على أداء الشعيرة الخامسة من أركان الإسلام ، وأصبح بإمكان ملايين المسلمين أن يؤدوا فريضة الحج فى كل عام بفضل وسائل النقل التى ابتكرها غير المسلمين .

وبمعنى آخر ، فإن تنمية البلدان الإسلامية وتحقيق الرفاه لشعوبها بقيادة حكومات صالحة ونزيهة تستند إلى نظام قضائى عادل وفاعل ، وغيره من الترتيبات الأخرى المتصلة بالأمور الدنيوية ، ترتبط ارتباطًا مباشراً بنظام ومنهاج الحياة . والأمر كذلك ، فإن المطلوب هو عدم تقاطع وتناقض تلك الأمور مع الأحكام والتعاليم الإسلامية ، بما يؤدى إلى الخروج عن

الملّة .

إن الجهل بالمعارف الحديثة والافتقار إلى المهارات وعدم السعى للإفلات من دائرة الفقر والاعتماد على استهلاك ما ينتجه الآخرون بمن فيهم العلمانيون لتلبية الاحتياجات المعيشية والدفاعية ، ليست من النظام الإسلامى فى شىء على الإطلاق . ولا شك فى أن حالة العجز التى يعيشها المسلمون حاليًا والتى تحول دون نهوض الشعوب الإسلامية لحماية إخوانهم فى العقيدة الذين يتعرضون للسّحل والتقتيل والطرد من ديارهم على نحو يومى ، لا تتفق مع نظام حياة المسلمين أيضًا . وعلاوة على ذلك فإن عجز البلدان الإسلامية عن حماية المسلمين الذين يتعرضون للمحن ، ناتج فى الأساس عن التخلف والفقر المتفشيين على نطاق واسع فى الأوساط الإسلامية .

وبالمقابل نجد أن دراسة العلوم واكتساب المهارات العالية وإجادة التعامل مع التقنيات المبتكرة والتى تسهم بجلب الرفاه والسعادة للمسلمين وتوفر لهم وسائل الدفاع عن النفس ، لا تنطوى على جوانب علمانية ولا تتضمن شيئًا يخالف التعاليم والأحكام الإسلامية على الإطلاق . كما أن زيادة رصيد المرء المسلم من الحسنات لا تتأتى بالعبادة وممارسة الطقوس الدينية والانقطاع للعلوم الدينية فقط . واستنادًا إلى القاعدة الإسلامية القائلة «بفرض الكفاية» فإن الأمة الإسلامية بأجمعها تكون آثمة إن لم يتخصّص بعض أفرادها فى المجالات التى توفر للمسلمين الرفاه والسعادة فى هذه الدنيا .

لقد أدى عدم تفهم معنى ومدلول العلمانية من منطلق إسلامى ، والتخوف من إعادة إنتاج العلمانية التركية ، أدى إلى تكريس الجهل والتخلف فى الأوساط الإسلامية ، وأقعد المسلمين عن اكتساب مقوّمات الدفاع عن النفس اعتمادًا على جهدهم الذاتى . وينبغى التأكيد على أن اللائمة تقع على عاتق المسلمين وحدهم ، نظرًا لأنهم أهملوا جزءًا مهمًا من التعاليم الإسلامية .

لقد اتجه المسلمون بدافع الخوف من العلمانية ، إلى عزل أنفسهم عن المحيط الخارجى ،

محاولين النأى بأنفسهم أو البعد عن الأفكار التى يرون أنها لا تتفق مع تعاليم عقيدتهم ، فامتنعوا عن الاتصال والاحتكاك بغير المسلمين اعتقاداً منهم أن تواصلا من هذا القبيل سوف يُدنّس عقيدتهم ويخالف نظام الحياة الإسلامية . تلك العزلة أدت إلى توقف مساهمة المسلمين المحدثين فى الحوار والتفاهم بنى الأديان ، على عكس ما فعله المسلمون الأوائل الذين كان لهم باع طويل فى هذا المجال .

فى ماليزيا بدأت تبرز نزعات فى المدارس تثير القلق حقًا ؛ إذ يحاول معلمو التربية الإسلامية أن يؤثروا على التلاميذ من خلال توجيههم لتحاشى الاتصال والاحتكاك بغير المسلمين لكى لا يفتحوا ثغرة يمكن أن تؤدى بهم ، بين أشياء أخرى ، إلى تناول طعام حرام . هذه التوجيهات تولّد فى ذهن الطفل شكوكًا فى الطعام الذى يُقدم إليه فى منزله وأنواع الأكل التى يتم إعدادها فى المطاعم العامة . كما أن مثل هذه الشكوك ستدفع الأطفال فى بلاد كماليزيا تستوطنها نسبة مهمّة من السكان غير المسلمين ، إلى الاعتقاد بأن التواصل والتعايش مع غير المسلمين يتسبب فى تدنيس العقيدة من خلال الوقوع فى المحرمات ، وهو أمر يحول دون مساهمة هؤلاء التلاميذ فى إيجاد أرضية مشتركة من التفاهم المتبادل بين الأديان .

ولم تقتصر محاولات عزل المسلمين الماليزيين عن بنى وطنهم من غير المسلمين على رياض الأطفال فقط ، حيث يتم حثّ الطلاب المسلمين فى المدارس والجامعات على ألا يختلطوا بزملائهم الآخرين ، وألا يشاركوا فى الأنشطة غير المخصصة للمسلمين . ونتيجة لذلك ، لا يبادر المسلمون إلى الارتباط بصداقات بغير المسلمين ، وهذا بدوره يحد من مساهمتهم فى الحوار بين الأديان .

وعلى العكس من ذلك ، كانت الأجيال الماليزية فى السابق تتحلى بروح اجتماعية عالية مكّنت سكان البلاد من مختلف الأديان من التفاعل فيما بينهم دون إحساس بالدونية . إما الأجيال الحديثة فإنها تواجه صعوبة فى التكيف مع المجتمع الماليزى الذى يتميزّ بالتعددية العرقية ، والدينية ، والثقافية .

إن عزلة كهذه ، لا تساعد على تعزيز الحوار والتفاهم بين الأديان ، ومن الواضح أن المسلمين فى ماليزيا لن يتمكنوا من التكيف مع المجتمع الماليزى القائم على التعددية ، وسيجدون صعوبة فى العيش فيه بانسجام مع الإثنيات الأخرى ، ولن ينجحوا فى الإفادة من الفرص الواسعة التى توفّرها هذه المجتمعات . وتجدر الإشارة إلى أن محاولة ضرب سياج على النفس ظاهريًا على الأقل للمحافظة على النقاء العقائدى ، ليست مقصورة على مسلمى ماليزيا ، بل نجدها فى مختلف بلدان العالم الإسلامى . وعليه ، فإن سوء الفهم الواقع على المسلمين وعدم قدرة هؤلاء على تقديم الجوانب الإيجابية التى لا حصر لها فى أنفسهم وديانتهم ، نجما عن اختيار المسلمين النأى بأنفسهم عن الاحتكاك بالآخرين وعجزهم عن توصيل التعاليم الإسلامية الصحيحة إلى غير المسلمين .

غير أن احتماء المسلمين بالعزلة وتقوقعهم على أنفسهم وعدم تواصلهم مع الآخرين ، ليس كل الأخطاء التى تتسبب بتشكيل نظرة سلبية وعدائية فى أوساط غير المسلمين إزاء المسلمين ، وجعلت الآخرين منحازين ضد الشعوب الإسلامية . ذلك أن القمع الذى يتعرض له المسلمون فى بعض بلدانهم مثل : فلسطين وأوروبا الشرقية ، ولّد بداخلهم إحساساً بالمرارة والغضب الشديد ، مما دفعهم إلى اللجوء إلى العنف والأعمال التى توصف بأنها «إرهابية» للتنفيس عن حالة الاحتقان التى يعيشونها . هذا الإحساس بالإحباط دفع المسلمين لتعلم الأساليب الإرهابية التى تم ابتكارها فى الغرب ، فأخذوا يختطفون الطائرات ويفجّرون البنايات والمرافق ، ويقتلون الأبرياء وغيرهم ، كما انغمسوا فى أنشطة عنيفة أخرى ، فى محاولة لإبراز قضيتهم . لكن للأسف الشديد لم يسهم اللجوء إلى العنف فى التعريف بقضية المسلمين ولم يستقطب لها المزيد من المؤيدين ، بل على العكس من ذلك ، تسبب فى اتساع إدانتها وعمّق إساءة فهمها . وقد أصبحت كلمتا «الإسلام» و«المسلمين» اليوم مترادفتين مع كلمة الإرهاب ، وكلما ذكرت واحدة منهما ، قفز إلى ذهن المتلقى العنف والتفجيرات وكأن الإسلام دعا إلى الإرهاب وأعمال العنف غير المبررة .

لقد ساهم المسلمون فى تعميق سوء الفهم بينهم وبين غير المسلمين من خلال توظيفهم العقيدة الإسلامية كعامل موجب للعزلة ، وركونهم إلى استعمال العنف كرد فعل طبيعى للقمع الذى تعرضوا له .

لكن ، هل أمر ديننا الحنيف المسلمين بعزل أنفسهم عن غير المسلمين والامتناع عن التواصل بما يؤدى إلى حخلق سوء فهم بينهم وبين الآخرين؟

لم يأمر الإسلام فى الحقيقة المسلمين بعزل أنفسهم عن الآخرين ولا بضرب سياج على دينهم للحيلولة بينه وبين التحاور مع بقية الأديان . فعلى العكس من ذلك ، نجد أن سيدنا محمداً – صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين ، قد أبلغوا منذ البداية بأن المولى عز وجل خلق هذا العالم من شعوب وقبائل مختلفة وحثهم على التعارف وتفهم بعضهم بعضًا . تلك الشعوب والقبائل بمن فيهم العرب قد لا يهديهم الله عز وجل إلى اعتناق الرسالة المحمدية الخاتمة . وقد جاء فى القرآن الكريم أن بعض الناس سيكون لهم معتقدات خاصة بهم (لكم دينكم) وأن المسلمين ينبغى أن يتفهموا رفض تلك المجموعات الدخول إلى الإسلام . وكان على سيدنا محمد أن يتقبل ذلك ؛ لأنه هو الرسول الذى كلّف بنشر الدعوة ، وأن القرآن نص صراحة على أن النبى لن يهدى من أحب ، وأن الهداية هى أمر يقدره المولى عز وجل ، الذى لو شاء لجعل الخلق كلهم يعتنقون الإسلام ، ووجه الرسول بألا يحزن ولا يقنط لأن تلك هى مشيئة الله .

بمعنى آخر ، فإن المسلمين أمروا بقبول مبدأ وجود شعوب وقبائل مختلفة ومعتقدات وديانات عديدة ، وأن الله خلق الناس ليتعارفوا ويتداخلوا ويتواصلوا بما يوفر أرضية مناسبة للتحاور والتفاهم بين مختلف الشعوب والأديان .

لقد تمكن المسلمون الأوائل فى دولة المدينة من التعايش مع العبرانيين (يهود) والمسيحيين دون أن يحملوا أحداً على اعتناق الإسلام بالقوة . وفى وقت لاحق اضطر المسلمون إلى طرد اليهود عن المدينة ، لا لخلافات دينية ، لكن لأنهم تآمروا مع الأعداء الذين

هاجموا المدينة والمسلمين . كما أن الفتوحات الإسلامية التى شملت بلدانًا عديدة ومساحات واسعة كان فيها أناس يعتنقون ديانات غير الإسلام وحافظوا على معتقداتهم حتى يومنا هذا . وإذا عدنا لفترة الحكم الإسلامى فى الأندلس نجد أن اليهود والمسيحيين كانوا يتمتعون بحرية تامة فى ممارسة شعائرهم الدينية وأساليب حياتهم ونظمها دون قيد أو شرط ، بل كفل لهم حق المشاركة بفاعلية فى إدارة البلاد .

باستيلاء فيرديناند وإيزابيلا على الأندلس اختفى المسيحيون من غير الكاثوليكيين ، وفرض على اليهود والمسلمين إما الارتداد واعتناق المذهب الكاثوليكى أو مغادرة البلاد باتجاه شمال إفريقيا . أما فى أوروبا الشرقية فقد هلّل المسيحيون للحكم الإسلامى التركى ؛ لأن الحكام المسيحيين اثقلوا كاهلهم بالضرائب والجباية ، فى حين ظل المسيحيون فى تلك المنطقة على مسيحيتهم واهتدى بعضهم إلى الإسلام . وهناك شواهد كثيرة تقف دليلاً لا يُدحض على سماحة وتسامح المسلمين ، حيث مازالت توجد أقليات مهمَّة غير إسلامية فى البلدان التى خضعت لللحكم الإسلامى . وبالمقابل نجد أن أقليات يهودية محدودة كانت تعيش بالدول الأوروبية فى الماضى ، بينما لا نكاد نجد أثراً يذكر لوجود إسلامى أو غيره من أتباع الديانات الأخرى . وبنيما ازداد عدد اليهود فى المجتمعات الإسلامية وازدهرت أعمالهم التجارية . نجد أنهم قد تعرّضوا لأقسى أنواع البطش والاضطهاد فى أوروبا ، التى بلغت قمتها بمجازر الهولوكست التى راح ضحيتها نحو ستة ملايين يهودى . كان المسلمون الأوائل ملتزمين تمامًا بالتعاليم الإسلامية التى تعترف بحقوق أهل الذمة الذين لا يتآمرون على المسلمين عندما كانت الدولة الإسلامية فى أوجها ، على التعايش فحسب ، بل امتدّ الأمر إلى أبعد من ذلك ، ولعب غير المسلمين دوراً مهمًا فى المجتمعات الإسلامية . وقد ظهر تسامح المسلمين وتعاونهم مع غيرهم «بميثاق المدينة» الذى سنّه رسولنا الكريم لتشجيع وتعزيز التضامن والتعاضد بين المسلمين واليهود والمسيحيين فى دولة المدينة .

ومضى الخلفاء الراشدون على المنوال نفسه ، فشجعوا التسامح والتداخل مع غير

المسلمين ، وحرصوا على كفالة واحترام دياناتهم . وعقب بسط النفوذ الإسلامى على فلسطين ، أعطى سيدنا عمر - رضى الله عنه ، بطريرك القدس صوفرونيس ضمانات فى معاهدة الاستسلام (العهدة العمرية) ضمن له بموجبها سلامة المسيحيين وبضائعهم وممتلكاتهم وكنائسهم وصلبانهم بالحالة التى وجدت عليها ، بالإضافة إلى ضمانات خاصة بحرية العبادة واحترام الديانة المسيحية . كما تعهد سيدنا عمر ، بعدم تعرض الكنائس ومنازل المسيحيين للهدم والتخريب . وقد ظل سيدنا عمر وفيًا لتعهداته فى المعاهدة ، ولم تُغره القوة ولا النفوذ لدرجة أنه لم ينس وهو فى فراش الموات تذكير المسلمين بضرورة حُسن معاملة غير المسلمين . تلك العهدة العمرية منحت أيضًا لأهل دمشق وسورية وآخرين . وقد كتب الباحث الغربى الكونت ليون أستروج قائلاً : إن المفكرين المسلمين أسسوا مبادئ التسامح مع غير المسلمين ووسّعوا مساحات التواصل بهم .

إن ثقافة التسامح والتعايش مع الأديان والمعتقدات الأخرى هى دون شك ، وليدة الحضارة الإسلامية التى وفّرت مناخًا ملائمًا لتلاق إيجابى قائم على الأخذ والعطاء فى الأفكار بعيداً عن السلبية . وقد عمل أطباء يهود ومسيحيون فى مجال الطب إلى جانب أطباء مسلمين ، وأنتجوا سويًا بحوثًا علمية أفادت البشرية جمعاء . كما أن باحثين مسلمين ومسيحيين ويهودًا أجروا بحوثًا مقارنة مشتركة فى مجال العقيدة والأديان انطلاقًا من كونهم يؤمنون بعقائد قائمة على التوحيد . أما فى مجالات الإدارة ، فقد وظف خلفاء بنى أمية وغيرهم من الحكام المسلمين فى العصور اللاحقة ، اليهود وكلفوهم بأداء مهام دبلوماسية وإدارة الشئون المالية والإدارة العامة فى الدولة الأموية . ويحدثنا التاريخ عن الطبيب اليهودى حاسدى بن شبروت الذى كان يعمل علناً على رعاية مصالح اليهود فى الأندلس أثناء فترة عمله بديوان الخليفة . كما أن عمليات إسناد مناصب ومواقع حساسة لليهود لم تنقطع فى الدولة الفاطمية والأيوبية وفى فترة حكم المماليك فى مصر .

أما فى المشرق فقد مضى المسلمون الأوائل إلى أبعد من ذلك ؛ إذ وجدوا أنفسهم على

اتصال وتعايش مستمرين مع المشركين ومعتقداتهم . ورغم عدم وجود إشارة فى القرآن إلى تلك المعتقدات ولا إلى معتنقيها إلا أن المسلمين لم يجدوا صعوبة تُذكر فى معاملة المشركين بذات الأسلوب من التسامح الذى عاملوا به أتباع الديانات القائمة على الوحدانية (أهل الذمة) وكدليل على ذلك ، نجد أن الهندوس والبوذيين قد حققوا النمو والازدهار والرفاه فى بلدان خضعت للحكم الإسلامى ، ومازال أتباع هاتين العقيدتين يعيشون فى بلدان حكمها ويحكمها المسلمون إلى يومنا هذا .

وعندما اعتنق سلطان «ملقا» (ولاية ماليزية حاليًا) الإسلام تسبب فى تدمير المعابد الهندوسية التى كان أهله يتعبدون فيها . غير أنه لا يوجد ما يدل على الإطلاق أنه أجبر الأجانب الذين كانوا يعيشون فى بلاده من هندوس وبوذيين على اعتناق الإسلام بالقوة ، ولم يُدمر المرافق التى كانوا يتعبدون فيها . هذا التسامح والتفهم للديانات الأخرى ، ما هو إلا جزء أصيل من الأحكام والتعاليم الإسلامية السمحة والتى ظل المسلمون على مدى التاريخ يعترفون بها ويمارسونها فى الواقع . ومما لا شك فيه أن لكل قاعدة شواذ ، وأن المسلمين ليسوا استثناءً ، حيث نجد بعض مظاهر الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة هنا وهناك ، كما نجد تشويها لبعض الأحكام ؛ إذ يميل أصحاب الأجندة الخاصة إلى تفسير التعاليم والأحكام بما يخدم أغراضهم وأهواءهم الشخصية .

ويمكننا القول إجمالاً إن الحقب التاريخية المختلفة إنتهاءً بوقتنا الحاضر ، قد شهدت حالات من التصادم بين الأديان مصحوبة بنوع من سوء الفهم والتبرّم بين المسلمين وغير المسلمين . غير أن ذلك استثناءً يبرهن على صحة القاعدة .

لقد ساهمت الحضارة الإسلامية فى الواقع مساهمة لا تُقدَّر بثمن فى تنمية وتعزيز الحوار والتفاعل بين الأديان ويتضح ذلك بجلاء كون الأقليات غير الإسلامية التى تقطن فى بلدان إسلامية قد حققت ومازالت تحقق زيادة مطردة فى تعدادها وازدهارها مقدراً فى أعمالها التجارية واستثماراتها ، بعكس ما يجرى فى البلدان غير الإسلامية التى يوجد فيها

دين واحد فى معظم الأحيان ولم يسمح بممارسة طقوسه إلا فى الآونة الأخيرة ؛ إذ بدأت تظهر فى أوروبا وأمريكا المساجد والهياكل وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن هناك عددًا ضئيلاً من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام أو البوذية أو الهندوسية .

تلك المقارنات ليست محاولة للوصول إلى نتيجة مؤداها أن غير المسلمين وما أنتجوه من حضارات ، لم يساهموا إلا بقسط ضئيل فى الحوار والتفاهم والتفاعل بين الأديان ، بقدر ما هى محاولة للتأكيد على أن الدين الإسلامى والمسلمين يؤمنون إيمانًا راسخًا بالتسامح الدينى والحوار والتعايش مع غير المسلمين ، بعكس الصورة المشوهة التى يسعى الأعداء دائمًا إلى إظهارهم بها .

وسبق أن أشرنا إلى أن المسلمين اليوم يميلون إلى الانعزال والنأى بأنفسهم عن الاختلاط بغير المسلمين ، ويلجأون إلى العنف للتعبير عن إحباطاتهم . إلا أنه ينبغى التأكيد على أن تلك الفئات ما هى إلا أقلية لا تذكر ، بل هم أفراد لا يُمثلون شريحة فى جسد الأمة الإسلامية .

وبالرغم من تراجع نفوذ الحضارة الإسلامية وبروز نزعات الانحراف عن التعاليم والأحكام الإسلامية الصحيحة ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين الموجودين فى كافة بقاع العالم اليوم ، تتميز بدرجة عالية من التسامح إزاء الأديان الأخرى وأتباعها . فعلى سبيل المثال نجد أن المذابح وعمليات الإبادة الجماعية التى ارتكبها الصّرب فى حقّ المسلمين فى البوسنة والهرسك ، لم تدفع المسلمين إلى التزحزح عن موقفهم الملتزم بضرورة إقامة دولة قائمة على التعددية الدينية والعرقية والثقافية ، يلعب المعتدون الصّرب دورًا نشطًا فى حكمها . هذا الموقف ينطبق أيضًا على لبنان . وإذا ما استثنينا بعض الحالات ، فإن غير المسلمين الذين يعيشون فى البلدان الإسلامية ، يتمتعون بحرية كاملة فى ممارسة شعائرهم الدينية والقيام بأنشطتهم الأخرى .

وفى ماليزيا ، التى يشكل الشعب الملاوى المسلم غالبية السكان فيها ، نجد أنها قد

اختارت عن قصد تشكيل حكومات قائمة على التعددية الدينية والعرقية ، حيث يعمل الجميع بحرص وتفان على تنمية وتعزيز التسامح الدينى والتعايش بين مختلف فئات الشعب بصرف النظر عن المعتقد .

لقد ساهم الإسلام والحضارة الإسلامية مساهمة بارزة فى توسيع دائرة التسامح والتفاعل والتحاور بين الأديان إنطلاقًا من التعاليم الإسلامية التى أمرت بذلك . ورغم عدم اعتراف غير المسلمين بهذه المساهمة ، فإن ذلك لا يُقلل من أهميتها ، ولا يُشكك بحدوثها . وإذا كان هناك مسلمون فى الوقت الحالى لا يساهمون فى تنمية وتعزيز التحاور والتسامح بين الأديان ، فإن ذلك لا يُقلل من دور الإسلام بوصفه دينًا ، والحضارة الإسلامية بوجه عام ، فى هذا المجال .

ويبدو أن الظروف السائدة واضمحلال الحضارة الإسلامية ، هما اللذان ساهما بطرح تفسيرات خاطئة للتعاليم الإسلامية ، وأدّيا إلى بروز نزعات انحرافية عن الأحكام الإسلامية .

الفصل العاشر

التعاون لإحداث التنمية بين الأمم الإسلامية *

كان مناسبًا للغاية أن يلتئم هذا الجمع الكريم ببنجلاديش أرض الشعراء والفنانين والمثقفين البارزين ، والتى تعكس ما يزخر به العالم الإسلامى من إمكانيات حقيقية هائلة . فمنذ استقلالها فى السادس عشر من مارس ١٩٧١ ، لم تتوقف معارك البناء والتنمية فى هذه البلاد ، وقد بدأ ذلك الجهد يأتى أُكُلَه الآن فى ما نراه واضحًا للعيان . ويحدونى الأمل أن تُشكل هذه التجربة الإسلامية عاملاً ملهمًا ونموذجاً نحتذى به نحن فى مجموعة الدول الإسلامية وإيران وماليزيا ونيجيريا وباكستان وتركيا وبنجلاديش نفسها والتى تكوّنت فى إسطنبول فى يونيو ١٩٩٧م ، بهدف تطوير التعاون الاقتصادى بين الدول الإسلامية والارتقاء به من خلال مشاريع واقعية تتوفر لها نسبة عالية من أسباب النجاح .

نحن قادة الدول الإسلامية الثمانى النامية نلتقى فى بنجلاديش فى السنة التاسعة عشرة من القرن الخامس عشر للهجرة ، وهى سنة ليست ذات أهمية خاصة فى التاريخ الإسلامى بحساب الأحداث التى شكّلت نقاط تحول فى مسيرة الأمة الإسلامية . لقد مضت الآن أكثر من ١٤٠٠ سنة منذ انبلاج الإسلام وبلوغه مرحلة التمكين وازدهار الحضارة الإسلامية . فى تلك الفترة من الزمن خضعت كل الأديان التى ألهمت البشرية من قبل وقادت خطاها ، إلى تطورات أفقدتها معناها الحقيقى ، وأضعفت تأثيرها ونفوذها وسط

* كلمة ألقيت في القمة الثانية لمجموعة الدول الثماني النامية بمنظمة المؤتمر الإسلامى بالعاصمة البنجالية داكا فى الأول من مارس عام ١٩٩٩م .

أتباعها . والإسلام بالطبع ، ليس استثناءً ، وينبغى على المسلمين جميعا أن يعترفوا بأن الإسلام والعالم الإسلامى يمران حاليا بحالة من الفوضى الضاربة بأطنابها فى كل مكان ، وأن الانقسامات الحادة تسهم فى إضعاف نفوذهما وتأثيرهما ، لدرجة أصبح المسلمون معها غير قادرين على مجابهة التحديات الحاضرة ولا على مجاراة التحولات المهمَّة التى تحدث تغييرات جذرية على المسرح العالمى ،وهو أمر يهدد الأمة الإسلامية بالانزلاق نحو مزيد من الضعف والتخلف .

وما من شك فى أن البلدان الإسلامية تمتلك ثروات ضخمة وإمكانات لا حدود لها ، لكنها لم تستغل أبداً لتحقيق الرفاه والتقدم وسط الأمة الإسلامية بوجهٍ عام .ونكاد نجزم أنه لا توجد دولة إسلامية واحدة تتوفر على أسباب القوة والنفوذ اللذين يجعلان منها أحد اللاعبين الأساسيين على المسرح السياسى فى عالمنا اليوم ، وهناك مجتمعات إسلامية عديدة لم تتمكن بعد من إرساء دعائم الاستقرار فى بلدانها ،ومازالت تقف عاجزة عن تطوير نفسها بما يمكنها من اللحاق بالدول المتطورة التى لم تحظ أى دولة إسلامية بعضويتها حتى الآن .

لقد دخل العالم القرن الحادى والعشرين ، غير أن الأمة الإسلامية مازالت تعيش فى سُبات عميق فى ظلام القرن الخامس عشر الميلادى ، وينبغى أن نعترف لأنفسنا قبل غيرنا بأن المجتمعات الأخرى قد سبقتنا ببضعة قرون . والحال كذلك ، فإن المسلمين مطالبون أكثر من أى وقت مضى بأن يدركوا حقيقة الوضع الذى هم فيه فى ضوء ما استحدثته المجتمعات البشرية المتطورة من أفكار تجديدية وتقنيات حديثة ، مازالت الدول الإسلامية غير مهيأة لاستيعابها ، وعاجزة تماماً عن التعامل معها . ومن بين تلك التحديات الجديدة المطروحة ، مفاهيم مستحدثة تتصل بنظام الحكم والعلاقات الدولية .ولا شك فى أن المسلمين ليسوا فى وضع يمكنهم من رفض تلك المفاهيم الجديدة لنظام الحكم ؛ لأنهم لا يملكون لها بديلاً ، غير أنهم لم يتمكنوا من تطبيقها على نحو فاعل . فعلى سبيل المثال نلاحظ أننا غالباً ما نسئ فهم فكرة الحكومات الديمقراطية ؛ إذ نهلل للحقوق التى تكفلها الأنظمة الديمقراطية من

دون أن نعترف بضرورة التحلى بالمسئولية التى هى فى الواقع مرادف أصيل لتلك الحقوق .ونتيجة لذلك نجد أن الحكومات فى الدول الإسلامية نادراً ما تجد الاستقرار السياسى الضرورى لتفعيل نظام الحكم بما يمكن من إنجاز ما ينفع الناس .

وبينما نحن مازلنا نعيش نوعاً من الفوضى الداخلية فى بلداننا بسبب سوء فهمنا ومعالجتنا للأيديولوجيات الجديدة والمفاهيم المستحدثة عن نظام الحكم ، استجدت أفكار ومفاهيم جديدة فى السياسة والعلاقات الدولية ، ذلك أن العولمة على سبيل المثال لا الحصر قد تسببت فى تحطيم الحواجز والإجراءات التى شكّلت من قبل سداً منيعًا لحماية بلداننا وثقافاتنا وأدياننا من الزحف الأجنبى القادم دون جيوش . وبتحطم دفاعاتنا أمام هذا الزحف الكاسح ، أصبحنا لا حول لنا ولا قوة ، ووجدنا أنفسنا غير قادرين على التكّيف مع المفاهيم والأفكار المستجدة وتوظيفها لصالح وخير أمتنا وشعوبنا الإسلامية .

وبالتمعّن فى تجليات العولمة بشكلها الحالى ، من دكٍّ للحدود القُطرية وإزالة للحواجز من أمام حركة رؤوس الأموال وتمكينها من التدّفق عبر الحدود دون كابح أو قيد ، فإنها دون شك تصبّ فى مصلحة الغرب والشعوب الغربية . إننا لم نحسن استثمار الثروات الضخمة التى راكمناها عبر سنوات طويلة من المعاناة والجهد المُضنى ولم نعمل على توظيفها فى بلداننا من خلال استخراج واستخلاص مواردنا الطبيعية ؛ إذ انسقنا وراء حرية حركة رأس المال فصدّرنا أموالنا وثرواتنا وآثرنا استثمارها فى الدول المتطورة المستقرة ، فساهمنا بدورنا فى زيادة ثرواتها ، لكننا للأسف لا ندرى كيف يمكننا استغلال تلك الإمكانات للتأثير على تلك الدول لتأمين مصالحنا . ومن سُخرية الأقدار أن الدول الغنية استخدمت أموالنا ذاتها ووظفتها فى استثمارات فى بلداننا ، لكنها جلبت لنا فى الوقت نفسه عدم الاستقرار السياسى والاضطرابات الاجتماعية ، وأفقرت شعوبنا بواسطة سحب تلك الاستثمارات من بلداننا دون إنذار مُسبق أو مقدمات . لقد حاولت تلك الدول استغلال فقرنا وضعف خبرتنا فى توظيف أموالنا وثرواتنا وحرية حركة رؤوس الأموال لفرض سيطرتها علينا ، علمًا بأن نسبة

كبيرة من أموالنا مودعة على نحو أشبه ما يكون بوضع رهينة لدى الأطراف الأجنبية ، ليتمّ استخدامها ضدنا فى الوقت الذى تراه تلك الأطراف مواتيًا .

وفى الواقع ، نحن لا نستطيع مجرد توظيف ثرواتنا العريضة لتنمية شعوبنا وانتشالها من وهدة الفقر ، بل الأدهى والأمرّ أن مواردنا الطبيعية ذاتها هى سبب فقرنا وضعفنا فى الوقت الحالى . إننا ندرك تمام الإدراك أن تلك القوى غير الإسلامية المهيمنة على المستوى العالمى تمتلك أدوات ووسائل وتقنيات متطورة ، ولكن بإمكاننا أن نوظف ثرواتنا الواسعة بما يُعزز قوتنا ويكفل لنا التأثير على بقية الأطراف ، لحماية أنفسنا من عسف واضطهاد وظلم القوى المعادية لنا ، هذا الخيار ، برغم ما يبدو عليه من بساطة لا يتطلب منا أكثر من تنظيم احتياجاتنا من الواردات وتوجيه مواردنا لما يحقق لنا القوة ويعزز نفوذنا على المستوى الدولى ، إلا أننا للأسف عاجزون حتى عن إدارة وتنظيم هذا الأمر .

ظاهرة العولمة التى نشهد بعض تجلياتها حاليًا ، يتم تسويقها فى مختلف المجالات ، وقد تجرّعت ماليزيا جرعة مريرة من جرعاتها . ذلك أن بلادنا كانت تسمح بحرية الحركة لعملتها من وإلى خارج الحدود ولا تفرض قيودًا على الاتجار فيها ، وظلت متمسكة بأن قيمة العملة المحلية (رينجت) لا ينبغى أن تقدّرها الحكومة الماليزية . واستمرت هذه السياسات لفترة طويلة من الزمن دون أن تسفر عن جوانب سلبية غير مواتية ، إلى أن ظهر تجار العملات الذين يتخذون منها سلعة رائجة تُباع وتُشترى . استحدث هؤلاء المضاربون نظامًا تجاريًا مكّنهم من تثبيت سعر صرف الرينجت الماليزى كى يتسنى لهم جنى أرباح طائلة . وقد استمدوا ، بواسطة هذا الإجراء الذى يتيح لهم الإثراء مقابل إفقار الماليزيين ، نفوذًا وسلطات جعلتهم أقوى من الحكومة الوطنية فى كوالالمبور ، وشن المضاربون بالعملات هجومهم الشرس على العملة الوطنية فى وقت حققت فيه ماليزيا ازدهارًا مقدرًا ، إلا أنه عقب نجاح هؤلاء التجار فى خفض قيمة العملة الوطنية الماليزية مباشرة ، بدأت ثروة البلاد تتناقص وتتلاشى فجأة وبوتيرة درامية مخيفة . وقد كشف عجز ماليزيا عن مجابهة تلك الهجمات منذ بدايتها ، أن

السلطات الماليزية لم تكن مُهيأة آنذاك لاستيعاب معنى العولمة ، ولم تكن تدرك أيضًا ما يترتب من تأثيرات سلبية خطيرة على ترك قرار تحديد قيمة العملة الوطنية بيد جهات أجنبية . لا شك أن تلك التجربة كانت درسًا مفيدًا جدًا لماليزيا وللماليزيين ، غير أن استيعابه كان مؤلمًا وقاسيًا للغاية .

تتخذ العولمة أشكالاً عديدة ، وعندما رحبنا بها كنا نعتقد أنها ستتيح لنا المشاركة فى الثروة والتكنولوجيا المُنتجة فى البلدان الغنية المتطورة ، بيد أن الدول الغنية كانت تفكر بطريقة تختلف تمامًا عن حساباتنا ، حيث تركز همها الأول والأخير حول الكيفية التى توظف بها العولمة ، مما يُمكّنها من استغلال موارد الدول الفقيرة من خلال توظيف رؤوس أموالها الهائلة وتكنولوجيتها المتطورة . ويقف انقضاض التجار المضاربين على العملات الوطنية التايلاندية والإندونيسية والكورية الجنوبية والماليزية ، شاهدًا على الكيفية التى يمكن بها استغلال العولمة للسطو على مقدّرات الآخرين . ومن المدهش حقًا أن الاستحواذ على موارد وثروات الفقراء ودفعهم إلى مزيد من الفقر والفاقة فى سبيل زيادة الأغنياء غنىً وثراء ، لا يعتبر ظلمًا ولا أمرًا مُستهجنًا مادام يتم باسم العولمة وبواسطة أدواتها . إن المضاربة بالعملات والانقضاض على أسواق الأوراق المالية ، ما هى إلا مقدمة لتجليات جديدة لمضامين العولمة التى ستكشف عن نفسها تباعًا ، مما يفتح المجالات لتكريس وتسريع وتيرة استغلال الدولة الغنية للموارد الطبيعية للبلدان الفقيرة .

لقد اهتمّ ديننا الإسلامى بإيجاد نوع من التوازن بين الجوانب المادية والروحية فى الإنسان وبين الحياة الدنيا والآخرة . إلا أن تحلّل الغربيين من القيم الروحية أدى إلى غلبة النزعة المادية فى تلك المجتمعات ، فأصبح المال يُشكّل كل شىء فى الحياة . ويلاحظ أن المجلات والصحف والبرامج التلفازية فى الغرب ، لا تُركز إلا على كيفية مراكمة المزيد والمزيد من الثروة ، كما أصبحت تلك المجتمعات تنظر إلى القيم الروحية على أنها من الأمور البالية التى لم يعد لها تأثير فى الحياة . ونتيجة لذلك ، تحول الغربيون إلى عبادة المال كغاية فى حد

ذاتها وليس كوسيلة ، فاستتبع ذلك تحلّل من كافة القيود والضوابط الأخلاقية والمادية التى كانت تحدّ من جشع الطامعين بمراكمة المزيد من الثروة بجميع السبل ، بما فى ذلك تدمير اقتصاديات البلدان المُستهدَفة وقتل الأبرياء وتجويع الأطفال .

لقد تسبّب الاتجار بالعملات فى تدمير اقتصاديات إقليم بكامله وأدى إلى إفقار مئات الملايين من مواطنيه إضافة إلى زعزعة استقرار حكومات منطقة جنوب شرق آسيا . لكن نظرا لأن إشباع نهم تجار العملات بجنى المزيد من الأرباح ما كان ليتمّ إلا بواسطة تلك المآسى ، فإن القوى المهيمنة وقفت تشاهد انهيار الاقتصاديات ببلدان جنوب شرق آسيا ولم تُحرك ساكنًا لوقف التدهور ، بل كانت تدّعى أن ما حدث بالأسواق الآسيوية صيف عام ١٩٧٧م ، ما هو إلا انعكاس طبيعى لتحرير الأسواق وأنه لا ينبغى وضع العقبات بوجه آليات السوق . كما كانوا يزعمون أن السوق هى الأدرى بآليات عملها وهى وحدها القادرة على تحديد اتجاه حركتها والمبادلات التى تتمّ فيها ، كما أنها وحدها التى تمتلك الوسائل اللازمة لكبح أى جموح من شأنه تدمير المصادر التى تجنى منها الربح ! لكن للأسف لم تُدرك الأسواق المحلية والإقليمية ، ما لحق بها من دمار إلا بعد فوات الأوان ؛ إذ بلغ حجم الدمار الاقتصادى درجة يتطلب إصلاحها سنوات طويلة من الجهد المتواصل والتضحيات الجديدة . إن كل ما تعلّمته الأسواق أثناء تلك الفوضى الاقتصادية لم يتعدّ كون أسواق أخرى كانت بانتظار مصيرها المحتوم بمجرد الإجهاز على سابقتها .

وفى المقابل ، لم تتحرك الجهات المُهيمنة لوقف ذلك الاستغلال البشع ؛ لأنها كنت مستفيدة من ذلك الخراب المُبرمج بهدف الربح الفاحش ومراكمة الثروة . وفى تلك الأثناء كانت الدول الإسلامية النامية تبذل أقصى ما فى وسعها لتكييف أنفسها مع الأيديولوچيات الجديدة وأنظمة الحكم المُستحدثة . وقد بذلت ماليزيا جهودا مُضنية لترسيخ دعائم الديمقراطية ، وعندما حققت نجاحًا بهذا الصدد شهد به الأعداء قبل الأصدقاء ، تغيّر الهدف وأُعيد تعريف الديمقراطية لصياغة ما تحمله من مضامين بحسب مصلحة الجهات المهيمنة .

وقد لجأت بعض دولنا إلى الاحتماء بنظمها السياسية السائدة ، وهو أمر لا يثير هواجس الدول الغربية مادام لا يقف عقبة بوجه مصالحها ، بينما حاول بعضنا الآخر استغلال ملكاته الإبداعية بأسلوبه الخاص ، فصاغ فلسفته ونُظمه الخاصة به التى تكسّرت للأسف أمام سطوة الغرب .

هذه المجموعة التى نطلق عليها مجموعة الدول الثمانى الإسلامية النامية ، تسعى إلى التغلب على الصعاب والمشكلات بما يرتقى بها إلى مستوى التحديات العالمية الحالية الشبيهة تماما بوضع الحصار الذى فرض على الإمبراطورية الإسلامية قبل بضع مئات السنين . لكن لابدّ من أن نقرّ بضعف إعدادنا وتجهيزنا لمجابهة المخاطر التى تتهددنا ، أن ننحى جانبًا المصالح الشخصية الضيقة والخلافات التافهة وننطلق متراصّين فى إطار أمة إسلامية واحدة ، بما يفرض على الآخرين احترامنا ومراعاة مصالحنا .

لقد التقينا فى هذا المكان الطيب ، لا لسبب إلا لكى نفكر معا لأننا نرى أن مصلحتنا تكمن فى العمل سويًا ، ولنعاون بعضنا البعض فى تحمّل مسئولياتنا بما يحقق مصالحنا المشتركة .

خلاصة القول ، لقد فقدنا كثيراً من مقدراتنا ، لكننا لم نفقد كل شىء ، حيث ما زلنا نملك الأصول والموجودات ومقومات القوة الحقيقية . إذًا نحن بحاجة فى الوقت الحالى إلى رصد تلك الإمكانيات والمقومات وفحصها ومن ثمّ الجلوس معا للعمل سويًا على بلورة الخطط والبرامج التى تُمكّن من تفعيل استخدامها بأقصى طاقتها للارتقاء بالمردود . ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامى زاخر بالمهارات العالية والعقول النادرة التى هاجرت إلى الغرب ؛ لأن البلدان الإسلامية لم تُوفر لها احتياجاتها الشخصية والتجهيزات الخاصة بالبحث والإبتكار .

إننا مطالبون بتوفير البيئة الملائمة التى تغرى علماءنا بالعودة إلى بلدانهم بما يمكننا من الاستفادة من قدراتهم فى إعادة بناء أمتنا واللحاق بركب الدول المتقدمة .

فى نهاية المطاف ، نحن واثقون من النجاح بمشيئة الله وبمساعدة أولئك العلماء ، ويفضل التزامنا بالتعاليم الإسلامية الصحيحة .

الفصل الحادى عشر

التسامح والاعتدال فى الإسلام *

يُشرفنى غاية الشرف أن تُتاح لى فرصة التحدث فى هذا الصرح العلمى الإسلامى العريق، وأمام هذه الكوكبة من العلماء الأجلاء. لقد قبلت هذه الدعوة؛ لأننى مسلم حريص غاية الحرص على دينى؛ ولأننى أشعر بالحزن عندما أرى أن الإسلام يُساء فهمه وتفسيره من قبل المسلمين وغير المسلمين، ويتعرض للهجوم، ويتّهم بكل نقيصة، ويُربط ما بينه وبين الممارسات البغيضة، ويصبح موضعًا للسخرية والاستخفاف. والإسلام برئ من هذا كله، فهو دين الله المُنَزّه، الذى لا يأتيه الباطل من أمامه أو خلفه، وإنما تكمن المشكلة فى إساءة تفسيره وتأويله سواء من جانب المسلمين أو غير المسلمين من أصحاب الهوى، الذين يريدون تبرير الذنوب التى ارتكبوها أو التى ينوون ارتكابها. فالإسلام هو الدين الكامل، وليس منا نحن البشر من هو كامل أو خال من النقائص. ونقائصنا هذه وعدم التزامنا بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف، هى التى أدت بالإسلام والمسلمين فى جميع أنحاء العالم، إلى الحالة التى نشهدها اليوم.

الإسلام دين يقوم فى جوهره على التسامح والاعتدال، والمسلم الحق، هو الذى يتحلى بالسماحة والاعتدال. وبالتالى فإن الإسلام بوصفه دينًا، والمسلمين كونهم جماعة، أبعد ما يكونوا عن تُهم التطرف والتعصب التى تُلصق بالإسلام والمسلمين، ليس من قِبل غير المسلمين فحسب، وإنما من جانب بعض المسلمين الذين يدّعون أنهم أصحاب أفكار ليبرالية مستنيرة.

* كلمة رئيسية ألقيت فى جامعة الأزهر – القاهرة – مصر، بتاريخ ١٠ مايو ١٩٩٨م.

والإسلامُ كما بشَر به نبينا محمد – صلى اللّه عليه وسلم ، ونشر فى العالمين ، دينُ تسامحٍ ومعتدل ، ويتجلى ذلك واضحًا فى سيرة النبى الكريم ، ومواقفه تجاه أفراد عائلته الذين لم يؤمنوا بالإسلام ، ومواقفه ومعاملته لأهل مكة عندما قام بفتحها ، وتعاليمه بشأن عدم إساءة معاملة الأسرى ، أو المسلمين الذين ارتكبوا المعاصى ، أو الذين ارتدوا عن دينهم ، لم يكن الرسول – صلى اللّه عليه وسلم ، قاسيًا متطرفًا فى معاملته لأى فئة من الفئات ، إنما كان نموذجا للاعتدال والتفهم والسماحة .

وليس هناك موقف تتجلى فيه سماحة الرسول الكريم ورأفته أكثر من صُلح الحديبية ، فنحن نعرف كيف أساء أهل مكة الجاهليين معاملة الرسول – صلى اللّه عليه وسلم ، وأصحابه وكيف حالوا بين أهل المدينة وبين القيام بالحج ، كما أننا نعرف أيضًا مدى التكبر والغرور الذى كان عليه أهل مكة عندما عقد صلح الحديبية ، وكيف رفضوا ذكر الكلمات الدالّة على وحدانية اللّه سبحانه وتعالى ، ونبوّة رسوله الكريم فى نص الاتفاقية ، مما أدى إلى غضب أصحاب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، من موقف أهل مكة ، فدعوا الرسول إلى التوقف عن المفاوضات ، ورفض كلمات وشروط الاتفاقية . ولكن الرسول الكريم أقنعهم بوجهة نظره ، ووافق على شروط الاتفاقية كما هى ومهرها بختمه .

لم يكن الرسول الكريم فى ذلك سياسيا حصيفا فحسب ، وإنما كان قدوة فى السماحة فى أعلى درجاتها ، والاعتدال فى أرقى صوره ، حتى فى تعامله مع ألدّ أعدائه . ونحن نعرف ماذا حدث فى العام التالى ، حين دخل الرسول – صلى الله عليه وسلم ، مكة دون مقاومة من أهلها الذين دخلوا فى دين الله أفواجا . كان الرسول رحيما غاية الرحمة مع أهل مكة ، حتى مع «هند» التى أكلت كبد سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فى معركة أحد .

وبثّ تعامل الرسول مع أهل مكة يوم الفتح ، الطمأنينة فى قلوب أهل الجزيرة العربية الذين دخلوا فى دين الله أفواجاً ، واتحدوا فى أمة واحدة . ومنذ ذلك التاريخ بدأ الدين الإسلامى ينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويقضى على الإمبراطوريات الكبرى القائمة

وقتئذ ، ويصبح القوة الدافعة وراء إنشاء الدولة الإسلامية التى كان لا قبل لأحد بالوقوف أمام زحفها . لقد حقق الإسلام هذه المعجزة بفضل ما يتحلى به من اعتدال وسماحة كدين وكأمة .

وإذا ما كنا لا نزال فى شك أن الإسلام قد أمر أتباعه بالاعتدال والسماحة ، وأن الرسول الكريم كان يتبع تعاليم الدين الحنيف عندما كان معتدلا ومتسامحا مع أصحابه ومع أعدائه على حد سواء ، فدعونا إذن نقرأ ما جاء فى آيات القرآن الكريم عن الاعتدال والسماحة . ففى الآية التاسعة من سورة الممتحنة يقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ صدق الله العظيم . وفى الآية ١٥٩ من سورة آل عمران نقرأ قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ صدق الله العظيم . وشجع الدستور الذى وضعه الرسول – صلى الله عليه وسلم ، فى المدينة على التعاضد والتعاون بين أهلها من مسلمين ونصارى ويهود وغيرهم . وضمن الدستور الذى كان مكتوبا– الحرية للجميع بما فيها حرية العبادة ، كما ضمن العدالة والمساواة للجميع . ونقرأ فى سورة الكافرون : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ صدق الله العظيم .

إن تعاليم الدين الإسلامى الحنيف هى التى وحدت بين المهاجرين والأنصار فى المدينة فى أمة واحدة تختلف عن بقية أمم الأرض الذين دخلوا فى حلف مع رسول الله ، بأنهم «أمة» كذلك مثل «أمة» الإسلام ، وإن كانت كل «أمة» قد استمرت فى ممارسة شعائر دينها .

ومن أهم التعاليم التى جاء بها الرسول الكريم لقبائل العرب ، ضرورة وضع حد لما كان بينهم من أحقاد وعداءات فى أيام الجاهلية ؛ لأنهم لن يجنوا منها سوى الضرر والخراب . ففى الجاهلية ، كما نعرف ، كانت هناك حروب لا تنقطع بين القبائل العربية . كان بعضها

بسبب خلافات أو نزعات حدثت فى الماضى البعيد . وعلى الرغم من أن تلك القبائل كانت تنسى بمرور الزمن السبب الأصلى الذى تسبب فى تفجير النزعات والأحقاد بينها ، إلا أنها كانت تواصل كراهيتها وعداءها للقبيلة أو القبائل الأخرى . هذا التعصب للقبيلة كان لابد من أن يؤدى ، مع مرور السنين ، إلى حروب ومعارك لا جدوى منها ، وإلى الشقاق والضعف . والإسلام يدين التعصب وضيق الأفق الذى لابد وأن يؤدى فى النهاية إلى الضعف والتطرف على حساب الاعتدال والتسامح . ولا شك أن من أبرز إنجازات الإسلام وإنجازات الرسول الكريم ، النجاح فى توحيد القبائل وجعل ولائها للإسلام ، الأمر الذى ساعد على انتشار الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها فى نهاية المطاف .

وفى سورة آل عمران ، الآية (١٠٣) نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ صدق الله العظيم

إن الولاء للإسلام لم يكن تعصبا . وإنما كان ولاء قائما على أسس سليمة ، وعلى معرفة أكيدة بأن الوحدة تحقق القوة والنجاح . كان الولاء للإسلام يحمل فى طياته قدرا كبيرا من التسامح تجاه الآخرين ، والقبول بالاختلافات حتى فى بعض العبادات والممارسات الدينية وتطبيقاتها . لم يكن الإسلام دينا جامدا أو متصلبا ، وإنما كان يقبل الاختلاف فى وجهات النظر ؛ لأن هذا أمر لا بأس به ويؤدى إلى إثراء الدين نفسه ، طالما أنه يؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وفى عالم اليوم نجد الكثير من المسلمين ممن لا يلتزمون حرفيًا بتعاليم الدين ، وقد يتغافلون عن نواهيه ، ولكنهم مازالوا مؤمنين . لماذا؟ لأنهم يؤمنون بوحدانية الله وبنبوّة الرسول الكريم . ونحن لا نرفض مثل أولئك المسلمين ، وإنما نقبلهم بيننا ، وندعو الله سبحانه وتعالى فى الوقت نفسه أن يهديهم إلى سواء السبيل ، وإلى جادة الصواب ، وإلى الالتزام بأوامر الإسلام والابتعاد عن نواهيه .

واليوم ، نرى الملايين من المسلمين ممن أجبروا على ترك الإسلام ، أو ممن عاشوا فى مجتمعات معادية للإسلام يعودون إلى حظيرة الإسلام بكل ما فى قلوبهم من حماسة ، باذلين كل غال ورخيص فى سبيل التمسك بدينهم مهما كانت العوائق والصعاب .

ولكن السؤال الذى يتبادر إلى أذهاننا فى هذا المقام هو : هل يلتزم المسلمون بتعاليم الإسلام الداعية إلى التسامح والاعتدال؟ الإجابة بالإيجاب . لماذا؟ لأن الملايين من المسلمين ، أو فلنقل الغالبية العظمى منهم فى مشارق الأرض ومغاربها ملتزمون بتعاليم الدين الحنيف التى تدعو إلى التسامح والاعتدال . ولكن ، وكما فى أى مجتمع أو فى أى تجمع أو فى أى دين ، هناك من هم خارجون عن الإجماع ، وهناك من هم استثناء من القاعدة العامة .

ولماذا نذهب بعيداً ، أليس هناك بين المسيحيين من هم أكثر تطرفا وعنفاً من المسلمين ، والذين يسمّونهم بالمتعصبين أو المتطرفين ! ! لقد رأينا مثل هؤلاء المسيحيين فى البوسنة والهرسك يقتلون الرجال والنساء والأطفال ويغتصبون ويعذبون إخوانهم فى الوطن لمجرد أنهم مسلمون . ولو عدنا إلى وقائع التاريخ فى العصر الوسيط لرأينا محاكم التفتيش الإسبانية التى ظلت تمارس عملها على مدى ثلاثمائة عام ، فى تعذيب المسلمين وملاحقتهم وطردهم من الأندلس ، بل وصل الحال بها إلى أنها كانت تحقق حتى مع من ارتدوا منهم إلى المسيحية للتأكد من أن ردّتهم قد جاءت عن اقتناع وليس من أجل الهروب من الملاحقة والاضطهاد والتعذيب .

وفى أيرلندا ، رأينا كيف كان التسامح قائمًا حتى بين المسيحيين من طائفتى البروتستانت والكاثوليك ، وكيف أدى عدم التسامح هذا إلى حرب ضروس بين الطائفتين ظلت مشتعلة لفترة طويلة من الزمن . كما رأينا كيف أدى تعصب الميليشيات المسلحة فى لبنان إلى اندلاع نيران الحرب الطائفية هناك والتى أتت على الأخضر واليابس فى ذلك البلد الجميل الذى كان درة البلدان .

كما أننا نرى التطرف وعدم التسامح فى إسرائيل أيضًا من بنيامين نتنياهو من جهة ،

وقادة الأحزاب الدينية المتطرفة فى إسرائيل الذين نسوا ما تعرضوا له من اضطهاد فى أوروبا ، ويقومون اليوم بممارسة ظلم أنكى ، واضطهاد أشد ضد العرب من مسلمين ومسيحيين ، وإجبار هؤلاء العرب على العيش فى أحياء منعزلة كالتى فرض هتلر عليهم العيش فيها فى ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية .

وفى الهند ، نرى التطرف من جانب الهندوس ضد المسلمين . . وفى بلدان آسيوية أخرى نرى تطرفا بوذيًا ضد أصحاب الأديان الأخرى .

خلاصة القول ، هو أن لا أحد يستطيع الادّعاء أن التسامح والاعتدال حكر عليه دون غيره . . ففى كل مجتمع وفى كل دين سوف يكون هناك نوع من الزيغ أو الضلال ، وسوف تكون هناك قلة شاذة أو خارجة عما هو مألوف ومتفق عليه . ولكن البشر عمومًا يميلون إلى التعميم ، فإذا كانت هناك فئة ضالة فى مجتمع ما ، رموا المجتمع بأسره بالضلال ، وإذا كانت هناك جماعة متطرفة ، رموا المجتمع كله بالتطرف .

يجب علينا نحن معشر المسلمين فى الأمة الإسلامية أن نعترف أن من بيننا قلة متطرفة ، وفئة متعصبة ، بعيدة عن اعتدال الإسلام وعن سماحته ، بالرغم من أن التطرف والتعصب من الأمور الخارجة عن تعاليم الدين الإسلامى الحنيف . وكما هى العادة دائمًا فقد استغل أعدؤانا أعداء الإسلام هذه الفرصة فوصموا المجتمع الإسلامى كله والمسلمين جميعهم بالتطرف والتعصب .

ومما يؤسف له حقا أن أولئك المتطرفين والمتعصبين قد نجحوا فى بعض الدول فى السيطرة على زمام الأمور ، وبدأوا فى فرض طريقة فهمهم للدين على الآخرين بالقوة والعنف ، ومن الأسف أيضًا أن نجد الإسلام والتطرف أصبحا يعنيان شيئًا واحدًا فى نظر الغرب وفى نظر الشعوب غير المسلمة ، فهم يرون فى الإسلام دينًا يدعو إلى التطرف والإرهاب ، وعدم التسامح ، وعدم التَّقبُّل لرأى الآخر . ومهما حاولنا أن نبين لهم أن ذلك ليس صحيحًا ، وأن التعميم أمر خاطىء ، وأن وجود فئة متعصبة أو متطرفة ، لا يعنى أن

المسلمين كلهم كذلك ، وأن ما قامت به محاكم التفتيش الإسبانية ليس تعبيرا عن المسيحية ودعوتها إلى السلام والتسامح ، وأن ما قام به الصرب من مجازر وفظائع ضد المسلمين لا يمكن أن ينسحب على الكنيسة الأرثوذكسية التى تدعو إلى الرحمة والرفق بالإنسان . . ولكن بالرغم من كل تلك المحاولات ، فإن المفهوم الخاطئ للإسلام مازال مستمرا بصورة أو أخرى .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل يجب علينا أن نشغل أنفسنا بنظرة الآخرين لنا ورأيهم فينا وفى ديننا؟ الإجابة هى أننا يجب أن نفعل ذلك . فعندما نزل الوحى على الرسول - صلى الله عليه وسلم ، كان أول من آمن بالإسلام من أصحاب الرسول هم أولئك الذين رأوا فى الإسلام وسيلة للخلاص . فمجتمع شبه الجزيرة العربية فى الجاهلية كان مجتمعا قاسيا وغير متسامح ، يئد البنات ويتخذ الرجل فيه عدداً غير محدود من الزوجات ، ويعامل السيد عبيده بقسوة ، ويقهر الغنى فيه الفقير ، والقوى الضعيف .

ثم جاء الإسلام ليعد المظلومين بالخلاص والعدالة ، ويدعو إلى عدم وأد البنات ، وإلى تحديد عدد الزوجات بأربع فقط ، وإلى العدل بينهن ، وإلى طائفة أخرى من التعاليم الكفيلة بخلق مجتمع أفضل . وهكذا رأينا المظلومين يعتنقون الإسلام ، ورأينا بلالاً العبد الحبشى يصبح من أوائل من آمنوا بالرسول ودخلوا الإسلام .

وسواء أكنا نريد نشر الإسلام أم لا ، فإن علينا فرضًا واجبًا وهو أن نقوم بشرح الإسلام والدعوة إليه بين المسلمين وغير المسلمين . يجب علينا أن ندعو إلى الدين بالحسنى ، وأن نحاول أن نجعل الآخرين يفهمون الإسلام على حقيقته ، ثم نحاول تعميم ذلك المفهوم الصحيح على جميع دول وشعوب العالم . وليكن هدفنا دائمًا أن نحاول إبراز سماحة الدين الإسلامى واعتداله فى دعوتنا وفى سلوكنا ، وأن نبتعد كل البعد عن كل ما يمكن أن يجعل الآخرين ينظرون إلى الدين الإسلامى على أنه دين تطرف وتعصب .

والعدالة فى الإسلام ، كما هو معروف ، تقوم على مبدأ (الجزاء من جنس العمل) وأن

العين بالعين ، والسنّ بالسنّ ، والبادئ أظلم . ولكن ما هو غير معروف لدى الغرب هو أن الإسلام يراعى الاعتدال والرحمة فى تصريف شئون العدالة .

فالإسلام يأمرنا المرة بعد الأخرى أن نكون رحماء ومراعين لحقوق الآخرين . فهو يوفر للشخص المظلوم الحق فى طلب الإنصاف والعدل ، وأن يطلب بأن تكون العين بالعين ، والنفس بالنفس ، ولكنه يدعو فى الوقت نفسه إلى العفو والمغفرة من جانب من وقع عليهم الظلم نحو ظالميهم ، مقابل الدية والتعويض . فمبدأ العين بالعين ، والسنّ بالسنّ إذن ليس مبدأ إجباريًا ، وإنما الغرض منه فقط هو تقييم الجريمة وتحديد العقاب المناسب لها .

فى سورة المائدة الآية ٤٥ يقول الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾ صدق الله العظيم .

فالله سبحانه وتعالى غفور رحيم ، ويريدنا أن نكون كذلك . ولكى نغفر ونرحم لابدّ لنا أن نكون متسامحين ومعتدلين . ومما لا شك فيه أن الرغبة فى الثأر التى تتحكم فى الإنسان وتملك عليه تفكيره ، وذلك الشعور بالانتقام الذى يتملكنا بضرورة إلحاق الأذى بأعدائنا كما ألحقوا الأذى بناء ليس من الرحمة والمغفرة فى شىء .

وإذا ما أردنا أن نُصحّح هذه الصورة المشوّهة عن الإسلام ، وإذا ما أردنا أن نزيل الفكرة الراسخة لدى الأوروبيين بأن المسلمين يتّصفون بالفجور فى الخصومة وعدم التسامح وعدم الصّفح وعدم الاعتدال ، والتطرف ، فإنا يجب أن نُظهر رغبتنا فى التغاضى عن الانتقام ، وعن انتهاج أسلوب العنف الذى لا يعرف الرحمة .

أما ما تقوم به فئة من المسلمين من قتال فيما بينها ، أو قتالٍ مع الغير من أجل إظهار مدى عمق التزامنا بقضايانا ، فقد ينجح فى جذب الاهتمام إلى ما نعانيه من ظلم على أيدى الآخرين ، ولكنه أبدًا لن يقودنا إلى النجاح فى نضالنا من أجل نيل حقوقنا العادلة . ونحن

نعرف أنه كلما زاد حجم الظلم والقهر الواقع علينا ، زاد عزمنا وتصميمنا على مواصلة النضال ، وبالطريقة نفسها ، كلما ألحقنا الأذى بأعدائنا ، زادت لديهم الرغبة والتصميم على الانتقام منا ، وزادت مقاومتهم لنا ولديننا الحنيف . هذا الطريق لن يقودنا إلى النجاح بالطبع ؛ لأننا لا نسعى إلى النجاح والفوز وإنما إلى إشباع الرغبة فى الانتقام من أجل الانتقام . . لإشباع غرائزنا الحيوانية .

لذلك كله ، لابد لنا من أن نتمسك بقيم التسامح والاعتدال التى يأمرنا ديننا الحنيف بأن نتمسك بها . ونحن نعرف أن القرآن الكريم يقول إننا إذا أخطأنا أو أصابنا الفشل ، فإن ذلك يرجع إلى أسباب كامنة فينا . أما إذا وُفِّقنا فإن هذا التوفيق بفضله تعالى خالق السماوات والأرض . وإلى الآن أقول لكم أيها السادة الأجلاء إننا قد فشلنا . . وقد يسأل سائل : فيم فشلنا؟ وأجيبه ؛ بأننا قد فشلنا فى استرداد أمجادنا السابقة ؛ لأننا فشلنا فى حماية أنفسنا ، والمحافظة على قوتنا ، وعلى إيماننا . . كما أننا فشلنا فى الالتزام بتعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه ، كما جاءت فى القرآن الكريم وفى سنّة نبيّه الكريم ، وليس لأن الله سبحانه وتعالى ، قد أراد لنا الفشل .

وفى الوقت نفسه ، نجد بين المسلمين من يظنّون أنهم يتبعون تعاليم الدين لمجرد أنهم يقومون بأداء الفروض والسَنن ، أو لأن مظهرهم الخارجى يتطابق مع ما يجب أن تكون عليه صورة المسلم الحق . وأنا هنا لا أناقش مدى قوة إيمان أولئك الناس ، ولكننى أود أن أقول إن الإسلام ليس شعائر ومظاهر فقط ، بل هو منهج حياة ، وأسلوب الحياة هذا لا ينعكس بالشعائر والمظاهر فقط ، وإنما ينعكس فى التزامنا بالاعتدال والرحمة فى كل ما نقوم به . كيف يمكن لنا أن نصلى ، ثم نذهب بعدها للانتقام من أخوة لنا فى الإسلام ونذبحهم؟ وقد يكون هؤلاء ممن لا يصلون مثلما نصلى ، ولكنهم مع ذلك قد يكونون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، منّا . فالله سبحانه وتعالى هو وحده المطلع على القلوب ، وهو وحده الذى يعرف من يلتزم بأوامر الإسلام ونواهيه ، ومن لا يفعل ذلك . هل نستطيع بعد أن ندرك هذا ، أن

نعطى أنفسنا الحق فى الحكم على إسلام الآخرين ، وأن نسمح لأنفسنا بمعاقبتهم بناء على ذلك ، مما يؤدى إلى إضعاف الإسلام وإلى إعطاء الفرصة لأعداد الإسلام والمسلمين لتحقيق الانتصارات علينا؟

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله أكثر من مرة أن هؤلاء الذين نحكم عليهم بأنهم أقل إيمانًا منا ، قد يكونون فى الحقيقة أكثر إسلامًا وإيمانًا منا ، وأكثر قربًا لله سبحانه وتعالى . وفى الحقيقة ، إن إدانتنا للآخرين ليست إلا انعكاسًا لافتقارنا إلى الاعتدال والتسامح ، وهو أمر يعتبر بالتأكيد ضد الإسلام وضد التعاليم الإسلامية وما أرسته من قيم .

ففى سورة الحجرات الآية (١١) يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ صدق الله العظيم .

والإسلام دين عملى ، ولم يقصد به أبدًا أن يكون دينًا مفروضًا بالقوة والقهر على أتباعه . وليس مقصودًا به أن يكلفهم بما لا طاقة لهم به . ولذلك يقول سبحانه وتعالى فى سورة البقرة الآية (٢٥٦) : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ صدق الله العظيم .

وفى سورة المائدة الآية (٦) يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) ﴾ صدق الله العظيم .

ونحن نعلم أنه ليس جميع المجتمعات الإسلامية تعيش فى بلدان جميع سكانها من المسلمين ، فاليوم نجد أن أعدادًا متزايدة من المسلمين تعيش فى بلدان غير إسلامية . وفى

المجتمعات غير الإسلامية هناك أشياء لا يستطيع المسلمون أن يقوموا بها مثلما يقومون بها فى الدول ذات الأغلبية الإسلامية .

ولذلك فعلى المسلمين الذين يعيشون فى بلاد إسلامية بالكامل ، أو فى بلاد يشكل المسلمون الغالبية العظمى فيها ، أن يتذكروا أن أى عمل يقومون به ضد من هم غير مسلمين ، سوف يؤخذ عليهم وسوف يؤثر على حياة ومصير وأرزاق المسلمين الذين يعيشون فى بلدان غير إسلامية أو فى بلاد يُشكل المسلمون فيها أقلية ضئيلة .

وفى الحقيقة ، قد يحدث أحيانا أن نكون عادلين ومتسامحين مع الأقليات غير المسلمة التى تعيش فى بلادنا ، ومع ذلك يستمر عذاب المسلمين ويستمر قمعهم فى المجتمعات والدول الأخرى غير الإسلامية . فعلى سبيل المثال : ماذا فعلنا كى يستحق المسلمون كل هذا التنكيل والوحشية من جانب الصرب فى البوسنة . . أو من جانب غيرهم فى البلدان الأخرى؟ ولكن الله سبحانه وتعالى له حكمة تجلّ عن الفهم . ويجب أن نعرف أننا بعيدون كل البُعد عن الصراط المستقيم ، أو أننا لا نعيش كما أمرنا ديننا الحنيف ، وإنما نأخذ من التعاليم الإسلامية ما يمكن أن نتخذه ذريعة لتبرير ما نسعى إليه من رغبات ، ونطرح جانبًا ما يبين أو يظهر أننا قد أخطأنا .

وماليزيا ؛ كما تعرفون أيها السادة الأجلاء ، بلاد ذات أغلبية إسلامية ، علمًا بأن عدد غير المسلمين فى بلادنا يصل إلى ٤٠ فى المئة من عدد سكانها الإجمالى . فى أيام الاحتلال ، عمد البريطانيون إلى فصل الأجناس الموجودة فى ماليزيا عن بعضها ، ثم حرضوا على اندلاع النزعات الطائفية والدينية . فالملاويون كما تعرفون أيها السادة شعب مسلم بالكامل ، فى حين أن السكان الصينيين يدينون بالكونفوشيوسية ، ويدين الهنود بالهندوسية ، وعندما تحقق استقلال البلاد وجدت هذه الأجناس أنها لابد من أن تتعامل وأن تتواصل مع بعضها بعضًا . وكانت سماحة واعتدال رئيس الوزراء الماليزى فى ذلك الوقت **(تنكو عبد الرحمن)** سببًا فى إقناع الأحزاب القائمة على أسس عنصرية وإثنية بالدخول فى ائتلاف موحد . لكن

المتطرفين العنصريين انسلخوا عن التحالف فيما بعد من أجل تكوين أحزاب بديلة . ومع ذلك ، فإن الغالبية ظلت مع تنكو عبد الرحمن الذى استطاع ائتلافه تحقيق الانتصار فى أول انتخابات تعقد تحت الإدارة البريطانية ، وكذلك فى الانتخابات التى تم تنظيمها فى أعقاب الاستقلال . وفى عام ١٩٦٩م ، اندلعت أعمال العنف العنصرى ؛ لأن الوحدة السياسية لم تكن قوية بالدرجة المطلوبة التى تمكن البلاد من التغلب على الاختلالات فى موازين القوى الاقتصادية لصالح الأجناس المتعددة الموجودة فى البلاد فى ذلك الوقت . والذى حدث أن القلاقل وأعمال الشغب والتنكيل لم تستمر طويلاً . ففى خلال عام واحد ، استطاع القادة وخصوصا القادة المسلمون تهدئة شعبهم عن طريق إعداد سياسة لتصحيح الخلل الاقتصادى . ومنذ ذلك الوقت لم تحدث أى اضطرابات عنصرية فى ماليزيا ، كما أن المحاولات التى بذلتها العناصر المتطرفة الإسلامية وغير الإسلامية لإثارة مشاعر الكراهية والضيق ضد الأخرين ، قد باءت بالفشل . واستطاعت الحكومة أن تحدّ من أى نزوع نحو التطرف الدينى وذلك عن طريق الإقناع بالحسنى .

واليوم نجد ماليزيا دولة تنعم بالسلام والاستقرار . ولم تنجح جميع المحاولات التى قامت بها العناصر الأجنبية لإثارة التطرف الدينى والفتنة وتهديد استقرار الدولة واقتصادها ، وإعادة إنتاج الفوارق الاقتصادية بين الأجناس المختلفة الموجودة فى البلاد .

نتيجة لهذا ، أصبحت ماليزيا دولةً قادرةً على تحقيق نمو سريع فى كافة المجالات . فقد نمت الثروة الاقتصادية ، والمعرفة التقنية والمهارات الإدارية فيما بيننا بما فى ذلك المسلمون . ونجد اليوم المسلمين لا يقلّون فى قدرتهم وإمكاناتهم عن غير المسلمين فى مجال الإدارة والسياسة والتقنية والتجارة العالمية .

كما نجد أن مسلمى ماليزيا يؤمنون بالاعتدال والتسامح ؛ لأن هذا هو ما يطالبنا ديننا به . ولقد كان لهذا الاعتدال والتسامح ردُّ فعل طيب لدى الأجناس الأخرى من غير المسلمين التى بادلتنا المساعر نفسها وتعاملت معنا بالطريقة نفسها التى نتعامل بها معهم . ولذلك

نراهم يقومون بتقديم الدعم للمسلمين بكل حماس لتمكينهم من الوصول إلى نفس المستوى الذى بلغوه . كان هذا هو ثمرة سياسية الاعتدال والتسامح التى أتت أكلها لأهل ماليزيا من المسلمين .

فتعاليم الإسلام فى ماليزيا لا تقتصر على الأمور العقيدية البحتة ، وإنما تمتد لتغطى طرق وأساليب العيش على النهج الإسلامى الصحيح ، فى إطار من الاعتدال والتسامح وإذا ما أهملنا هذه التعاليم فإننا لن نكون قد ارتكبنا خطأ فظيعًا فحسب ، وإنما سنعمل أيضًا على حرمان أنفسنا من مزايا الإسلام ومنافعه . وإذا حدث أن فشلنا بعد ذلك أو لحقت بنا المهانة والضعف ، يجب علينا عندها ألا نلوم إلا أنفسنا !

الفصل الثاني عشر

مستقبل الأمم الإسلامية *

نلتقى هنا فى طهران فى أعمال القمة الثامنة لمنظمة المؤتمر الإسلامى ، ونحن على أعتاب قرن جديد وألفية جديدة ، بما يطرحه ذلك من تحديات ضخمة تفرض علينا بإلحاح الاستعداد لها باستنباط السبل الكفيلة بمواجهتها . وتنعقد هذه القمة فى وقت تتعرض فيه الأمة الإسلامية إلى تهديدات وضغوط جديدة متزايدة . فالقضية الفلسطينية لم يطرأ عليها تطور جديد بالاتجاه الإيجابى ، والفلسطينيون ظلوا على ما كانوا عليه من مآس وبعد عن نيل حقوقهم المشروعة ؛ إذ تحول اتفاق أوسلو إلى أوهام ، وإقامة دولة فلسطين المعترف بسيادتها مسألة تبدو بعيدة الاحتمال كما كانت دائمًا ، مالم يقم الفلسطينيون بالمغامرة وإعلان دولتهم المستقلة من جانب واحد ، وهى خطوة سوف ينتج عنها بكل تأكيد نزيف دماء دون مُبرّر .

إن هدف إخواننا الفلسطينيين من نضالهم الوطنى واضح وضوح الشمس فى كبد السماء ، ويجب ألا نجعل غضبنا الشديد يسيطر علينا مهما حدث من تطورات ، لكى لا نبتعد عن هدفنا الأصيل أو يجعلنا ذلك ندخل فى مغامرات غير محسوبة العواقب .

نحن فى ماليزيا نشعر بالحزن الشديد إزاء أعمال القتل التى تجرى فى بعض الدول الإسلامية ضد غير المسلمين والمسلمين على حد سواء . إن هذه الأعمال لا علاقة لها

* كلمة ألقيت فى أعمال القمة الثامنة لمنظمة المؤتمر الإسلامى فى طهران– إيران ، بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٩٧م .

بتعاليم الدين الإسلامى من قريب أو بعيد ، كما أنها لا تفيد قضية الإسلام ، ويجب علينا كأمم إسلامية أن ننبذ خلافاتنا ونوحّد صفوفنا ، لكى نواجه الأخطار الداهمة التى تتهددنا . كما يجب ألا نكون أعداء لأنفسنا ؛ لأننا نرى فى العديد من الدول الإسلامية حروبًا ومعارك ؛ يقتل فيها المسلم أخاه المسلم ، وتؤدى إلى عدم الاستقرار ، الذى يؤدى بدوره إلى إضعاف الحكومات ، وعدم قدرتها على تحمل مسئوليات الحكم وتبعاته بكفاءة وفاعلية ، وعدم قدرتها على تنمية وتطوير البلاد بما يكسبها القدرة على منافسة الأعداء فى شتى المجالات . بالإضافة لذلك ، أدت المنازعات الشخصية والأطماع الفردية والتعطش للسلطة إلى تخريب الإدارة الحكومية ، وشل قدرتها على الوفاء باحتياجات الشعوب .

نتيجة لذلك كله ، بقيت الأمم الإسلامية ، فى مجملها متخلفة وفقيرة ، وغير ماهرة ، وغير متعلمة ، وغير قادرة على الإسهام الإيجابى فى رفاهية المسلمين وعقيدتهم وأممهم .

وعلى الرغم من أن الكثير من الدول الإسلامية تنعم بموارد غنية ، فإننا لا نزال غير قادرين على الإفادة من هذه الموارد بالصورة المثلى فى خدمة الإسلام والذود عنه وعن الشعوب الإسلامية ضد أولئك الذين لا يخفون كراهيتهم لنا ولديننا ولا يتورّعون عن الجهر بنواياهم السيئة نحونا .

هذا هو الحال السائد فى بلداننا ، والذى تسبب فى هروب أفضل العناصر من بلداننا الإسلامية للخارج للمساهمة بعلمهم ومهاراتهم فى رفاهية شعوب البلدان التى يهاجرون إليها ، والتى يحدث فى بعض الأحيان أن تكون معادية لنا . وللأسف الشديد لا تتوافر لدينا الإمكانات التى يمكن أن نقدمها لعلمائنا الأذكياء الموهوبين ، مما يجعلهم يشعرون دائما أن البيئة فى بلدانهم الأصلية لا تتسع لأحلامهم ، وهو أمر كفيل بدفعهم

للتفكير فى الهجرة .

كما أننا لم نستطع حتى الآن تطوير نظام يحدد الأسس والطرق التى يمكن أن نحكم بها بلداننا ؛ فبعض دولنا يتبع نظاما ملكيًا ، فيما يطبّق بعضها الآخر نظامًا ثيوقراطيًا يقوم رجال الدين على شئون الحكم فيه ، ومجموعة ثالثة اتبعت نظم حكم ديمقراطية . وعلى الرغم من جميع الادعاءات والمزاعم التى تسوقها الدول الغربية من أن الديمقراطية على النمط الغربى هى الديمقراطية الصحيحة ، فإن الحقيقة هى أن الديمقراطية أو النظام الديمقراطى قد فشل حتى الآن فى إثبات جدواه وفاعليته ، سواء بالنسبة للدول الغربية أو حتى بالنسبة لأى دولة فى أى مكان فى العالم ، ففى كثير من الحالات يتم بموجب هذا النظام اختيار أشخاص غير ملائمين أو غير صاليحن لتولى مسئولية الحكم ، وفى هذه الحالة نجد أولئك الأشخاص مثلاً يهتمون بمصالحهم الخاصة على حساب مصالح الشعب ، مما يؤدى إلى صرفهم عن الواجبات والمهام التى يجب أن يقوموا بها ، الأمر الذى يؤدى بدوره إلى تفشى الفساد وانهيار القيم الأخلاقية .

ولكى يتمكن هؤلاء من صرف الأنظار عن المشاكل التى تواجهها بلدانهم ، نجدهم يركزون على سلبيات وعيوب الحكومات والدول الأخرى . ولذلك نجد هذه الدول تتهمنا نحن فى البلدان الإسلامية على وجه الخصوص بأننا ننتهك حقوق الإنسان ونمارس العنف والإرهاب ، ونفتقر إلى الكفاءة الإدارية اللازمة لتدبير أمور شعوبنا ، بل تصل الاتهامات فى بعض الأحيان إلى حد الزعم بأننا نقوم بتدمير البيئة . وبواسطة المنظمات غير الحكومية نجدهم يتدخلون بفاعلية فى شئوننا الداخلية ، وتحريض شعوبنا على استخدام العنف ضد حكوماتهم ، بل وضد بعضها بعضا . كما تقوم هذه الدول أيضًا بتوفير المأوى والأمان للإرهابيين الذين يقومون بأنشطة تخريبية فى بلادنا .

ومفاهيم الديمقراطية ونظامها الغربى الحديث ، ليست أفضل حالا من الدول الإقطاعية أو الدول القائمة على حكم الصفوة الدينية الثيوقراطية التى سبقت وجود النظام الإقطاعى . صحيح أن الطريق قد يكون مختلفاً ، ولكن الهدف واحد فى النهاية . ويجب ألا ننسى أن هذه الدول هى التى أضرمت نيران محاكم التفتيش الإسبانية .

ورغم أنهم ما عادوا يقومون بحرق الضحايا أحياء ، فإن الضغط الاقتصادى الذى يمارسونه على ضحاياهم ليس أقل قسوة من ذلك ؛ إذ يضعون الناس أمام خيارين أحلاهما مرّ : إما الاستسلام وإما القتل .

والأمم الإسلامية ليست بحاجة إلى اختراع أشكال جديدة للحكومات ، لأن هذه الأنظمة فى النهاية لن تكون كاملة ، ولن تستطيع أبداً أن تضمن الحكم الرشيد . إن الذى يجعل نظام حكم ما راشداً هو نوعية الرجال الذين يتصدون لتصريف شئون الحكم . ولكى نعرف ما هى مواصفات هؤلاء الرجال الملائمين لممارسة الحكم ، علينا أن نعود إلى تعاليم الإسلام ؛ وهى التعاليم الحقة وليست التعاليم التى يتم تأويلها لتبرير ما نقوم به سواء أكان خطأ أم صوابًا ، خيراً أم شراً .

وإذا لم نكن متأكدين مما تعنيه التعاليم الحقة ، فإننا سوف نكون بحاجة إلى توجيه بعض الأسئلة : هل الإسلام يدعو إلى الحروب والعنف بين المسلمين سواء أكانوا جماعات أم ملل؟ هل الإسلام يدعو إلى قهر الشعوب على أيدى الحكومات؟ هل الإسلام يدعو إلى تهديد استقرار الحكومات وقلبها من خلال أعمال غير مسئولة بواسطة الناس؟ هل الإسلام يدعو إلى رفض الحياة الطيِّبة فى هذا العالم أو الحياة الطيبة فى الآخرة؟ هل نستطيع أن نقول حقًا إننا كى نكون متديّنين لابدّ من أن نكون فقراء ، وأن نكون بلامعرفة وبدون مهارات ، وغير قادرين على الدفاع عن أنفسنا ضد أعدائنا؟

هل اعتمد الرسول – صلى الله عليه وسلم – على ثروة وذكاء صحابته أم أنه قام بشراء الأقواس والسهام والسيوف والخيول والجمال من هؤلاء الذين كان هدفهم المعلن والواضح هو تكوين الثروات لأنفسهم ، ليس هذا فحسب ، بل وتدمير الإسلام والمسلمين؟

إننا نعرف إجابات جميع هذه الأسئلة ، ومع ذلك فإننا لا نهتم باتباع الطرق التى تدلنا على الإجابات الإسلامية لهذه التساؤلات . وبدلا من ذلك نشغل أنفسنا بالتفاهات والصغائر مثل طول : لحية المسلم أو طول جلبابه . وفى بعض الأحيان ندخل فى حروب ضد بعضنا البعض بسبب خلافات بسيطة بشأن أساليب التعبير عن إيماننا . لذلك نجد دائما أن كل واحد منا يحاول أن يزايد على الآخر فيما يتعلق بمظاهر التقوى والورع الدينى ، سواء عن طريق اختراع أفكار متطرفة أو ممارسات متشددة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، من أجل إظهار قوة إيماننا . وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد ، بل إننا نحاول أن نفرض هذه الأفكار والممارسات المتطرفة على الآخرين بالقوة ، ونقوم بإدانتهم إذا مارفضوا ذلك . وكل هذه الممارسات تؤدى إلى تقسيم المجتمعات وبث الفرقة بينها ودفعها إلى مقاتلة بعضها بعضا بسبب بعض الخلافات الناتجة عن اختلاف فى فهم الدين .

والإسلام دين سلام ودين أخوة ودين مرونة ، وممارسات الإسلام ليست متشددة على الإطلاق . وهناك دائمًا تيسير فى الدين بحيث لا يشعر الإنسان بأن التعاليم الدينية تشكل قيدا على حريته ، وعبئا يجب عليه أن يتحمله . ففى أداء الصلاة والصوم وتوزيع الزكاة وأداء شعائر الحج ، يراعى الإسلام ظروف كل شخص على حده ، ويسمح للظرف السائد أو الطارئ أن يملى طريقة ممارسة الشعيرة أو العبادة . وهكذا فإننا نرى أن المسلم يمكن أن يؤدى صلاته بطرق مختلفة حسب الظرف وحسب حالته الصحية وقدرته الجسدية . والأمر نفسه ينطبق على الصيام الذى يعتمد على حالة

الإنسان الصحية وقدرتها البدنية أيضًا ، بل وعلى المكان الذى يوجد فيه كذلك . كما أن المسلم يخرج الزكاة بحسب قدرته المادية ، ويقوم بالحج إلى بيت الله إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . أما الشىء الذى لا يمكن أن يتسامح فيه الإسلام فهو إنكار أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ إذ يجب على المسلم أن يشهد بذلك علنا ، أو أن ينطق الشهادة بقلبه إذا ما أجبر على إنكارها فى العلن تحت الضغط والتهديد .

أنا لا أحاول أن أنصّب نفسى فى موضع الواعظ ، ولكننا جميعًا نعرف أن هناك من يدفعنا لأن نكون متشددين فى إسلامنا . الحقيقة إننا نبدو كما لو كنا نتنافس فيما بيننا على إظهار مدى تمسكنا بالإسلام حتى ولو أدى ذلك بنا إلى تحمل أشياء لا طاقة لنا بها ، أو إلى الضغط على أنفسنا لأبعد الحدود ، على الرغم من أن الإسلام دين يسر لا عسر .

إننا نبدو وكأننا نرفض نعم الله سبحانه وتعالى ، التى أنعم بها علينا فى هذه الدنيا ، بما فى ذلك نعمة التفكير ؛ لأننا دائمًا نعتبر أن هذه الدنيا لم تخلق لنا . وليس معنى هذا أننى أدعو إلى الانغماس فى ملذات الدنيا دون أن نعمل عقولنا . إن ما أدعو إليه هو اكتساب المعرفة والمهارات المطلوبة للدفاع عن الإسلام ، والإسهام فى صنع عظمته وقوته فى العالمين ، كطريقة حياة متكاملة ، وكأسلوب متكامل للتفكير والفعل لكل هذه الأسباب التى ذكرتها آنفاً نجد أن الأمة الإسلامية تتعرض إلى الظلم والعنت والقهر والإهانات فى كل مكان ، فى الوقت الذى نقف فيه عاجزين تمامًا عن فعل أى شىء للدفاع عن شرفنا والذود عن حمى الإسلام .

وفى عالم اليوم لا نجد دولة إسلامية واحدة ضمن القوى الكبرى فى العالم ، ولا نجد أمة إسلامية واحدة قادرة على حماية أمة إسلامية أخرى تتعرض للعدوان . لقد رأينا مئتى ألف مسلم يتعرضون للذبح فى البوسنة والهرسك أمام أنظار العالم ، وأمام

أنظار قوات حفظ السلام ، دون أن يحرك أحد ساكنًا . ونحن لا نستطيع أن نلوم جنود قوات حفظ السلام ؛ لأنهم لم يفعلوا شيئًا ، لأننا نحن أنفسنا لم نفعل شيئًا ولأننا سمحنا أن نضع أنفسنا تحت قيادة وسيطرة الآخرين كي يتحكّموا فينا كما يشاءون . فإذا أرادوا أن يتركوا إخواننا فى الدين ليتعرضوا للتعذيب والاغتصاب والذبح ، فإننا لن نقدر على فعل أى شىء لحمايتهم ، وسنقف مكتوفى الأيدى مثلهم تمامًا سواءً أكانت لنا قوات ضمن قواتهم أم كنا فى الأصل قد تقاعسنا عن إرسال قوات للذود عن إخواننا فى الإسلام .

وماليزيا تدرك ضعف قدراتها الدفاعية ؛ لأنها ركزت جهدها على تحقيق استقلالها الاقتصادى ، معتقدة أن بإمكانها تحرير نفسها من الضغط السياسى ، وحمايتها من الوقوع فى براثن الاستعمار مرة أخرى ، أو الوقوع تحت سيطرة الدول الأجنبية كى تُملى عليها ما تشاء من أوامر وسياسات ، وتُحدد لها ماذا تفعل وما لا تفعل ، ومَن تُصادق ومن تُعادى . اعتقدت ماليزيا بإمكانها تحقيق كل ذلك ، إذا ما تمكنت من تطوير اقتصاد قوى قادر على الوقوف على قدم المساواة مع الاقتصاديات المتقدمة فى العالم .

واليوم نجد أنفسنا غير واثقين تمامًا من أن ذلك وحده كاف ، فالعولمة غيرت المعادلة برمتها . وقد لا نكون راغبين فى قبول المستجدات والتغييرات التى تحملها لنا الأوضاع والتطورات الجديدة فى هذا المجال . وقد لا نريد فى الوقت نفسه أن نكون بعيدين عن مجرى الأحداث ، أو أن نقف على الهامش ، ولكن الحقيقة هى أننا ، شئنا أم أبينا ، وسواء اخترنا هذا الطريق أو ذاك ، فإن عملية العولمة وإزالة الحدود الفاصلة بين الدول سوف تمضى فى طريقها وتصبح إحدى حقائق الحياة التى نعيشها فى هذا العالم .

والسرعة التى تمضى بها حركة التقدم ، وسهولة الاتصالات وتطور تقنيات الوسائط المتعددة ، كل ذلك سوف يجعلنا مُعرّضين ومكشوفين تمامًا أمام أى شىء يحدث من حولنا ، وهكذا فإن مثل هذه الأشياء قد تقوّض إيماننا ، أو قد تدفعنا إلى الانخراط فى ممارسات متطرفة ، أو إلى تدمير أنفسنا بأنفسنا ، أو إلى رفض كل شىء والانعزال عن العالم وإغلاق الأبواب على أنفسنا ، مما يُفضى بنا فى النهاية إلى المزيد من التخلف عن ركب الحياة التى تمضى بخطىً حثيثة فى كل المجالات . وفى النهاية سوف يفرض التقدم العلمى والتكنولوچى نفسه علينا فرضا ، ولن يكون أمامنا فى هذه الحالة من وسيلة سوى الخضوع لمقتضيات التطور تمامًا مثل أسلافنا الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على مقاومة تقنيات البنادق والمدافع والسفن المصنوعة من الصلب والطائرات الحربية وتغيير طبيعة المعركة والحروب ؛ لأن ذلك لو حدث لكان معناه أنهم يريدون الوقوف فى وجه حركة التاريخ مما كان سيعرضهم لمزيد من التخلف عن ركب الحضارة الذى كانوا رواده فى يوم من الأيام . لقد خسر المسلمون المعركة ؛ لأنهم عجزوا عن التكيف مع مقتضيات التغيير ومع المعارف والعلوم الحديثة التى كانت تقف وراءه .

واليوم نشهد ثورتين تحدثان فى الوقت نفسه : الثورة التكنولوچية ، والثورة فى مفهوم العلاقات بين الدول والتى يُطلق عليها اسم «العولمة» . وسواء أقبلنا بهاتين الثورتين أم لا ، فإنهما ستفرضان نفسيهما علينا شئنا أم أبينا ، تمامًا مثلما فرضت الثورة الصناعية نفسها علينا منذ قرون قليلة .

ومن حُسن حظنا أن هذه التطورات والتغيرات والثروات جديدة بالنسبة لأعدائنا مثلما هى جديدة بالنسبة لنا ، فهم يتلمسّون طريقهم إلى هذه التغيرات والثورات ، تمامًا مثلما نفعل نحن ، وسط متاهة المعرفة والمقدرات والإمكانات التى خلفتها ثورة المعلومات ، وحقيقة أن إزالة الحدود بين الدول التى فرضتها العولمة . ونحن فى الحقيقة

لسنا متخلفين عنهم كثيرا فى هذه المجالات ، بل إن الواقع يقول إن كثيرين منا يساهمون فى تقدم هذه العلوم والمهارات الجديدة ، وفى صُنع المعرفة والمفاهيم المتعلقة بالعلاقات الدولية .

وثمة فرصة لا تُعوّض متاحة أمامنا كى نختصر المراحل ، ونختصر عصر الثورة الصناعية وندخل مباشرة إلى عصر المعلومات وإلى العالم المفتوح ، وأن نصبح فى نفس المستوى مع الآخرين . ولسوء الحظ فإن الأمر يبدو أحيانًا وكأننا على وشك أن نضيع هذه الفرصة من بين أيدينا ، كما ضيّعنا من قبل فرصًا أخرى مثلها ، ثم جلسنا نبكى عليها ونُبدى ندمنا ، حيث لا ينفع الندم .

ولذلك من المهم أن نتصدى لهذه التحديات التى نواجهها فى عالم اليوم . . عالم عصر المعلومات والحدود المفتوحة . وإذا ما نجحنا فى ذلك ، فإننا نستطيع أن نحدد شكل استجابتنا لهذه المتغيرات والتطورات ، وأن نقوم باستنباط أساليبنا الخاصة بنا المتعلقة باستخدام معطياتها ، وبحيث لا نتعرض لفقدان إيماننا فى هذا الخضمّ الزاخر من التيارات المتلاطمة ، أو إلى فقدان هويتنا ، أو اتجاه مسيرتنا فى هذه الحياة .

إننا نستطيع ، إذا ما اقتدينا بالمسلمين الأوائل ، الذين آمنوا بالإسلام دينا ، ثم اهتدوا به فى التكيف مع الظروف السائدة فى الدول التى خرجوا إليها شرقًا وغربًا ، واستطاعوا أن يقيموا صرح إمبراطورية عظمى شملت المسلمين وشعوبًا أخرى من غير المسلمين فى آسيا وإفريقيا وأوروبا . إننا نستطيع أن نقتدى بأولئك الرواد الأوائل ، وأن نتكيف مع التغيرات التى تحدث الآن من حولنا ، فى ذات الوقت الذى نحافظ فيه على ديننا وعلى أسلوبنا فى الحياة كما فعلوا تمامًا . وإذا ما قمنا بتوظيف جميع الطاقات والخبرات والمهارات المتاحة لنا ، فإننا لن نستطيع البقاء فقط ، بل إننا سنلعب دوراً فى توجيه استخدامات هذه التقنيات والمفاهيم .

لذلك من المهم أن نُقدر القيمة الحقيقية للقوى العظمى التى تتجمع من حولنا ، وهى قوى غالبًا ما تكون معادية لنا . أما إذا اخترنا الانعزال عن المعلومات والمعرفة فسوف نجد أنفسنا تحت هجوم وضغط مستمرّين ، مُجبرين على التقهقر فى معظم الأحيان . وإذا ما قمنا باستيراد هذه المهارات منهم فإن ذلك سيكون بمثابة قيامنا باستيراد أسلحتنا وقدراتنا الدفاعية منهم . بمعنى أننا سوف نكون مُجبرين فى هذه الحالة على القبول بما قرروه لنا وليس ما نختاره نحن ، لكى يضمنوا أننا لن نُحقق به النجاح التام .

فلنفكر إذن فى الحالة المتردية التى يمر بها العالم الإسلامى اليوم ، وعجزه الواضح عن مساعدة نفسه ، ولنحاول إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل الفعلية التى نواجهها فى عصرنا الراهن .

الفصل الثالث عشر

دروس وعبر من الماضي *

لكى نُخطّط للمستقبل علينا أولاً أن ننظر إلى الماضى كى نعرف من أين جئنا ، وإذا لم نفعل ذلك فإننا قد نتراجع إلى الوراء ، حتى وإن كنا نشعر أننا ماضون إلى الأمام .

هذا بالضبط ما سيحدث عندما نقوم بمواجهة القرن الحادى والعشرين ، القرن الذى ستقوم فيه المعلومات المتوفرة من خلال التقنيات المتطورة ، بتغيير أنماط حياة البشر ، والذى لن تستطيع فيه الحدود القائمة بين الدول أن تمنع تدفق المعلومات والأشياء الأخرى . وبمصاحبة هذا التدفق المعلوماتى سوف تكون هناك تحديات اقتصادية ومالية واجتماعية وثقافية ، الأمر الذى يعنى أنه ينبغى علينا أن نسعى إلى الاسترشاد والهداية ، وأن نستلهم الدروس والعبر من تاريخ العالم ، وتاريخ الإسلام والمسلمين .

وهذا لا يعنى بالضرورة أننا نستطيع أن نجد جميع الحلول الصحيحة من خلال قراءة التاريخ الإسلامى ، ولكننا قد نستطيع تعلم الاستراتيجيات والمناهج التى استخدمها المسلمون الذين نجحوا نجاحًا باهرًا فى السنوات الباكرة من عمر الإسلام ، على الرغم من أن تلك الاستراتيجيات أصبحت غير ملائمة فى السنوات التى تلت ذلك وترتبت عليها نتائج سلبية ، لكننا على الأقل سنكون قادرين على معرفة الطرق والأساليب غير الفعالة التى تّم استخدامها لمواجهة المشاكل السائدة فى ذلك الوقت ، وهى مشاكل وتحديات قد تكون مشابهة لتلك التى يحتمل أن نواجهها فى المستقبل .

---

* كلمة ألقيت في مؤتمر إقليمى نظمه المعهد الماليزى للفهم الإسلامى بعنوان «نحو القرن الحادى والعشرين : الإصلاح والتحديات اللذان يجابهان المسلمين فى المنطقة» فى كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩٩٧م .

وحتى إذا لم نتعمق فى دراسة تاريخ الإسلام ، فإننا ندرك بوضوح أن العرب الأميين الذين كانوا يعيشون فى صحراء شبه الجزيرة العربية وأصحاب الثقافة المتخلفة التى كانت تدفعهم إلى وأد بناتهم ، والذين كانت تسيطر عليهم أفكار وأساليب الجاهلية الأولى ، قد نجحوا ، بعد أن أشرق عليهم نور الإسلام وآمنوا به واتبعوا تعاليمه ، فى أن يؤسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف وأن يقيموا حضارة تتفوق بمراحل على حضارات الإمبراطوريات التى كانت قائمة فى ذلك الوقت . كما نجح أولئك العرب فى نشر الإسلام من الصين شرقًا إلى إسبانيا غربًا ، مما يعنى أن نصف سكان العالم فى ذلك الوقت قد قبلوا الدين الجديد وقاموا بتغيير أنماط حياتهم ولغتهم ونصوصهم المكتوبة بناء على ذلك . كما تعتبر الإنجازات التى حققها الإسلام فى ذلك الزمان مذهلة إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن صاحب الدعوة ، رسولنا الكريم محمدًا -صلى الله عليه وسلم ، كان رجلاً أُمِّيًا . فبعد قرن واحد من الهجرة ، استطاع العرب الجهلاء المتخلفون الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا بمبادئه ، بناء إمبراطورية قوية مترامية الأطراف . وبعد ذلك الانتشار المذهل للإسلام فى قرونه الأولى ، تباطأ إيقاع ومعدل انتشاره ، على الرغم من بعض الجهود الناجحة التى بُذلت فى هذا المضمار .

ونحن نعرف من خلال قراءتنا للتاريخ أنه بعد خروج العرب من الأندلس عام ١٤٩٢م ، بزغت شمس الإمبراطورية العثمانية فى شرق أوروبا وآسيا الوسطى ، وساهمت فى المحافظة على الإسلام ونشره لقرون عديدة قبل أن تضعف وتفقد دورها كمركز للإسلام وللإمبراطورية الإسلامية ، بل وتقوم بإعلان أنها دولة علمانية ليس لها علاقة بالإسلام ولا تتدخل فى شئون العالم الإسلامى .

كان صعود نجم الدولة الإسلامية وأُفوله فى التاريخ مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمدى تمسك المسلمين بدينهم الحنيف . فالعرب المتخلفون الجهلاء استطاعوا عندما اعتنقوا الإسلام والتزموا بتعاليمه وساروا على نهجه ، أن يُنشئوا إمبراطورية كبرى . وعندما ضعف ارتباطهم بالدين وابتعدوا عن طريقه المستقيم وانخرطوا فى صراع على السلطة ، مُتذرّعين بأنهم

يقومون بذلك باسم الدين ، اعتراهم الضعف وانكسرت شوكتهم ، وخضعوا للأمم والشعوب الأخرى .

وفى أتون تلك الصراعات تمّ اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، ولم ينج من ذلك المصير سوى سيدنا أبى بكر الصديق -رضى الله عنه ، وهو معروف فى التاريخ بأنه رجل متواضع ، لم يعرف التكبر طريقا إلى نفسه . وعندما نودى به خليفة للمسلمين ، طلب من الناس أن يقوّموه إذا أخطأ ؛ لأنه بشر وليس نبيًا ، والبشر مُعرّضون للخطأ .

أما اغتيال سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا على بن أبى طالب ، فقد جاء نتيجة أن بعض المسلمين كانوا غير راضين عن تولّيهما الخلافة . فعندما نودى بسيدنا على بن أبى طالب خليفة للمسلمين ، كانت هناك معارضة قوية من جانب الكثير من الناس فى ذلك الوقت ، وأدى ذلك إلى قيام الصراع بين أنصار على بن أبى طالب من ناحية وأنصار معاوية بن أبى سفيان من ناحية أخرى ، ذلك الصراع الذى انتهى باغتيال سيدنا على بن أبى طالب . وأدى ذلك إلى انقسام فى صفوف المسلمين ما زال مستمرًا إلى يومنا هذا بين السنّة والشيعة . كانت الخلافات بين السنّة والشيعة شديدة بسبب ادّعاء أنصار كل مذهب أنهم أصحاب الفهم السليم للإسلام . والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان فى هذا السياق هو : كيف انقسم الإسلام الذى بشّر به الرسول الكريم سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم ، إلى مذهبين تفصل بينهما خلافات كثيرة؟ المؤكد أن مذهبًا من هذه المذاهب لا صلة له بالدين الإسلامى ، أو ربما كان كلاهما لديه تفسير وفهم مختلف للدين ، قد يكون صحيحًا أو غير صحيح . غير أن الشىء الواضح وضوح الشمس من خلال قراءة وقائع التاريخ الإسلامى هو أن ذلك الصدع الخطير الذى مزق تماسك الأمة الإسلامية ، إنما حدث نتيجة الصراع على السلطة لرغبة أشخاص بعينهم فى تولى منصب الخلافة بصرف النظر عن أحقيتهم فى ذلك .

ويقى التفسير المختلف للإسلام مستمرًا بعد ذلك ، سواء أكان السبب هو المشاكل التى جاءت بها العهود المتغيرة أم القيادات السياسية المتناحرة فى المذهبين : السنّى والشيعى . وفى

غضون ذلك ،استمر العلماء فى إصدار الفتاوى والأحكام ،فى وقت قام فيه بعضهم بتقديم فتاويهم الخاصة وإنشاء طوائفهم وطرقهم المختلفة . وفى سبيل إثبات صحة ما يدعون قام بعضهم بدس أحاديث لا أساس لها من الصحة .

وبعد مرور مائتى عام على الهجرة النبوية استطاع الإمام البخارى جمع قرابة ستمائة ألف حديث ، وقام بإثبات صحة سبعة آلاف منها ورفض نحو خمسمائة وثلاثة وتسعين ألف حديث رأى أنها غير صحيحة . وفى الوقت نفسه كان هناك أئمة وعلماء فى الإسلام مثل : الإمام مسلم والإمام الترمذى قبلوا عدداً أقل من الرقم الذى قبله الإمام البخارى وقد حدث ذلك ولم يكن قد مضى على بدء الرسالة المحمدية أكثر من مائتى عام فقط !

أما ما حدث بعد ذلك ، فهو قيام الكثيرين باختلاق أحاديث لم تكن موجودة فى الأصل ، وتعددت الآراء والتأويلات والفتاوى المؤيدة لهذا الحديث أو ذاك . بعض تلك الأحاديث تمت معارضتها بواسطة علماء جاءوا فى عهود لاحقة ، ولكن ذلك لم يَحُل دون قيام البعض بالاستمرار فى إصدار الفتاوى دون أن يكونوا مؤهلين لذلك ، ودون مراعاة للقواعد والأسس الصحيحة لإصدار الفتوى كما حددها الدين الإسلامى الحنيف .

ومن هنا تحديداً نشأت التفسيرات المختلفة للإسلام ، والحقيقة أن المسلمين وجدوا أنفسهم طوال الأربعة عشر قرنًا الماضية مُمزّقين بين تعاليم إسلامية مختلفة يدّعى صاحب كل منها صحة ومطابقة موقفه مع الأحكام الإسلامية الصحيحة فقد ظهر نحو ألف طائفة تتراوح بين جماعات تفسر الإسلام من منطلق ضيق متزمت يرفض المعطيات الحديثة جملة وتفصيلاً ، ويطالب بإعادة إنتاج واقع الأمة الإسلامية كما كان منذ ١٤٠٠ سنة فى عهد النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه الكرام ، وبين أخرى تقوم بتهميش الإسلام وتنادى بتبنى العلمانية ، ونتيجة لذلك وقع المسلمون فى حيرة بالغة ،وأصبحوا غير قادرين على معرفة الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، وانتهى الحال ببعضهم إلى مجانبة العقل والابتعاد عن الطريق القويم أثناء المسيرة .

فهل يستطيع مثل هؤلاء المسلمين أن يواجهوا التحديات التى سيأتى بها القرن الحادى والعشرين ، والتى بدأت تُسفر عن عالم على شكل قرية كونية صغيرة تهيمن عليها تقنيات المعلومات المتطورة والصواريخ وأشعة الليزر وسفن الفضاء والقنابل الذرية؟ وفى عالم تسيطر عليه القوى العظمى التى لا يوجد بينها قوة واحدة مسلمة . . عالم تسود فيه المظالم ، ويُذبح فيه المسلمون الذين لا حول لهم ولا قوة على أيدى أعدائهم ، ويتمّ فيه عزل دول إسلامية وفرض الحصار عليها وترك شعوبها تتضور جوعًا ، ويحارب فيه المسلمون بعضهم بعضًا ، ولا يعرفون أين الخطأ وأين الصواب فيما يتعلق بأمور دينهم وفهمهم للإسلام ، ويعانون فيه من الضعف والفقر والتخلف؟ هل يستطيع المسلمون فى ضوء كل ذلك أن يتوقعوا أى خير أو أن ينتظروا أى أمل من القرن الحادى والعشرين؟ الإجابة على كل تلك التساؤلات هى أن على المسلمين ألا يتوقعوا أى خير أو يتوهموا أنهم سيحظون بأى فائدة ، وإنما الحقيقة هى أنهم سوف يصبحون أكثر ضعفًا ، وسوف يتمّ قهرهم وإعادة استعمارهم ، سواءً أكان ذلك بشكل مباشر أم غير مباشر .

غير أن الأمة الإسلامية لا تستحق أبدًا هذا المصير . **والحقيقة أن المشكلة ليست فى الإسلام وإنما فى المسلمين** . فلو عدنا إلى صفحات التاريخ ، سنرى أن التقدم والإنجازات التى حققتها الدولة الإسلامية فى أول عهدها كانت محصلة ونتيجة لحقيقة مهمّة مؤداها أنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت تفسيرات متناقضة للإسلام ، ولا أحاديث غير صحيحة ، ولا فتاوى ضحلة تؤدى إلى تفريق المسلمين وعدم معرفتهم بالصواب والخطأ وتتسبب فى جرفهم بعيدًا عن الصراط المستقيم .

لذلك استطاع المسلمون فى ذلك الوقت أن يوسّعوا مداركهم بالانخراط فى دراسة العالم الذى كانوا يقودون خطاه . ولم يكتف المسلمون بذلك ، بل قاموا بترجمة علوم الآخرين ، واستفادوا منها ، ثم أضافوا إليها من عندهم ، مما مكنهم من التفوق فى مجال العلوم على كافة الأمم والحضارات التى كانت موجودة فى ذلك الوقت . واستطاع المسلمون

إلى جانب ذلك ابتكار علوم جديدة مثل : علم الفلك والجبر واللوغاريتمات والملاحة والصيدلة وفروع عديدة من علم الحساب والرياضيات ، كما برع المسلمون فى استخدام المعادن لدرجة أن مدينة كدمشق كانت معروفة بأنها تتوفر على أفضل صناعة فى مجال الحديد والصلب لإنتاج الأسلحة . كانت دراسة تلك العلوم والمعارف مُيسّرة آنذاك نظراً لعدم وجود حواجز أو موانع تحول دون ذلك ، كما لم تكن هناك أوامر بأن المسلمين مسموح لهم فقط بتعلم الدراسات الإسلامية وليس غيرها .

كان المسلمون فى ذلك الوقت يهتدون بما جاء فى القرآن الكريم من ضرورة قيام المسلم بدراسة كل شيء خلقه الله - سبحانه وتعالى - من الجبال والتلال والأرض والسماء والمطر والنبات والحيوان والملابس ، إلى القمر والنجوم والليل والنهار والطقس والمناخ وغيرها من آيات خلق الله . كان النظر فى العلوم فى ذلك الوقت لايعنى النظر بمعناه الحرفى فحسب ، وإنما كان يعنى التعمق فى دراستها للخروج منها بفوائد للبشر .

ونجد فى هذا السياق الحكمة القائلة : «اطلبوا العلم ولو فى الصين» والتى يقول عنها أعداء الإسلام أنها مجرد كلمات تفوّه بها رجل مسلم ، ولم تكن أمراً إلهيًا . فعندما يوجد حديث مُعّين لا يوافق عليه هؤلاء ، كانوا يسارعون دائمًا إلى التهجّم عليه ورفض اعتباره مصدراً من مصادر التعاليم الإسلامية . أما الأحاديث التى أدخلوها ، فإنهم لا يتوقفون عن اقتباسها مراراً وتكراراً حتى ولو كانت صحتها أمراً مشكوكًا فيه . فالمؤكد أن طلب العلم ولو فى الصين ليس مقصودا به العلم والمعرفة الإسلامية ؛ لأن الصين كانت فى ذلك الوقت الذى عاش فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم ، معروفة بأنها صاحبة حضارة عظيمة ذات معارف وعلوم متطورة وخصوصًا فى مجالات الطب والأدب وصناعة الورق والمتفجرات وغير ذلك كثير .

ونظرا لأن المسلمين فى ذلك الوقت اقتدوا بالرسول الكريم ، وبتعاليمه وسنّته ، فإنهم استطاعوا تحقيق الكثير حتى أصبحوا يُعرفون بالمهارة والكفاءة والقدرة على فهم نعم الله

لتسخيرها لمصلحتهم ومن أجل الأمة الإسلامية ، وهذا هو السبب الذى جعلهم ينجحون فى بناء دولة عظيمة تزخر بمعاهد العلم والصناعات والنشاط التجارى ، وتقوم بتطوير الزراعة باستخدام أساليب هندسية جديدة .

لكننا لسوء الحظ نجد أن الذين يعارضون الأسلوب الذى تمت به ممارسة التعاليم الإسلامية فى العهد الإسلامى الأول خلال سنوات التقدم والإزدهار ، يرفضون كل المعارف وضروب العلوم المُستحدثة ويضعون علامات استفهام عليها بدعوى أنها مُخالفة للأحكام الإسلامية ، فمنعوا المسلمين من دراستها .

وبعد ذلك ، ظهرت فئة من المتنفعين الذين قاموا بإصدار ونشر فتاوى تؤيد ما ذهب إليه العلماء السابقون بشأن تعارض بعض العلوم مع الإسلام ، مما أدى إلى تثبيط همّة المسلمين وصدّهم عن دراسة تلك العلوم . ووصل الأمر إلى حدّ التوقف عن تزويد معاهد العلم بالكتب الخاصة بالعلوم والفلسفة غير المتخصصة فى الإسلام . كما توقف أولو الأمر عن بناء مكتبات جديدة ، وعن تزويد ما هو موجود منها بالكتب المتخصصة فى الموضوعات والعلوم التى تفوّقت فيها الأمم الأخرى ، بل وصل الأمر إلى حدّ إحراق الكتب التى صُنّفت بأنها ضد تعاليم الإسلام ، بواسطة أعداء العلم والتقدم .

كما احتدمت المناقشات واشتد الجدل فيما يتعلق بتعريف المقصود بالعلوم الإسلامية ، وتحديد القوانين والأنظمة الإسلامية المتعلقة بتعريف الجرائم فى نظر الإسلام ، وهكذا تجمّد الفكر الإسلامى وعجز المسلمون عن مواصلة التقدم بسبب القوانين القائمة على التعسف فى التفسير وضيق الأفق الفكرى .

وفى مناطق معينة فى شمال إفريقيا ومناطق أخرى عديدة ، ظهر أشخاص يدّعى كل منهم أنه المهدى المُنتظر ، وأنه سيقوم بتطهير الإسلام مما علق به من تعاليم وممارسات خاطئة قبل أن يأتى يوم القيامة . وقام هؤلاء بمحاربة أى مسلم لم يعترف بهم ، وفى إسبانيا نجح هؤلاء فى الإطاحة بالحكومة الإسلامية وقاموا بفرض تعاليمهم المتشددة الضيقة الأفق ، مما

أدى إلى تخلف المسلمين وإضعافهم وطردهم فى النهاية من إسبانيا ، ثم من شمال إفريقيا ذاتها .

وتاريخ الإمبراطورية العثمانية لا يختلف فى تفاصيله عن ذلك ، حيث أدت سيطرة بعض العلماء ذوى المصالح الشخصية على السلاطين العثمانيين ، إلى صعوبة تكيف الإمبراطورية العثمانية مع مستجدات الزمن ، مما أدى فى نهاية المطاف إلى إضعاف الجيش العثمانى وإلى تدخُّله فى شئون الحكم ، وانخراطه فى جدل عقيم حول الزى العسكرى والأسلحةوالتى صدرت فتاوى من بعض العلماء تصفها بأنها غير إسلامية . وأدت تلك الأوضاع فى النهاية إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية أمام القوى الأوروبية وإلى تحول تركيا إلى دولة علمانية .

لقد سقطت الإمبراطوريتان : العثمانية والعربية ؛ لأنهما رفضتا العلوم الحديثة بحجة أنها تتعارض مع الدين الإسلامى ، مما أدى فى النهاية إلى عجز المسلمين عن الاستجابة لمقتيضات التغيير الذى كان يمضى بخطى متلاحقة فى العالم بأسره .

والآن ، ونحن نلج القرن الحادى والعشرين الحافل بالتحديات مثل : التكنولوچيا الحديثة وتكنولوچيا المعلومات التى ستقوم بتغيير أنماط حياة البشر تغييرا جذريًا ، لن يكون بمقدور أحد أن يعزل نفسه عن التكنولوچيا المتطورة وعن العالم . فالناس أصبحوا الآن قادرين على السفر إلى أبعد نقطة فى الدنيا فى أقل من يوم ، ويستطيعون الاجتماع مع بعضهم بواسطة تكنولوچيا الاتصالات الحديثة مهما تباعدت بينهم المسافات ، كما لو كانوا يجلسون فى غرفة واحدة . واختفت الرسائل البريدية العادية وحلت محلها الرسائل الإلكترونية ، وسوف يستطيع أولئك الذين يملكون المعلومات والخبرة والمعرفة الفنية اللازمة لاستغلالها ، سوف يستطيعون السيطرة على مقدرات العالم والتحكم فى شئونه السياسية والاقتصادية . وبنفس المعيار سوف يكون النصر فى الحروب من نصيب أولئك الذين يمتلكون أحدث المعلومات ولديهم القدرة على استخدامها .

كما سيستطيع أولئك الذين يملكون الخبرة والمعرفة والمعلومات فى مجالات معينة أن يخترعوا أشياء تشبه السحر ويستطيعون أيضا أن يفعلوا أى شيء يريدونه فى هذا العالم بما فى ذلك قهر المسلمين والدول الإسلامية .

ففى البوسنة والهرسك سمح هؤلاء بإبادة المسلمين إبادةً جماعية فى وضح النهار ، ولم يكتفوا بذلك ، بل قاموا بمصادرة الأسلحة التى يمتلكها المسلمون ؛ لإتاحة الفرصة لأعدائهم لقتلهم دون أى عناء ، ودون أى مقاومة ، وقد تكرر هذا السيناريو نفسه فى الشيشان وباكستان وجنوب آسيا .

وعندما حدثت هذه المظالم ، كان المسلمون فى أسوأ حالاتهم ، وغير قادرين حتى على التعبير عن احتجاجهم ورفضهم لما يحدث لهم . هذا هو حال المسلمين اليوم ، وسوف يستمر على ما هو عليه ماداموا مستمرين فى رفض تعاليم الإسلام الصحيحة التى تكسبهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، وتجعلهم يسعون لاكتساب المعارف التى تؤهلهم لذلك ، وسوف يستمر الحال كذلك ، طالما أن المسلمين لم يعملوا لدنياهم ولآخرتهم والتزموا بأوامر الإسلام وابتعدوا عن نواهيه ، وجعلوا السعى والعمل هدفهم ، وتقوى الله عز وجل دستورهم .

لا يختلف اثنان على أن المعرفة بأمور الدين أمر مطلوب ، ولكن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أن يقتصر العلم على التخصص فى الأمور الدينية فقط ، مع إغفال باقى العلوم والمعارف التى تحقق تقدم المسلمين ورقيهم فى مدارج الحضارة . ولذلك فإن السؤال الذى يطرح نفسه فى هذا السياق هو : أليست المعرفة بالأمور الأخرى (غير الدينية) مطلوبة لإنقاذ المسلمين مما يجابههم من مصاعب ومظالم على أيدى غير المسلمين؟ ألا يشعر المسلمون بالذنب ؛ لأنه لا يوجد بينهم خبراء فى الميادين والمجالات التى يمكن أن تنقذ الأمة الإسلامية من الواقع الأليم الذى تردّت إليه؟ أليس المسلمون هم السبب فى عدم وجود قوة إسلامية عظمى واحدة فى العالم؟ أليس المسلمون مخطئون عندما يقومون برفض إخواتهم

فى الإسلام ويخلقون العداوات بين صفوفهم بسبب ضعفهم وشعورهم بالإحباط؟ أليس المسلمون هم السبب فى انحراف بعض المسلمين عن طريق الدين القويم واتجاههم إلى طريق العلمانية والإلحاد بسبب ما يشعرون به من خيبة أمل نتيجة لما يرونه من ضعف المسلمين وتمزقهم؟

إننا نتفق مع القائل بأن المعرفة وحدها ليست ضمانة كافية لإنقاذ الأمة الإسلامية من محنتها ؛ لأن الأمر يتطلب بعد ذلك ، بل وربما قبل ذلك ، التمسك بالعديد من التعاليم الإسلامية الأخرى المهمة ، واتباع النهج الإسلامى القويم فى السلوك والعمل . والإسلام يحث أتباعه على المحافظة على أواصر الأخوة بينهم ، ولكن ما نراه فى الواقع هو العكس تمامًا ، حيث نجد المسلمين يقاتلون بعضهم بعضًا ، لأن بينهم فئة تدّعى الوصاية على الإسلام ، وتزعم أنها الوحيدة التى تفهم الإسلام بالطريقة الصحيحة ، وتحكم بتكفير الفئات الأخرى فى الأمة الإسلامية وتتهمها بالمروق والردة .

إن ذلك يحدث فى جميع الدول الإسلامية دون استثناء . فى ماليزيا مثلا يدّعون أنهم المسلمون الحقيقيون وأن الآخرين مارقون أو خارجون عن الإسلام . والقرآن الكريم يدعونا إلى الصبر ، ولذلك فإننا لابد أن نصبر لأن الجهود الرامية لإعادة تأهيل المسلمين واسترداد قوتهم سوف تستغرق زمنًا طويلاً . إن هذه الجهود تحتاج إذا ما أُريد لها النجاح ، إلى استقرار سياسى وكفاءة إدارية وإتقان للعولم الحديثة وإمكانيات مادية وصناعات متطورة ، وتطوير للقدرات الدفاعية القادرة على حماية الأمة والذود عن الحمى ، وبالرغم من دعوة الإسلام إلى التمسك بالصبر ، إلا أننا نرى الكثير من المسلمين وخصوصا المتطرفين منهم يضيقون عند كل محنة ويميلون إلى القيام بممارسات يغلب عليها الانفعال والتسرع ، مما يؤدى بهم إلى إهدار ما تبقى من قوة لديهم دون تحقيق أى نوع من التقدم والتنمية . وليت الأمر يقتصر على ذلك ، بل إنهم يتسببون بما يقومون به من تمرد على السلطة ، وإثارة القلاقل والاضطرابات بتهديد استقرار الدول الإسلامية ، وخلق حالة من الفوضى بها ، مما يؤدى فى النهاية إلى المزيد

من الإضعاف لقوة المسلمين . وعندما يقوم المتطرفون بذلك فإنهم يقومون بطريقة غير مباشرة أو غير واعية بالتآمر مع أعداء الإسلام وفى مقدمتهم الصهيونية العالمية ضد المسلمين وأمتهم الإسلامية .

وبسبب أولئك المتطرفين ، يصعب علينا أن نجد دولة إسلامية قادرة فعلاً لا قولاً ، على مواجهة تحديات القرن الحادى والعشرين . ففى الوقت الذى يزداد فيه أعداء الإسلام قوة ، وفى الوقت الذى تزداد فيه الدول الكبرى غطرسة وتكشف عن رغبتها فى قمع المسلمين ، نجد المسلمين ينتقلون من ضعف إلى ضعف ، ومن تخلّف إلى تخلّف ، ومن تمزّق إلى تمزّق مما يتيح الفرصة لأعداء الإسلام لاستغلال هذا الوضع ، لإلحاق المزيد من الضرر بقوة المسلمين .

الأمر الذى يدعو للاستغراب هو أن أولئك المتطرفين ، وبعد كل ما سببوه لمجتمعاتهم من ضرر وأذى ، وكل ما ألحقوه بها من ضعف وتمزّق ، يُلقون بتبعة تمزّقهم وعدم وحدتهم وانقسامهم إلى شيع وأحزاب ، يلقون بتبعة ذلك على أعداء الإسلام ، بينما الحقيقة هى ، إذا ما أخذنا بصحة ذلك ، أنهم هم الذين أوصلوا الدول والمجتمعات الإسلامية إلى ما تعانى منه حاليًا من تردٍّ وتخلف . وعلى هذه الخلفية يمكن للبعض أن يتساءل عن طبيعة الإصلاحات المطلوبة من قبل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، والتى يمكنها أن تساهم فى دعم المسلمين وجعلهم على أهبة الاستعداد لدخول القرن الحادى والعشرين وتحقيق النجاح فى جميع المجالات .

إن الإصلاحات المطلوبة هى تلك الكفيلة بعودة المسلمين إلى تعاليم الإسلام الصحيحة البعيدة عن التحريف والتأويل والفتاوى الغريبة التى لا أساس لها ، والتى كان لها أثر خطير على الإسلام والمسلمين على مدى الألف والأربعمائة عام الماضية منذ الهجرة النبوية الشريفة . إن تلك الإصلاحات يجب أن تكفل عودة المسلمين إلى تعاليم القرآن الكريم والسنّة النبوية فى صورتهما النقية أيام الرسول -صلى الله عليه وسلم ، والتمثل بالطريقة

السديدة التى تمكّن بها الرسول الكريم وصحبه من الخلفاء الراشدين ، من معالجة المشاكل والعقبات التى وضعها كفار قريش فى مكة ، وكيف آخى بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع المدينة ، بالإضافة إلى تفهم الفلسفة الكامنة وراء الكفاح السياسى والعسكرى للمسلمين ، من أجل فتح مكة .

إن الأمر الواضح وضوح الشمس فى تعاليم القرآن الكريم وسنّة نبيه هو أن التآخى بين المسلمين له أهمية قصوى تتفوق على ما عداها . فالمسلم لاينبغى له أن يشن الحرب أو يرفع السلاح ضد أخيه المسلم بسبب اختلاف فى رأى بشأن مسألة لها علاقة بالدين الإسلامى الحنيف . وخلال حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم ، تحققت الأخوة الإسلامية فى أسمى معانيها وأبهى صورها . فمن المفهوم أنه كان يمكن وقتئذ إحالة جميع المسائل التى يختلف عليها المسلمون إلى الرسول لوضع الحلول لها . . ولكن التعاليم الإسلامية دعت المسلمين إلى حل ما ينشأ بينهم من اختلافات ومنازعات عن طريق التشاور والتناصح فيما بينهم . فجميع الأطراف لها الحق فى التعبير عن رأيها ، ولكن الرأى الذى يتمّ التوصل إليه والاتفاق عليه فى نهاية المطاف هو الرأى الذى يجب على الجميع أن يمتثلوا له . ولم يكن بمقدور أحد ، حتى بين الخلفاء الراشدين أنفسهم أن يقوم باتخاذ القرار بشكل فردى ، وفرضه على الآخرين طوعًا أو كرهًا .

ولم تقم أى من الجماعات الصغيرة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت ، بالتمسك بتعاليمها وبتأويلاتها الخاصة بالإسلام ، ولم تحاول فرض ذلك على باقى جماعات المجتمع وفئاته عن طريق العنف والإرهاب كما يحدث فى يومنا هذا فى الدول الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم . كانت جميع الفئات الموجودة فى ذلك الوقت تتصف بالتسامح ، والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ، لم يقم بفرض آرائه على أفراد أسرته الذين لم يهتدوا إلى الدخول فى الإسلام .

كان المسلمون فى عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم يتحلون بالصبر والشجاعة

والنظام والولاء للرسول ، ولم يتم منع المسلمين فى تلك الأيام عن العمل ، حتى فى أيام الجمعة ، وذلك حتى يمكن الوصول إلى الحكمة الدنيوية وتحقيق الثروة الحلال . وكان أولئك المسلمون مُكلفين بمهمة الدفاع عن الإسلام والمسلمين وكان تحقيق الأمن والطمأنينة هدفًا فى حدّ ذاته ، يتعين تحقيقه بصرف النظر عن الأسلحة التى يتم استخدامها فى ذلك ، أو الطريقة التى يتم استخدامها بها . ولذلك عندما كانت الضرورة تستدعى استخدام معدات مختلفة ، كان يتمّ اختراعها واستخدامها من أجل تحقيق الأمن للمجتمع المسلم . وإذا ما استدعى ذلك معرفة بعض العلوم الضرورية ، فإن تلك العلوم كان يجب أن تُدرس من أجل تحقيق الهدف الأكبر .

ولإنقاذ المسلمين من الوضع الحالى الذى تردّوا فيه ، يحتاج الأمر كذلك إلى حكومة قوية ومستقرة يتم اختيار قيادتها عن طريق الشورى وهى طريقة ديمقراطية ، وليس عن طريق بث الرعب فى نفوس المسلمين بنشر تعاليم لا أساس لها من الصحة .

سوف تستمر الاختلافات فى الرأى وفى تفسير التعاليم الإسلامية بين المسلمين ، وإذا ما كان الأمر يستدعى عودة الضالين إلى جادة الصواب ، فإن ذلك يجب أن يتم عن طريق الشورى وليس عن طريق الضغط والقمع والظلم . وإذا لم يكن الوصول إلى اتفاق فى بعض الحالات ممكنا ، فإن التسامح والصبر وضبط النفس يجب أن تكون هى الأدوات المستخدمة لإيجاد مخرج من مثل هذا المأزق ، أما اللجوء إلى القوة فى حل المنازعات ، فلن يجلب إلا الفرقة والانقسام فى صفوف المسلمين . ولن يؤدى إلى شىء سوى خلق اضطرابات دائمة لا تنتهى أبدًا ، وهو أمر يجب تفاديه فى جميع الأحوال .

خلاصة القول ، إننا إذا ما أردنا أن نواجه القرن الحادى والعشرين بكل ما يحفل به من تحديات ، فينبغى علينا أن نسعى إلى إجراء الإصلاحات المطلوبة لمواجهة مطالب عصر المعلومات ، والتى تتمثل فى التأكيد على قيم الإسلام ومبادئه الأصيلة ، وقيمه السمحاء الخالية من كل ما من شأنه زرع بذور الفرقة والانقسام فى أرض الإسلام ، مع ضرورة الحرص

على تجنب التأويلات والتفسيرات الدينية التى لا تستند إلى القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة .

يجب علينا ألا نغمض أعيننا عن حقائق العصر الجديد ؛ لأن قيامنا بخداع أنفسنا والتعامى عن حقيقة الوضع سوف يؤدى إلى فشلنا فى التكيف مع مستجدات هذا العصر ، وأوضاعه المتغيرة وتحدياته الصعبة . إن الإصلاح الرئيسى المطلوب منا بوصفنا مسلمين هو إصلاح الفكر ، وتصحيح الأفكار بالنسبة لأولئك الذين سقطوا فى براثن التعاليم الخاطئة البعيدة كل البُعد عن الإسلام ، والتى لا تؤدى إلا إلى زرع الفرقة والاضطراب فى صفوف المسلمين .

الفصل الرابع عشر

التعاون لإحداث النمو الاقتصادي *

نلتقى اليوم بإسطنبول ، هذه المدينة التاريخية التى كانت مهداً للإمبراطوريات قبل نهاية الدولة العثمانية والتى أفسحت المجال لقيام تركيا الحديثة ، والتى تتمتع بديناميكية عالية تؤهلها لاستعادة أمجاد تلك الإمبراطورية .

لقد صاغ الزعيم التركى كمال أتاتورك رؤية واضحة المعالم ، استشرفت آفاق تطور تركيا الحديثة ، ولم يترك للحكومات التركية الوطنية المتعاقبة إلا المضى قدمًا باتجاه تحقيق أهداف تلك الرؤية ، وإننى على يقين تام بأن القيادات التركية الحالية لن تخذل الآباء فى النهوض بأرض الأجداد . نحن سعداء بأن نرتبط بتركيا فى نضالنا وأن نعمل سويًا بمعية دول أخرى لخوض غمار معركة طويلة تهدف فى نهاية المطاف إلى تحقيق رؤانا وأحلامنا وأشواقنا المشتركة .

هناك عاملان مشتركان يربطان بين أعضاء مجموعة الدول الثمانى **أولهما** : أن كل أعضاء هذه المجموعة من الدول النامية التى تعمل لتقدم بلدانها وشعوبها والوصول بها إلى مراحل متقدمة من التنمية ، **وثانيهما** : أن المسلمين يغلبون على سكان دول المجموعة .

هناك أيضًا مجموعة من البلدان الإسلامية التى يمكن إدراجها ضمن مجموعة الثمانى ، غير أن توسع عضوية المجموعة غالبًا ما يتسبب فى إبطاء خطى التعاون بين الأعضاء ويعرقل مسيرته .

---

* كلمة ألقيت في القمة الأولى لمجموعة الدول الثمانى النامية بمنظمة المؤتمر الإسلامى - إسطنبول - تركيا ، فى ٢٢ أغسطس ١٩٩٧م .

وبالرغم من أن ماليزيا تقف فى الوقت الحالى مع عدم توسيع عضوية المجموعة ، إلا أن ذلك الموقف لا يعنى أبداً أنها تدعو إلى الانغلاق أو حصر عضوية مجموعة الثمانى الإسلامية على دول بعينها ، بقدر حرصها على الإبقاء عليها فاعلة وقادرة على تحقيق الأهداف التى أنشئت من أجلها . إننى على يقين من أن عضوية المجموعة ستُفتح لبقية الدول الإسلامية الأخرى بمجرد إحراز التقدم الكفيل بدفع مسيرة المجموعة إلى الأمام ، كما نؤكد أن قصر العضوية حاليا على ثمانى دول فقط لم يُقصد منه استثناء أية دولة بعينها أو الإساءة إليها .

لقد أصبح تعزيز التعاون بين الدول هو الصيغة الشائعة لتسريع معدلات التنمية والتقدم ، ونلاحظ أن الدول المتطورة نفسها أصبحت أكثر ميلا لإنشاء تكتلات وتجمعات بينها بغية توسيع اقتصادياتها . وهناك إجماع واسع على أن رفع مستوى معيشة المواطنين وجلب الرفاه لهم ، قد أصبح من أهم الأهداف التى تسعى الحكومات الوطنية إلى تحقيقها ، وإن هذه الغاية لا يمكن إدراكها إلا من خلال تحقيق التنمية الاقتصادية وتفعيلها .

ولا شك أن دولاً نامية مثل دولنا ، بحاجة أكثر إلحاحًا للتعاون البينى لتحقيق التنمية الاقتصادية ؛ نظراً لأن شعوبنا ليست بحاجة حاليًا إلى الرفاه والوفرة والترف بقدر ما هى فى أمسّ الحاجة لضرورات الحياة الأساسية التى تحفظ لها كرامتها مثلها مثل المجتمعات البشرية الأخرى .

يبلغ تعداد سكان مجموعة الدول الثمانى الإسلامية النامية نحو : ثمانمائة مليون نسمة . صحيح أن فى العدد الكبير من السكان مظهراً من مظاهر القوة ، لكنه ، وبنفس القدر ، يمكن أن يكون نقطة ضعف .

إن مساهمة هذا العدد الكبير من البشر فى تعزيز قوة دول المجموعة أو إضعافها ، يعتمد - إلى حد كبير - على حكوماتنا الوطنية المسئولة بالدرجة الأولى عن إحداث التنمية فى بلداننا . وإذا نظرنا إلى التجربة الخاصة ببلادنا ، سنجد أن ماليزيا البالغ عدد سكانها ٢٠ مليون نسمة ، وهى الأقل تعداداً وسط دول المجموعة ، قد نجحت فى معالجة كثير من المصاعب

وتجاوزت عقبات عديدة كانت تعترض مسيرتها التنموية ، وقد تمّ كل ذلك بفضل محدودية تعداد السكان فيها .

نحن لا ندّعى أننا ندرك الكيفية التى نقود بها عددًا كبيرًا من السكان ونعالج بها قضاياهم سيما أننا فى الوقت الحالى بصدد اتخاذ مزيد من الإجراءات التى تعزز المسيرة الديمقراطية فى البلاد ووضع السلطة فى يد الشعب . إن زيادة عدد السكان تعنى المزيد من التباين فى الرؤى ووجهات النظر التى يصعب التوفيق بينها ، وتجربتنا فى هذا المضمار ليست كبيرة ولم تنضج بعد علمًا بأن أى إخفاق فى إدارة النظام الديمقراطى وتعزيز الاستقرار السياسى ، سيؤدى حتمًا إلى تهديد التقدم الاقتصادى فى البلاد .

هذا بالطبع ليس اقتراحًا بالتخلى عن النظام الديمقراطى ، لكن طالما أن الوقت لا يسمح بأن نقف مكتوفى الأيدى إلى أن تتعلم شعوبنا الطريقة التى توفر أسباب النجاح للنظام الديمقراطى ، علينا إذًا ألا ننتظر ، ولنبدأ باقتحام التجربة لنتيح لمواطنينا الإفادة منها لمعرفة أسباب نجاح النظم الديمقراطية وأوجه القصور فيها .

ولعل من المفيد التذكير بأن صلاحية أى نظام للحكم تعتمد على صلاحية القائمين عليه ، وأن النظام الجيد لن يقود إلى الأهداف المحددة له لمجرد كونه جيدًا ، وإن ملائمة النظام الجيد وفعاليته تتوقفان على مدى قدرات المسئولين عن تطبيقه وكفاءتهم وسعة أفقهم .

وباستقراء تجارب عديدة نلاحظ أن الحريات الديمقراطية فى عدد كبير من بلداننا الإسلامية غالبا ما تقود إلى الفوضى وعدم المسئولية ؛ لأن الحكومات المُنتخبة لا تجد فرصة كافية فى الحكم لتنفيذ برامجها ؛ إذ يُطاح بها بواسطة الاضطرابات المطلبية والتظاهرات وأعمال الاحتجاج . وعندما تجرى الانتخابات وتتشكل حكومة جديدة ، تنتهى إلى المصير نفسه .

صحيح أن للنظم الديمقراطية مزايا إيجابية كثيرة ، لكننا لا نجنى منها إلا الفوضى التى

لا توفر مناخًا ملائمًا لإحداث التنمية . ونلاحظ فى هذا المقام أن الدول المتطورة قد لا تحتاج إلى حكومات لتقود عملية التقدم فيها ، بينما نجد أن البلدان النامية التى تعيش فى حالة مستمرة من الفوضى والاضطرابات ، لا يتوقع منها النهوض بشعوبها من مستنقع التخلف الاقتصادى .

لقد تم الزجّ بنا فى أتون معركة اضطرتنا لقبول النّظم الديمقراطية بحسب تعريفها عند الدول المتطورة القوية التى تتوفر على إمكانات أكبر لمجابهة واحتواء الأزمات المتلاحقة ، التى تطرحها تلك النّظم .

نحن إذاً مُطالَبون بالعمل على بلورة وصياغة النظم الديمقراطية الخاصة بنا والتى تكفل قبل كل شىء مبدأ الإطاحة بالحكومات المُنتخبة بواسطة صناديق الاقتراع بعيداً عن الوسائل الأخرى ، على أن يُتاح لكل حكومة إدارة شئون البلاد لدورة انتخابية كاملة . أما إذا فشلت الحكومة فى إدارة البلاد وعجزت عن تلبية طموحات جماهيرها ، فينبغى إقصاؤها عن الحكم بواسطة صناديق الاقتراع أيضا فى الانتخابات التالية .

فى مقابل ذلك ، لابدّ للحكام من أن يدركوا أنهم ليسوا مُخلّدين فى مقاعد الحكم ، وأن مصلحة الشعب فوق كل اعتبار . وفى هذا السياق ، يأتى لقاؤنا الحالى بغرض تنشيط وتعزيز التعاون بين بلداننا الأعضاء فى مجموعة الدول الثمانى الإسلامية النامية . وبرأيى إن قضية حماية وتأمين النّظم الديمقراطية السائدة فى بلداننا ، ينبغى أن تحظى فى أعمال اجتماعاتنا بالأولوية التى تستحق .

إننا نؤمن بأنه لابدّ من أن نحكم شعوبنا بواسطة نُظم ديمقراطية ، لكن ينبغى فى الوقت نفسه أن تكون تلك النظم خاصة بنا ومُستوحاة من بيئتنا ؛ نظراً لأن الديمقراطية الليبرالية التى تلائم بعض الدول ، قد لا تكون كذلك فى مجتمعات أخرى لها ظروفها الخاصة . ومما لا شك فيه أن الارتقاء بالوضع المعيشى لشعوبنا وجلب الرفاه والنمو لها ، أهم بكثير من كفالة حق بضعة أفراد فى الإخلال بالأمن والسلم الاجتماعيين ، لا لسبب إلا

للدعاية لأنفسهم والترويج لمصالحهم ، علمًا بأننا جربناهم فى أكثر من مرة ، ولم يثبتوا إلا فشلاً ذريعًا .

إن النظام الديمقراطى ليس قانونًا مقدسًا فهو من بنات أفكار البشر ، والبشر خطاءون ، وليس لأحد - أيا كان - الحق فى أن يتهمنا بالهرطقة إذا ما رفضنا قبول تعريفه للأنظمة الديمقراطية .

ولابدّ من أن نؤكد أن بلدانًا نامية مثل بلداننا بحاجة إلى استقرار سياسى قبل أى شىء وأكثر من أى وقت مضى . نعم إن الإمبراطوريات أصبحت من مخلفات الماضى ، إلا أن الهيمنة السياسية والاقتصادية لم تتبدل ، وما زالت تمارس على نحو أشد ضراوة ، وإذا لم ننجح فى ترتيب بيوتنا من الداخل ، واستمرت بلداننا على هذه الحال من الضعف السياسى ، فإننا سنعود القهقرى وتصبح دولنا مستعمرة خاضعة للنفوذ الأجنبى من جديد . إن عدم الاستقرار السياسى يُضعف حتى الدول القوية اقتصاديًا ، بل يمكن أن يشلّ قدراتها على نحو تام . فما بالنا بدول مثل دولنا التى تعانى أصلاً من ضعف اقتصادى وعدم استقرار سياسى !

إننى لا أُدافع هنا عن نُظم حكم شمولية ولا أُروج لها ، بقدر ما إننى أنادى بديمقراطية مثل تلك التى طُبِّقت فى البلدان الغربية عندما كانت ديمقراطياتها فى طور الطفولة قبل أن تتجذر ويقوى عودها .

إننا لا نطالب بأكثر من منحنا فرصة لتطوير ديمقراطياتنا حسب إيقاع تطور مجتمعاتنا دون أن يتدخل أحد ويسعى لفرض رؤاه على واقع لم ينضج بعد ، ولنا أسوة فى الديمقراطيات الغربية نفسها عندما كانت أقل ليبرالية ؛ إذ إنها لم تتعرض لتهديد من أحد قط ، ولم يسع الآخرون لإدانة ممارسات فيها يرون أنها لا تتفق مع روح الديمقراطية .

وعندما يتحقق الاستقرار السياسى فى دولنا يمكننا عندئذ أن نركز كل اهتمامنا

وجهدنا على تحقيق النمو والتنمية الاقتصادية وجلب الرفاه لشعوبنا . ورغم أنه بإمكان أى دولة من دولنا أن تنهض بعملية التنمية الاقتصادية بمفردها ، إلا أن تعزيز التعاون فيما بينها وتبادل الخبرات والمعلومات سيجعل من تحقيق النمو أمراً سهلاً وأقل تكلفة ، لكن ينبغى التأكيد على أنه لا توجد دولة مُلمّة بمفردها بكافة الجوانب المتصلة بعملية إدارة التنمية كلها . ونحن فى ماليزيا لا نخجل من الاعتراف بأننا نقلنا تجارب عديدة من الشعوب الغربية ، وعملنا على تكييفها مع واقعنا ، وعندما ظهرت تجارب ناجحة فى المشرق لم نتردد فى التوجه بسياساتنا شرقًا للإفادة من تلك التجارب الجديدة ، كما أننا أفدنا إفادة قصوى من أخطاء الآخرين وتجنبنا الوقوع فى مزالق كثيرة . وما زلنا نبحث فى كل مكان لنتعلم من تجارب الشعوب التى سبقتنا . ومن هنا يأتى ترحيبنا وحماستنا للانضمام لعضوية هذه المنظمة (مجموعة الدول الإسلامية الثمانى النامية) والتى نأمل أن نفيد من تجارب أعضائها وأن نتعاون معهم ونعزز علاقاتنا التجارية معهم .

هناك ثمة اعتقاد بأن الدول الفقيرة ليست بالشريك التجارى الجيد ، ولكن ينبغى أن نعى تمامًا أن الدول الغنية ترتبط باستمرار بعلاقات تجارية قوية مع البلدان الفقيرة ، وأنها مستفيدة من تلك العلاقات وإلا لقطعتها دون تردد . وطالما أن الدول الغنية تجنى فوائد وأرباحًا من نظيراتها الفقيرات ، فلماذا لا نسعى نحن أيضا للإفادة من بعضنا بعضا على أساس المنافع المتبادلة ! ونشير هنا إلى أن التجارة بين دول مجموعة الخمس عشرة وبقية الدول النامية ، قد نمت بمعدلات فائقة منذ إقرار صيغة التعاون (جنوب-جنوب) بينما نمت التجارة بين الدول النامية بمنطقة جنوب شرق آسيا بمعدل ثلاثة أضعاف خلال خمس سنوات ، بالقدر نفسه يمكن لدول مجموعة الثمانية زيادة التجارة البينية بينها إذا ما تبنت السياسات اللازمة ووفرت الإطار القانونى لذلك ، وهو أمر يتطلب قبل كل شىء تبادل المعلومات والبيانات .

إننى أشعر بالسعادة بحق ؛ لأن هناك عدداً من اللجان التى تعمل لهذا الغرض ، وبرغم العقبات التى تعترض طريق هذه اللجان والتى تتسبب فى تأخير إنجاز المهام الموكولة

إليها ، إلا أننى على يقين من أننا ستتخطى تلك العقبات متى ما توفرت بيننا الإرادة السياسية .

واسمحوا لى فى هذا المقام أن أشدد للمرة الثانية على الحاجة إلى قيادة سياسية قوية مقتدرة نظراً لأن الإرادة السياسية أمر ضرورى لإحراز أى تقدم فى هذا الصدد . وكما سبق لى أن ذكرت أن بلداننا إلى جانب كونها دولاً نامية ، فإن المسلمين يشكلون غالبية السكان فيها ، مع ملاحظة أن قطاعاً واسعاً من المسلمين وغير المسلمين على حدٍّ سواء ينحون باللائمة على الإسلام فى ما لحق بنا من تخلف . هذا الافتراض يفتقر إلى الصحة ويعوزه الدليل نظراً لأن الإسلام لم يحفز القبائل العربية المتناحرة على التوحد وإقامة أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ فحسب ، بل إنه أثرى وجدان كل الذين اعتنقوه مادياً وروحياً وساهم مساهمة لا تنكر فى مجال المعرفة الإنسانية . **إن تخلف المسلمين اليوم لا يمكن أن يعزى للإسلام بقدر ما إنه يعود إلى التفسير الخاطىء للتعاليم والأحكام الإسلامية** . وطالما أن بلداننا الإسلامية تزخر بعدد كبير من العلماء المتبحرين فى شئون الدين الإسلامى ، والذين لا يخفون أشواقهم وتطلعاتهم لاستعادة أمجاد المسلمين الضائعة ، فإن الواجب يقتضى حثهم على العمل بجدية وإخلاص لدراسة الإسلام بتمعن وتقديم تفسير صحيح للتعاليم والأحكام الإسلامية .

نحن ننطلق من كون الدين الإسلامى قد أحدث تغييرا جوهريا فى حياة القبائل العربية المختلفة خلال مئة سنة فقط من الهجرة ، فوحدها فى دولة واحدة تمكنت من إنتاج أعظم حضارة شهدها التاريخ ، فمن غير المنطقى أن تكون العقيدة التى كانت العامل الأول والأخير فى جلب ذلك المجد ، هى نفسها سبب اضمحلال وانهيار تلك الحضارة العظيمة ! علينا أن نقر بأنَّ العيب فينا نحن وفى أمتنا الإسلامية وليس فى الإسلام ، وإلا فكيف نفسر النزاعات والحروب التى تقع بين المسلمين ، فى وقت يحثنا الإسلام فيه على أن نكون إخوة ! ! ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من المسلمين يفجرون فى الخصومة ولا يسعون بين إخوانهم المسلمين إلا بأسباب الجفوة والعداء ، فهل الخطأ فى الإسلام أم فى أولئك الذين يفسرون تعاليمه وأحكامه على نحو خاطىء؟ !

لقد حان الوقت لتبدأ دول مجموعة الثمانية الإسلامية النامية الاقتداء بالدول المتطورة لتعمل فى شكل منتدىً محدد الأهداف لتبادل الآراء والأفكار وتشرع فى تطوير برنامج عمل واضح القسمات بما يؤدى إلى تفعيل التعاون بينها . وفى تقديرى أنه ينبغى علينا ألا ننساق فى بداية الأمر وراء الأحلام والطموحات غير الواقعية ، وأن نتوخى جانب الحذر والتبصر فى تخطيط هذه البرامج والمشاريع ، وأن نمضى قدما فيها بخطوات مدروسة وإيجابية .

إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تحدث بين عشية وضحاها ، وعلى الناس أن يتحركوا لإحداثها . وينبغى التأكيد هنا على أن صدقية وجدوى مجموعة الثمانية تتوقفان على النتائج التى يمكننا تحقيقها سنويًا ، والتى لا تقبل التشكيك . وتقتضى الأمانة ألا نتظاهر بالنجاح إذا ما فشلنا فى إدراك تلك النتائج . وفى هذه الحال يكون من الأفضل أن يمضى كل منا فى طريقه بدلا من التهافت على اجتماعات ومؤتمرات لا طائل منها . ذلك هو التحدى الذى لا بد من أن نواجهه بشجاعة وأمانة .

الفصل الخامس عشر

استعادة أمجاد الأمة الإسلامية *

لنبدأ بإلقاء نظرة سريعة على العالم الإسلامي نفسه ، حيث بلغت عضوية منظمة المؤتمر الإسلامي فى الوقت الحالى ٦٥ دولة ، ورغم أن المسلمين لا يشكلون بالضرورة غالبية السكان فى كل تلك الدول الأعضاء وأن الإسلام لا يشكل الدين الرسمى إلا فى عدد محدود منها ، إلا أن المسلمين يتمتعون بنفوذ قوى فى تلك البلدان ، لدرجة دفعت الحكومات فيها إلى الانضمام لعضوية المنظمة .

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد المسلمين فى العالم قد وصل إلى أكثر من مليار نسمة ، إلا أنهم لا يشكلون كيانا متحدا ؛ إذ تعصف بوحدتهم الانتماءات القطرية الضيقة والعصبية المذهبية والتباين فى مفاهيم الإسلام وتفسير تعاليمه وأحكامه ، إضافة إلى الاختلاف حول ماهية الالتزام بالعقيدة .

ومما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية لا تمثل حضارة إسلامية واحدة تربط بين عناصرها وحدة عضوية بما يجعل منها خطرا حقيقيا على الحضارات الأخرى أو على أىٍّ طرف آخر ، بل إننا على العكس من ذلك نجد المسلمين منشغلين بالمعارك الدائرة بين بعضهم بعضا والتى تحول دون توحدهم ، وتبدد طاقاتهم ، مما يجعلهم أضعف من أن يهددوا أحدا .

وبالرغم مما تمتلكه دول عديدة من بلداننا الإسلامية من ثروات طائلة وموارد طبيعية قلَّ أن توجد فى أماكن أخرى من العالم ، فإننا للأسف لا نجد اليوم دولة إسلامية واحدة يمكننا تصنيفها ضمن الدول المتطورة ، بل على النقيض من ذلك ، نجد أن دولنا كلها متخلفة

* خطاب رئيسى فى أعمال منتدى نظمه المعهد الماليزى للفهم الإسلامى ، بالتعاون مع مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بعنوان : «العالم الإسلامى والتعاون العالمى : الإعداد للقرن الحادى والعشرين» ، فى بيتالينجايا – ماليزيا ، بتاريخ ٢٥ إبريل ١٩٩٧م .

عن ركب المجتمعات الأخرى على صعيد امتلاك المعارف الحديثة والتكنولوچيا المتطورة والمهارات العالية ، إضافة إلى افتقارها فى حالات عديدة إلى حكومات فاعلة لإدارة شئون بلدانها .

والحقيقة أن مجموعة مهمّة من بلداننا الإسلامية تعانى من وضع شبيه بالفوضى ، مما يجعل من الصعب تصنيف أى دولة بين أعضاء هذه المجموعة ضمن البلدان المتطورة . وقد أصبح الفقر والجهل وعدم الاستقرار السياسى من السمات المشتركة بين الدول الإسلامية لدرجة تجعل بعض الناس يحسبون أن تلك العلل لازمة مرادفة لكل من يتمسك بالتعاليم الإسلامية . هذا الموقف المتحامل يثير بطبيعة الحال غضب عدد كبير من المسلمين ، ولا شك فى أنهم محقون ؛ نظرا لأنه موقف غير منصف ومجاف للحقيقة ؛ ذلك لأن التعاليم الإسلامية بريئة من هذا الواقع المتردى وبعيدة كل البعد عنه .

غير أن الحقيقة التى لا يمكننا إنكارها هى أن الدول الإسلامية فقيرة ومتخلفة وضعيفة وغير متحدة ، وتعتمد على غير المسلمين اعتماداً كاملاً فى مختلف مناحى الحياة بما فى ذلك أسباب أمنها ، واستمرار الإسلام نفسه على نحو فاعل فى حياة المجتمعات .

ومما يؤسف له حقًا أن هناك حالة من الفوضى السياسية أو على الأقل حكومات ضعيفة تتولى زمام الأمور فى عدد كبير من المجتمعات الإسلامية . كما أن الغالبية العظمى من هذه البلدان تمزقها الصراعات على السلطة والتى تتسبب فى إزهاق أرواح ملايين المواطنين وإجبار عدد كبير منهم على الهرب من مناطقهم والنزوح إلى بلدان أخرى إضافة إلى تدمير الثروة والممتلكات الشخصية ، ونقص الأغذية الذى يتسبب فى حدوث مجاعات مهلكة للبشر . وبرغم هذه العواقب الوخيمة فإن النزاعات والحروب فى البلدان الإسلامية لا تتوقف ؛ لأن بعض الأشخاص والجماعات لن يتوقفوا عن السعى للاستيلاء على السلطة بكل السبل والوسائل غير الديمقراطية . ومن المخجل حقًا أنَّ عدداً كبيراً من المسلمين الذين يطرحون أنفسهم على أنهم من الملتزمين بتعاليم دينهم ، لا يتورعون أبدا عن اللجوء إلى

الكفار طالبين العون والمساعدة لجلب السلام والأمن لبلدانهم وإطعام الجوعى والمحتاجين من مواطنيهم ، فهل نحن عاجزون عن إدارة وتدبير أمور شعوبنا؟ وهل نحن غير قادرين على تطبيق المفاهيم الجديدة لنظم الحكم فى بلداننا؟ أم تُرانا عاجزين عن بسط العدالة ومعالجة التحديات التى استجدت سلفا فى المجتمعات المتطورة؟ ! دعونا ننظر بموضوعية إلى الأوضاع السائدة حاليا فى بلداننا لنكتشف بجلاء أن التساؤلات المطروحة أعلاه ، تنسحب تماما على ما يجرى فى مجتمعاتنا .

إن امتلاك غير المسلمين الذين نصفهم بالأعداء ، لأسباب القوة وتكنولوچيا الأسلحة المتطورة الفتاكة ، يجعل بإمكانهم مسح البلدان الإسلامية من خارطة الأرض لولا رحمة الله ولطف من المولى العلى القدير .

ومما يدعو للأسى والأسف أن بلداننا لم تستشعر هذا الخطر الذى يتهدد وجودها ولم تتخذ من الترتيبات ما يمكنها من مجابهة أسوأ الاحتمالات . كما نلاحظ أن المسلمين ماضون فى إضعاف أنفسهم من خلال الخصومات والمنازعات المستمرة بينهم ، والتفسير المتناقض للتعاليم الإسلامية ، وعدم التقيد بالأحكام الواردة فى الدين الإسلامى الحنيف ، علما بأنهم لا يكفون عن التضرع للمولى عز وجل أن يكفيهم شرور الأعداء ويحميهم من مؤامراتهم ، وينسون قوله تعالى فى الآية التاسعة والسبعين من سورة النساء : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً (٧٩) ﴾ صدق الله العظيم .

لقد امتلك المسلمون فى يوم من الأيام ناصية المعرفة والعلم ، وكانوا أفضل مخططين استراتيچيين ومحاربين من الطراز الأول ، لا يقف العدو أمامهم ، وليبراليين أكثر من غيرهم من الأمم . بيد أن الحال قد تبدلت وتحولت إلى ما يشبه الخيال الأدبى نظراً لصعوبة تصور أن المسلمين الذين نراهم اليوم فى حالة يرثى لها من الضعف والهوان ، كانوا فى يوم من الأيام يتصدرون الأمم الأخرى على صعيد المعرفة والتفوق التقنى والتحرر الفكرى .

لكن دعونا نعود إلى الماضى لنلقى نظرة على الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى ، حين كانت البلدان التى نسميها فى وقتنا الحالى بالدول الغربية ، من أكثر المجتمعات البشرية تخلفا فى المعمورة . وكانت الشعوب الأوروبية آنذاك من أكثر شعوب الأرض إيماناً بالخرافات لدرجة أنهم فرضوا حظرا صارما على العلوم التى اعتبروها نوعا من السحر ، وكانوا يخشون انتشارها . وكان السحرة والمنجمون يحرقون على الملأ ، فى وقت فرض فيه رجال الدين المسيحى حكما متسلطا على الرعايا وأرهبوهم بمحاكم التفتيش لقرون عديدة ، مما اضطر عدد كبير من المسيحيين واليهود لهجرة بلدانهم هربا من التعصب المسيحى وطلبا للحرية فى بلدان أخرى . وبمقارنة الشعوب الأوروبية بالمسلمين آنذاك ، يتبين لنا بجلاء أن الأوروبيين كانوا متخلفين بحق ، وتسيطر عليهم الخرافة والدجل ، وكانوا أبعد ما يكونوا عن الفكر الليبرالى . كما كانوا إقطاعيين يمارسون الاضطهاد والقمع على بعضهم بعضا ،فيما دفعت حكوماتهم القمعية المسيحيين أنفسهم إلى الترحيب بالحكم الإسلامى ، بل إن بعضهم ذهب الى أبعد من ذلك بتحريض المسلمين على توسيع نطاق حكمهم على حساب النفوذ المسيحى . حتى اليهود فضلوا العيش فى كنف الحكم الإسلامى ولم يكن بإمكانهم الاستمرار فى الإقامة بإسبانيا عقب انهيار الحكم الإسلامى فى الأندلس ، فرحلوا مع جحافل المسلمين ليستقروا فى شمال إفريقيا .

كل هذه الشواهد تدل دلالة كافية على مدى التسامح والليبرالية التى كان المسلمون وحكوماتهم يتمتعون بها فى العصر الذهبى للدولة الإسلامية . هذا بالطبع لا يعنى على الإطلاق أن الصورة كانت كلها وردية . فقد كان هناك حكام من المسلمين الذين مارسوا أبشع أنواع العسف والبطش والتسلط فى عصور مختلفة . لكن ذلك لا ينفى أبدا أن غير المسلمين كانوا يجدون دائما فى البلاد الإسلامية حرية تكفل لهم العيش فى أمان والتنقل أينما شاءوا لتصريف أعمالهم التجارية ، كما تمتعوا بحريات دينية مطلقة .

عندما أشرق فجر الإسلام على الجزيرة العربية قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ،

كان العرب يتخبطون فى بيئة غارقة تماما فى الخرافة والجهل . وبحكم بيئتهم القاحلة الجافة التى كانوا يعيشون فيها ، كان العرب (البدو) يضطرون للتنقل من مكان إلى آخر طلباً للماء والعشب لحيواناتهم ومصادر الغذاء لأنفسهم ، كانوا منقسمين إلى قبائل وعشائر متناحرة تقاتل بعضها بعضا . وكانت الحروب بين القبائل العربية تستمر لفترات طويلة جداً وعلى مدى أجيال عديدة ، بعضها يجهل تماما الأسباب التى أدت إلى اندلاع الحرب . وقد تبلورت فى تلك البيئة منظومة قيم تحكم مفهوم الشرف وكانت نبيلة وقاسية فى آن واحد . ذلك أنه بمثلما كان العرب كرماء يأوون من يلجأ إليهم طلباً للحماية ،ويحمونه بالغالى والنفيس ، كانوا قساة ولا يتسامحون فى قضايا الثأر والشرف . وكانت المرأة هى مصدر العار الرئيسى لأولئك الأعراب ، ؛ إذ كانوا يعتبرونها جزءا من ممتلكاتهم ويستخدمونها كسلعة لاستقطاب التحالفات فى الحروب ، إضافة إلى كونها بالطبع وسيلة لإشباع حاجاتهم الغريزية .

ورغم كل ذلك فإن سبى النساء واسترقاقهن من قبل الأعداء كان أكثر ما يخشاه العرب فى الحروب ؛ نظرا لأنه كان يجلب العار الذى يلطخ شرف الأسرة والقبيلة . ولذلك درج العرب على قتل بناتهم وأخواتهم ، ووأد وليداتهم الصغيرات لتضييق فرص جلب العار فى المستقبل . واشتهر العرب بحبهم للمديح على نحو مبالغ فيه . وكان أصحاب الحاجة (الشحاذون) يعلمون تماما أن الأغنياء وأهل الجاه يجزلون المنح والعطايا كلما تمّ التغنى بما يُقال فى حقهم من المديح والإطراء ، فيعمد المادحون إلى الإطراء والمبالغة فى إبراز مآثر الممدوح . وقد دفعهم خوفهم من الخرافات إلى اتخاذ آلهة من الحجارة والأخشاب يعبدونها وكانوا يزورونها بانتظام لتقديم الأضحية والقرابين بما فى ذلك من البشر ، اعتقاداً منهم أنها تملك القدرة على إنقاذهم وحمايتهم من القوى الخفية الشريرة .

وكان أفراد القبائل المتحاربة لا يتورعون عن الاقتتال عندما يلتقون فى مواسم الحج ، فيلحقون خسائر بشرية فادحة ببعضهم بعضا . ولم يكن من بين العرب فى الجاهلية من اعتنق المسيحية أو اليهودية أو أصبح من أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله الواحد الأحد ، إلا

نفرٌ قليل جداً حيث آثر السواد الأعظم البقاء على دين آبائه دون أن يتدبر الأمر . ولم تجد دعوة الحواريين للدين المسيحى قبل مجئ الرسالة المحمدية ، إلا أذنا صمّاء ، لكن من الواضح أنهم كانوا على علم بالمسيحية ومُلمّين بطبيعتها لدرجة تم فيها استشارة المسيحى ورقة بن نوفل عن طبيعة الأصوات التى سمعها سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم ، عندما نزل عليه الوحى لأول مرة .

شكّل ذلك المجتمع ، بتخلفه وانغماسه فى الخرافة وتحيّنه لفرص الاقتتال ، البيئة التى حمل إليها سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم ، رسالته الخاتمة ، ولا غرو فى أن النبى الكريم قد واجه مشقة وعنتًا فى حمل أولئك القوم على نبذ معتقداتهم الجاهلية وعاداتهم وتقاليدهم المتخلفة ، وإقناعهم بضرورة احترام المرأة ومعاملتها كإنسانة وعدم وأدها ، وعدم الانسياق وراء الشهوات الغريزية «بالزواج» من عدد غير محدد من الزوجات وقصْر ذلك على أربعة فقط ، شريطة التزام العدل بينهن ، وهو أمر ، نصَّ القرآن صراحة على أنه صعب التحقق ، حيث نقرأ فى سورة النساء الآية ١٢٩ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾ ، فالأصل هو الزواج من واحدة .

وبما أن العرب كانوا أيضا مُحبين لاحتساء الخمر ومُسرفين فيه ، فقد اقتضت الحكمة الربانية أن يتم تحريم تلك العادة بالتدرج ؛ لأن أى أمر بالنهى عنها مرة واحدة كان سيصبح مدعاة للتمادى فيها .

لقد أمر الإسلام العرب بمصادقة أعداء الأمس الذين هداهم المولى عز وجل ، فأصبحوا تحت قيادة النبى الأمى أمة واحدة متخلّين عن العصبية القبلية وما جلبته عليهم من وبال ، حيث نقرأ فى سورة آل عمران- الآية ١٠٣ : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

بدأت لبنة الدولة الإسلامية بمجتمع المدينة الذى تم تنظيمه على نحو دقيق وفق نظام قانونى واضح حدّد طبيعة الجريمة وأسلوب الأحكام وماهية العقوبات بتركيز شديد على ضرورة العدل فى الحكم والرفق فيه ، مع إيلاء أهمية خاصة للعفو عن التائب الذى يتوب لرشده . وتآلفت تلك القبائل البربرية المتحاربة واتحدت تحت راية لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، مكونة دولة واحدة يحكمها دستور المدينة الذى كان أول دستور مكتوب فى العالم ، ليتم بذلك وضع نواة أول أمة إسلامية . ومن المدينة بدأ سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يبعث الرسل إلى المناطق والبلدان المجاورة حاثًا حكّامها على اعتناق الإسلام .

وقد التزم النبى الكريم التعاليم الإسلامية التزامًا صارما فى الحرب والسلم ، حيث لا إكراه فى الدين ولا لأحد الحق فى أن يحمل الآخرين على اعتناق الإسلام بالقوة بحسب نص الآية ٢٥٦ من سورة البقرة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ صدق الله العظيم . لكن لسوء الحظ لم يكن التابعون على قدر من الصبر والسماحة لتحمّل معارضة أولئك الذين رفضوا التعاليم النبوية ، فبينما لم يخض الرسول عليه الصلاة والسلام ، الحرب إلا للدفاع عن النفس وكان دائمًا على أتم الاستعداد للجوء إلى الصلح وعقد المعاهدات لفض المنازعات ، بدت على أتباعه روح قتالية فاتجهوا إلى نشر الإسلام بالقوة ؛ إذ لم يكد القرن الأول الهجرى ينقضى حتى انضمت أمصار وبلدان مترامية الأطراف للدولة الإسلامية ، صحيح أن الفتوحات ساهمت فى نشر الإسلام ووسعت الدولة الإسلامية ، لكنها فى الوقت نفسه أسفرت عن تنامى نزعة الاستخفاف بالتعاليم الإسلامية والتغاضى عنها فى بعض الأحيان .

لقد حدث نوع من الاسترخاء فى تطبيق وممارسة الأحكام الإسلامية بغرض إضفاء صفة الشرعية على أى فعل مهما كان (نافعًا أم خبيثًا) ، ما دام الحاكم يرى أنه يصبّ فى خدمة

الإسلام . ولذلك نجد اليوم أن القدسية تُضفى على كل عمل خسيس غادر يتم ارتكابه بحق المسلمين الآخرين . وبهذا الصدد تنص الآية - ٤١ من سورة البقرة : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ﴾ صدق الله العظيم . والآية -٢٢٤ من السورة نفسها : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ صدق الله العظيم .

لقد تسبب النجاح غير المسبوق للدولة الإسلامية فى إفساد الناس وإشاعة الغيرة والحسد بينهم ، لدرجة أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين قد تم اغتيالهم بينما لم يمت ميتة طبيعية إلا الخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه . تلك التطورات كشفت بجلاء أن هناك فئة من المسلمين كانت لا تلتزم بنظام الحكم كما أمر به الإسلام منذ عهده الأول بدليل أن بعض المسلمين لم يتورعوا عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، بما فى ذلك اغتيال الخلفاء الراشدين .

بمبايعة سيدنا على بن أبى طالب -كرّم الله وجهه ، كخليفة رابع ، بلغت الحروب بين المسلمين مرحلة فى غاية الخطورة لا تختلف عما كان عليه الوضع بين القبائل العربية المتحاربة فى الجاهلية . هذا الصدع الخطير تمخض عن انشقاق الأمة الإسلامية إلى طائفتين ، طائفة المناوئين لسيدنا على الذين التفوا حول معاوية بن أبى سفيان ، وأصبحوا يُعرفون (بأهل السنّة والجماعة) بينما ألف أنصار سيدنا على (ربما على غير رغبة منه) طائفة الشّيعة زاعمين أن الأخير هو الخليفة الحقيقى للنبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . ومنذ ذلك الوقت ، درجت كل طائفة على السعى لإثبات صحة موقفها وإبراز ضلال الطائفة الأخرى ، ليس من خلال التفسيرات المتناقضة للتعاليم الإسلامية فحسب ، بل بابتداع أحاديث نبوية وإلصاقها بالسنّة النبوية لتبرير كثير من الأفعال والممارسات المنافية لأحكام وروح الإسلام . وعندما أراد الإمام البخارى دراسة الأحاديث للتحقق من صحة كل واحد على حدة ، وجد ما لا يقل عن ستمائة ألف حديث وانتهى إلى إثبات صحة سبعة آلاف منها فقط ، بينما أجاز دارسون

آخرون عددا يقل عن سبعة آلاف ، إلا أنهم اعتمدوا صحة أحاديث رفضها البخارى ولم يأخذ بصحتها .

هذا الأمر يوضح بجلاء أن هناك نحو خمسمائة وتسعين ألف حديث موضوع وغير صحيح ، غير أن الناس ما زالوا يستندون إليها ويقتبسون من نصوصها على نحو يرمى إلى تبرير ممارساتهم الخاطئة .

ومع توسع الدولة الإسلامية ، كان بعض الناس يسعون لوراثة لقب الخليفة وأمير المؤمنين ، فاشتعلت الحروب بين مختلف الطامحين إلى السلطة الدنيوية . وقد بدأ حكام الأمصار يبتعدون شيئًا فشيئًا عن السلطة المركزية سواء فى المدينة أو بغداد أو إسطنبول ، تمهيداً لتكوين إمارات إسلامية مستقلة عن السلطة المركزية . وقد شهدت تلك الفترة ظهور طوائف إسلامية جديدة ، ظهر معها علماء بارزون فى مجال التشريع ، ركزوا اهتمامهم على التأكيد بأن الشريعة تعلو وتسود على القرآن .

وبمرور الوقت تلاشى التسامح الذى كان سمة ملازمة للإسلام ، وحلت محله التفسيرات المتزمتة التى يصدرها أولئك المشرّعون الذين كانوا لا يسمحون بمجرد التساؤل أو مناقشة ما يتفوّهون به من فتاوى . وبطبيعة الحال ساءت أوضاع المسلمين وتدهورت حالهم ، لدرجة اقتصر فيها العلم على الدراسات الدينية وتم تحريم العلوم والرياضيات ، كما صنفت العلوم غير الدينية على أنها غير إسلامية . وقد فقدت المكتبات المنتشرة فى كل مكان قيمتها وتفشى الجهل فى أوساط المسلمين ، فى وقت بدأ فيه الأوروبيون المسيحيون الإفادة من الفرص المتاحة بدراسة الإنتاج الفكرى والمعرفى للعلماء المسلمين . لقد بات واضحًا أن النجاح والسلطة أفسدا الحكام المسلمين ، بينما أصبحت دائرة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة تتسع بين الأوساط الإسلامية فى كل يوم .

كانت تلك هى البداية الحقيقية لاضمحلال الدولة الإسلامية وحضارتها القوية . وتسبب تفشى الفساد فى أوساط الحكام المسلمين والانحراف عن التعاليم الإسلامية القويمة ،

فى ظهور حركات إصلاحية تسعى إلى العودة إلى الممارسات الإسلامية الأصولية ، وتصاعد الأمر ليبلغ ذروته بخلع الخلفاء وتنصيب قيادات بديلة كما حدث من قِبل المرابطين ومن بعدهم المُوحِّدين فى شمال إفريقيا وإسبانيا . لكن لسوء الحظ انتهى الحكام الجدد أنفسهم إلى الفساد والانحراف عن التعاليم الإسلامية من خلال تفسير الإسلام بما يناسب أهواءهم وآراءهم المتطرفة ومهما قيل من مبررات ، فإن الحكام المسلمين الجدد قد أسهموا فى اضمحلال الدولة الإسلامية وتسببوا فى وضع حد لتفوق المسلمين من خلال فهمهم الضيق للدين الإسلامى وخطل تفسيرهم لأحكامه ورفضهم للعلوم الدنيوية وإهمالهم اكتساب المهارات الأخرى ، مما أفقدهم القدرة على الدفاع عن حكمهم والأمصار التى كانت تحت سيطرتهم فى إسبانيا .

فى عام ١٤٩٢ . سقطت غرناطة التى كانت آخر معقل حصين للمسلمين فى إسبانيا ، أمام جحافل جيش فيردناند وإيزابيلا ووجد آخر حاكم نفسه عاجزاً عن قيادة جيشه ولو لمرة واحدة ، وأجبر على الاستسلام ومغادرة الأندلس إلى شمال إفريقيا . أما المسلمون الذين لم ينزحوا فقد وجدوا أنفسهم أمام خيارين أحلاهما مُرّ : إما أن يرتدوا عن الإسلام ، أو يواجهوا الموت . فتلاشت بذلك آخر مقاطعة إسلامية فى أوروبا الغربية .

غير أن ذلك المصير لم يُرض غرور الأوروبيين ؛ إذ لم يرق لهم ترك الدويلات الإسلامية فى شمال إفريقيا تعيش فى أمن وسلام ، فتمكنت فرنسا وإسبانيا من توسيع نفوذهما فى المغرب ، ومن ثَّم الاستيلاء على إفريقيا من مصر إلى المغرب . لكن ذلك لم يكن نهاية المطاف ؛ إذ بينما لحقت الهزيمة النكراء بالمسلمين فى الأندلس ، بدأ الأتراك فى توسيع نفوذهم وبناء إمبراطورية إسلامية جديدة . وقد تمكنت الجيوش التركية من بسط سيطرتها وإخضاع منطقة البلقان لنفوذ العثمانيين ، بل إنها وصلت إلى أبواب ڤيينا ، بينما أحكم الأسطول البحرى التركى قبضته على البحر الأبيض المتوسط . لكن للأسف ، لم يمض وقت طويل حتى انتقل الداء العضال إلى بلاد السلاطين الأتراك ، حيث تسببت الثروة وحب

التظاهر والتفاخر والترف فى إفساد الحكام العثمانيين . وقد تخلى أولئك الحكام عن قيادة الجيوش الإسلامية لقادة لا ينحدرون من أصول تركية ، بمعنى أن الأتراك لجأوا إلى استقطاب أبناء المسيحيين وتربيتهم على أسس إسلامية وتدريبهم وتأهيلهم ليتخرجوا جنوداً محترفين . وفى وقت لاحق تمكنت تلك الجماعات الدخيلة من بسط سيطرتهم على السياسة فى الدولة العثمانية وخططت ونفذت عددا مما يعرف(بانقلاب القصر) .

كان مستشارو السلاطين العثمانيين للشئون الدينية متملقين ومنافقين يبصمون على صحة كل ما يصدر عن الحكام من قول وفعل . أما السلاطين أنفسهم فقد انزلقوا عن جادة الحق فجلبوا إلى قصورهم أعداداً كبيرةً من الزوجات والسرارى والخدم لإشباع نزواتهم الغريزية ، بينما ذهب بعضهم إلى حد اغتيال أشقائهم ، لكى لا يواجهوا بأى تحدٍّ أو خطر على استمرارهم فى الحكم . وبينما وجدت تلك الممارسات الشنيعة ترحيبا ومباركة من السلطات الدينية فى البلاط العثمانى ، أصبحت أى محاولة لتطوير وتحديث القوات المسلحة التركية تصنف على أنها منافية للإسلام . فعندما وضعت مقترحات لاستبدال «البنطلونات» الفضفاضة التى كان يرتديها الجنود بسراويل أقصر وغير مصقولة ، إضافة إلى استبدال الطربوش بقبعات مستدقة الرأس ، وقع تمرد وسط القوات المسلحة التركية . وفى نهاية المطاف انتهى الجيش التركى الذى كان لا يقهر ، إلى الاعتماد تماماً على أسلحة بالية تقليدية غير فعالة ، فتراجعت قدراته إلى درك سحيق ، فى وقت كانت الجيوش الأوروبية تزداد منعة وقوة من خلال امتلاك أحدث وأفضل التكنولوچيا العسكرية والتسليحية المتوفرة آنذاك . لقد بدأ اضمحلال الإمبراطورية التركية منذ إخفاق جيوشها فى الاستيلاء على ڤيينا ، وبنهاية الحرب العالمية الأولى انقسمت الدولة العثمانية إلى عدد من الدويلات الضعيفة التى خضعت للسيطرة (الحماية) الفرنسية والبريطانية . أما تركيا نفسها فكادت أن تقع فريسة للسيطرة اليونانية لولا بروز مصطفى كمال أتاتورك .

كان المسلمون الأوائل الذين فروا بدينهم من الجزيرة العربية باتجاه الأصقاع الأخرى

متمسكين بالتعاليم الإسلامية الحنيفة ومتسامحين مع أهل الكتاب لأقصى الحدود ومنفتحين على الحضارات الأجنبية ؛ إذ أبدوا اهتماماً كبيراً باكتساب المهارات والفنون التى أبدعها غير المسلمين وخاصة اليونانيين . وعندما تمثلوا تلك المعارف ، بدأوا يسهمون بقسطهم فى حقول المعرفة الإنسانية ، فأجروا البحوث فى مختلف المجالات وابتكروا تقنيات وضعتهم فى مقدمة الشعوب ، لكن لسوء الحظ أدى ظهور الفقهاء الإسلاميين وأولئك الذين عرفوا «بالإصلاحيين» إلى إهمال جميع الدراسات غير الدينية ، ليتم تحريمها أو منعها تماماً فيما بعد ، وليبدأ عصر انكفاء المسلمين وتراجعهم عن الصدارة .

ومما لا شك فيه ، أن استغلال وابتزاز السلطة والانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة والممارسات المنافية للإسلام خاصة من قبل الصفوة الإسلامية ، هى التى أدت الى ظهور الحركات الإصلاحية وهيمنة الفقهاء على المسار العام فى الدولة الإسلامية . بيد أن المحصلة التى انتهت إليها محاولات الإصلاح ، لم تكن لتصب فى مجرى العودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة . بمعنى أن الإصلاحيين المتعصبيين والمشرعين الانتهازيين الذين أعماهم ضيق الأفق ، كانوا يهدفون إلى بسط مفاهيم إسلامية أكثر تزمتا وتطرفا فيما يتصل بمراعاة بعض الممارسات والعبادات الإسلامية مقابل منع كل ما يرون أنه مخالف للإسلام ومجاف لروحه . بعبارة أخرى ، حرص أولئك الإصلاحيون على مراعاة الشكل أكثر من جوهر ومضمون التعاليم والأحكام الإسلامية ، فحرموا أو منعوا ما أسموه «بالمعرفة غير الدينية» وكل ما لم يجدوا له أصلا أو جذوراً فى العصر الإسلامى الأول . لقد اعتبرت تلك الفئة المنحرفة محاولات تحديث وتطوير الجيش التركى مخالفة للإسلام ، متناسية الأمر الوارد فى القرآن بضرورة إعداد العدّة للدفاع عن النفس . نعم لقد اهتم الإصلاحيون بالشكل على حساب جوهر وروح التعاليم والعبادات الإسلامية ، وحسبوا أنفسهم فى عباءة الماضى دون تدبر للحاضر والمستقبل .

لقد ركّز القرآن الكريم على ضرب الأمثال والحكم والمواعظ ، حاثًا على استنباط

المعانى الحقيقية فى سياق الأوضاع التى تواجهها الأمة الإسلامية عبر العصور . لكننا نلاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء والدارسين فى حقل المعرفة الإسلامية يصرون على الأخذ بالمعنى الحرفى للكلمات الواردة فى القرآن . ولذلك نجد أن قضية الدفاع عن الأمة الإسلامية تراجعت أهميتها ، ولم يعد الحكام يهتمون بإعداد رباط الخيل كما جاء فى سورة الأنفال – الآية ٦٠ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ صدق الله العظيم .

نعم ، كانت هناك إمبراطورية إسلامية عظيمة لكنها اضمحلت وتلاشت تمامًا . وقد تسببت الهزائم فى ميادين المعارك وفى مجال إدارة العلاقات الدبلوماسية ليس فى إضعاف الإمبراطورية فقط ، بل فى انقسامها إلى دويلات إسلامية غير فاعلة ، سلّمت أمرها فيما بعد إلى الهيمنة والاستعمار الأوروبى .

إن أسباب تجزئة العالم الإسلامى ووقوع دويلاته فى قبضة الاستعمار الغربى ، تعود لمؤامرات الأوروبيين وما امتلكوه من قوة عسكرية . ويجب ألا ننسى أن الأوروبيين هم الذين دفعوا العرب إلى مقاتلة الأتراك فى سبيل الحصول على استقلالهم . ولا شك أن المسلمين فى كل بقاع العالم يكثرون من الحديث اليوم عن الإمبراطورية العملاقة التى أقامها أجدادهم الفاتحون ويحنّون دائمًا لاستعادة أمجادهم الضائعة عندما بسط المسلمون سيطرتهم على جزء كبير من العالم القديم . لقد حكم المسلمون إسبانيا لنحو ثمانمائة سنة ، بينما حكموا أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية لنحو أربعمائة عام . ولا يخفى على أحد مدى الحنين الذى يستشعره المسلمون للأيام التى حاز فيها أجدادهم الريادة فى مجال العلوم والرياضيات والآداب والفنون ، وما سجلوه من بسالة فى ميادين القتال ، وما حققوه من انتصارات مُدوية . وما زال المسلمون يتحدثون عما بلغه أسلافهم فى العصر الذهبى للإسلام من براعة فى مجال المبتكرات الصناعية من جنس آلة «الإسطرلاب» الفلكية التى ابتدعوها لقياس

ارتفاع النجوم والشمس ، والدروع وسيوف القادة المشهورين مثل **صلاح الدين الأيوبي** . ذلك بالإضافة إلى ما حققوه من تقدم في مجالات المعمار والهندسة ومهارات البناء والتشييد والتي تقف شاهداً على الاسهامات الرفيعة التي قدموها للبشرية .

على خلفية تلك الصورة الزاهية ، يرتسم الواقع الحالي للبلدان الإسلامية من تخلف وتشرذم وضعف جعل من المسلمين مجرد دمىً يستخدمها الأوروبيون والغربيون لخدمة مآربهم السياسية . لقد بلغ المسلمون من ضعف ما جعلهم عاجزين تمامًا عن مساعدة إخوانهم في العقيدة الذين يُذبحون بيد الأعداء ، إضافة إلى وقوفهم موقف المتفرج من المؤامرة الجارية في فلسطين ومقدساتها والتي يتم تمزيقها وتقديمها لأعداء الإسلام من اليهود . وقد برهنت الأيام على أن اعتقاد المسلمين بأنهم قادرون على إيقاع الهزيمة بإسرائيل ، ما هو إلا وهم لا أساس له ؛ إذ ألحقت هذه الدويلة بالمسلمين الهزيمة تلو الأخرى ، مستفيدة من الدعم اللامحدود من الأمم الغربية .

لم يكن ذلك نهاية لإمبراطورية عظيمة فحسب ، بل إنه وضع حداً أيضًا لكل ما يرمز إلى كرامة وشموخ المسلمين الذين أصبحوا مجرد شخصيات كاريكاتورية مضطربة لا أمل لها في استعادة ماضيها التليد إلا في عالم الخيال والوهم . ولقد أصبح التأمل في الواقع الإسلامي مدعاة لجلب الحزن والإحباط ، بل إنه قد يدفع المرء المسلم إلى حالة من السعار والجنون تتسبب بدورها في أفعال من شأنها جلب مزيد من الكراهية للمسلمين . في هذا المقام لابد من التأكيد على أن الإرهاب ليس صنيعة ولا ابتكاراً إسلاميًا ، نظراً لأن أول من اختطف طائرة كان أمريكي الجنسية . غير أن المسلمين سرعان ما تعلموا أساليب القرصنة الجوية مما سهّل على المُغرضين إلصاق تهمة الإرهاب التي صنعها الأعداء بالمسلمين ، بل جعلوها مرادفًا للإسلام والمسلمين . وإلى جانب تسبّبهم في جلب سمعة سيئة لأنفسهم ودينهم ، مضى المتطرفون في أوساط المسلمين قُدما بارتكاب جرائم بشعة مثل قتل أطفال أعدائهم ظنًا منهم أن ذلك كفيل بقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام . غير أن الأمر لم

يُسفر عن شيء أكثر من الاسهام فى توسيع الكراهية للمسلمين الذين يتحركون أيضا للانتقام من تلك الأفعال البشعة بذات الوحشية والقسوة ، ليتحول الأمر إلى دائرة مفرغة من العنف والعنف المضاد .

هناك ضرورة تستدعى توقف المسلمين عن ارتكاب مثل هذه الممارسات اللاعقلانية ؛ لأنها تلحق ضررا بالغا بالإسلام ومعتنقيه . لكن يبدو أن بعض المسلمين غير معنيين كثيراً بكسب المعركة التى يخوضونها ضد إعدائهم ، وتحقيق الأهداف المرجوّة منها ، قدر اهتمامهم بالقتال فى حد ذاته . هذا المفهوم يعيد إلى الأذهان الحروب القبلية التى كانت سائدة بين العرب أيام الجاهلية قبل مجيء الإسلام ، والتى لم تكن تحدث لسبب منطقى أكثر من مجرد عداء بين أشخاص أو عشائر . فقد كانت القبائل العربية تقاتل بعضها بعضا على مدى أجيال عديدة دون البحث عن وسائل لوقف الحرب وإقرار تسوية سلمية بينها ، الى أن يحرز أحد أطراف القتال نصراً حاسماً على الطرف الآخر . ويبدو أن المسلمين الذين يتملكهم هاجس كراهية الأعداء ، سيستمرون فى قتال إعدائهم طالما ظلّ ذلك الهاجس قائماً ، ولا يفكرون أبداً بالتوصل إلى حل سلمى ؛ لأن ذلك لا يدخل فى نطاق أهدافهم فى الأصل .

ومن الواضح أن هدف هذه الفئة من الناس هو إلحاق الدمار الشامل بالأعداء بغض النظر عن النتائج ، لكن هل هذا المفهوم ينسجم مع التعاليم الإسلامية الصحيحة؟ صحيح أن الآية-١٩٠ من سورة البقرة تأمر المسلمين بقتال الأعداء : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ صدق الله العظيم . بينما تقول الآية التى تلتها : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾ صدق الله العظيم . لكننا نجد الآية-١٩٢ من السورة نفسها تقول :﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) ﴾ صدق الله العظيم . كما أمرت الآية-١٩٣ : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) ﴾ صدق الله العظيم .

ونحن نعلم اليوم من هم أولئك الذين يمارسون الظلم والطغيان ، ومع ذلك فإن الآية-١٩٤ من سورة البقرة تبين لنا التالى : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ صدق الله العظيم .

ومن الطبيعى جداً ، أن يتوق المسلمون لأمجادهم الماضية من إمبراطورية مترامية الأطراف وهيمنة على جزء كبير من العالم غير أن من الضرورى بمكان أن يعلموا أن الإمبريالية واحتلال أراضى الآخرين وإخضاعهم لحكم استعمارى مباشر ، كلها قد أصبحت من مخلفات الماضى ، ويستحيل تماماً بعث الدولة الإسلامية أو الإمبراطورية البريطانية وغيرهما من الإمبراطوريات بشكلها القديم ، من جديد . إن كل ما يمكننا التطلع إليه هو العمل على تنمية بلدان إسلامية مستقلة لتلحق بركب الدول المتطورة وهو أمر ليس بالعسير أو المستحيل .

لقد خلق المولى عز وجل المسلمين لا ليكونوا فى درجة وضيعة أو مستضعفين فى الأرض ، بل على العكس من ذلك تماماً إذا جاز لنا العودة إلى الأمجاد الإسلامية الماضية . وليس ثمة ما يحول دون امتلاك المسلمين للمهارات العالية وتطويع التكنولوچيا المتطورة التى يحتكرها حاليًا غير المسلمين . متى ما أخلص المسلمون العزيمة فبإمكانهم أن يحكموا بلدانهم بكفاءة عالية جداً ، لكن ينبغى أن يقتنعوا أولاً بضرورة ذلك وأن يمضوا قدماً نحو تطبيق نظام حكم فاعل يستجيب لتحديات العصر ، انطلاقاً من إيمان راسخ بأن المولى سبحانه وتعالى ، قد خلق هذا الكون لهم وأن من أولى واجباتهم أن يثبتوا بالدليل العملى المقنع أن الإسلام دين عظيم لم يفرط فى شىء ، وأنه يجلب كل ما هو عظيم ورفيع لمعتنقيه وللبشرية جمعاء . يقول المولى عز وجل فى الآية- ١١ من سورة الرعد : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ صدق الله العظيم . ومرة أخرى علينا أن نتذكر قول الله تعالى فى الآية-٧٩ من سورة النساء : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ صدق الله

العظيم .

لا شك أن بإمكان المسلمين أن يقوموا بتنمية وتطوير بلدانهم بالمستوى المطلوب دون السعى لتكوين إمبراطورية جديدة من خلال دمج جميع البلدان الإسلامية فى وحدة سياسية واحدة . لكن بطبيعة الحال ينبغى عليهم أن يتعاونوا فيما بينهم بوصفهم أعضاء فى الأمة الإسلامية ، بعيداً عن خلق القلاقل وإشعال الحروب بين البلدان الإسلامية . وبإمكان المسلمين أيضاً أن يسهموا فى تعزيز وتقوية وضعية منظمة المؤتمر الإسلامى ومساعدة أعضائها من الدول الفقيرة المتخلفة على صعيد التنمية الاقتصادية والاجتماعية شريطة ألا يتعدى ذلك صيغ التعاون بين الأعضاء .

ولابد من أن تحافظ الدول الإسلامية على استقلالها ، ولا بد من أن تكون متطورة بما يؤهلها لاحتلال مواقعها ضمن خارطة الأمم فى المجتمع الدولى . كما أنه لا بد من أن يتمسك المسلمون بعقيدتهم وأن يكونوا مسلمين أصوليين بحق ويتمسكون بمعنى الالتزام بفعل الصواب ورفض ونبذ الخطأ . يقول الله تعالى فى الآية-١٠٤ من سورة آل عمران : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ صدق الله العظيم . لقد كان الإسلام ومازال يحضُّ على الصواب والعدل ويؤيد ويدعم كل ما من شأنه أن يشيعهما بين الناس ، ولم يحث المسلمين على أن يدعموا بعضهم البعض لفعل الخطأ . إن من واجب المسلم أن يدين ويرفض أى ممارسة خاطئة يأتى بها أخوه المسلم حتى فى الحالات التى يكون فيها ضحايا تلك الأفعال من غير المسلمين ، ولنا فى الآية-٤٢ من سورة المائدة أسوة : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

إن المهمة الحقيقية للمسلمين فى وقتنا المعاصر تتمثل فى العمل على بعث القيم الروحية ونشرها على أوسع نطاق فى هذا العالم الذى يسرع الخطى باتجاه المادية البحتة والشرك بالواحد الأحد ، عالم يدَّعى فيه بعض الناس امتلاك ناصية الحقيقة والإجابة على أى

تساؤل ، عالم يطور فيه الإنسان أدوات الدمار الشامل ويضعها تحت تصرف شخصيات غير مسئولة وربما مصابة بمسٍّ من الجنون ، عالم يقف على شفير «نبوءات» قائمة على رؤية شخصية . أولئك أناس يعتقدون أنهم بلغوا من العلم والمعرفة ما يضعهم فى مرتبة الإله ، وبإمكانهم خلق أشياء هى من صميم القدرة الربانية . إنهم يسعون لخلق عالم حسب رغباتهم وخيالهم المريض . لقد أخذتهم العزة بالأثم ، فصاروا لا يرون كبيرا فوقهم . وقد تناسى أولئك أنه برغم ألمعيتهم فإنهم عاجزون تماما عن الإجابة عن التساؤلات التالية : لماذا توجد حياة فى هذا العالم؟ ولماذا وجد الكون نفسه؟ ولماذا تتفاعل المادة على النحو الذى نراه؟ ولماذا ينتج عن اتحاد الأوكسجين والهايدروچين ماء وعدد هائل من التفاعلات الكيماوية والفيزيائية؟

صحيح أن العلماء يعرفون الكيفية التى تتم بها تلك التفاعلات ، لكنهم يجهلون تماماً «لماذا» ! ! إنهم ليسوا بتلك العبقرية التى يظنون . وبما أن الجنس البشرى ماض فى وقتنا الحالى نحو مزيد من العجرفة والصلف ، فإن القيم الدينية والروحية تزداد أهمية أكثر من أى وقت قد مضى . ومما لا شك فيه أن الدين الإسلامى يوفر للمؤمنين وغير المؤمنين تلك القيم شريطة أن يكون إسلاما قائما على التعاليم الصحيحة التى تدعو إلى السلم والخير والعطف على الآخرين بعيداً عن ارتكاب الجرائم واستغلال الدين لتبريرها .

إن القرن الحادى والعشرين لن يكون قرنا إسلاميًا لكنه يشكل فترة مهمة جداً من فترات التاريخ ؛ لأنه يحمل تحولات جذرية ، وعلى المسلمين أن يعلموا أنهم جزء من تلك التحولات شاءوا أم أبوا .

وعليه ، فمن الأفضل للمسلمين أن يتعاملوا مع هذا القرن بعيون وعقول مفتوحة تعرف تماماً ماذا تريد . . وما الدور الذى تأمل فى الاضطلاع به؟ وإذا ما اختار المسلمون أن يلعبوا دوراً بناءاً مع الاحتفاظ بعقيدتهم الصحيحة وقيمهم الروحية والأخوة الإسلامية الحقيقية ، فسوف يكون بوسعهم أن يسهموا فى تطوير الجنس البشرى على نحو إيجابى من خلال وضع الناس على متن قارب النجاة من جديد ، ومنعهم من ممارسة الأنشطة المدمرة

لذّات التى استشرت فى زمننا المعاصر .

نحن نثق تماماً بأن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة دافعة فى اتجاه الخير للبشرية فى القرن الحادى والعشرين ، وهو أمر قد يبدو صعباً لدى كثير من الناس ، إلا أنه ليس مستحيلاً على الإطلاق . ويبقى أمام المسلمين أن يقرروا مصيرهم فى ضوء النص القرآنى الواضح بأن المولى عز وجل ، لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم ! !

الفصل السادس عشر

الإسلام والأمة الإسلامية *

دعونى أُعبّر فى مستهل كلمتى عن خالص تقديرى وامتنانى لحكومة المملكة العربية السعودية وللجنة جائزة الملك فيصل الدولية بصفة خاصة ، على ما أسبغته علىّ من شرف وتكريم بمنحى جائزة العام ١٩٩٧ لقاء ما قدمه شخصى الضعيف من مساهمة فى خدمة قضايا الإسلام والمسلمين .

إننى سعيد بهذا التكريم ، ويطيب لى بكل الفخر والاعتزاز أن أتقبل هذه الجائزة المرموقة التى تُعد أيضا تكريمًا لماليزيا وشعبها من مسلمين وغير مسلمين ، والذين لولا احترام بعضهم بعضًا وما يتحلّون به من تسامح ، لما بلغت بلادنا التى تتخذ الإسلام دينًا رسميًا لها ، ما هى عليه فى الوقت الحالى من استقرار سياسى ورفاه اقتصادى .

إن ما تحقق لبلادنا من إنجازات باهرة ، ليس وليد اليوم ، بل هو متجذر فى الواقع الماليزى على مدى القرون التسعة الماضية ، منذ أن اعتنق أجدادنا الإسلام .

وكما هى الحال بالنسبة لأعراب شبه الجزيرة العربية الذين اعتنقوا الإسلام قبل نحو ١٤٠٠ سنة بعدما كانوا يعبدون الأصنام فى الجاهلية ، فإن أسلافنا الأوائل كانوا أيضا من غير المسلمين ، وقد أنعم الله عز وجل ، على عدد كبير من غير المسلمين باعتناق الدين الإسلامى مع توسع الدولة الإسلامية . غير أن غالبية من ارتضوا هذا الدين دخلوا طواعية واقتداء بما وجدوه عند المسلمين الذين حملوه إليهم ، من سلوك قويم وتسامح وتطور وصدق فى التعامل . وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين الذين أخذتهم الفتوحات الإسلامية إلى البلدان

* كلمة رئيسية فى حفل توزيع جائزة الملك فيصل الدولية ، الرياض - السعودية ، فى ٢٢ مارس ١٩٩٧م .

الأخرى ، لم يحملوا الناس على اعتناق دينهم بالقوة بقدر ما كانوا نموذجا فى الاستقامة والسلوك الحضارى والالتزام بالتعاليم الإسلامية الصحيحة ، مما شجع الرعايا الجدد وحفزهم على الدخول إلى الإسلام كما حدث فى إسبانيا وأوروبا بصفة عامة فى عهد الحكم الإسلامى فى الأندلس .

والشيء نفسه ينسحب على الملاويين ، سكان ماليزيا الأصليين ، الذين لم يخضعوا فى يوم من الأيام لسلطان الدولة الإسلامية ، لكنهم آمنوا بالرسالة المحمدية ؛ نظراً لأن التجار المسلمين من حضرموت ، الذين كانوا أول الوافدين من العرب إلى دويلات (سلطنات) شبه جزيرة ملايا ، جسّدوا فى نظر السكان المحليين ، قمة النجاح بمقاييس ذلك الزمن . لقد اكتشف سكان سلطنات شبه جزيرة ملايا أن أولئك التجار بارعون فى بناء السفن يجيدون فن الإبحار والملاحة البحرية بمراقبة مواقع النجوم ، كما كانوا تجاراً أذكياء ومُلمين إلماماً واسعاً بالعلوم الطبية والجغرافيا والرياضيات .

وقد ترك أولئك المسلمون انطباعاً حسناً فى أذهان الملاويين ؛ إذ جسّد المهاجرون التقوى والورع وكانوا نموذجا حيًا للالتزام بالعبادات والأحكام التى فرضها ديننا الحنيف ، والتمسك بالأخلاق الإسلامية الفاضلة فى كل المعاملات . كما كانوا مثالاً يحتذى فى طيب المعشر والتسابق لفعل البرّ والخير دون تكبر أو غطرسة ، ولم تفسدهم السلطة والقوة ولا حب الهيمنة والتسلط على السكان المحليين . كان التجار المهاجرون من حضرموت إلى دويلات شبه جزيرة ملايا ، خير «رُسل» للدعوة للدين الإسلامى ؛ لأنهم نجحوا على نحو تلقائى فى تجسيد التعاليم الإسلامية الصحيحة والأخلاق السمحة ، وهو أمر أثار فضول السكان اللادينيين ، وكان له تأثير بالغ لدى سلاطينهم (مهراجاتهم) الذين وجدوا فى الإسلام ضالتهم فاعتنقوه ، مما شجع بدوره رعاياهم على الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

هبْ أن المسلمين الأوائل الذين نزلوا بالبر الماليزى الحالى ، كانوا متخلفين يغطون فى جهل عميق ومُعوزين يعيشون على الإعانات وما يتصدق به الخيّرون ، وتعصف العصبيات

والخلافات الطائفية والمذهبية بتماسكهم ووحدتهم ، فإن أجداد المسلمين الماليزيين الحاليين ما كانوا ليعتنقوا الإسلام لمجرد أداء المهاجرين للصلاة والتزامهم بصوم شهر رمضان وغيره . إننى أشك كثيراً فى إمكانية انتشار الإسلام بين الملاويين ، لو أن حال المسلمين الأوائل الذين وفدوا إلى شبه جزيرة ملايا كان شبيهها بحال المسلمين اليوم من ضعف وهوان وفرقة وتعصب وتفرق . والحمد لله أن منّ الله على أهل ملايا بمن يهديهم إلى الصراط المستقيم منذ مئات السنين .

كان المسلمون الأوائل الذين وفدوا إلى بلادنا قبل نحو ٩٠٠ عام ، مماثلين تمامًا لمن نُسميهم بالشعوب المتقدمة المتحضرة فى وقتنا الحالى من ناحية إلمامهم بالعلوم الحديثة آنذاك ، وإتقانهم لعدد من المهارات ، وتطويعهم لأحدث وأفضل التقنيات ، ليس ذلك فحسب ، بل كان أولئك المهاجرون يمارسون التعاليم الإسلامية الصحيحة ، وكل ما يؤكد على أن الدين الإسلامى نظام حياة متكامل لا يقتصر على الشعائر الدينية فقط . لكل ذلك تحمس أسلافنا اللادينيون للإسلام واعتنقوه عن إيمان عميق ، فحطموا أصنامهم ومعابدهم الوطنية إلى غير رجعة . وينص دستورنا الحالى على أن المواطن الماليزى ليس ملاويًا ما لم يكن مسلمًا .

ويعود التقدم المهم الذى أحرزه الملاويون منذ اعتناق أجدادنا للإسلام قبل مئات السنين وإلى وقتنا الحالى ، إلى التزامهم بهذا الدين كمنهج شامل للحياة . ومع إقرارنا ببعض الاستثناءات ، فإن الحضارة الملاوية نفسها وما أنتجته من : فنون ، وآداب ، وعلوم ، ونُظم حكم ، وإدارة ، ومفاهيم متصلة بالعدالة ، وسيادة حكم القانون ، ما هى فى الواقع إلا انعكاس «لمحاولات» التمسك بالإسلام والالتزام بتعاليمه وأحكامه فى الحياة . أقول هنا «محاولات» ؛ نظراً لأن هناك صراعات وتناقضات فى تفسير التعاليم الإسلامية . فرغم أن كل الملاويين سنّيون ويتبعون المذهب الشافعى ، إلا أن تفسير الإسلام وتعاليمه عندهم يختلف فى حالات كثيرة نظراً لعدم وجود معيار قياسى أو نسق واحد للقياس ، الأمر الذى يتسبب فى إحداث كثير من التضارب والتناقض للماليزيين فى اختيارهم للطريق القويم فى

العقيدة الإسلامية . ومع ذلك فإن الشعب الماليزى ظلّ محافظًا على التزامه وتمسكه بالإسلام بوصفه منهجًا ينير له الطريق للحيلولة دون الانحراف عن العقيدة السليمة ، أو إقصاء دورها عن الحياة العامة أثناء السعى لتحقيق التقدم والرفاه المادى .

ونحن فى الواقع نؤمن بأن ما تحقق فى بلادنا من رفاه وتقدم مادى يتفق تمامًا مع التعاليم الإسلامية الصحيحة ويصب فى مجرى غاياتها ، خاصة ما يتصل منها بمبدأ الأخوة الإسلامية وحاجة المسلمين لامتلاك القوة وأسبابها للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم ضد مطامع الأعداء الذين يسعون إلى إيقاع الفتنة والتجزئة بينهم والإجهاز على دينهم . كما نرى أن الاستقرار السياسى وبسط نظام الحكم العادل والصالح فى البلاد ، وامتلاك ناصية العلوم والتكنولوجيا والثورة المادية وكل أسباب التطور الحديثة ، ما هى إلا جزء من عملية تقوية الأمة الإسلامية وتعزيز قدراتها بما يمكنها من الدفاع عن عقيدتها ويسمح للمرء المسلم باستيفاء واجبه الدينى فى العمل بالمعروف والنهى عن المنكر .

إننا ننظر لكل محاولة لإضعاف وضرب الأخوة الإسلامية وكل خصومة فاجرة وعنيفة فى صفوفنا ، وتقتيل بعض إخواننا باسم الإسلام لأغراض سياسية ومصالح شخصية ، على أنها لا تمتّ لديننا بصلة ، بل تقع على النقيض منه تمامًا . كما أننا نعتقد أن التزامنا جانب العدل والقسط فى تعاملنا مع غير المسلمين الذين لا يبادلوننا العداء ولا يُشكّلون خطرا علينا ، نابع من التعاليم الإسلامية الصحيحة ، وعلينا أن نتذكر دائما أنه بقدر ما أننا لا نطيق ولا نقبل اضطهاد وقمع الأقليات الإسلامية فى البلدان التى يهيمن عليها غير المسلمين ، ينبغى ألا نرتكب الخطأ نفسه بحق الأقليات غير الإسلامية التى تعيش بيننا .

إن مجرد استرشادنا بهذه المبادئ الإسلامية (أو المقبولة إسلاميًا على الأقل) فى ممارسة حياتنا اليومية ، سيجعلنا نفعل ما يرضاه المولى عز وجل فى هذه الدنيا ، ويجلب لنا الثواب فى الحياة الآخرة .

هذا لا يعنى أن كل المسلمين يتفقون مع مفهومنا لقضايا الدين الإسلامى وتعاليمه

ودوره فى الحياة ، بل على العكس إذ يختلف كثيرون مع طرحنا ويصفوننا بدعاة «العلمانية» . نحن لا نهتم كثيراً بمجادلة أولئك النفر من المسلمين ؛ لأننا نعلم مسبقًا أنهم لن يقتنعوا بحجتنا وأن موقفهم هذا لن يهز قناعتنا بأن سلوكنا وممارستنا يتفقان مع التعاليم الإسلامية ويصبان فى المجرى العام للقضايا الإسلامية . ويقينى أن ليس ثمة ما يحملنا على الاقتناع بأن الإسلام يطالبنا باستصدار أحكام ضد إخواننا من المسلمين الآخرين واستخدام العنف ضدهم بما يؤدى إلى إضعاف الأخوة الإسلامية ، ويتسبب فى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية ، ويضطر إخواننا فى العقيدة للاعتماد على غير المسلمين والاحتماء بهم بدلا من اللجوء إلى إخوانهم المسلمين .

هذا هو إيماننا وعقيدتنا فى ماليزيا ، ونحن لا نطالب أحدًا - أيًا كان - أن يُثمّن جهدنا أو أن يشيد به ، كما أننا لا نهتم كثيراً بمن يسعى لإدانتنا ، فالمولى عز وجل هو الذى يحكم فينا فى الدنيا والآخرة ، ولا أحد يعلم ما تسطّره له مشيئة الخالق .

الفصل السابع عشر

الإسلام لا يعوق التطور *

كما هو معلوم لدينا جميعًا ، فإن ماليزيا وإندونيسيا وبروناى دار السلام ، هى الدول الإسلامية الثلاث الوحيدة على نطاق منطقة جنوب شرق آسيا وإقليم محيط الباسيفيك ، بينما توجد أقليات إسلامية فى بقية بلدان المنطقة تخضع لحكم السواد الأعظم من غير المسلمين . وقد نجح المسلمون فى الغالبية العظمى من هذه البلدان فى تحقيق قدر عال من التكامل والاندماج فى مجتمعاتهم المحلية ، دون أن يفرّطوا أبدًا فى عقيدتهم وهويتهم الإسلامية . كما نجحوا فى إنشاء جمعيات خاصة بهم لا لتعميق الصلات وتعزيز التواصل بين بعضهم بعضا فحسب ، بل ولبناء المساجد والمدارس ومعاهد ومؤسسات الرعاية الاجتماعية ، بما يحقق مصلحة الأمة الإسلامية . وقد أبدت الحكومات فى بعض تلك الدول اهتمامًا كبيراً بمساعدة المسلمين من خلال تخصيص قطع الأراضى لكى يقيموا عليها مساجدهم ، ووفرت لهم كثيراً من التسهيلات الأخرى الخاصة بتعليم الأطفال الدين والعلوم الإسلامية . ولكن يبدو أن المشكلة الوحيدة التى تواجهها تلك الأقليات الإسلامية فى البلدان غير الإسلامية بالمنطقة تكمن فى المسلمين أنفسهم ، ذلك أن الخلافات الإثنية التى تُمزّق كياناتهم لم تترك لهم فرصة للتَّعلُّم كيف يتعايشون مع بعضهم بعضا ، وأقعدتهم عن إيجاد صيغة تكفل لهم مدّ جسور التعاون بين بعضهم البعض بما يتفق وينسجم مع التعاليم الإسلامية السمحاء . ليس ذلك فحسب ، بل إن معظم قضايا أولئك المسلمين تعتمد

---

* خطاب فى أعمال الجمعية العامة التاسعة لمؤسسة (Riseap) بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لتأسيس المؤسسة ، كوالالمبور - ماليزيا ٦ سبتمبر ١٩٩٦م .

على قدرات قياداتهم . وإذا ما وجدت تلك القيادات مجموعات من العناصر المخلصة والملتزمة بالمضى قدمًا فى سبيل الله - سبحانه وتعالى - والمتحررة من الاعتبارات الأخرى ، فمن المؤكد أنه ستكون هناك وحدة قوية وتعاون لصيق بين مختلف الأقليات الإسلامية ، مما يجعل من وحدة الأمة الإسلامية واقعًا ملموسًا فى الحياة .

أما فى البلدان التى كانت حكوماتها تفرض من قبل قيودًا على حرية الاعتقاد ، فقد لاحظنا بسعادة غامرة ، أن هناك مؤشرات واضحة فى السنوات الأخيرة على تغير فى تلك السياسة من جانبها ، ونأمل أن يتطور ذلك التغير إلى سياسة ليبرالية إزاء القضايا بحرية الأديان . دعونا نتفاءل ونضرع للمولى -عز وجل- بألا يطول انتظارنا ، وفى هذه الأثناء نتمنى أن يسعى مسلمو تلك الدول بجد ومثابرة لإعداد أنفسهم لإعادة تجديد عقيدتهم وإعادة بناء مؤسساتهم التى تدعم جهودهم ، بما يؤدى إلى التمكين للإسلام لكى يتبوأ مكانته الحقيقية فى المجتمع .

لقد تنامت قوة (Riseap) ومن اللافت للنظر أن عددًا مهمًا من الطلبات الجديدة المقدمة لنيل عضوية (Riseap) وردت من خارج منطقة جنوب شرق آسيا وإقليم الباسيفيك وتحديدًا من أوروبا وأمريكا وإفريقيا . وبينما تبدو هذه الطلبات جزءًا لا يتجزأ عن منظومة (Riseap) إلا أن دستور هذه المنظمة لا يسمح بقبول عضوية تلك المنظمات . ومع ذلك فإن بإمكان (Riseap) أن يرتبط بتلك المنظمات بعلاقات الصداقة والتعاون القائمة على روح الإخوة بين أعضاء الأمة الإسلامية دون منحها عضويته الرسمية . وباعتقادى أن من الخطأ الكبير أن يرفض (Riseap) إقامة أى نوع من العلاقات مع منظمات كهذه بحجة أنها من خارج المنطقة . نحن نعلم أن الإسلام يتجاوز الحواجز الإثنية والجغرافية ويقضى بأن المسلمين أخوة فى كل بقاع المعمورة . وانطلاقا من ذلك فإن المسلمين مطالبون بمدّ جسور التعاون بين بعضهم بعضا فى السراء والضراء . وهذا التعاون يعزز قوة وإمكانات المسلمين ويضعهم فى وضع

يمكّنهم من مجابهة الأزمات متى وأينما وقعت .

فى هذا السياق فإن (Riseap) لم يتردد أبدًا فى مدّ يد العون والمساعدة للاجئى البوسنة والهرسك الذين طلبوا اللجوء إلى ماليزيا ، رغم أنهم لا ينتمون إلى منطقة المحيط الهادى أو جنوب شرق آسيا . وقد يمكن (Riseap) بالتعاون مع المنظمات غير الحكومية الأخرى من تقديم المساعدة للبوسنيين ، ليس على مستوى المأوى والدعم اليومى فقط ، لكنه وفّر فرص التعليم لأبنائهم والوظائف للشباب الناضجين منهم بهدف تمكينهم من الاعتماد على أنفسهم بدلاً من الاتكال على المعونات والهبات .

وفى وقت لاحق ، وجد (Riseap) نفسه أمام تحدٍّ بتوفير فرص تدريس أساسيات الدين الإسلامى لحديثى الإسلام من إفريقيا والبلدان الأوروبية الأخرى . وقد وفد أولئك المسلمون الجدد إلى ماليزيا نظرًا لما سمعوه عنها من استقرار وأمن وتجانس بين مختلف الديانات . وعندما تعرض المسلمون فى الشيشان لأبشع المجازر على يد القوات الروسية الضارية ، اتخذ (Riseap) والمنظمات الإسلامية غير الحكومية فى ماليزيا موقفًا متشددًا من ذلك العدوان ، وطالبوا المجتمع الدولى بوقف المذابح وتقديم المساعدات الإنسانية لضحايا العدوان الروسى .

واليوم ، يحتفل (Riseap) والمنظمات والجمعيات المنضوية تحت لوائه ، بالذكرى الخامسة عشرة لتأسيسه ، فى وقت تم فيه تدشين مدخل وتوجه جديدين لحركة الدعوة الإسلامية . إنه توجّه أصبح يُعرف «بالدعوة بالحال» ويركز على العمل والأعمال الطيبة التى لن يتردد أىٌّ إنسان سوىّ عن القيام بها لمساعدة جيرانه المباشرين وإخوانه فى العقيدة وفى الوطن وزملائه ، فى أوقات المحن والكُرب ، هذا التوجه الدعوى الجديد لا يهدف لإقناع غير المسلمين على الاهتداء بالرسالة الخاتمة فحسب ، بل الأهم من ذلك هو إبراز التعاليم الإسلامية الصحيحة وكيفية ممارستها عملياً . هذا المنهج سيساعد فى

تصحيح الصورة المشوّهة التى تحملها الغالبية العظمى من غير المسلمين بالذات عن الإسلام . ونلاحظ أن المسلمين أنفسهم واقعون تحت تأثير مفهوم خاطئ وبعيد كل البعد عن الإسلام . ذلك أنهم يعتقدون أن ما يقدمونه من مساعدة ومظاهر وتعاطف وتراحم ، ينبغى أن يقتصر على المسلمين فقط دون الآخرين . وبالمقابل فإننا نجد بين المسلمين من يعتقد بأنه لا حرج فى تلقى المسلمين للمساعدات التى يجود بها الكفار . وثمة حالات كثيرة يقدم فيها الكفار مساعدات ضخمة للمسلمين ، فى حين يتجاهل المسلمون مساعدة إخوانهم فى العقيدة . هذا السلوك لا يساعد فى تكوين صورة جيدة عن الإسلام والمسلمين ، وينبغى علينا أن ندرك أن من أولى واجباتنا مساعدة وإغاثة إخواننا المسلمين فى كل مكان ، بل ينبغى علينا ألا نقف مكتوفى الأيدى إزاء المحن والكوارث التى تحل بغير المسلمين . صحيح أن (الدعوة بالحال) قد لا يكون القصد منها إقناع الناس باعتناق الإسلام ، إلا أنها ينبغى على الأقل ، أن تساعد فى توسيع دائرة الفهم والاحترام للإسلام وتوضيح ماذا يعنى أن يكون المرء مسلمًا .

إننا لا يمكن أن نلقى باللائمة كاملة على الكفار لكونهم يسيئون فهم الإسلام وما يضمرونه من عداء سافر له فى بعض الأحيان . فالحقيقة تقتضى أن نعترف بأن القصور غالبًا ما يكون من طرفنا نحن المسلمين ، لقد كانت الحضارة الإسلامية فى يوم من الأيام محل احترام وتقدير كل الشعوب ، وكان المسلمون يحتلون مركز الريادة فى كافة مجالات العلوم : من طب ورياضيات وملاحة وفلك وهندسة ومعمار وتشييد . كما كانت الأمصار الإسلامية موحدة تحت لواء خلافة واحدة ، لها من القوة ما يهابه الأعداء . ورغم ما حققوه من نجاحات وفتوحات وثروات وقوة ، إلا أنهم لم يهملوا أمور دينهم . وبمعنى آخر ، فإن المسلمين كانوا آنذاك يأتمرون بما أمر به القرآن من ضرورة العمل للآخرة والحياة الدنيا على قدم المساواة .

بيد أن الأمر اختلف تمامًا بمجئ فئة من المسلمين تطالب بالانقطاع تمامًا للحياة

الأخرى ، وقد ذهب الغلاة إلى حدّ أدانوا فيه كل ما يتصل بالحياة الدنيا التى خلقها أيضًا المولى سبحانه وتعالى ، زاعمين أنها جنة الكفار على الأرض ؛ نظرًا لأنهم سيردون الهلاك فى الحياة الأخرى . بانتشار هذه النزعة المنحرفة بدأ اهتمام المسلمين بالعلوم الدنيوية يضعف شيئا فشيئا ، وبمرور الوقت فقد المسلمون مهاراتهم ومعارفهم ليفقدوا فى وقت لاحق قوتهم التى مكنتهم من بسط نفوذهم على بقاع واسعة من المعمورة ، ولجمت عنهم جموح الأعداء . هكذا تدهورت الأمة الإسلامية لدرجة أصبحنا لا نرى اليوم معها إلا مظاهر الضعف أينما التفتنا وكل ما يجسد الاتكالية والاعتماد على الأعداء . لقد اندثر العصر الذهبى للأمة الإسلامية واختفى معه التقدير والاحترام للإسلام والمسلمين الذين ضل بعضهم عن السبيل وفقدوا الثقة فى دينهم الحنيف .

وإذا ما أراد المسلمون أن يعيدوا للدين الإسلامى وللأمة مجدها ، لابد لهم من أن يسعوا سعيًا جادًا لاستعادة قوة الأمة الإسلامية وريادتها فى جميع المجالات من معارف حديثة ومهارات إدارية خاصة على صعيد إدارة علاقات البلدان الإسلامية بين بعضها البعض ومع الآخرين ، إضافة إلى تعزيز مكانتهم الدولية فى مجالى الصناعة والتجارة . وبكلمات أخرى ، فإن استعادة أمجاد الأمة الإسلامية تتطلب أن يعمل المسلمون بنجاح كبير فى الدنيا بمثل ما يعملون لآخرتهم ، شريطة أن يكون ذلك متفقًا تمامًا مع التعاليم الإسلامية . ولا شك فى أن غير المسلمين لن يقتنعوا بما ترويه لهم عما ينتظرنا من نعيم فى الحياة الأخرى ، مادمنا على حالنا الحالية من ضعف وتشرذم وخضوع للقوى المهيمنة وعداء بين بعضنا البعض لأتفه الأسباب وفى حروب غير مجدية تقضى على الأخضر واليابس ، إضافة إلى ما نعكسه لهم من تناقض بين ما نُبشّر به وما نأتى به من ممارسة عملية .

إن أفضل مدخل للدعوة الإسلامية هو أن نعكس بالدليل العملى لغير المسلمين

روح الإسلام الحقيقى وجوهره ، بما تعنيانه من حُسن معشر وسماحة ورأفة وعفو وتراحم يتعدى حدود العلاقة بين المسلم وأخيه المسلم ليشمل الكفار الذين يعيشون فى حال من الفقر والعوز ، كما ينبغى أن نبين لهم بالدليل العملى ما نعيشه فى بلداننا الإسلامية من سلم واستقرار وتآلف ورفاه فى ظل إدارة مخلصة وعلى قدر عال من الكفاءة . صحيح أننا يمكن أن نتجادل مع غيرنا من المؤمنين بما ينتظر المسلمين من ثواب ونعيم فى الحياة الأخرى ، لكن ينبغى ألا نتوقع من الذين لا يؤمنون أصلاً بالآخرة ، أن يقتنعوا بالثواب والعقاب ويسارعوا باعتناق الإسلام .

هذا بالضبط ما تعنيه استراتيجية (الدعوة بالحال) التى ذكرناها آنفًا . بمعنى أنها لا تقتصر على إسداء الأعمال الخيرية للآخرين من قبيل مساعدة الفقراء وتشييد المدارس والمستشفيات فقط ، بل تشتمل على إقناع غير المسلمين بالممارسة العملية بأن الإسلام لا يشكل عقبة تحول دون التقدم والتطور والنمو وأنه لا يعوق اكتساب المهارات الإدارية العالية وتطبيقها فى حيز الواقع ، ولا يحرّم مراكمة الثروة عن طريق القدرات التجارية والصناعية ، ولا يمنع إعداد القوة الكفيلة بردع المعتدى الذى يحاول التقول على الضعفاء . إن نجاح المسلمين والأمة الإسلامية فى مختلف مناحى الحياة كفيل بإقناع غير المسلمين بالوجه الحقيقى للدين الإسلامى أكثر من المواعظ والخطب خاصة عندما يكون هناك تناقض بين الأقوال والأفعال .

هذا الحديث عن (الدعوة بالحال) يجئ فى وقته المناسب ، وإذا كان المسلمون يؤمنون أن بإمكانهم أن يلحقوا بركب البشرية فعليهم أن يشرعوا مباشرة فى السعى لتحقيق ذلك ، وعندها سينفتح الباب أمامهم لاستعادة أمجاد الإسلام الضائعة . هذه هى (الدعوة بالحال) التى تقوم على الممارسة وليس على التنظير الأجوف . وإذا كان المسلمون مخلصين فى سعيهم لتوضيح روح وجوهر وفلسفة الإسلام ، فإن (الدعوة بالحال) هى أسهل الطرق للوصول لذلك الهدف ؛ لأنها تقوم على الفعل والإنجازات

الملموسة .

وأنا على يقين من أن كل المسلمين يمكن أن يكونوا أفضل دعاة للإسلام ، ليس بالمواعظ والحض على فعل الخير وترك الشر فحسب ، بل الالتزام الشخصي بفعل الخير والابتعاد عن الشر ، وعلى صعيد ممارستنا العملية اليومية ، وهذا هو الأوقع والأهمّ .

الفصل الثامن عشر

العدالة الإسلامية *

العدالة الإسلامية واحدة من أكثر القضايا التى تنطوى على أهمية بالغة لنا كمسلمين ولا يمكننا أن نتحدث عن تنمية واستقرار مجتمع ما دونها ، كما أنه لا يمكننا أن نتصور أن بلاداً ما يمكن أن تبلغ مرحلة الرفاه الاقتصادى أو حتى مجرد أن تحافظ على وحدتها ووجودها على وجه المعمورة ، دون أن يتوفر لها نظام يكفل العدالة بين جميع الأطراف فيها . ومما لا شك فيه أن هناك علاقة طردية بين العدالة والتنمية ، فكلما تطورت مفاهيم إدارة العدالة أسهم ذلك فى تعزيز إمكانية إحداث التنمية . لذلك فإن مصلحة البلدان الإسلامية والمسلمين عامة تقتضى إيلاء قضية العدالة وأجهزتها اهتماماً بالغًا .

عندما جاء الإسلام بمفاهيم العدالة للمجتمع الجاهلى واستحدث آليات تطبيقها ، توحد العرب لأول مرة فى أمة واحدة وبلغوا مرحلة الرفاه . وبالمقابل فإن الحضارة الإسلامية التى أنتجوها لم تتراجع إلا بعد أن تم تشويه القوانين الإسلامية وانحراف الناس عن العدالة الإسلامية .

بداية ، دعونى أقتبس عدداً من الآيات القرآنية التى سوف نسترشد بها فى هذه المداخلة ، و أُنبه إلى إنها من سور ومواقع مختلفة فى القرآن الكريم ، لكنها تعبر عن العدالة الإسلامية وجوهرها باستمرار . وقد وقع اختيارى عليها لأنها متطابقة وتعكس المُثل التى تنفذ إلى مفهوم العدالة فى الإسلام ، وتطبيقه فى الواقع العملى . ولمقتضيات ضرورية ، سأقدم

* كلمة رئيسية فى أعمال السمنار الدولى لإدارة القوانين الإسلامية ، الذى نظمه المعهد الماليزى للفهم الإسلامى بالعاصمة كوالالمبور . فى ٢٣ يوليو ١٩٩٦ .

الترجمة الإنجليزية التى أعدها يوسف على مع التذكير بأن النسخة العربية والترجمات الملاوية متوفرة لكل من يرغب بالتحقق . ونبدأ بالآية (١٢) من سورة المُلك ، إذ يقول المولى عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ صدق الله العظيم . والآية (٥٨) من سورة النساء ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ صدق الله العظيم . والآية (٩٢) من سورة النساء ، إذ يقول المولى عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ صدق الله العظيم . ويقول الله سبحانه وتعالى فى الآية (٤٢) من سورة المائدة : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝﴾ صدق الله العظيم . كما جاء فى محكم تنزيله فى الآية (٣٣) من سورة الإسراء : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۝﴾ صدق الله العظيم . ويقول المولى عز وجل فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝﴾ صدق الله العظيم . وأود أن أضيف هنا آية بعينها تُبين لنا جوانب مهمَّة فى تفسير الآيات القرآنية وهى الآية (٧) من سورة آل عمران : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾ صدق الله العظيم . هذه الآية توضح لنا بجلاء أنه لا حظر على الأمة الإسلامية من تطبيق الآيات المتشابهات الواردة فى القرآن على مختلف المواقف والأحداث والتطورات ، شريطة أن يعتمد

الفقهاء على إعمال نعمة التفكير والتدبر والتبصر التى وهبها المولى عز وجل للإنسان وحده وليس لغيره من سائر المخلوقات . وعندما يتصل الموقف بأمر من أمور العدالة وما يُشكّل مضمونها وجوهرها ، فإنه يتطلب تفكيراً عميقًا .

وأنا أعتقد أننا كلنا متفقون بأن مصدر العقيدة الإسلامية ، وبالتالى القوانين والتشريعات الإسلامية ، هو القرآن والسنّة . هذا التأكيد مهم جدًا ؛ لأن هناك من يقولون بأن بعض الآيات القرآنية وبصفة خاصة الآيات المكية ، قد تم نسخها بواسطة الحديث . لكننا نؤمن إيمانًا قاطعًا بأن القرآن الكريم لم يتغير ، وعندما حقق الإمام البخارى ستمائة ألف حديث وفحصها ، رفض قبول الغالبية الساحقة منها ولم يثبت إلا صحة نحو سبعة آلاف حديث ، كما أن الإمام مسلم والإمام الترمذى وغيرهما قد رفضا صحة الغالبية الساحقة أيضًا من الأحاديث التى تحققوا من صحتها . ويلاحظ أنهما رفضا صحة بعض الأحاديث التى أثبت الإمام البخارى (أستاذ الإمام مسلم) صحتها . وبمعنى آخر فإن عدد الأحاديث التى أثبت صحتها كل واحد من هذين الفقيهين ، كان يقل عن العدد الذى انتهى الإمام البخارى إلى تأكيد صحته . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أنه حتى أولئك الأئمة قد اختلفوا فى تحقيق صحة عدد كبير من الأحاديث منذ ذلك الوقت الباكر . كما يمكننا أن نستنتج أيضًا أن هناك عدداً كبيراً من الأحاديث غير الصحيحة وهذا الاستنتاج سليم جدًا ، وإلا فلم رفض أولئك العلماء المتفقهون فى شئون الدين ، عدداً كبيرا من الأحاديث؟

ونحن نميل إلى قبول نتيجة التحقيق التى انتهى إليها هؤلاء الفقهاء ، إلا أنه لابد من التذكير دائمًا مهما بلغ الإمام البخارى والإمام مسلم والإمام الترمذى من تبحُّر فى شئون الدين ، فإنهم ليسوا أنبياء . إنهم بشر عاديون وفيهم نقاط ضعف مثل سائر البشر . وبعبارة أخرى قد يكون فى ما ذهبوا إليه قدرٌ كبيرٌ من الصحة ، لكن المؤكد أن نتائج بحثهم وتدقيقهم ليست معصومة من الخطأ . وربما يكونون قد أثبتوا صحة بعض الأحادديث الموضوعة ورفضوا عددا من الأحاديث الصحيحة . . . كل ذلك وارد وغير

مُستبعد .

وهناك مقولة تنص على أن العلماء هم ورثة الأنبياء . . وإذا افترضنا صحة هذه المقولة فهل لنا أن نقبل بصحة ادّعاء أى عالم بأنه أحد الورثة المُشار إليهم ، علمًا بأن البشر ليسوا معصومين من الخطأ ! وهل لنا أن نوافق على صحة مزاعم الفقهاء السياسيين الذين يتبنون أچندة دنيوية واضحة وضوح الشمس فى كبد السماء؟

يحدثنا التاريخ فى هذا المقام عن عدد كبير من العلماء أو الفقهاء السياسيين الذين لم يتورعوا عن تبرير كل ما يأتى به سادتهم من الحكام بصرف النظر عن مدى صوابه أو خطأه . وهناك صعوبة حقيقية فى الموافقة على الرأى القائل بأن الأحاديث من القوة التى يُعتدّ بها عندما تتناقض مع الآيات القرآنية أو أن نأخذ بالأحاديث أكثر مما ورد فى القرآن . لكن ماذا عن القوانين الإسلامية؟ لقد تناول القرآن الكريم بعض الجرائم والقوانين والعقوبات على نحو محدد جدًا ، غير أن القوانين الإسلامية فى حالات كثيرة ، ما هى إلا نتاج تفسير الفقهاء للقرآن والسنة ، خاصة ما يتصل بالعقوبات الواجب توقيعها فى حالات من الجرائم والخطايا المحددة وغير المحددة .

وإذا كان الأئمة ؛ البخارى ومسلم والترمذى ما هم إلا بشر مثلنا غير معصومين من الخطأ ، فإن فرص وقوع الفقهاء المسلمين الآخرين فى الخطأ تكون أكبر بالطبع ، مع ملاحظة أن معظم أولئك الفقهاء قاموا بتفسير القرآن والسنة فى ظل الظروف والواقع الذى كانوا يعيشون فيه ، والذى كان يختلف كثيراً عن فترة العصر الذهبى للأمة الإسلامية ، ومروراً بأيام اضمحلال الحضارة الإسلامية . كما إنهم عملوا فى ظل حكومات مختلفة وأزمان مختلفة وبلدان وأنظمة متباينة فى كثير من الجوانب . إضافة إلى ذلك فإن بعضهم ربما يكون قد أصدر بعض التفسيرات والأحكام بضغط من الحكام لتبرير بعض الأعمال المقيتة التى كان يرتكبها أعضاء الأسر الحاكمة . وإلا فكيف

نفسر فتوى علماء أجازت للسلطان العثمانى الاقتران بنحو ثلاثمائة امرأة كمحظيات وسريات فى البلاط الملكى ، وتلك التى أجازت قتل أشقاء السلطان بمجرد اعتلاء الأخير للعرش ، أو وضعهم وراء القضبان لكى لا يُشكّلوا أى تحدٍّ للحاكم الذى تم تتويجه !

وعليه ، إذا كنا لا نستطيع أن نقبل كل الأحاديث النبوية دون التحقق من صحتها ، فمن باب أولى ألا نقبل بصحة كل القوانين التى صدرت بموجب تفسيرات وفتاو أصدرها ذلك العدد الكبير من الفقهاء ، على أنها أمر مُسلَّم به كما هو الحال بالنسبة للمولى عز وجل (القرآن) . هذه التفسيرات والأحكام ما هى إلا نتاج عمل يقوم به آدميون بما ينطوون عليه من ضعف بفعل الثقافات والممارسات وأنماط السلوك السائدة فى مجتمعاتهم والأزمان التى عاشوا فيها .

ويعلمنا الدين الإسلامى أن نرجع إلى القرآن كلما اختلطت علينا أمور دينية ، ولا شك فى أن أى امرئ مسلم حقًا لا يمكن أن يفعل بخلاف ذلك . وإذا لم نرد أمورنا الدينية للقرآن ، فسوف نكون عرضة للخطأ ومجانبة الصواب بسبب ذلك العدد الهائل من التفسيرات والفتاوى التى أصدرها عدد كبير من الفقهاء ، الذين لا نشك فى أن بعضهم كان فقيهًا متبحّرًا فى قضايا الدين ، إلا أن البعض الآخر لم يكن أكثر من مجموعة من الدجالين والمشعوذين . إننا نرى فى وقتنا الراهن ممارسات عدد من السياسيين بشأن إصدار بعض التفسيرات والأحكام التى تُلصق تهمة الكفر ببعض المسلمين لا لسبب إلا لأنهم لا يؤيدون أحزاب أولئك السياسيين أو لمجرد عدم قبولهم للتفسيرات والفتاوى الإسلامية المسيّسة التى يطلقها الحكام .

وبالعودة إلى عهد النبى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، نجد أن هناك دينًا إسلاميًا واحدًا لا غير ، ولم يكن هناك وجود لما أصبح يُعرف «بأهل السنّة والجماعة» أو

«الشّيعة» . كذلك لم تكن هناك طوائف أو مذاهب تتبع الأئمة الأربعة : الشافعى والحنفى والحنبلى والمالكى ، بمثلما هو الحال بين المسلمين من سنّة وشيعة فى وقتنا الحالى . كانت هناك أمة إسلامية واحدة تؤمن بعقيدة إسلامية واحدة . وقد وحّد الإسلام القبائل العربية فى أمة إسلامية واحدة تمكنت من نشر الإسلام فى ربوع شبه الجزيرة العربية بما فيها مكة ، التى اضطُر الرسول الكريم للهجرة منها فى بداية عهد الرسالة ليعود إليها فاتحًا مّظفراً .

وقد ظل المسلمون موحَّدين فى أمة واحدة على مدى عهد الخليفة الأول سيدنا أبى بكر ومن بعده عهد سيدنا عمر بن الخطاب ، ومروراً بعهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وبمجئ سيدنا على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، اختلف الناس حول أحقيته فى الخلافة ، فانقسم المسلمون إلى طائفتين أصبح لكل واحدة منهما تفسيرها المختلف للمعتقدات والعبادات ، وهو أمر استمر إلى يومنا هذا . فإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الدين الإسلامى كان واحداً طوال عهد النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى مدى عهود ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، فيمكننا الاستنتاج بأن كلا الطائفتين لا يمكن أن تكونا ملتزمتين بالطريق الإسلامى القويم . بمعنى أنه يمكن أن تكون واحدة من هاتين الطائفتين ملتزمة بالتعاليم الإسلامية الصحيحة ، بينما انتهت الأخرى وربما الاثنتان إلى طريق غير قويم . لكن أغلب الظن أن الطائفتين على حق فى معظم الأحيان ، إلا أنهما جانبا جادة الصواب فى بعض جوانب المعتقدات والعبادات .

هذه الملابسات تشكل فى مجملها سببًا كافيًا يقضى بضرورة العودة إلى القرآن للاسترشاد به والسير على هديه فى كل ما يستجد على المسلمين من أمور . ومما لا شك فيه أن على المسلمين أن يعودوا إلى آيات الله البينات فى كل التشريعات الإسلامية وتطبيقاتها ليتحققوا على الأقل ما إذا كانت كل تلك القوانين التى شرعها وطبقها الفقهاء المسلمون ، مطابقة تمامًا للتعاليم الإسلامية الحقة والأحاديث النبوية الصحيحة .

إننى على يقين تام من أن عدداً من الحاضرين بهذه القاعة الآن وفى أماكن أخرى سيرموننى بالهرطقة ، لكن هل من الهرطقة فى شىء أن نضع علامات استفهام على تفسيرات وفتاوى الفقهاء المسلمين؟ هل أولئك الفقهاء أنبياء معصومون من الخطأ؟ وهل هم على حق أكثر من القرآن والأحاديث الصحيحة؟ علينا ألا نستعجل الحكم بإدانة كل من يتساءل عن مدى حجة تفسيرات الفقهاء للأمور الدينية ، ونلصق تهمة الزندقة والهرطقة بكل من يشكك فى تلك التفسيرات والأحكام .

وبإلقاء نظرة عجلى على بعض القوانين الإسلامية فى شكلها الذى نراه فى وقتنا الحالى ، يتضح لنا أنها لا تعبر تماماً عن روح الإسلام وجوهره ، وإذا ما عدنا قليلا إلى الآيات القرآنية التى اقتبستها فى بداية حديثى ، واستعرضنا آيات عديدة فى عدد كبير من السور ، نلاحظ أن أهم سمة فى العدالة الإسلامية هى العدل والمساواة والعفو ، وبعبارة بسيطة جداً فإن العدالة الإسلامية تقضى بأن يكون العقاب من جنس الجريمة ، وأن يكون عادلا بين جميع الأفراد بمختلف مواقعهم ومناصبهم ، مع ضرورة مراعاة الاختلاف فى العقوبة بحسب الظروف التى تحيط بوقوع الجريمة . ومع ذلك فإن القرآن يدعو ويحث على العفو والرأفة ويحض عليهما ويقول بعدم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

هذه الجوانب فى العدالة الإسلامية وردت فى الآية (٥٨) من سورة النساء ، حيث يقول المولى عز وجل فى محكم تنزيله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ صدق الله العظيم . وفى الآية (٤٢) من سورة المائدة ؛ إذ يقول المولى عز وجل : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ صدق الله العظيم .

ومن الواضح أن القسط هو العدل والمساواة ، وعندما نتحدث عن الناس أو رجل

ورجل ، فإننا نعنى الآدميين بصفة عامة دون استثناء ضرورة التزام العدل والقسط بينهم .

وعندما نحكم بين رجل وامرأة ، أو بين امرأة وأخرى من بنات جنسها ، علينا أن نتذكر دائمًا أن الناس سواسية وأنهم كلهم أعضاء فى المجتمع البشرى . يقول المولى عز وجل فى محكم تنزيله فى الآية (١٣٥) من سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ صدق الله العظيم .

فى هذه الآية يأمرنا الإسلام بعدم التمييز بين العباد عندما نفصل فى قضاياهم . ومرة ثانية يأمرنا عز وجل فى الآية (٨) من سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ صدق الله العظيم .

الأمر الإلهى فى هذه الآية يقضى بأن نطبق العدل حتى فى الحالات التى يكون أحد أطرافها من أعدائنا . ولا شك أن ديننا الإسلامى ينهى عن التمييز فى الأحكام بسبب الجنس ، بين امرأة أو رجل وهكذا . وقد ظلت القاعدة القرآنية «العين بالعين» شعارًا يجسد العدالة الإسلامية ، وهى تدل على المساواة فى العقاب . لكن هل يجوز لنا أن نأخذها حرفيًا أم مجازًا؟ المساواة ضرورية ، لكن هل تعنى بالضبط المطابقة تمامًا بين الجريمة وبين ما يتم توقيعه من عقاب على الجانى؟

دعونا نعود للآية (٩٢) من سورة النساء : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾ صدق الله العظيم .

هذه الآية الكريمة تكشف عن جوانب عديدة من المفهوم الإسلامى للعدالة . نعم إن قاعدة العين بالعين تعنى الجزاء من جنس الجرم نفسه ، غير أن قتل النفس المؤمنة قد لا يتطلب عقوبة بقتل المجرم فى ظروف بعينها مثل : القتل خطأً ، أو فى الحرب ، أو عندما يحدث القتل بين جماعتين بينهما (ميثاق) . تلك الحالات من قتل النفس يكفى فيها تحرير رقبة مؤمنة ، أو تعويض أسرة القتيل . وإذا تعذر ذلك ينبغى على القاتل صيام شهرين متتابعين .

هذا يعنى أن الظروف التى تحدث فيها جريمة القتل لابد أن تُؤخذ فى الاعتبار عند تحديد جنس العقوبة ، بمعنى أن وقوع جريمة القتل خطأً سواء حدثت بين أعداء أو حلفاء ، كلها تؤثر فى نوعية العقوبة بحق الجانى . وقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك ؛ إذ قضت الآية القرآنية أعلاه بأن رقبة عدو مؤمن لا تقل قدسية وتحريمًا عن رقبة أى مؤمن آخر ، وبالتالى فإن عقوبتها لا تختلف ، وهى تحرير رقبة مسلمة . إن النفس مقدسة عند المولى عز وجل كما تنص على ذلك الآية (٣٣) من سورة الإسراء ؛ إذ جاء فى محكم تنزيله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً (٣٣) ﴾ صدق الله العظيم . هذه الآية تنص بوضوح على أن قتل المسلم لأخيه المسلم مُحرم وقد نهى عنه الإسلام نهيًا قاطعًا ، غير أننا نجد المسلمين اليوم يحاربون بعضهم بعضًا ويغتالون أعداءهم من المسلمين أكثر مما يقع بينهم وبين الكفار . لكننا لا نرى الآن مسلمًا قاتلاً يقوم بدفع الدية لأهل القتيل أو يصوم شهرين متتابعين على سبيل التوبة لله سبحانه وتعالى بعد أن تخلصت البشرية من مؤسسة الرقّ التى كانت توفر مصدراً للتكفير عن جريمة قتل النفس .

ومع ذلك فإن الإسلام يحث على الصفح والعفو ؛ إذ لم يرد نص أو أمر قرآنى بتحريمه . وفى الواقع نجد أن العفو أو الصفح عن الجناة وارد وبالتركيز فى كثير من الآيات القرآنية . ونجد فى الآية (١٢) من سورة المُلك أن توقيع العقوبة قد لا يكون مطلوبًا إذا اختارت أسرة الضحية الصفح عن الجانى . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم

مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ صدق الله العظيم .

إن عنصرى العفو والرأفة يجدان اهتمامًا كبيراً وقويًا فى الإسلام ، ومع ذلك نجد أن صياغة وتطبيق القوانين الإسلامية يميلان نحو التشدد بأقصى درجة دون أن تأخذ فى الاعتبار الملابسات والظروف التى تحدث فيها الجريمة ، بحيث تكون الغلبة دائمًا لقاعدة «العين بالعين» . لذلك عندما ترتكب المرأة جريمة قتل دفاعًا عن شرفها ، فإن العقوبة التى توقع عليها هى الإعدام دون اعتبار لكونها شخصًا مؤمنًا ، ودون النظر لإمكانية موافقة أسرة القتيل على العفو والصفح . ويلاحظ المرء أن الطريقة التى تنفذ بها القوانين الإسلامية فى الوقت الحالى ، لاتعكس جانبى العفو والرأفة . ونجد أن كثيراً من الفقهاء لا يميلون للرأفة والعفو والرحمة حتى فى الحالات التى يصفح فيها المولى عز وجل عن عباده .

ولا شك أن القوانين الإسلامية لم يتم تطبيقها على النحو الصحيح والسليم . بمعنى أن تطبيق القوانين الإسلامية فى بلدان إسلامية عديدة يتم على نحو عرضى لا يخلو من الارتجال وعدم الدقة . ومعروف أن آيات القرآن الكريم والسنّة النبوية لم تعالج كافة أنواع الجرائم والخطايا . وفى الحقيقة نجد أن طبيعة الجرائم التى كانت تحدث فى عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، تختلف اختلافًا كبيراً عن الجرائم التى أصابت المجتمعات الإسلامية على مدى العصور اللاحقة . وتشير فى هذا المقام إلى أن طبيعة الجرائم التى تقع فى وقتنا الراهن ، لم يرد ذكرها أبدًا فى القرآن ولا فى الأحاديث النبوية الصحيحة ، مثل : الجرائم التجارية وتلك المرتبطة بالمخدرات وترويجها واستهلاكها ، وابتزاز وسائل الإعلام الإلكترونية لنشر الصور والأفلام الإباحية وغيرها من أنواع الجريمة المتطورة التى أصبحت تشكل وباءاً حقيقيًا على المجتمعات الحديثة .

وعليه ، فإن الأمر يتطلب صياغة قوانين جديدة للتعامل مع طبيعة الجرائم الجديدة ، شريطة أن تتطابق مع روح القيم التى تنفذ إلى لبّ العدالة الإسلامية

وجوهرها كما نجد فى عدد كبير من الآيات القرآنية .

إن كيفية تشريع القوانين وصياغتها وإنفاذها فى حيز الواقع ليست مهمة بقدر مطابقتها لروح الإسلام والأوامر التى ورد ذكرها بوضوح تام فى العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتى تعكس التعاليم الإسلامية الصحيحة . لذلك فإن القانون لا يمكن اعتباره إسلاميًا لمجرد أننا صغناه على أنه قانون شرعى ، بل على العكس من ذلك يمكننا أن نضيف قوانين أخرى تبدو فى ظاهرها غير شرعية ، لكننا نصنفها على أنها شرعية متى كانت لا تخالف أو تناقض روح ومبادئ القوانين والحدود التى ورد ذكرها صراحة فى القرآن الكريم .

إننا ندرك كلنا أن القرآن الكريم كما هو الحال للكتب السماوية الأخرى ، يعظ الناس من خلال ضرب الأمثال والحكم والعبر والقصص والنوادر ، بينما يترك للمسلمين القيام بتوفيق هيكلية مجتمعاتهم وقوانينهم ونظمهم الاجتماعية وغيرها ، بما يعكس روح ومغزى تلك القصص والأمثال والحكم .

نعم ، إن الأحوال والظروف متغيرة وغير ثابتة ، غير أن تلك الأمثال والحكم والعظات يمكن سحبها على كل زمان ومكان . وكما هو معلوم من خلال الإشارات الواردة عبر الحقب التاريخية كافة ، فإن فقهاء الدين الإسلامى ظلوا على الدوام يفسرون القرآن والسنّة وكانوا دائمًا يقترحون السبل التى تتم بها بلورة وصياغة القوانين الإسلامية وكيفية تطبيقها . وبطبيعة الحال فإن أولئك الفقهاء كانوا يتأثرون بمراحل وظروف تطور المجتمع الإسلامى نفسه . فقد كانت هناك فترات بلغ فيها المسلمون أوج مجدهم عندما حكموا مساحات شاسعة بالقارات الثلاث ، وشكلوا غالبية السكان عن طريق الفتوحات ، فى حين كفلت لهم براعتهم وريادتهم فى مجال العلوم والمعرفة والمهارات العالية ، الهيمنة على المجتمعات التى كانوا لا يمثلون فيها إلا أقلية محدودة .

ولا شك أن واقعًا كهذا كان يسمح للمسلمين بفرض كل ما ينظرون إليه على أنه متفق ومتطابق مع مبادئ وروح الإسلام من قوانين ، فى حين لم يكن لغير المسلمين غير القبول بما يفرض عليهم من قوانين وأحكام . فعلى سبيل المثال كان غير المسلمين لا يمانعون فى إخراج الجزية ، وهى ضريبة إسلامية تُجنى على الرأس متى وأينما فرضت عليهم ، طالما كان المسلمون من جانبهم يدفعون الزكاة . وبنفس القدر كان غير المسلمين غير مطالبين بالالتحاق بالخدمة العسكرية فى الدولة الإسلامية . وفى المقابل تم تجنيد أبناء غير المسلمين فى مراحل مبكرة من أعمارهم وفى فترات زمنية عديدة للعمل فى الخدمة العسكرية الإسلامية وقد انخرطوا فى هذا المجال دون تردد .

بيد أن ذلك العصر الذهبى قد انتهى ولم يعد بمقدور البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية السكان ، أو حتى البلدان الإسلامية مئة فى المئة ، تجاهل الرأى العام العالمى والضغوط التى تأتى من الخارج ، ولابد من أخذ كل هذه المعطيات فى الاعتبار لتبنّى أى موقف سواء على المستوى المحلى أو الخارجى .

ثمة ممارسات عديدة أصبحت تجلب على الحكومات ضغوطًا وإدانات قوية ، لكنها كانت فى الماضى سائدة ومقبولةأدبيًا وأخلاقيًا . ذلك أن استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان على سبيل المثال ، كان ممارسة شائعة فى كل المجتمعات ، غير أنه تمَّ حظره تمامًا ولم يعد بإمكان أى إنسان امتلاك رقيق حتى فى البلدان الإسلامية . هذا الواقع طرح تساؤلات عن الكيفية التى تتيح للمرء المسلم التكفير عن ذنبه فى حال قتل مسلم آخر فى ظل عدم وجود رقيق لتحرير رقبة مسلم من بينهم . لكننا لابد من أن نتذكر دائمًا أن المولى سبحانه وتعالى يضع للمؤمن بدائل عديدة ؛ إذ ترك له فى هذه الحالة خيار صيام شهرين متتابعين للتكفير عن قتل رقبة مسلمة .

على الجانب الآخر هناك بلدان لم يعد المسلمون يشكلون فيها أغلبية تُمكنهم من

الهيمنة على الحكم أو أقطار أخرى هاجروا إليها وأصبحوا يشكلون فيها أقليات . وبطبيعة الحال فإن هذه الأقليات الإسلامية لن تستطيع فرض القوانين الإسلامية على مجتمعاتها الجديدة بذات الطريقة التى كانت تحدث أيام عظمة الدولة الإسلامية وتفوق المسلمين . وبدلا من ذلك فإن الأقليات المسلمة تكون مضطرة فى هذه الحالة إلى الخضوع للقوانين المطبقة فى البلاد المعنية والتى لن تكون مستمدة من أصول إسلامية ، إن لم تناقض التعاليم الإسلامية جملة وتفصيلا .

لكن إذا ما كان أساس القوانين التى يحتكم إليها المسلمون وجهاز إدارتها مستنداً إلى القرآن الكريم ، فإن المسلمين لن يجدوا صعوبة تُذكر فى تلك المجتمعات ؛ نظراً لأن القرآن الكريم يوفر للإنسان بدائل عديدة ، ويترك له الخيار فى الأخذ بما يشاء . ولذلك إذا لم يجد المسلم رقبة مسلمة ليعتقها ، فبإمكانه أن يصوم شهرين متتابعين أو يكتفى بدفع الدية بأكثر من شكل وأسلوب . وبصفة عامة نلاحظ أن القانون يوقع العقوبات على الناس بوسائل عديدة مثل : الغرامة المحددة أو الحبس لفترة بعينها ، ولابد من أن نؤكد فى هذا المقام أن القرآن والسنّة لم يتركا أمراً ما من الشئون الدنيوية أو الدينية دون أن يطرحا له بدائل عديدة وواضحة . وعندما يكون المسلم مقيماً ضمن أقلية فى بلاد أجنبية ، فإنه لن يستطيع فرض القوانين والحدود الواردة فى كتاب الله جل شأنه أو حتى تلك القوانين التى صاغها الفقهاء المسلمون فى أى بلاد أو فى الماضى . لكن على كلٍّ ، فإن القرآن مرن لأبعد الحدود ؛ إذ يجوز للمسلم أخذ كافة الظروف والملابسات الأخرى من حوله بعين الاعتبار . وفى ضوء ذلك فإن بإمكان المسلم الذى لا يستطيع أداء الصلاة مثلاً بشكلها الذى نؤديها فى بلداننا الإسلامية لأسباب موضوعية ، أداء صلواته بأكثر من طريقة . وإذا لم يستطع صيام شهر رمضان لأعذار مقبولة فإن الإسلام لا يحمِّل المسلم ما لا طاقة له به . ويحثنا القرآن على اعتماد الحجة والإقناع والموعظة فى مجادلة الآخرين إذا كنا لا نستطيع استخدام ما لدينا من

قوة .

إن مسألة المرونة موجودة فى كل سورة من سور القرآن الكريم وفى معظم الأحاديث النبوية الشريفة كذلك ومما لا شك فيه أن العقيدة الإسلامية نفسها ليست مفروضة فرضًا على أتباع الدين الإسلامى الحنيف ، وليس الغرض منها أن تكون عبئا يُثقل كاهل المسلمين بغرض إجبارهم على أداء عبادة أو طقس أو ممارسة ما ليس باستطاعتهم أداؤه . وبالرغم من ذلك فإن المسلمين يرتكبون جرائم بإمكانهم أن يتحاشوا الوقوع فيها مثل قتل المسلم لأخيه المسلم ، فى وقت يفشلون فيه فى عمل أشياءٍ باستطاعتهم أن يقوموا بها مثل : العفو والصفح عن المجرم أو المخطئ .

وبرغم المرونة المتوفرة فى الإسلام ، إلا أن فقهاء المسلمين فى الماضى كانوا يميلون إلى تقديم تفسيرات متزمتة للقرآن كما قاموا بصياغة قوانين فى منتهى القسوة لا تأخذ بالاعتبار الظروف والملابسات المحيطة بوقوع الجريمة ولا ظرف وحالة المجرم نفسه ولا النظر فى مدى إمكانية تطبيقها فى الواقع ويبدو أن بعض تلك القوانين قد تأسس على قاعدة غير سليمة من ناحية مراعات مبادئ العدالة الإسلامية . فلنفترض على سبيل المثال ، أن أسرة إسلامية ما تعيش فى مجتمع أجنبى وقامت بقتل إحدى بناتها لأنها ارتكبت جريمة زنا مع شخص غير مسلم ، اعتقاداً من الأسرة أن واجبها الدينى يحتّم عليها توقيع عقوبة القتل على البنت . فى هذه الحالة فإن السلطات المحلية تتعامل مع هذه الجريمة على أنها جريمة قتل بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى .

من ناحية أخرى ، نجد أن قتل البنت لارتكابها ذنبًا من هذا القبيل دون حُكم تُصدره هيئة قانونية مؤهلة للبتّ فى مثل تلك القضايا ، أمر يثير كثيراً من الجدل فى أوساط فقهائنا وعلمائنا المسلمين ، لكونه لا يتطابق مع القوانين الإسلامية ومبادئ العدالة الإسلامية . وربما يتفق هذا الموقف مع ثقافة عرب الجاهلية الذين كانوا يئدون

بناتهم ويقتلون نساءهم فى قضايا الشرف ، أكثر منه مع الأحكام والقوانين الإسلامية . غير أن تلك الأسرة انطلقت من اعتقاد بأنها تطبق التعاليم الإسلامية دون أن تأخذ فى الاعتبار مرونة الإسلام وحضه على الرأفة والرحمة والعفو ، وبمعزل عن الواقع الذى حدثت فيه جريمة الزنا ، ودون اعتبار للثقافة السائدة فى ذلك المجتمع الأجنبى ، والتى تختلف تمامًا عن الثقافة الإسلامية . هذه الأسرة ومن ينحو نحوها تنطلق من كون التزمت والتشدد يدلان على الخضوع والامتثال لأوامر الإسلام ، وما عدا ذلك فهو مخالف للتعاليم الإسلامية . إنها تنطلق من ذهنية تنسجم تمامًا مع العقلية الجاهلية التى سبقت مجئ الإسلام .

هناك أناس يميلون إلى الإصرار على أن مفهوم العدالة فى الإسلام يختلف عن مفهومها لدى المجتمعات غير الإسلامية وبصفة خاصة تلك التى يهيمن عليها الأوروبيون . صحيح أن مفهوم العدالة الغربى يختلف كثيراً فى وقتنا الحاضر عن مفهومها العالمى والإسلامى بصفة خاصة ، لكننا إذا نظرنا إلى الماضى لوجدنا أن ارتكاب الزنا فى الغرب كان يُعد جريمة تستحق العقاب أيضًا ، بعكس ما يجرى فى الوقت الحاضر ، إذ يُمارَس الزنا فى تلك البلدان على نطاق واسع جداً ، ولا تملك أية جهة رسمية حق توقيع عقوبة على من يفعل ذلك ، وأقصى ما يمكن أن يترتب على هذه الفعلة هو الطلاق بين الأزواج . غير أن الإسلام كان وما زال يعتبر الزنا خطيئة وجريمة يعاقب عليها المجتمع وليس الزوجان أو أسرتهما . إضافة إلى ذلك كان المفهوم العالمى لعقوبة القتل هو القتل ، لكن الغرب أصبح ينظر إلى هذه العقوبة فى وقتنا الحالى ، على أنها لا إنسانية وتتنافى مع حق الإنسان فى الحياة . وبالمقابل فإن المجتمع الإسلامى ما زال يعاقب على جريمة القتل بالقتل ، عملاً بالمبدأ العقابى «العين بالعين» .

لكن باستثناء تلك الفروق البيّنة فى المبادئ حول مضمون العدالة ، فإن فكرة

الخطأ والصواب فى الإسلام ومبدأ معاقبة المجرم لا تختلف كثيراً عنها فى المجتمعات الأخرى وعن مفهومها العام فى بقية المعتقدات الكريمة . بمعنى أن كل ما هو غير منصف وغير مطابق للعدالة فى نظر المسلمين هو كذلك عند غير المسلمين . إن محاولة إثبات اختلاف مفهوم العدالة الإسلامية عن غيرها من خلال السعى لإثبات ما قد يبدو غير منصف وغير عادل فى نظر غير المسلمين على أنه ليس كذلك ، ما هى إلا استهواء وتزييف للعدالة . ولابد أن نعى تمامًا أن الإسلام يتفوق فى العدالة عما سواه من الأديان ، وأن القرآن يشدد على العدالة بشكل مكثف وفى كل موقع ، ولا يمكن أن يسمح بالإتيان بما هو مناقض لمبادئ العدالة والإنصاف فى كل زمان ومكان .

لنأخذ ماليزيا التى يتألف سكانها من مسلمين وغير مسلمين ، حيث نجد أن فكرة تطبيق الحدود التى تثير جدلاً بين المسلمين أنفسهم ، يمكن أن تكون مُنفّرة وغير مجدية ، نظراً لأن غير المسلمين قد يرون أنها تُلحق بهم ظُلمًا . ويمكن لغير المسلمين أن يعتبروا فلسفة القوانين الحدّية نفسها قائمة على خطأ لأن تطبيقها قد يتسبب فى إلحاق ظلم بشخص أو فئة ما . إن الإصرار على أن القوانين التى صاغها فقهاء مسلمون ، تسمو على كفالة العدالة التى أمر بها القرآن ، يبدو مخالفًا تمامًا لكل مبادئ العقيدة الإسلامية ، كما أن التطرف والسعى لإضفاء مزيد من القدسية على آراء أفراد أو جماعات دون غيرهم أمر لا علاقة له بالعقيدة ، بل لا يعدو أن يكون محاولة لإسقاط حالة نفسية على قضايا فى غاية الأهمية بالنسبة للإسلام والمسلمين .

ولنفترض على سبيل المثال ، أننا قمنا بتطبيق قوانين الحدود الإسلامية فى ماليزيا كما تطالب بذلك بعض الأحزاب السياسية ، ولنفترض أن عصابة مكونة من مسلمين وغير مسلمين ارتكبت جريمة سرقة . فى هذه الحالة فإن اللصوص المسلمين سيعاقبون بقطع اليد ، بينما يتم إيداع زملائهم من غير المسلمين فى السجن لبضعة أشهر أو قل سنوات على الأكثر ! فأين ذلك من المبدأ الإسلامى القائل بالمساواة فى العقوبة طالما كان

الجُرم واحداً؟ مهما اتسع خيالنا فإن ذلك لا يمكن أن يدخل فى باب العدل والمساواة ، بل إنه يسفر عن ظلم فادح وبالتالى فإنه مُناف لروح العصر وجوهر الإسلام .

لنستعرض أمثلة أخرى ، ولنفترض أن سيدة ما تعرضت لجريمة اغتصاب وتعرفت تمامًا على المجرم لكنها لم تتمكن من إحضار أربعة شهود عدول نظراً لصعوبة ذلك . فى هذه الحالة فإن الجانى سيفلت من العقاب ، لكن ما هو مصير تلك المرأة إذا ما حملت وأنجبت طفلاً نتيجة عملية الاغتصاب هذه؟ ! فى هذه الحالة فإن المرأة تُعتبر زانية ويمكن توقيع عقوبة الرجم بالحجارة عليها حتى الموت . فكيف لنا أن نعتبر هذا عدلاً؟ !

هذان المثالان وغيرهما من الأمثلة الأخرى ، يُعدان فى نظر كثير من فقهاء المسلمين قمة العدالة ، وأن على المسلمين أن يتقبلوا ذلك دون تساؤل ، ويُصرّ أولئك الفقهاء على أن المفهوم الإسلامى للعدالة مختلف عن نظيره لدى المجتمعات غير الإسلامية ، وأنهم يزدادون إصراراً على إسباغ صفة العدل والإنصاف على ما هو مناقض تمامًا للعدالة فى نظر كل الناس ، ويطالبون المسلمين بعدم التشكيك بأحكامهم ، متغافلين عن أن الإسلام قد نهى عن التشكيك فى القرآن والأحاديث الصحيحة فقط ، لكنه لم يخطر أبداً التساؤل والتشكيك فى ما دون ذلك بما فى ذلك الفتاوى والأحكام التى يقررها الفقهاء باعتبارها صادرة عن بشر ، والبشر غير معصومين من الخطأ .

إن ما يتم تسويقه لنا على أنه العدالة الإسلامية ما هو إلا فتاوى وتفسيرات استنتجها فقهاء مسلمون فى الماضى وأخذها الناس على أنها العدالة التى حرص القرآن على وضعها فى مكانة سامية . ولا شك أن القرآن لم يورد هذه التفاصيل ولم يحدد لكل جريمة عقابًا فى ذلك المجتمع الإسلامى ، ناهيك عن مجتمعات عديدة تقوم على

التعددية الدينية والإثنية . وإذا كُنا نستشهد بالعقوبات القاسية التى طبقت على اليهود بمجتمع المدينة (مثل : عقوبة الرجم بالحجارة فى جرائم الزنا) فإنها حدثت ؛ لأن الديانة اليهودية هى التى حددت تلك العقوبة ولم يقم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، بمعاقبة اليهود إلا وفق شريعتهم هم وليس وفق الشريعة الإسلامية .

لقد انصب تركيز الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة على العدل ، وقد أضفى الإسلام أهمية قصوى على الإنصاف بذات القدر الذى يمقت به الظلم والحيف . وقد أمرنا ديننا الحنيف بأن نلتزم بالعدل فى كل زمان ومكان . وإذا ما اتضح بجلاء أن عقوبة بعينها مُجانبة للعدالة ، فمن الخطأ القول إنها صحيحة وسليمة فى نظر الإسلام ، رغم أنها غير مُنصفة فى رأى الناس . ومن الخطأ أيضا إصرار بعض الناس على منع المسلمين من التساؤل حول بعض العقوبات ، موهمين الناس بأن أى تشكيك فيها يدل على ضعف إيمان المرء بالإسلام لدرجة الهرطقة والخروج عن الملّة .

ثمة ضرورة ماسة لأن يعبر المسلمون عن إدانتهم ورفضهم لمواقف تلك الفئة منهم ، التى تطالب بقبول مفاهيم عدلية نتجت عن تفسيرات وفتاوى أطلقها فقهاء مسلمون دون أن نخضعها للتساؤل ، وكأن أولئك العلماء معصومون من الخطأ ، مثلهم مثل الأنبياء . هذه الفئة من المسلمين تساهم فى ترسيخ مفهوم الطاعة العمياء لأولئك الفقهاء حتى فى حال ارتكابهم خطأ أو مخالفة صريحة للقرآن والسنّة . والنتيجة بالطبع كارثة على المسلمين والإسلام من صورة مشوّهة وتزمت وعدم تسامح وانتهاك للعدالة . ولا شك أن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، لو كان قد بشّر بالإسلام من هذا القبيل ، لما تقاطر الجاهليون على الرسالة المحمدية أفرادا وزرافات ، ولما تمكن الإسلام من توحيد القبائل العربية المتحاربة فى أمة واحدة يسودها السلم والعدل ، ولما انتشر فى القارات الثلاث ، مكونًا أعظم إمبراطوريتين عرفهما التاريخ حتى مطلع القرن العشرين .

وإذا نظرنا لأوضاع الإسلام والمسلمين فى وقتنا الراهن ، فسوف نجد صعوبة حقيقية فى إقناع غير المسلمين باعتناق الإسلام فى ضوء مفهوم العدالة الإسلامية الذى يقدمه المتطرفون والذين يطالبون بتطبيق الحدود الإسلامية دون مراعاة لأى اعتبار آخر ، وخاصة مبدأ العدل والمساواة . إن تشدد أولئك المتطرفين وإصرارهم على تطبيق الحدود فى المجتمعات الإسلامية يمكن أن يكون مقبولاً تماماً شريطة أن يكون العدل والمساواة هما غايته النهائية . وينبغى على أولئك المتشددين أن يقبلوا بإعادة النظر فى القوانين الإسلامية التى ينادون بتطبيقها متى ما تسبب ذلك بإلحاق الظلم بأى فرد أو جماعة . كما ينبغى على الذين توكل إليهم مهمة إعادة النظر فى تلك القوانين أن يلتزموا المرونة التى تميز الدين الإسلامى وأن يوظفوها توظيفاً مسلماً واعياً بما يحقق العدالة المطلقة التى هى أساس الإسلام وتعاليمه .

وإذا قبلنا اتفقنا على أن الإسلام قد أولى مسألة العدالة أهمية قصوى ، فإن الخطوة التالية التى ينبغى على المسلمين أن يتدبروها هى المسائل الإجرائية فى تحقيقها ، علماً بأن المسائل الإجرائية المتصلة بالقانون فى الإسلام ليست معقدة ، بل إنها مرنة لأبعد الحدود . هناك مؤشرات على طريقة وأسلوب إدارة العدالة فى الإسلام نجدها فى الآيات المتشابهات والأحاديث الصحيحة . لقد كان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام هو الحكم والقاضى فى زمانه . وعلى كل فإنه لا يوجد فى القرآن والسنّة ما يمنع من القيام ببلورة وصياغة إجراءات معيارية لضمان تطوير الجوانب الإجرائية فى إنفاذ العدالة .

ويُلاحظ فى بعض البلدان الإسلامية أن الجوانب الإدارية والإجرائية المتصلة بالعدالة وتطبيق القانون ، عرضية وغير ثابتة . وقد حدث فى أحد البلدان أن أدان أحد القضاة أجنبياً تعرضت سيارته لحادث تصادم من خلف من قبل سيارة أخرى كان يقودها مواطن من تلك البلاد . وقد ذهب القاضى إلى تأسيس إدانته على أن الحادث ما

كان ليقع لولا أن ذلك الأجنبى حلّ زائراً أو مقيمًا بالبلاد . هذه الواقعة مجرد نموذج لحوادث كثيرة تحدث فى بلدان إسلامية عديدة ويقع الأجانب فى قبضة الشرطة بسببها ، بصرف النظر عن المتسبب فى الحادث . وإذا لم يكن الشخص الأجنبى على صلة بأحد الشخصيات النافذة فى البلاد ، فإن الأمر قد ينتهى به إلى قضاء أيام تعيسة فى الحبس بمخافر الشرطة .

والأمر الذى يهمنا فى ذلك هو أن إجراءات التحقيق والاستجواب فى عدد كبير من الدول الإسلامية غير واضحة . ففى بعض الحالات نجد أن القاضى الذى يترأس المحكمة يستمع إلى ضابط الشرطة الذى يُجرى التحرّى حول ملابسات وظروف وقوع الجريمة ، ومن ثم يلتفت إلى المتهم طالبًا منه الإجابة عن التساؤلات التى أثارها المتحرى ، وبناء على إفادات المتحرى والمتهم ، وقد يشير فى بعض الأحيان إلى كتب دينية غير محددة ، يصدر القاضى أحكامه ، أما الإجراءات فى محاكم أخرى فمختلفة تمامًا حيث لا يستند القضاة إلى قوانين بعينها رغم أنهم قد يشيرون إشارات غير واضحة إلى القرآن والسنة .

فى ماليزيا بذلت جهات الاختصاص جهداً مشكوراً لصياغة لائحة إجرائية معيارية أو قياسية لإجراءات التقاضى فى المحاكم الشرعية ، وصادفت اللائحة نجاحا لا بأس به . وقد تم تجميع العناصر المكونة لتقاليد وممارسات وإجراءات المحاكم الأخرى ودمجها فى اللائحة الإجرائية للمحكمة الشرعية ، وبموجب تلك اللائحة أصبح للمحامى الحق فى المرافعة والمداخلة لصالح موكله . وبصفة عامة يمكننا القول إن الأحكام التى تصدر عن المحاكم الشرعية المختلفة فى ماليزيا فى قضية بعينها ، غالبًا ما تتطابق ، اللهم إلا فى الولايات الماليزية التى تتبنى وجهة نظر مختلفة تمامًا عن المفهوم العام لما يُشكل العدالة الإسلامية فى البلاد . وقد تم إعداد وتقنين ودمج جزء مهم من القوانين الشرعية فى ماليزيا ضمن لائحة القوانين العامة فى البلاد .

وإذا ما هممنا بتطبيق القوانين الإسلامية فى أى بلد من البلدان الإسلامية ، لابد من إيلاء عناية فائقة لتفسير وتعريف العدالة والعقاب وفحص عملية صياغة الإجراءات على نحو شامل ودقيق للغاية . ولابد من التنويه إلى ضرورة وأهمية الرجوع إلى الكتاب والسنّة للاسترشاد بهما واستلهام جوهر وروح العدالة منهما . ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الإسلام يعترف بنفوذ وتأثير الظروف والملابسات فى تطبيق القوانين وفى إحقاق العدالة بنفس القدر . كما أن التغييرات والتحولات التى استجدت فى عصرنا الحديث والتى أسفرت عن تصورات جديدة لمضمون ومحتوى ومكونات العدالة فى الجرائم الحديثة المتطورة والمشاكل والأمراض الاجتماعية الجديدة ، لا يمكن إغفالها ولابد من أخذها فى الاعتبار .

ومن الواضح أن إدارة العدالة فى عهد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، كانت مطابقة للأعراف والتقاليد السائدة فى ذلك الزمن ، بيد أن إدارة القانون فى عصر المعلومات وتكنولوچيا الكمبيوتر وعلوم الإثبات ، لا يمكن أن تكون كما كانت عليه فى عهد النبى -صلى الله عليه وسلم . ومن المؤكد أننا وقضاتنا لسنا أنبياء ، ولكن بإمكاننا أن نرجع فى كل وقت للقرآن والأحاديث الصحيحة ونستخدم ملكاتنا وقدراتنا الذهنية والإدراكية . إننا لا نختلف على أن القرآن قد حدد بعض القضايا بدقة متناهية ، غير أن كثيراً من الآيات لا يبيّن المعانى على نحو محدد . وقد ذكر ذلك صراحة فى صورة آل عمران كما أسلفنا . وإذا لم ينه القرآن عن قضية بعينها نهيًا صريحًا . فإن ذلك يعنى أنها يمكن أن تكون حلالاً أو غير ممنوعة ما دامت مطابقة لمعنى كلام الله جل شأنه ولروحه ومضمونه .

وبالتالى ، فإن على المسلمين المحدثين أن يُعدوا أنفسهم للقيام بتفسير القرآن والسنّة من جديد أسوة بفقهائنا فى العصور السابقة الذين قاموا بتفسير آيات الله وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصدروا الفتاوى والأحكام ومما لا شك فيه

أن تفسير أولئك الفقهاء الأوائل لا يمكن أن يؤخذ على أنه مُنزّه عن الخطأ أو نهائى ولا تفسير بعده .

ينبغى أن يتم تفسير ديننا الإسلامى بما يواكب التطورات والمستجدات الماثلة والتى تختلف تماما عما كان عليه الحال قبل ١٤٠٠ سنة وبما يجعل منه دينا صالحا لكل زمان ومكان . وإذا كان لابد لنا من العودة إلى الظروف والمعطيات التى كانت سائدة قبل أربعة عشر قرنا لكى نكون مسلمين حقيقيين ، فإن ذلك لا يجعل من الإسلام دينًا صالحًا لكل زمان ومكان . وما دمنا مؤمنين بأن ديننا الحنيف مواكب لكل الأزمان بما تطرحه من تحديات ومستجدات ، فإن الإسلام لابد من أن يكون منسجمًا ومُلبيًا لاحتياجات الإنسان فى وقتنا الحاضر .

إن إدارة القوانين الإسلامية قضية فى غاية الخطورة ، وعلى الأفراد الذين توكل إليهم مسئولية تفسير وتعريف القوانين الإسلامية ، ألا يتصرفوا من وحى أفكارهم الخاصة فقط ، بل عليهم أن يستشروا غيرهم من العلماء فى مختلف المجالات ، فعلى سبيل المثال قد نجد شخصًا ما عالمًا ومجيداً للغة العربية سمحت له ظروفه بدراسة القرآن على نحو مكثف ودقيق ونال حظه من السنه النبوية والكتب الأخرى ، وألمَّ إلمامًا دقيقًا بمحتوى ومضمون تلك الكتب ، غير أنه قد لا يكون مُلمًا بالعلوم الاجتماعية والعلمية والتقنية . وعليه فإن الضرورة تقتضى ألا يترك تفسير القرآن والقوانين الإسلامية لفقهاء الدين وعلماء اللغة لوحدهم ، بل لابد من الاستئناس برأى العلماء والخبراء فى مجال العلوم الدنيوية فى كل ما له صلة بالقرآن والحديث والقوانين ، وبطبيعة الحال لابد من استشارة المختصين فى مجال العلوم القانونية عندما يأتى الأمر لقوانين الإجراءات بمختلف أنواعها .

وخلاصة القول ، أننا لن ننجح فى إدارة القوانين الإسلامية نجاحًا يؤدى إلى

ضمان العدل والإنصاف إلا عندما نأتى بكل أولئك العلماء والخبراء المختصين ، وأن نستشير كل منهم فى مجال تخصصه .

لكن علينا أن نتذكر دائمًا أن أولئك العلماء والخبراء ما هم إلا بشر مثلنا وغير معصومين من الخطأ أيضًا . كما هى الحال للفقهاء الأوائل الذين فسروا الدين الإسلامى بكل أمانة وتجرد طبقًا لظروف ومعطيات زمانهم ، فإن الفقهاء المسلمين فى المستقبل سيجدون فى تفسير فقهاء وعلماء اليوم من الأخطاء ما يحتم عليهم القيام بتفسير الإسلام والقرآن من جديد !! .

الفصل التاسع عشر

الإسلام: الدين الذى أسيء فهمه *

ربما يكون الإسلام هو أكثر الأديان التى أسئ فهمها فى عالم اليوم . . بل يمكن القول إنه ربما كان أكثر الأديان تعرضا لسوء الفهم عبر التاريخ أيضا . وسوء الفهم هذا لا يقتصر على غير المسلمين وإنما يمتد للمسلمين أنفسهم ، والدليل على ذلك وجود هذا العدد الكبير من الطوائف والملل الإسلامية التى تتبع كل واحدة منها تعاليم إسلامية مختلفة ، بل ومتناقضة مع بعضها البعض . هذا الاختلاف وما يلازمه من تناقض يؤكد أن هناك خطأ ما ، وأن ذلك الخطأ يكمن تحديدا فى عدم فهم الإسلام أو إساءة فهمه .

إن الأحوال المتردية التى يعيش فيها المسلمون فى الوقت الراهن ترجع جزئيا إلى الجهل ، كما ترجع إلى التحامل المستمر ضد الإسلام والمسلمين . ولكن ذلك لا يعنى أننا يمكن أن نعفى المسلمين تماما من مسئولية ما آل إليه حالهم . فالمحنة التى يعيشها المسلمون هى فى جانب كبير منها من صنع أيديهم ، ونتيجة حتمية لعدم قدرتهم على التطور مع الزمن . وهكذا فإنه يمكن القول إن خلاص المسلمين فى أيديهم هم وليس فى أيدى الغير .

من أهم التكاليف التى كلف بها الرسول - صلى الله علية وسلم ، تلك الخاصة بتحقيق السلام والوحدة بين القبائل العربية المتناحرة التى كانت تعيش فى الجاهلية . ولقد نجح الرسول - صلى الله عليه وسلم ، فى تحقيق ما كلف به كما يتبين من آيات عديدة وردت فى القرآن الكريم .

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى ، رسالته إلى العالمين عن طريق رسول واحد وهو

---

* كلمة رئيسية فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية فى : أكسفورد - المملكة المتحدة ، بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٩٦م .

محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وكتاب واحد هو القرآن الكريم . فليس هناك قرآن آخر ، وليس هناك نسخ أخرى أو إصدارات أخرى من القرآن تحمل فى طياتها نصا مغايرا وكلاما مختلفا . فالقرآن لم يكن فى صورة أناجيل ألفها رجال الدين أو علماء مسلمين ، وإنما جاء فى صورة كتاب احتوى على تسجيل لرسالة الله سبحانه وتعالى إلى العالمين ، مكتوبة باللغة العربية التى كانت سائدة فى ذلك الزمان . والترجمات المختلفة للقرآن الكريم قد تختلف اختلافا بسيطا عن القرآن ذاته ، ولذلك فإنه لا يمكن اعتبارها بديلا عن القرآن ، فالقرآن الوحيد المعترف به هو القرآن المكتوب باللغة العربية .

وهكذا فإنه لا يمكن أن تكون هناك نصوص مختلفة أو نسخ أو كتب مختلفة يترتب عليها اختلاف فى الرسالة أو فى التعاليم الخاصة بالإسلام . وعلى الرغم من ذلك فإننا نروى هناك اختلافات ، بل واختلافات خطيرة ترتب عليها تقسيم المسلمين إلى شيع وأحزاب متناحرة . والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان فى هذا السياق هو : ما سبب ذلك؟

فى الواقع أن الأشخاص الذين يعرفون اللغة العربية كلغة مجردة ، لا يستطيعون أن يفهموا لغة القرآن الكريم . أو فلنقل إنهم لا يستطيعون أن يفهموها تماما وعلى نحو عميق . ولكى يفهم مثل أولئك الأشخاص القرآن ، عليهم أن يسمعوا أو أن يقرأوا شروحا للقرآن من جانب العلماء الذين يفهمون لغة القرآن ، والعالمين بالظروف التى نزلت فيها الآيات على النبى – صلى الله عليه وسلم ، وبالآيات التى أنزلت عليه . وقد ارتبط نزول معظم الآيات بأحداث وقعت قبل أو أثناء حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم . وقد تطلب الأمر قيام علماء الإسلام بوضع تفاسير بجوار الآيات حتى يسهل على الناس فهمها وقاموا بوضع تلك الشروح والتفاسير داخل أقواس وخصوصا فى الترجمات المختلفة للقرآن . وبالتالى فإنه لا يمكن اعتبارها جزءا من الآيات الأصلية وإنما هى مجرد وسيلة لتوضيح ما غمض من آيات .

وعلى الرغم من أن هناك قرآن واحد ، فإننا نجد هناك نوعين من الآيات فى القرآن الكريم ، وهما الآيات المحددة أو (المحكمات) ، والآيات العامة أو (المتشابهات) . ففى الآيات

المحددة (المحكمات) ليس هناك مجال للخطأ فى فهم معانيها حتى وإن كانت تفاسيرها قد اختلفت باختلاف العلماء والمفسرين . أما الآيات العامة (المتشابهات) فهى آيات تحتمل تفاسير مختلفة . ففى سورة آل عمران ، الآية – ٧ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) ﴾ صدق الله العظيم .

إن الآيات العامة أو (المتشابهات) يجب أن تكون بالضرورة على ما هى عليه ؛ لأن القصد منها هو إرشاد الناس وهدايتهم فى مواقف مختلفة ، ومساعدة المسلمين على حل ما يعرض لهم من مشاكل ، ليس فقط أثناء حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم ، ولكن أيضا بعد وفاته ، بل وفى جميع الأوقات إلى يوم الدين . وعلماء المسلمين ممن أوتوا علم الكتاب هم الذين يرجعون إلى هذه الآيات للاهتداء بها عند قيامهم بمعالجة أية مشكلة من المشاكل أو تفسير أى أمر من الأمور التى تعرض للمسلمين فى شئون دنياهم .

أما الأساليب التى يتبعها علماء المسلمين فى الرجوع إلى القرآن الكريم وتفسير آياته ، فقد تم تحديدها بواسطة فقهاء المسلمين الأوائل للحيلولة دون وقوع أى خطأ أو لبس فى التفسير . ولكن نظرا لأن هذه الأساليب من وضع بشر عاديين فى النهاية – بصرف النظر عن درجة علمهم – فإن سوء التفسير والاستخدام الخاطئ للآيات قد يصبح أمرا واردا بما يؤدى فى النهاية إلى استنباط أحكام وتعاليم خاطئة .

وتتضمن هذه الأساليب **أولا** : الرجوع إلى السنة ، **وثانيا** : اجماع العلماء أو ما يتفقون عليه . وعندما يكون معنى ما فى القرآن والحديث غير واضح فى الأذهان ، فإن العلماء يمكنهم فى هذه الحالة أن يدلوا بآرائهم أو فتاويهم أو اجتهادهم فى الأمر عن طريق «القياس» أو «الاستحسان» ويقصد به استخدام القدرة على التفكير وتطبيق القرآن على حقائق الموقف المعنى .

والقرآن كتاب شامل ، يوفر الهداية والإرشاد للمسلمين فى كل زمان ومكان ، ولكننا إذا نظرنا إلى الآيات بمعزل عن بعضها البعض أو باجتزائنا لأجزاء معينة منها ، فإن التعاليم يمكن أن تتعرض فى هذه الحالة إلى التشويه ، بل إنها قد تصبح متناقضة مع تعاليم الإسلام ككل . وهناك تركيز فى القرآن الكريم على إقامة العدل والبعد عن الظلم . ولكن البعض منا يأخذ آية واحدة فقط من تلك الآيات ويقوم بتفسيرها حسب هواه ، وبالتالى فإن العدالة الإسلامية من منظور البعض قد تكون متناقضة تماما مع الدعوى القائلة بأن القرآن الكريم يدعو إلى العدالة .

بعد القرآن الكريم تأتى سنة الرسول الكريم وأحاديثه باعتبارهما ثانى أهم مصدر للتعاليم الإسلامية . والمقصود بالسنة أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم وأفعاله كما رواها أولئك الذين سمعوه ورأوه فى حياته . وكان يشترط فى ذلك الوقت أن يكون أولئك الرواة ممن عرف عنهم حسن الخلق والصدق فى القول ، كما كان مطلوبا أن يتوفر هذا الشرط نفسه أيضا فيمن جاء بعدهم من الرواة الذين قاموا بنقل الأحاديث والسنن بعد ذلك مشافهة وعن طريق سلسلة إسناد موثوق بها من المسلمين الصالحين من زمن إلى زمن وبمرور السنين أصبحت مسألة التعرف على سلسلة رواة الحديث أكثر صعوبة .

وعندما بدأ الإمام البخارى دراسة وتنقيح ما يزيد عن ستمائة ألف حديث ، كان قد مضى على وقت رواية تلك الأحاديث فترة تزيد عن ٢٠٠ عام . وقام الإمام البخارى بانتقاء نحو سبعة آلاف حديث من ذلك العدد ، واعتبرها أحاديث صحيحة بناء على ما توفر له من أدلة وبراهين على صحة إسنادها . وبعد وفاة الإمام البخارى قام تلميذه الإمام مسلم بالتحقق من صحة عدد أقل من الأحاديث واعتبرها صحيحة . ثم جاء بعدهما عدد من الأئمة والفقهاء الذين قاموا بتحقيق الكثير من الأحاديث . والآن أصبحت هذه الأحاديث والسنن التى تم تحقيقها بواسطة أولئك العلماء الأجلاء مقبولة ، باعتبارها أحاديث وسننا صحيحة من قبل اتباع المذهب السنى . أما الشيعة فلهم طرقهم الخاصة فى التحقق من صحة الأحاديث والسنن .

ونظرا لأن الأئمة والعلماء لم يكونوا من الأنبياء وإنما كانوا بشرا عاديين ، فإن تعرضهم للخطأ كان احتمالا واردا فالأحاديث التى قد يرون أنها خطأ ، قد تكون صحيحة ، وما يرونه صحيحا منها قد يكون خطأ .

وكان طبيعيا والوضع هكذا أن يستمر بعض المسلمين فى الاستشهاد بأحاديث غير صحيحة .

وفى بعض الأحيان ، تكون الأحكام والفتاوى التى يصدرها العلماء فى زمن معين وظرف محدد ، مجرد آراء أو اجتهادات وليس معنى ذلك أنه يوجد لدينا أدنى شك فى مدى معرفة أولئك العلماء الكاملة بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف ، وفهمهم التام للمشكلة التى يعرضون لها ، والموقف الذى يرتبط به .

ولكن هذه الآراء والفتاوى تبقى مع ذلك مجرد اجتهادات بشرية معرضة للصواب والخطأ . وفى عالم اليوم الذى يشهد نهضة شاملة فى مجال العلم والتكنولوجيا ، كثر ما تبرز مسائل جديدة لم تكن موجودة من قبل . وفى مجال الطب على وجه الخصوص تبرز أنواع عديدة من التقنيات العلاجية والأدوية التى يتم اختراعها واكتشافها طوال الوقت . وبعض أنواع هذه الإجراءات والعلاجات الطبية تحير حتى الأطباء المعالجين ، الأمر الذى يجعلهم يلجأون إلى الأئمة والفقهاء للإدلاء بآرائهم الفقهية بشأنها .

ولكى يقوم العلماء بإصدار رأى أو فتوى حول تلك الأشياء ، فإن الأمر يستدعى الإلمام التام ليس فقط بتعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه ، وإنما يستلزم إلى جانب ذلك إلماما تاما بطبيعة الموضوع الذى يتطلب إصدار حكم أو فتوى . وحتى أكثر العلماء علما لا يمكنهم الإلمام بكل صغيرة وكبيرة حول تلك الموضوعات والعلوم المختلفة ، وبالتالى فإنه لا سبيل أمامهم سوى الاعتماد على خبرة وتجارب الآخرين . وحتى مع الاعتماد على مثل تلك الخبرة والتجربة ، يبقى واردًا أنهم لا يزالون غير ملمين إلماما كاملا بطبيعة وجوانب المضامين الدينية لهذه المسائل . فأولئك قد يرفضون شيئا ما ؛ لإنهم لا يعرفون كل الجوانب المتعلقة بالمسألة أو لأنهم

متصلّبون فى آرائهم دون وجود بينة أو دليل جازم على صحتها . وفى مثل هذه الحالات فإنه ليس هناك ما يدعو للعجب فى أن يتوصل عالم بعينه أو حتى مجموعة من العلماء إلى آراء مختلفة أو متناقضة مع الآراء التى قد يتوصل إليها عالم أو مجموعة أخرى من العلماء بالنسبة للمشكلة أو المسألة التى تعرض عليهم لإبداء الرأى فيها . وبالطبع لا يعقل فى مثل هذه الحالة أن يكون هذان الفريقان على صواب وإن كان يمكن بالطبع أن يكون الإثنان على خطأ . وقد يتطلب الأمر إجراء مزيد من المشاورات قبل الوصول إلى تفسير مقنع ومقبول يتفق مع حقائق الأوضاع السائدة .

ولكى يفهم المسلمون الإسلام فهما صحيحا فإنه لا غنى لهم عن العلماء والمثقفين فى أمور الدين . حتى الأشخاص العاديين الذين يجيدون اللغة العربية ويستطيعون قراءة وفهم القرآن بلغته الأصيلة ، لا يزالون فى حاجة إلى وجود أولئك العلماء . ومن ناحية ثانية ، فإنه كى يستطيع أولئك العلماء شرح مبادئ وتعاليم الدين الإسلامى الحنيف للمسلمين من غير العرب ، فإن الأمر يستلزم أن يكونوا على إلمام ومعرفة بلغات أخرى كى يقوموا بشرح القرآن ، سواء شفهيا أو كتابة . لذلك نرى فى الترجمات العادية للقرآن الكريم وللسنة النبوية والأحاديث الشريفة كلمات وعبارات كثيرة واردة بين قوسين ، والقصد من هذه الكلمات والعبارات هو شرح ما غمض من معانى آيات القرآن ونصوص الأحاديث ، ولكنها لا تشكل جزءا من هذه الآيات والأحاديث ، وينبغى النظر إليها على هذا الأساس . واختيار هذه الكلمات والعبارات يعكس فهم العالم أو الفقيه أو رجل الدين لمعنى الآية أو الحديث ، كما أنه قد يعكس رأيه أو وجهة نظره ، وبالتالى فإننا نتوصل مرة ثانية إلى النتيجة نفسها وهى أن العلماء ليسوا أنبياء وإنما هم بشر عاديون وبالتالى فهم معرضون للصواب والخطأ .

ومن سوء الحظ أن الكثير من المسلمين ينظرون إلى الآراء والأحكام الفقهية التى يصدرها عالم من علماء الدين حول مسألة ما ، على أنها شىءٌ مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والمشكلة فى هذا الصدد هى أن هناك الكثير من المسلمين يدَّعون أنهم

علمـاء دون أن يكونوا كذلك فى الحقيقة . أولئك المدعون غالبـا ما يكونوا من أصـحاب المصالح الخاصة ، بل أن بعضهم قد يكون من السياسيين أصحاب المصالح الدنيوية والأطماع الشخـصيـة . وإذا ما كـان كل هؤلاء الأشخاص ينظرون إلى أنفسـهم على أنهم مـؤهلون للفتوى ، وأن تفاسيرهم للإسلام غير قابلة للخطأ فى الأساس ، فليس هناك ما يدعو للدهشة إذن فى أن نرى ذلك الكم من الاضطراب والخلط وسوء الفهم لتعاليم الإسلام .

وهكذا رأينا فى زمن ليس بالبعيـد أن هناك بعض المسلمين الذين يفتـون بـأن طباعة القرآن فى حد ذاتها حرام . وعلى الرغم من أن حكومة مثل حكومة الخلافة التركية على سبيل المثال كان يوجد لديها مطابع إلا أنها لم تكن تسمح بطباعة المصحف الشريف فيها ، وكان رأى العلماء فى عاصمة الخلافة الإسلامية أن القرآن يجب أن يكون مكتوبا باليد . ولم تكن طباعة القرآن فقط هى الحرام ، فقد كـان أولئك العلماء يعتبرون استخدام الكهرباء فى المساجد أيضا حرام . وهكذا كنا نرى مكة المكرمة وهى تضاء بلمبات الغاز فى الوقت الذى كـانت الكهـرباء تنيـر باقى مـدن العـالم . وكـان الجنود الأتراك أيضـا ممنوعـين من ارتداء البنطلونات الغربية وأغطية الرأس الغربية ، لأن العلماء كانوا يعتبرونها هى الأخرى حراما . كما كان رسم الإنسان والحيوانات أيضا حراما ، حتى إلى ما قبل بداية عصر الطباعة .

ومع دخول الطباعة ومن بعدها التصوير الفوتوغرافى ، ومن بعدهما التلفاز ، أصبح هذا المنع غير عملى أو غير ذى جدوى . وبالرغم من ذلك ، وبما لحق بالعالم من تطور ، ظل الكثيرون من المسلمين متمسكين دينيا بهذه الفتاوى والأحكام والآراء .

ولا شك فى أن هذه الآراء والأحكام الفقهية قد أسهمت فى تأخر المسلمين فى عالم يتغير بخطى حثيثة . والأخطر من الآراء والفتاوى السابقة ، تلك الفتاوى الخاصة بتنظيم العلاقة بين المسلمين داخل المجتمع وتنظيم العلاقة بينهم من جهة وبين أصحاب الأديان الأخرى من جهة أخرى .

وكما نعرف فإن مجتمع الجزيرة العربية عند نزول الرسالة على الرسول – صلى الله

عليه وسلم ، كان ممزقا بالعداوات والخلافات بين القبائل المتناحرة . هذه العداوات أسهمت فى إضعاف تلك القبائل وفى زيادة تخلفها . وكان السبب فى تلك الخلافات والعداوات هو التعصب للعشيرة أو القبيلة . وقد جاء الإسلام ليشجب التعصب القبلى ويدعو إلى نبذ الخلافات والعداوات ، وتحقيق الوحدة بين القبائل . يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، سورة آل عمران الآية – ١٠٣ : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ . صدق الله العظيم .

ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن العرب عادوا إلى عداواتهم وحروبهم وتعصبهم بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم . وظهر أيضا شىءٌ جديد كان أكثر خطورة وهو الخلافات حول أى القبائل أو أى العشائر أحق من غيرها بالخلافة وقيادة الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم ، وهى الخلافات التى مزقت المسلمين ، بل ولا زالت تمزقهم حتى يومنا هذا . فقد انشق أتباع سيدنا على بن أبى طالب ابن عم الرسول – صلى الله عليه وسلم ، ورابع الخلفاء الراشدين ، وكونوا ما عرف بالشيعة ، فى حين قام أنصار معاوية بن أبى سفيان الذين ادعوا تمسكهم بالتقاليد المرعية بتكوين المذهب السنى . وبعد ذلك شهد كل مذهب من المذهبين المزيد من الانقسامات الداخلية بسبب اختلاف العلماء والأئمة فى تفسير تعاليم الإسلام وفقا لفهمهم للدين ، أو وفقا لولاءاتهم السياسية فى بعض الأحيان . ومما لا شك فيه أن التناحر القائم بين الطوائف والأمم الإسلامية يتعارض مع ما ينادى به الدين الإسلامى الحنيف . ويذكرنا التعصب والعنف الذى تواجه به الطوائف والأمم الإسلامية بعضها بعضا ، بما كان سائدا فى الجاهلية بين القبائل العربية . . وهو وضع لا يتماشى مع التعاليم الإسلامية السمحاء .

العالم الإسلامى اليوم تسوده فوضى عارمة ، وتمزقه المعارك والقلاقل والاضطرابات بسبب عناد الجماعات المتناحرة وبسبب طمعها فى السلطة ، فهذه الجماعات ترفض اتباع

تعاليم الإسلام الحقيقية ، وتميل إلى تفسير الدين وفقا لمصالحها الذاتية ، وبما يخدم تلك المصالح فقط . وهو ما يطلق عليه «العصبية» ؛ أى منح الولاء لطائفة أو جماعة بعينها على حساب الولاء للمسلمين وللأمة الإسلامية جمعاء . وبسبب الأعمال التى تقوم بها هذه الجماعات نجد أن دولا إسلامية عديدة غير قادرة على تكوين حكومات قوية لتسير الأمور فيها ، مما يجعلها عرضة للفوضى ، وفريسة للضعف والأطماع من قبل القوى الأخرى فى هذا العالم . وأشياء كهذه هى التى تجعل من الإسلام موضعا للسخرية من قبل الآخرين .

إن ما يحدث للعالم الإسلامى ليس قدرا مكتوبا . ولكنه نتيجة طبيعية لطمع المسلمين ورفضهم اتباع تعاليم الإسلام الصحيحة وخصوصا تلك المتصلة بمبدأ الأخوة الإسلامية . وعندما يقوم قادة المسلمين بإصدار الأحكام التى تضفى الشرعية على مثل هذه الأعمال ، فإنهم يكونون قد عملوا ضد مصلحة دينهم ، وسوف يكونون كذلك عندما يقومون بإلصاق تهمة الكفر بالمسلمين الذين يعارضونهم . أما كون العصبية مسألة تتعارض مع المبادئ الإسلامية ، وكونها تضعف الأمة وتمزقها ، فأمر لا يهمهم فى كثير أو قليل ، على الرغم من خطورته البالغة على الأمة الإسلامية .

المسلمون وغير المسلمون

أما بالنسبة لسوء الفهم السائد بين المسلمين فيما يختص بتعاليم دينهم التى تعالج العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، فالأمر واضح وضوح الشمس . فالقرآن الكريم قرر بوضوح أن النصارى أصدقاء المسلمين . وهكذا فإن المسلمين الأوائل الذين تعرضوا للتعذيب والاضطهاد على أيدى سادة قريش من عبدة الأصنام قد نصحوا من قبل الرسول الكريم بالهجرة إلى الحبشة لطلب الحماية والأمان عند النجاشى حاكمها النصرانى الذى لم يدخر جهدا فى توفيرها لهم ، ورفض جميع المحاولات التى قامت بها قريش لكى تجعله يسلم المهاجرين لها .

وإذا كان المسلمون السنة يؤمنون حقا بالتقاليد الإسلامية فإن من الواجب عليهم أن

يكونوا على علاقة طيبة بالمسيحيين . وينبغى أن يكون ذلك من بين الأمور التى يؤمنون بها . ولكننا للأسف نجد بعض «العلماء» الذين يقولون أن مسيحى اليوم ليسوا هم النصارى الذين أشار اليهم القرآن الكريم ، وبالتالى فإن هناك ما يبرر للمسلمين اعتبار كل المسيحيين بمثابة أعداء .

واليهود أيضا يعتبرون أعداء فى نظر المسلمين ؛ لأن يهود المدنية كانوا غير موالين للحكومة التى أقامها الرسول – صلى الله عليه وسلم هناك . بيد أن القرآن الكريم يقرر بوضوح أن أولئك الذين يحملون السلاح ضد المسلمين هم الذين يجب اعتبارهم أعداء للإسلام والمسلمين . ففى الآية – ١٩٠ من سورة البقرة ، يقول الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ صدق الله العظيم . وفى الآية – ٦١ من سورة الأنفال ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

إن هذا يعنى بما لا يدع مجالا للشك أن الصهاينة ومن يناصروهم من دعاة العنف ضد المسلمين يجب أن ينظر إليهم من قبل كل مسلم على أنهم أعداء . ولكن عندما يجنح أولئك للسلم فإنه يجب على المسلمين أن يجنحوا أيضا للسلم .

ولكننا نرى بالرغم من ذلك ، أن بعض المسلمين ينظرون إلى اليهود على أنهم أعداء أزليون وأن المسلمين يجب أن يظلوا فى حرب معهم إلى يوم القيامة . وهذا الموقف الخطأ يعتبر نوعا من التطرف والعداوة وبالتالى فإنه لا يعتبر بأن من ضمن تعاليم الإسلام ، إن لم يكن مناقضا لها . أما من يقول بأن اليهود ليسوا أعداء أزليين للمسلمين ، فله الويل والثبور .

سوء فهم غير المسلمين للإسلام

وإذا كان المسلمون كثر ما ينسون تعاليم إسلامية معينة ، فإن سوء الفهم السائد بين غير المسلمين وخصوصا المسيحيين واليهود تجاه الإسلام والمسلمين ، لهو أكثر سوءا .

لقد حدث الصدام بين المسلمين والمسيحيين فى فترة باكرة من عمر الإسلام عندما كانت الإمبراطورية البيزنطية لا تزال إمبراطورية عظيمة تقف فى طريق انتشار الدين الجديد . ولكن أوروبا المسيحية لم تشحن نفسها بالمشاعر السلبية العدائية نحو الإسلام إلا فى أيام الحملات الصليبية التى حولت المشاعر المناوئة للإسلام والمسلمين إلى نوع من الهوس الدينى والتعصب المقيت . واستمرار تلك المشاعر المعادية للمسلمين وما يترتب عليها من اعتداءات وعنف ضد المسلمين ، يمكن وصفه بأنه نوع من العداء . وهكذا استمر بعض المتعصبين من الجانب المسيحى فى تأجيج مشاعر العداء والكراهية ضد المسلمين قرونا عدة . ومهما فعل المسلمون من خير فى علاقتهم مع غير المسلمين فإن ذلك لا يقابل بالعرفان من جانب أولئك المسيحيين المتعصبين ، فالحرية الدينية التى كفلها المسلمون للمسيحيين واليهود فى الأندلس قلما يذكر عنها شىءٌ فى الكتب والمراجع التاريخية الأوروبية .

أما الحقيقة الخاصة باستعادة المسيحيين للأندلس وطردهم للعرب واليهود منها وإجبار من تبقى هناك على الردة ، فلم تلق إدانة أبدا فى كتب التاريخ الأوروبية ، كما لم تذكر تلك الكتب والمراجع أى شىءٍ عن تفضيل اليهود للهجرة إلى المناطق الإسلامية فى شمال إفريقيا بعد سقوط الأندلس ، على البقاء فى إسبانيا المسيحية باعتبار أن ذلك الأمر يمثل موضوعا تافها فى نظر مؤرخيهم .

وفى البلقان فضَّل السلاف الذين يغلب عليهم المسيحيون ، الحكم التركى الإسلامى على حكم بيزنطة المسيحية . ليس هذا فحسب ، بل إنهم قاموا بمساعدة المسلمين على هزيمة البيزنطيين . وكان بقاء الغالبية العظمى منهم بعد ذلك على ديانتهم المسيحية وعدم تحولهم إلى الإسلام ، أكبر دليل على سماحة الأتراك تجاه غير المسلمين .

واليوم نرى أن فهم الغرب الخاطئ للإسلام قد بلغ مداه . فالغرب يتناسى أن المسيحية أيضا قد شهدت بعض مظاهر الضلال والانحراف التام عن التعاليم المسيحية ، مثل محاكم التفتيش الإسبانية وإحراق السحرة فى أوروبا وأمريكا ، بينما ينظر إلى بعض مظاهر الانحراف

عن جادة الصواب فى ممارسة الإسلام بكامله أو على أنها تمثل الصورة الحقيقية للإسلام .

ولا يستطيع أحد سواء أكان مسلما أم غير مسلم أن ينكر أن الكثير من الأعمال الإرهابية قد تم ارتكابها على أيدى مسلمين . بيد أنه يجب على أولئك كذلك أن يقروا بأن أعمالا إرهابية كثيرة قد تم ارتكابها أيضا بواسطة غير المسلمين .

الفارق الوحيد هو أن مثل تلك الأعمال عندما يتم ارتكابها بواسطة مسلمين ، فإن ذلك يعزى إلى الإسلام وليس لمرتكب هذه الأعمال . وعندما يرتكب غير المسلم تلك الأعمال الإرهابية البشعة نفسها ، فإنها تنسب إلى الشخص وليس إلى ديانته .

وهكذا رأينا أن أول رد فعل تجاه حادث تفجير مبنى فى أوكلاهوما هو النظر إليه على أنه عمل إرهابى جديد تم على أيدى المسلمين . وعندما اكتشفت السلطات الأمريكية أن مرتكب الحادث ليس مسلما ، بل مسيحيًا ، جرى تجاهل الحقيقة تماما ، ولم يتم وصف الحادث بأنه نتيجة أعمال إرهابية مسيحية .

وهناك مثال آخر فى هذا الصدد وهو الاقتتال الشرس الذى يدور فى أيرلندا الشمالية بين طائفتين دينيتين متنازعتين ، إلا أنه لم يتم ، فى أى وقت ، وصف حوادث تفجير القنابل والقتل والتشويه التى يقوم بها الجيش الجمهورى الأيرلندى أو التى ينفذها البروتستانت المناوئين له ، على أنها تمثل إرهابا مسيحيا كاثوليكيا أو بروتستانتيا . إن الإرهاب الذى يمارسه المسيحيون ضد بعضهم البعض فى أيرلندا الشمالية لا يعد شيئا ذا بال إذا ما قورن بالأعمال الوحشية والفظائع الدموية التى ارتكبتها القوات الصربية فى البوسنة والهرسك . ففى تلك البلاد تم تجويع المسلمين وتعذيبهم واغتصاب نسائهم وقتل وذبح أطفالهم وشيوخهم على أيدى الصرب . . كما تم العثور على العشرات من المقابر الجماعية فى أجزاء مختلفة من البلاد ، كما أعلن الصرب صراحة ، وعلى رؤوس الأشهاد ، أنهم كانوا يمارسون عملية تطهير عرقى ضد المسلمين لمنعهم من إنشاء دولة مسلمة فى وسط أوروبا . ولكن الأوروبيين ، على الرغم من ذلك ، ونتيجة لبعض المحاذير السياسية ، يحجمون عن وصف عمليات

التطهير العرقى بأنها كانت بمثابة مذابح جماعية ضد المسلمين حتى وإن كانت كذلك بالفعل .

ومع ذلك لم يقم الغرب فى أى وقت من الأوقات بوصف المذابح والإرهاب الذى مارسه المسيحيون الصرب ضد المسلمين بأنه إرهاب مسيحى . . ليس هذا فحسب ، بل إن قوات حفظ السلام الأوروبية قامت طواعية بتسليم الملاذات الآمنة للمسلمين إلى القوات الصربية التى قامت بعد ذلك بذبح آلاف من الشبان المسلمين دون شفقة أو رحمة . ولو افترضنا مجرد افتراض أن السلاف المسلمين هم الذين كان بحوزتهم الأسلحة والقوة والتفوق العددى ، وأن الدول الإسلامية كانت تساندهم ، وأنهم هم الذين ارتكبوا تلك الفظائع . . لو أن ذلك حدث لكان الغرب قد وقف ليصرخ بأعلى صوته بأن ذلك إرهاب إسلامى ، ولكان «الناتو» قام بتحريك قواته وتدخل من الفور وأنهى استقلال البوسنة والهرسك فى وقت وجيز .

ولكن ماذا نفعل وتلك هى الصورة التى كونها الغرب عن المسلمين ، لدرجة أنه ينسى فى كثير من الأحيان أن عدد ضحايا التطرف الإسلامى لا يكاد يذكر مقارنة بالمسلمين بل وغير المسلمين الذين تم ذبحهم على أيدى المتطرفين المسيحيين .؟ لقد بلغ سوء الفهم للإسلام فى الغرب إلى درجة أنهم يفترضون أن الارهاب جزء أصيل من التعاليم الإسلامية ، وأنه يقتصر على المسلمين فقط . وعند تقديم أدلة على أن العكس هو الصحيح ، يتم تجاهل تلك الأدلة بكل بساطة .

ولا ينفى هذه أن هناك عددا قليلا من الكتاب المسيحيين ممن حاولوا أن يكونوا منصفين وموضوعيين . . إلا أن آراء أولئك الكتاب يتم تجاهلها فى الغرب ويغض الطرف عنها ، بل ويتم فى بعض الأحيان إدانتها وتوجيه اللوم لأصحابها . أما المحاولات التى يبذلها المسلمون لتوضيح أن الأعمال الإرهابية يتم ارتكابها بواسطة جماعات خارجة عن الإسلام ، وهى جماعات فى ذلك مثل أى إنسان آخر ، فيتم أيضا غض الطرف عنها .

الأصولية

تعتبر كلمة الأصولية من أكثر المفردات تعرضا لسوء الاستخدام . ففى الوقت الحالى ينظر الكثيرون إلى الأصولية وإلى التطرف على إنهما كلمتان مترادفتان ، وبالتالى تعنيان شيئا واحدا . ولو أن تعاليم الإسلام السمحاء قد درست دراسة متأنية وكاملة ، لفهم الكثيرون أن المسلمين الجديرين بهذا الوصف حقا ، هم المسلمون الأصوليون ؛ أى المتمسكون بأصول الدين . فأصول الإسلام تقوم على السلام ، بل أن كلمة «الإسلام» فى حد ذاتها تعنى السلام . أما الأشخاص الذين يشار إليهم فى الأدبيات المعاصرة بأنهم مسلمون أصوليون فهم فى الحقيقة أبعد الناس عن اتباع تعاليم الإسلام . ليس هذا فحسب ، بل أن العكس تماما هو الصحيح . لأن أولئك الأشخاص يرفضون التعاليم الإسلامية وينحرفون عنها ، بل أن الغالبية العظمى منهم قد ارتدّت – على ما يبدو – إلى أيام الجاهلية الأولى وإلى الولاء للقبيلة على حساب الولاء للأمة والتعصب للقبيلة على حساب التعصب للدين .

وعندما يقوم الغرب بإطلاق صفة «الأصولية» على أولئك الأشخاص فإنه يكون قد أظهر افتقاره للفهم السليم للإسلام . والشيء المؤكد هو أن الغرب كثيرا ما يخفق فى تقدير المشاكل التى يواجهها العديد من المسلمين . فعندما تكون العقائد متجذرة وواسعة الانتشار يصبح من الصعب على أى إنسان أن يختلف عليها بصرف النظر عما إذا كانت تلك العقائد صائبة أم مخطئة ؛ لأن أى شخص يخاطر بإبداء وجهة نظر معارضة لها أو مختلفة معها ، سوف يكون عرضة للإتهام بالهرطقة والخروج عن الدين ، مما قد يعرضه لعواقب وخيمة . وهكذا فإننا نجد أن الأشخاص الذين يعارضون تلك الجماعات المنحرفة عن الطريق الإسلامى القويم ، يعرضون أنفسهم إلى مخاطر النبذ والإقصاء ، بل وحتى العنف . ونتيجة لذلك يلتزم الكثيرون الصمت حيال ما تقوم به تلك الجماعات من ممارسات خطأ ولا يجاهرون بمعاداتها علنا . ولكن عندما يقوم الكفار باتهام جميع المسلمين دون استثناء بأنهم إرهابيون وأنهم قوم سوء ، فإنهم فى هذه الحالة لا يقدمون العون للمسلمين الملتزمين ، وإنما يدفعونهم دفعا إلى

الارتماء فى أحضان تلك الجماعات المنحرفة .

إن الإسلام هو دين الشعوب التى سادت العالم فى يوم من الأيام ، وليس المقصود بتلك السيادة المساحة التى سيطروا عليها من الأراضى أو القوة السياسية التى توفرت لهم ، وإنما المقصود بها أنهم تفرقوا على العالم فى العلوم والفنون والتقنيات والمهارات والاستكشافات والملاحة والتجارة والصناعة . وقد حكم العرب ولمدة ثمانمائة عام أكبر إمبراطورية معروفة فى العالم حتى القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تسيد الأتراك والمغول إمبراطورية أكبر حجما من الأولى .

الإمبراطوريات كما تعرفون تمر بفترات ازدهار واضمحلال ، والإمبراطورية الإسلامية ليست استثناء من هذا المصير . ولكن الشىء المعروف بالنسبة لهذه الإمبراطورية هو أن الأوروبيين كانوا ألد أعدائها طيلة عصرها . فبعد أن اعتنق الأوروبيون الديانة المسيحية وهى من الديانات الآسيوية أيضا ، أصبحت أوروبا فى غاية التعصب والعداء للإسلام . ومنذ البدايات الأولى كانت هناك حملات متعمدة لتشويه الإسلام وتشويه التعاليم الإسلامية ، ومنع الأوروبيين من فهم الإسلام بالصورة الصحيحة خوفا من تحولهم إليه .

وليس هناك ما يدعو للدهشة إذا ما عرفنا أن سقوط الإمبراطورية التركية يرجع إلى حد كبير إلى المؤامرات والدسائس التى دبرتها القوى الأوروبية ضدها . فهذه القوى لعبت على المشاعر الوطنية العربية وقامت بتقديم الوعود بالاستقلال للعرب وحصلت منهم على التعاون المطلوب للقضاء على الحكم التركى وعلى الإمبراطورية التركية ، ولكن العرب سرعان ما أدركوا أنهم قد استبدلوا الاحتلال الأوروبى بالاحتلال التركى المسلم ، الذى وضع يده على جميع الأراضى العربية من أجل استنزاف مواردها لمصلحة شعوبه .

وعلى الرغم من أن الأوروبيين قد اختلطوا بالمسلمين عن قرب فى البلاد التى احتلوها سواء فى منطقة الشرق الأوسط أو منطقة الشمال الإفريقى ، إلا أنهم لم يبذلوا أى جهد لفهم الدين الإسلامى وتأثيره على حياة وتفكير المسلمين . كان هناك نوع من العداء الكامن الذى

لم يحمله الأوروبيون لأى من أصحاب الديانات الأخرى ، وإنما اقتصر فقط على المسلمين . وعلى الرغم من أن بعض الأجناس التى قدر لها التعامل عن قرب مع المسلمين قد قبلت الإسلام إلى حد ما ، إلا أن الأوروبيين رفضوه رفضا يكاد يكون جماعيا . وعلى الرغم من أن سكان أوروبا المعاصرين قد لا يكونون مسيحيين متعصبين إلا أن موقف أوروبا وعداءها للإسلام والمسلمين قد بقى كما هو دون تغيير . ولم تتردد أوروبا فى التعبير عن عدائها للمسلمين بأساليب بالغة القسوة ، حيث تم عزل أمم بأكملها وفرض الحصار عليها ومعاقبتها لمجرد أخطاء ارتكابها البعض . ليس هذا فحسب ، بل إن قوات حلف الأطلنطى التى كان يفترض إنها ذهبت إلى يوغوسلافيا لحماية الأقليات المسلمة هناك ، تركت الصرب يقومون بذبح المسلمين دون شفقة وبلا رحمة ، ودون أن تحرك ساكنا .

أليس من حق المسلمين بعد كل ما لحق بهم من ظلم وعسف أن يشعروا بالمرارة وأن يحاولوا رفع الضيم الذى حاق بهم؟ هل هناك ما يدعو للعجب بعد كل ذلك إذا لجأوا إلى العنف؟ وبالرغم من ذلك كله فإن عدد المسلمين الذين اختاروا العنف كان محدودا .

يجب أن يكون الأوروبيون قادرين على فهم هذا ؛ لأن ما حدث من مذابح ضد المسلمين فى البوسنة والهرسك ليس إلا ردة فعل من قبل الأوروبيين فى البلقان ، للقهر المتخيل الذى مارسه ضدهم قوم من ملتهم ومن شعبهم ، أو حتى من غيرهم . بيد أن أوروبا لم تقم بأى محاولة لتفهم أو تقدير الإحباط الذى يشعر به المسلمون . صحيح أن زوال أمجاد المسلمين والتدهور الذى شهدته ممارساتهم وتفسيرهم الخاطئ للإسلام يعود إليهم بالدرجة الأولى ، إلا أننا يجب ألا نغفل أن الدعاية الأوروبية المضادة للمسلمين ، وسوء الفهم المتعمد من جانبها للدين الإسلامى ، قد أسهمت فى مضاعفة إحباطات المسلمين .

وماليزيا على سبيل المثال ، دولة ذات أغلبية مسلمة وحكومتها يغلب عليها المسلمون . وعلى الرغم من أن المسلمين يتمتعون بأغلبية كافية تخولهم حكم البلاد بمفردهم ، إلا أنهم اختاروا ألا يفعلوا ذلك ، قاموا طواعية باقتسام السلطة مع الأقليات غير

المسلمة .

وفى عام ١٩٦٩ وتحديدا فى الثالث عشر من مايو اندلعت اضطرابات عرقية فى ماليزيا أسفرت عن مصرح حوالى ٢٠٠ شخص معظمهم من غير المسلمين . ومن الفور تم إعلان حالة الطوارئ وتولى الملاويون المسلمون الحكم . وعقب ذلك أعلنت الصحافة الأوروبية أن الديمقراطية فى ماليزيا قد ماتت ، واعتبرت ماليزيا دولة نامية تضاف إلى باقى الدول النامية التى سينتهى بها الحال فى النهاية إلى مزبلة التاريخ .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن ماليزيا التى لا يزال المسلمون يحكمونها ، تعتبر الآن دولة مستقرة ، يسود ربوعها السلام ، وتتمتع باقتصاد مزدهر ينمو بنسبة ٨ فى المئة سنويا منذ عقد كامل من الزمان تقريبا . ومسلمو ماليزيا كما هو واضح ليسوا من الإرهابيين وإنما هم شعب أثبت قدرته على العيش والعمل مع غير المسلمين لبناء دولة متحدة ومتقدمة .

وماليزيا دولة تخلو من مظاهر العداء والبغضاء سواء بين المسلمين بعضهم بعضا ، أو بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلى الرغم من أن دين ماليزيا الرسمى هو الإسلام ، إلا أننا نرى المعابد البوذية والهندسية والطاوية وكذلك الكنائس المسيحية فى كل مكان . كما أن الأعياد الدينية لمختلف الأعراق والأديان يتم الاحتفال بها من قبل الجميع . وأتباع الأديان الأخرى فى ماليزيا لا ينظرون إلى المسلمين على أنهم إرهابيون ، ولا ينظرون إلى الإسلام على أنه دين عنف .

كان الظن بأن ينظر المسلمون وغير المسلمين إلى ماليزيا على أنها نموذج لممارسة الإسلام الصحيح ، ولكن ما حدث هو أن الغرب ووسائل إعلامه يرفضون الاعتراف بأن مسلمى ماليزيا يعتبرون تجسيدا للتعاليم الإسلامية الحقة . وبدلا من ذلك فإنهم أبوا إلا أن يحاولوا إظهار مسلمى ماليزيا على أنهم يجسدون الزيغ والضلال . ولذلك نراهم دائمى السؤال عن الأصولية فى ماليزيا ، وعندما يتم إخبارهم أنه لا يوجد هناك مسلمون أصوليون بالمعنى الموجود فى أذهانهم ، لا يصدقون ما يقال لهم . وهكذا نرى أن التحيز ضد الإسلام

وضد المسلمين مازال قائما حتى مع دولة مثل ماليزيا .

والحقيقة أن الإسلام دين يسيء الآخرون تفسيره وفهمه دائما ، هذا الفهم الخطأ للإسلام ، والتحيز الواضح ضده ، هو ما يدفع غير المسلمين ، بل وبعض المسلمين أحيانا إلى النظر إلى الإسلام باعتباره عقبة تحول دون قيام علاقة سلمية طيبة بين المسلمين وغير المسلمين ، بل وبين المسلمين بعضهم بعضًا كذلك . والطرفان ينظران إلى هذا الدين الذى حقق العظمة والشموخ للعرب ، وبنى إمبراطورية متقدمة ، باعتباره مسئولا عن المشاكل والصراعات التى قامت بين المسلمين وغير المسلمين .

ويميل بعض المسلمين الذين لا يعرفون تعاليم الإسلام ، والذين يشعرون بالإحباط بسبب الإخفاقات التى منى بها المسلمون والمشاكل التى تعانى منها بلادهم ، يميلون إلى السخرية من الدين الإسلامى ، بل وإدانته . كما أن آخرين أيضا ونتيجة لما يحسون به من إحباط وخيبة أما فى المجتمعات الإسلامية التى يعيشون فيها ، ونتيجة لجهلهم بتعاليم الإسلام وتاريخه ، يقومون بالتلميح إلى أن فى القرآن الكريم ذاته أخطاء وأنه فى حاجة إلى مراجعة وإعادة النظر .

وعندما يقوم مثل أولئك المسلمين بالتعبير عن إحباطاتهم علنا ، فإن وسائل الإعلام الغربية التى تعتبر الموجه الرئيسى للفكر الثقافى الغربى ، سرعان ما تختلق أبطالا من مثل أولئك الأشخاص الجهلة دينا والأميين تعليما . ليس هذا فحسب ، بل إننا نرى أن الدول الغربية تنعم على مثل أولئك الأشخاص بالجوائز وتحولهم إلى أبطال وتوحى بأنهم يتصدون للظلم وعدم العدالة التى يحاولون ربطها بالإسلام وبكل ما هو إسلامى .

إن الغرب يتمنى أن يسمعنى وأنا أقوم بإدانة الإسلام بتحميله مسئولية ما لحق بالمسلمين والدول الإسلامية من إخفاقات ، ولكننى لن أقوم بذلك لأننى أعلم تمام العلم أن اهتمام الغرب بالإسلام لا يزيد عن كونه اهتماما أكاديميا محصورا فى أروقة الجماعات . إننى أشك فى أن كل ما يريدونه هو أن يروا الإسلام وقد اندثر عن الوجود تماما كما حدث مع

الشيوعية . ولكن هذا الهدف لن يخدم قضية الحوار بين الأديان أو العلاقة الدنيوية بين المسلمين وغيرهم . إن الإجابة تكمن فى تصحيح التفسيرات المتحيزة وغير الصحيحة التى يقدمها بعض العلماء والتخلى عنها . . لماذا؟ لأن أولئك بصرف النظر عما إذا كانوا متفقهين فى تعاليم الدين ، وبصرف النظر عن عدد أتباعهم أو مدى رسوخ تعاليمهم ، فإنهم ليسوا أنبياء فى نهاية المطاف . فليس هناك سوى نبى واحد للمسلمين جميعا وهو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء الذى جاء برسالة الإسلام ونشرها بين العالمين . ومحمد - صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم ، لا يمكن أن يكونا على خطأ ، ولكن مفسرى الإسلام يمكن أن يكونوا كذلك .

وإذا كان الإسلام يبدو دينا جامدا ومتصلبا ، فما ذلك إلا لأن الفقهاء والعلماء قد جعلوه كذلك . حيث مالوا لأن يكونوا دائما جامدين وغير متسامحين عندما قاموا بتفسير تعاليم الإسلام أيام مجد الإمبراطورية ، أولئك المفسرون وأتباعهم كانوا فى تلك الأيام لا يطيقون أن يختلف معهم أحد ، ولا أن يبدى أحد اعتراضا على ما ينطقون به من أحكام وتفاسير . ولذلك فإنه حتى بعد أن فقد المسلمون سطوتهم وأمجادهم بعد سقوط الإمبراطورية الإسلامية ، وبعد أن تغيرت الظروف بوقت طويل ، نرى أنه لا يزال هناك من يحض المسلمين على التمسك بالتفاسير التى لم تعد ملائمة أو مناسبة أو قابلة للتطبيق فى زماننا الحاضر .

إن ما يجب على المسلمين فعله هو أن يعودوا إلى كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ، وأن يقوموا بتفسيرها فى ضوء معطيات العصر الحديث . لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يتغير العالم ، وليس على الناس أن يرفضوا شيئا أراده الله . والمسلم الحق هو من يلتمس الإرشاد والهداية من آيات القرآن ونصوص الحديث ، ويفهمها فى ضوء متغيرات العصر . إن الإسلام لم يكن موجها للعرب فقط فى القرن السابع الميلادى ، وإنما هو دين لكل العصور ولكل الشعوب . وإذا ما فهمنا نحن المسلمين هذه النقطة ، فإن ذلك سوف يساعد على تضييق

مساحة سوء الفهم السائدة بيننا للإسلام . وإذا ما استطاع غير المسلمين فهم الصعوبة التى يعانيها المسلمون فى محاولتهم للتكيف مع تطورات العصر ، فإنهم لن يسيئوا عندئذ فهم الإسلام والمسلمين كما يفعلون الآن ، عندها سوف يتحول العالم إلى مكان أفضل تسوده المحبة والوئام بين جميع البشر على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم ومواقعهم .

الفصل العشرون

الإسلام وحركة الدعوة العالمية *

يتضح لنا من دراسة تاريخ الإسلام أن الغرض من الدعوة الإسلامية هو نشر تعاليم الإسلام بين غير المؤمنين ، لإقناع أكبر عدد من الناس بالهداية والالتحاق بصفوف المسلمين . بيد أننا عندما نتحدث عن الدعوة اليوم ، يبدو أننا نقصرها على نشر تعاليم الدين بين إخواننا المسلمين ؛ أى بين أناس مؤمنين فى الأصل . ويبدو أيضا أن الغرض الأساسى من الدعوة اليوم قد أصبح هو تعليم المسلمين شئون دينهم دون أدنى اهتمام بنشر الدين بين غير المسلمين . والحقيقة أننا قد نبدو أحيانا غير مبالين إذا حدث عن غير قصد أثناء عملية تعليم المسلمين أن أعطينا صورة منفرة عن الإسلام لغير المسلمين . إننا نقوم بذلك بالفعل عندما نتصرف بعدائية لا مبرر لها نحو الآخرين أو عندما نتبنى موقفا متعاليا تجاههم .

وقد يقول قائل ، إننا يجب ألا نهتم برأى غير المسلمين فينا ما دمنا نؤمن بأننا نقوم بتكوين مسلمين صالحين من بين جموع المسلمين . وهذا القول مردود عليه ، لأننا إذا لم نهتم بذلك الأمر ، فسوف نكون بذلك رافضين ما أمرنا به ديننا الحنيف من تبليغ للرسالة ، أى التبشير بالدين والعمل على نشره بين غير المسلمين .

ولنسأل أنفسنا ، كم يبلغ عدد المسلمين الآن ، وكم كان عددهم أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وهل كان ذلك العداء ليتحقق لو لم يكن الرسول الكريم مهتما بنشر الدعوة بين أولئك الذين لم يكونوا قد آمنوا بعد؟

إننا نعرف أن الملاويين قد دخلوا الإسلام منذ حوالى ٨٠٠ عام ، وأن السبب فى

* كلمة رئيسية فى الدورة العاشرة للجنة التنسيق التابعة للعمل الإسلامى المشترك فى مجال الدعوة فى كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ١٢ يناير ١٩٩٦م .

دخولهم إلى الإسلام يرجع إلى أن التجار العرب والهنود الذين جاءوا إلى سواحلنا ، فهم لم يدخروا وسعا فى شرح الإسلام لأجدادنا . . وتكللت الجهود التى بذلوها فى هذا الصدد باعتناق أجدادنا للإسلام دون أى نوع من الضغط أو الإكراه . ولو أن التجار العرب والهنود اكتفوا فقط «بفرض العين» أى بأداء ما هو مطلوب منهم ، من فرائض وعبادات دون أن يهتموا بصورتهم فى نظر المواطنين الملاويين ، لما كان الملاويون قد أصبحوا مسلمين كما هم الآن . . إننا نشعر اليوم بالامتنان نحو هؤلاء ، حتى لو لم يكن الآخرون مهتمين بكوننا مسلمين أم لا .

والحقيقة ، أننا لو رجعنا إلى الوراء أكثر من ذلك لكان من الواجب أن نعترف بأن الرسول الكريم لم يقم فى يوم من الأيام باتخاذ موقف غير مبال نحو أفراد أسرته ممن كان يتنابهم الشك فى دعوته إلى الدين الجديد ، أو نحو عبدة الأصنام فى الجزيرة العربية . بل الواقع هو أنه كان مهتما غاية الاهتمام بشرح الإسلام لهم لإقناعهم باعتناق الدين . ولأنه فعل ذلك ، فإن الإسلام انتشر بين أسرته ورفاقه وصحابته وبين أهل المدينة ، وبين أهل الجزيرة العربية وما وراءها . وإذا كنا نجتمع اليوم فى هذا المكان ، فلأن المسلمين فى الأزمان الماضية كانوا يهتمون بغير المسلمين حتى وهم يسعون إلى ترسيخ إيمانهم وفهمهم للدين الذى قبلوه أو الذى انتقل إليهم أبا عن جد . . آخذين ذلك بالاعتبار ، سيكون من الخطأ ألا نهتم بما نتركه من أثر للإسلام والمسلمين على غير المسلمين ، عندما نقوم بالدعوة بيننا ، وقد لا نوفق فى إقناعهم باعتناق الإسلام ، ولكن من المهم أن نقوم بشرح ديننا لأولئك الناس لكى يفهموه بصورة صحيحة بدلا من أن تتنابهم الشكوك والهواجس نحو الإسلام بسبب افتقارهم لمعرفة الحقائق المتعلقة به .

كان بلال العبد الحبشى من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام ، ولا شك أنه ما كان لعبد حبشى أن يقتنع باعتناق دين جديد لو أنه لم يلق من الرسول وصحبه كل رفق وود فى المعاملة ، كان ذلك فى تلك الأيام الباكرة من عمر الإسلام ، حيث لم تكن الدعوة ولا تعاليم

الإسلام قد انتشرت بشكل واسع . هكذا كان إيمان بلال على الرغم من عدم معرفته الكاملة بتعاليم الإسلام . ذلك الإيمان الذى جعله يتحمل العذاب من كفار قريش بسبب اعتناقه لهذا الدين . هكذا كـان دوره فى تلك الأيام البـاكرة من عـمر الإسلام ، وهو الدور الذى يجعلنا نبجل سيدنا بلال بإطلاق اسمه على أحد كبار مسئولى المساجد فى ماليزيا .

إن اكتمال المعرفة بالإسلام أمر فى غاية الأهمية بالنسبة للأمة الإسلامية ولكن سلوك الأمة لا يقل أهمية عن ذلك بالنسبة للدعوة . لقد تأثر قبول بلال للإسلام بالطريقة التى عامله بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، بالقدر نفسه الذى تأثر به بإيمان الرسول . ويتضح من ذلك أننا لا يمكن أن ننجح فى الدعوة ما لم يكن سلوكنا متناسبا مع ما ننادى به من إيمان ومتفقا مع تعاليم ديننا الحنيف .

إننا نقول إن ديننا يأمرنا بأن نفعل الخير وأن نبتعد عن الشر ، وهذا يعنى بوضوح أن المعرفة بالإسلام ليست هى الشىء الوحيد المطلوب منا ، وإنما نحن مطالبون أيضا بأن نفعل الخير وأن نمتنع عن الشر . وبالتأكيد أن ما نفعله فى مثل هذه الحالات ليس من أجلنا وحدنا أو من أجل أن ندخل الجنة . ولو كـان الأمر كذلك فـمعناه أننا أنانيون ، والأنانية خلق ينهى عنه الإسلام . فهناك التزام يتعين علينا أن نقوم به تجاه الأمة على الأقل إن لم يكن نحو من هم غير مسلمين . ما دمنا نقوم بفعل الخير ونبتعد عن الشر فإن غير المؤمنين سوف يحترمون إيماننا ويحترمون ذواتنا . والسؤال الآن هو : هل هناك أى خطأ فى أن نجعل من الإسلام والمسلمين شيئا محترما حتى بنظر غير المسلمين؟

إننا نجد الكثيرين منا عندما يقومون بأداء الواجبات المنوطة بهم فيما يتعلق بنشر الدعوة الإسلامية فيما بيننا ، لا يعيرون اهتماما كثيراً لموضوع ما إذا كان الإسلام والمسلمون يحظون بالاحترام من قبل غير المسلمين . إن كثيرين منا يهتمون فقط بنشر ما يعرف باسم التعاليم الصحيحة للإسلام . الأكثر من ذلك أننا ننظر إلى إخواننا فى الدين كما لو كان إيمانهم بالإسلام منقوصا أو غير كامل ، أو على أنهم ليسوا مسلمين بما فيه الكفاية . يضاف إلى ذلك

أننا قلما نتسم باللطف واللين فى كلامنا أو فى نصائحنا التى نسديها للغير . إننا نبدو كما لو كنا نطلب من المسلمين ألا يفعلوا شيئا فى حياتهم سوى أداء الفروض والنوافل والشعائر الأخرى التى نقوم نحن باختراعها ، معتقدين أنها فى صالح المسلمين وأنها من علامات التقوى . وفى حال عدم قيام المسلمين الآخرين بممارسة تلك الشعائر ، فإننا نقوم بانتقادهم واتهامهم بأنهم ليسوا مسلمين . وعندما نقول لهم ذلك فإن معناه أننا نقول لهم ضمنا إن إيمانهم منقوص ، أو أنهم يفتقرون إلى التقوى والصلاح . وفى حالات قصوى يصل بنا الأمر إلى أن نرفض مثل أولئك المسلمين رفضا كليا لأنهم لا ينتمون مثلا إلى حزب سياسى معين .

إننا ننسى ونحن نقوم بذلك أن القرآن الكريم قد نص على أننا يجب ألا نتهم الآخرين بضعف الريمان ، لأن الحقيقة قد تكون هى أن إيماننا نحن هو المنقوص وليس إيمانهم . إننا ننسى أن الله سبحانه وتعالى قد قال فى محكم تنزيله (الآية ١٢٥ من سورة النحل) : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ صدق الله العظيم .

يجب أن نعمل على كسب قلوب المسلمين وغير المسلمين على حد سواء عن طريق القدوة الحسنة قبل الوعظ . واليوم نجد الأمة الإسلامية فى حال يستحيل معها أن ينظر الآخرون إليها باعتبارها نموذجا يحتذى أو قدوة يقتدى بها ، ناهيك عن أن يتبعوا الدين الذى نؤمن به . إننا لا نستطيع أن نعلن أمام الآخرين أننا القدوة الحسنة ، وكما جاء فى سورة آل عمران الآية - ١١٠ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ صدق الله العظيم . ولكن هل نستطيع أن نقول حقا وصدقا أننا بما نقدمه من قدوة للآخرين ، خير أمة أخرجت للناس فعلا؟

واليوم نجد أن العالم الاسلامى فى حالة من الاضطراب والفوضى ، فنحن نقاتل بعضنا بعضا ولا نستطيع أن نتفق على التعاون فيما بيننا كى نساعد أنفسنا ، ونحن كذلك

ضعفاء وغير قادروين على الدفاع عن أنفسنا . والأسوأ من ذلك أننا نضطر فى العديد من الحالات إلى أن نقف إلى جانب أولئك الذين نشك فى حسن نواياهم تجاهنا ، نضطر إلى ممالأتهم لأننا ضعفاء وفى حاجة إلى مساعدتهم .

المسلمون اليوم فقراء ويحتاجون إلى المعرفة الأساسية التى تمكنهم من إتقان المهارات اللازمة للعيش فى العالم المعاصر ، ونحن نقوم أحيانا بتعزية أنفسنا بالقول بأن هذا العالم أو هذه الدنيا الفانية ليست لنا ، وأن مملكتنا ودنيانا فى الدار الآخرة . إننا نوهم أنفسنا بذلك على الرغم من أنا نعلم علم اليقين أن ما نقوله لا يتماشى على الإطلاق مع زعمنا بأننا خير أمة أخرجت للناس .

نحن نعرف أن الفقر كفيل بإضعاف الإيمان ، ولكننا لا نفعل شيئا من أجل القضاء على هذا الفقر ، وإنما نفضل أن نقرن بينه وبين التقوى على الرغم من أن تعاليم الإسلام تقول لنا إنه ليس هناك بين الفقر والكفر إلا خطوة واحدة .

ربما أننا حين نقوم بنشر كلام الله أى الدعوة إلى رسالته ، فإن كل ما نريده هو أن نقوم بشرح القرآن والحديث الصحيح فقط . قد يكون الأمر كذلك بالفعل ، ولكن الأمر مثير للشك إذا لم يكن لدى المؤمن شئ طيب يمكن أن يقدمه كدليل على فضل الله على المسلمين الأتقياء . وإذا كان العلماء بيننا فقراء للغاية فإننا لن نكون قادرين على إقناع أحد بأننا خير أمة أخرجت للناس ، وإذا كانت الدول الإسلامية فى غاية الضعف لدرجة أنها تعتمد اعتمادا كاملا على الإحسان والمساعدات المقدمة من الدول والقوى غير الإسلامية ، وإذا كنا نريد أن نبيع الأخوة الإسلامية من أجل أن نظل على قيد الحياة ، وإذا كانت الأخوة الإسلامية سوف تتحول إلى ملهاة بسبب قيامنا بمحاربة بعضنا البعض فهل نستطيع بعد كل ذلك أن نقنع أنفسنا بأننا نتبع تعاليم الإسلام الصحيحة؟ وهل نستطيع بعد كل ذلك أن نقنع الآخرين أن الإسلام هو الطريق القويم للبشر أجمعين؟

إن الكلمات يمكن أن تكون مقنعة ، ولكن هل نستطيع فى ظل الظروف غير المواتية

والإخفاقات الواضحة التى نعانى منها أن نتوقع أن نقنع الآخرين وأن نكون نحن أنفسنا مقتنعين؟ إن المسلمين يتعرضون اليوم إلى الذبح على أيدى أولئك الذين يحتلون أرضهم، يعانون مصاعب ومشاق جمة وإذلالاً لا يمكن وصفه، فنساؤهم تغتصب، ورجالهم يعذبون ويقتلون، وهم يأتون إلينا هنا كى نساعدهم. فهل من الإسلام فى شئ أن نمتنع عن تقديم العون والمساعدة لهم؟ هل الخطأ هنا فى الإسلام أو فى تفسيرنا نحن لمعناه؟ هل يجب علينا أن نكتفى بأن نجعل المسلمين الآمنين بالفعل أكثر تقوى وورعا.. أم أن من واجبنا أيضا أن ندافع عن إخواننا فى الدين وأن نحميهم؟ ألا نعرف أنه فى الوقت الذى نكون فيه مشغولين بأن نجعل من أنفسنا مسلمين حقا، أن يوجد هناك مسلمون من بلاد تعرضت للغزو من غير المسلمين، أو من الذين أجبروا على طلب المأوى فى بلاد غير إسلامية، قد فقدوا إيمانهم وتخلوا عن دينهم، بل وتحولوا إلى أديان أخرى؟ أم إننا نعرف ولكننا لا نبالى مادام بإمكاننا أن نضمن لأنفسنا الجنة فى الدار الآخرة؟ هل نحن متأكدون حقا بأنه سوف يكون لنا مكان فى الجنة ونحن الذين نهمل إخواننا فى الدين ممن ابتلاهم القدر بسوء الحظ والتعاسة؟ هل الإسلام يدعو إلى الأنانية التى تجعلنا نتجاهل احتياجات إخواننا لأننا مشغولون بمحاولة الحصول على مزايا لأنفسنا؟

إننا هنا اليوم كى نتناقش فى الإسلام، وكى نناقش حركة الدعوة. ولذلك فإننى أدعوكم أيها الأخوة إلى أن تكونوا مخلصين فى إيمانكم، صادقين مع أنفسكم. وإذا ما كنا نعتقد للحظة واحدة أننا لم نخطئ فإنه يمكننا فى هذه الحالة أن ننسى الحقائق ونركز على أنفسنا. ولكننى أشعر بأن البعض منا، على الأقل، غير مهتم بالظهور بمظهر الأشخاص الذين يدعون أنهم أكثر إيمانا من الآخرين، وإنما يعتبرون الدعوة واجبا نحو إخواننا ونحو البشرية جمعاء.

الفصل الحادى والعشرون

محنة الأمة الإسلامية *

فى هذه المناسبة المباركة أرى أن من الواجب علينا أن نشيد بفضل الآباء المؤسسين لهذه المنظمة ، الذين كان لرؤيتهم وبصيرتهم الفضل فى منح الأمم الإسلامية هذا المنتدى الذى لا غنى عنه ، من أجل السعى نحو تحقيق أهدافهم وتطلعاتهم المشتركة . إن ماليزيا لتفخر فى هذا الخصوص بأنها كانت من ضمن الدول التى ساهمت فى تعزيز هذه المنظمة خلال سنوات تكوينها .

عندما نعود إلى الماضى وتحديدا لخمسة وعشرين عاما خلت ، فإننا نستطيع أن نفخر بما فيه الكفاية بحقيقة أن منظمة المؤتمر الإسلامى قد استطاعت التعبير عن الاهتمامات والمصالح المشتركة للدول الأعضاء وللأمة الإسلامية . كما استطاعت أيضا أن تجعل هذه الموضوعات فى صدارة الأجندة الدولية . قد نجحت المنظمة فى الحصول على اعتراف فيما يتعلق بمتابعتها لقضية تحرير فلسطين والقدس . ولقد حاولت محاولات مستمرة لإيجاد تسويات سليمة للصراعات والمنازعات التى أثرت على العديد من الدول الأعضاء ، يضاف إلى كونها قد تطورت تنظيميا من مجرد منظمة مهتمة فى المقام الأول بالتعامل مع التحديات التى أعقبت مأساة المسجد الأقصى ، إلى منظمة قادرة على تعزيز التعاون الاقتصادى والتجارى والثقافى بين الدول الأعضاء . إن توسيع نطاق العضوية من ٢٢ دولة فى بداية عام ١٩٦٩ إلى ٥٢ دولة اليوم ، والتى تتضمن على وجه الخصوص الدول المستقلة حديثا فى آسيا الوسطى ، قد ساعد على تعزيز المنظمة وإثرائها أكثر من ذى قبل .

---

* كلمة ألقيت فى مؤتمر القمة الإسلامى السابع الذى عقد فى الدار البيضاء - المغرب ، بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٩٤م .

وعندما نتحدث عن الخطوات التى قطعناها ، علينا فى الوقت نفسه ألا ننسى الجوانب التى أخفقنا فيها ، فقد كان بإمكاننا أن نحقق أكثر مما حققناه لو أننا كنا أكثر اتحادا ، كما كان يمكن لصوتنا أن يكون أكثر قوة فى الشئون العالمية لو أننا كنا أكثر تلاحما وتماسكا . وكان بإمكاننا أن نكون أكثر صدقية لو أننا كنا أكثر كفاءة ، وأكثر التزاما بقضيتنا . وكان يمكن للمسلمين أن يكونوا فى مرتبة عالية من الاحترام والتقدير فيما لو أن اقتصاديات بلدانهم كانت أكثر قوة وحكوماتهم أكثر كفاءة واستقرارا .

لذلك فإن من الملائم فى هذه المناسبة الميمونة أن نقوم بالنظر فى نواحى ضعفنا وكذلك فى نواحى قوتنا ، وأن نعيد تأكيد تصميمنا الصادق على البحث عن طرق وأساليب تمكننا من تقوية منظمتنا ودعمها بحيث تتمكن من القيام بالدور المنوط بها باعتبارها صوتا للتضامن والتعاون الإسلامى .

وبهذه المناسبة أيضا قد يكون من الملائم بالنسبة لنا أن نتنبه إلى التحولات السريعة التى تجرى فى العالم منذ انتهاء الحرب الباردة . فالنظام أو بالأصح «عدم النظام» العالمى الجديد سوف يكون له حتما تأثير علينا وعلى مصالحنا . إن هذه المنظمة وهذه الأمة فى حاجة إلى التزود بالوسائل الملائمة لمجابهة التحديات والإفادة من الفرص التى سيتيحها القرن الحادى والعشرون . ونحن بحاجة لأن نكون أكثر جدية وأكثر التزاما نحو تعزيز فعالية المنظمة ، متى ما طلب منا أن نفعل ذلك . كما أننا بحاجة فى الوقت نفسه لأن نطرح الممارسات والقيم التى لا علاقة لها بالإسلام أو بالمنظمة أو بالزمن ، وأن نعمل فى الوقت نفسه على تحقيق أكبر قدر من النظام فيما يتعلق بطريقة التزامنا بالفضائل الإسلامية التى ساعدت فى القرن الأول الهجرى على نشر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها .

لقد اعترف اجتماعنا هنا بهذه الحقائق الجديدة ، وبناء عليه وافق وزراؤنا على تكليف مجموعة من الشخصيات البارزة لكى تضطلع بحصر الإنجازات التى حققناها ومعالجة نواحى الضعف التى نعانى منها ، وتقديم المشورة التى تساعد على دفع المنظمة على طريق

المستقبل الصحيح . وسوف نقوم نحن رؤساء حكومات الدول المشاركة فى المؤتمر بالمصادقة على إجراءات وقرارات هذه اللجنة ، وإننى لواثق بفضل ما تتمتعون به جلالتكم من حكمة ، بأننا سوف ننجح فى تطوير استراتيجية لإعادة إنشاء الوحدة الإسلامية واستعادة مصداقيتنا كقوة من أجل تعزيز العدل والمساواة فى هذا العالم .

وفى هذه العجالة ، أود أن أركز بشكل مباشر على الأمور التى تهم الأمة والدول الإسلامية . إذ يجب علينا بادئ ذى بدء أن نعترف بأن الأمة والدول الاسلامية مازالت تحت التهديد ومازالت تعانى من الضعف الشديد . لقد ألحقنا بأنفسنا ضررا ما بعده ضرر بافتقارنا إلى التعاون بسبب صراعاتنا العنيفة المتكررة من أجل السلطة والنفوذ فى بلداننا . ونتج عن ذلك أننا أصبحنا فى وضع العاجز عن تقديم أى مساعدة لإخواننا عندما يكونون فى حاجة ماسة إليها . ولا يقتصر الأمر على ذلك وإنما يضاف إليه أن الأمة والدول الإسلامية لم يعد بمقدورها التأثير على الوكالات والمنظمات العالمية التى تؤثر القرارات التى تتخذها والإجراءات التى تقوم بها ، على مصير اخواننا فى الاسلام .

إننا ندرك أيضا أن هناك فى مجتمعنا ، كما هو الأمر فى باقى المجتمعات الأخرى ، جماعات خارج بنية السلطة تشعر بالمرارة والإحباط تجاه ما يحدث داخل المجتمع . وعلى الرغم من ذلك يجب أن يقال فى هذا السياق أن التطرف والعنف ليسا هما الحل ، لأن التطرف يولد تطرفا مضادا ، والعنف يولد العنف . ولذلك فإن مثل أولئك الناس عندما ينجحون فى الوصول إلى سدة الحكم ، سوف يتعرضون إلى التطرف نفسه والعنف ذاته ، اللذين اتبعوهما من قبل مع منافسيهم .

وخلاصة القول إن الإسلام والأمة الإسلامية سوف يظلان على ضعفهما ، وسوف يستمران فى القيام بدور أشبه بمخلب القط فى اللعبة السياسية للأمم الكبرى المهيمنة على الشعوب الأخرى .

إننا لا نستطيع أن نحقق كل الأشياء التى نرغب فى تحقيقها بين عشية وضحاها ، لكننا

يمكن أن نسرع خطواتنا على الطريق المؤدية إلى القوة والمجد ، ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت ، وإلا فيجب علينا أن نقنع بالمكاسب الصغيرة ما دمنا غير قادرين على تحقيق قفزات نوعية .

إن معظمنا ، على ما أعتقد ، ليسوا سعداء بمسيرة عملية السلام فى الشرق الأوسط ، نظرا لأن الإسرائيليين ظلوا متباطئين وغير صادقين ، ولكن ذلك يجب ألا يدفع الأطراف المتنازعة إلى تقويض عملية السلام ، حيث لن يوصلنا ذلك إلى شئ . ولو نجحت عملية تخرجت مسيرة السلام ، فلن يكون أمامنا فى هذه الحالة سوى أن نبدأ من جديد . والسؤال هو : كيف نعتقد أن الاستراتيجية التى لم تصل بنا إليالنتيجة المأمولة بعد سنوات من الكفاح الباهظ الثمن ، يمكن أن تحقق النجاح إذا ما بدأنا من جديد؟ إننى أناشد الأخوة من المناضلين الفلسطينيين المنتمين إلى مختلف ألوان الطيف السياسى ومختلف الاتجاهات ، أن يوحدوا صفوفهم ويشحذوا عزائمهم بما يمكنهم من تعزيز المكاسب القليلة التى حققوها حتى الآن وبمرور الوقت سوف يكونون قادرين على تحقيق هدفهم النهائى . إنه من غير المعقول أن نتصور أننا بقتال بعضنا بعضا سنكون قادرين على دفع قضيتنا قدما . إن ذلك لن يترتب عليه – حتى ولو دون قصد – سوى تحقيق الفائدة لإسرائيل وغيرها من أعداء الإسلام .

أما فيما يجرى بالبوسنة والهرسك ، فيجب أن نعترف بأننا لم نكن فاعلين بالقدر المطلوب ، إن لم نكن غير فاعلين على الإطلاق . لقد أعلنها الأوروبيون صريحة بأنهم سوف يتركون إخواننا فى البوسنة والهرسك تحت رحمة السفاحين الصرب .

وإذا ما فعلوا ذلك فإن ذنبنا لن يكون أقل من ذنبهم وخطأنا لن يقل عن خطئهم ، لأننا تركنا إخواننا المسلمين هناك تحت رحمة المعتدين الصرب منذ زمن طويل .

هناك الكثير مما نستطيع عمله ، ولست فى حاجة لأن أسهب فى هذا الموضوع الآن ، لكننى أكتفى بالقول إن كل ما نريده هو توفر الإرادة السياسية . إن ما يدعونا الإسلام للاضطلاع به واضح وضوح الشمس ، وقيامنا أو عدم قيامنا بما يتعين علينا أن نقوم به هو

مقياس إيماننا من عدمه .

إننى على يقين من أننا جميعا هنا اليوم لأننا عاقدون العزم على الاضطلاع بمسئولياتنا الجماعية . وماليزيا مستعدة للمساهمة حتى وإن كان ما ستقدمه قليل من أجل حل المشاكل والصعاب التى تعترض طريقنا .

نسأل الله أن يهدينا وأن يمنحنا من لدنه الشجاعة والعزم والقدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة وتحقيق النجاح فى مساعينا .

الفصل الثاني والعشرون

بعث أمجاد الأمة الإسلامية *

إن مهرجان من هذا النوع يجب أن يساعد على تنوير المسلمين وغير المسلمين على حد سواء ، بإنجازات المسلمين فى الماضى ، ومع ذلك فإن هذا ليس هو الهدف الأساسى من إقامة هذا المهرجان ، لأن الهدف الأكثر أهمية هو أن نبين للمسلمين فى عالم اليوم أنهم إذا كانوا راغبين حقا فى اكتساب المعارف اللازمة وتسخيرها لمصلحة الأمة ، فإنه ليس ثمة ما يحول دون القيام بإحياء أمجاد وعظمة الحضارة الإسلامية .

بعد أن انتقل الرسول - صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ، انتشر الإسلام انتشارا واسعا خارج العالم الإسلامى حتى غطى ثلاثة أرباع العالم المأهول فى ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والتطور قد لعبا دورا مهما فى ذلك المجال ، إلا أن إسهام المسلمين فى مسيرة الحضارة الإنسانية بصفة عامة ، قد تمثل فى مجال العلوم والرياضيات والطب والفلك وغيرها من مجالات المعرفة الإنسانية ، التى ما زالت آثارها ماثلة حتى الآن ولقد كان ذلك ممكنا نظرا لأن السعى إلى المعرفة فى الفترة الباكرة من ظهور الاسلام لم يكن يعوقه شىءٌ من جنس تلك التفسيرات الضيقة للدين التى نسمعها فى أيامنا هذه . وبكلمات أخرى يمكن القول إن المسلمين الأوائل قد اقتدوا بسيرة الرسول الكريم فى القيادة وفى الحصول على العلم والثروة دون إغفال القيام بالعبادات المفروضة عليهم . إن مسيرة الحضارة الإسلامية لم تتوقف إلا عندما تم إهمال المعارف والمهارات اللازمة لإنتاج الحضارات . ومنذ ذلك الحين بذلت محاولات

* خطاب فى الحفل الافتتاحى لمهرجان الحضارة الإسلامية الدولى الذى عقد فى عام ١٩٩٤ فى كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٩٤ .

جمة لإحياء مجد الحضارة الإسلامية بعد أفول شمسها . ولكن للأسف الشديد أخفقت جميع تلك المحاولات نظرا لأن نفرا من العلماء المسلمين كانوا يخشون أن يؤدى ذلك التقدم الحضارى إلى إهمال شأن الدين ، مما جعلهم يصرون على تقسيم المعارف إلى نوعين : دينية وعلمانية ، مع النظر إلى المعارف العلمانية . على أنها تشكل تهديدا للإسلام . وفى الوقت الذى كان يحدث فيه ذلك فى العالم الإسلامى ، كان قد تم فى أوروبا فصل الدولة عن الكنيسة ، الأمر الذى أفقد الكنيسة سيطرتها التى مارستها طوال قرون عديدة على الدولة .

إن السبب الذى دفع العلماء إلى محاربة المعارف العلمانية يرجع إلى أنهم كانوا يخشون أن تؤدى مثل تلك المعارف إلى تقليص نفوذهم فى المجتمع وفى الدولة . إن بيننا من ينكر هذا الكلام ، ولكننا نستطيع من خلال وقائع عديدة أن نتبين صحته ؛ إذ رأينا فى أكثر من مناسبة أناسا مؤهلين للعمل فى مهنة مفيدة ، يتم إقناعهم بترك مهنتهم والتفرغ للقيام بوظائف أو مهن دينية .

ومما لا شك فيه أننا إذا ما أردنا استعادة أمجاد الإسلام ، فإن علينا أن نتعلم من دروس التاريخ كيف تم تأسيس الإسلام وانتشاره ، لأن التاريخ خير معلم . ولكننا للأسف الشديد ، ونتيجة لتدهور العلوم غير الدنيوية ، رأينا المؤرخين المسلمين يقومون بتركيز اهتمامهم على إسهام الأمور الروحية فقط فى النجاحات التى حققها المسلمون . ولو انتقلنا إلى المؤرخين الغربيين فإننا سنجدهم متحيزين ضد الإسلام . وهكذا لم يعد أمامنا سوى الآثار المتبقية من أيام مجد وازدهار الحضارة الإسلامية ، كى نتعلم منها وكى نقيم الأسباب التى ساعدت المسلمين على تحقيق نجاحاتهم الأولى فى الفترة الباكرة من عمر الإسلام .

لكن رغم ذلك ، هناك الكثير مما نستطيع القيام باستخلاصه من الفنون والآثار

الإسلامية المتبقية منذ عصر ازدهار الدولة الإسلامية الكبرى . ما يمكننا استخلاصه سوف يساعدنا على استلهام الماضى لكى نتبين كيف تحققت عظمة الحضارة الإسلامية ، وكيف يمكن أن نقوم بإحيائها من جديد .

إلا أنه يلزمنا بادئ ذى بدء ، أن نطرح جانبا بعض المعتقدات التى أدت إلى أفول شمس الحضارة الإسلامية ، ومن أول هذه المعتقدات أو تلك التعاليم التى قدمها بعض علماء الدين : أن هذا العالم ليس للمؤمنين ، وأن عالمهم الحقيقى هو الدار الآخرة . أما هذه الدنيا الفانية فهى للكفار وغير المؤمنين . إضافة لما يروجونه من أن هذا العالم أو هذه الدنيا الفانية بها من الأشياء والمغريات الكثير مما يستطيع غير المؤمنين أن يتمتعوا به ، إلا أن المسلمين يجب ألا يسعوا وراء مثل تلك الأشياء والمغريات وهذا بالطبع كلام غير صحيح ، لأننا يجب أن ننعم بالنعم التى وهبنا الله سبحانه وتعالى ، إياها فى هذه الدنيا . إن هذا العالم ليس هبة من الله سبحانه وتعالى لغير المؤمنين فحسب وإنما هو نعمة أنعم بها على المؤمنين . وعدم القيام بتقدير تلك النعمة والاستفادة منها سيكون من قبيل إنكار الجميل الذى خصنا الله سبحانه وتعالى به . والله سبحانه وتعالى ، لا يحب من عباده أولئك الذين ينكرون ما أفاء به عليهم من نعم وخيرات ، بل أن الله سبحانه وتعالى ، لا يحب من عباده من ينكرون أى شئ طيبًا حتى لو كان ذلك من بشر مثلهم .

هل هناك دين آخر غير الإسلام يتم فيه كل هذا التركيز على التأمل فى ما خلق الله من حقول خضراء وجبال وبحار ، وما فيها من خيرات للإنسان ومن أنعام ونباتات ومطر وشمس؟ وكيف يحيى المولى عز وجل ما كان يظن به الموات؟

هل التأمل فى بديع خلق الله سبحانه وتعالى ، يعنى أن نقوم بإلقاء نظرة عابرة على ما حولنا ، ثم نشكره على نعمته بطريقة آلية؟ أليس صحيحا أننا كلمة أكثرنا

التأمل فى عجائب خلق الله سبحانه وتعالى ، تعمقنا فى دراسة مخلوقاته . وكلما تعمقنا فى دراستها أصبحنا أكثر إيمانا بقدرته وعظمته . نعم هذا صحيح لأننا عندما ندرس التفاصيل الدقيقة لتكوين مادة معينة من ذرات وخلافه ، فإن ذلك الفهم يمكن أن يسهم فى إلمامنا بالطريقة التى تكونت بها جميع المواد الأخرى ، إلا أننا لا يمكن أبدا أن ندرك لماذا تعمل بالطريقة التى تعمل بها ، ولماذا يحدث تفاعيل بين بعضها البعض ولماذا تتكون منها مواد أكثر تعقيدا إننا لا نستطيع أن نشرح كيف يحدث كل ذلك ولماذا يحدث ولماذا يسهم فى الحياة على وجه الأرض .

لن نستطيع أبدا أن نفهم لماذا يؤدى اتحاد ذرة من الأوكسچين بذرتين من الهيدروچين (غازان غير مرئيان) إلى تكوين الماء الذى نعرفه جميعا والذى لا غنى عنه للحياة على هذا الكوكب؟ ولن نستطيع أن نفهم لماذا لا تكون الذرتان من غازين آخرين؟ ولماذا يؤدى ذلك إلى تكوين الماء تحديدا؟ ولماذا كان الماء عنصرا جوهريا للحياة والوجود؟ إننا نستطيع عن طريق الملاحظة الدقيقة والدراسة المتأنية أن نفهم وأن نكتشف الكيفية التى تتكون بها جميع هذه المواد والمكونات والتى تحدث بها هذه الأفعال وردود الأفعال . ولكننا لا نستطيع أبدا أن نجيب عن السؤال الخاص بلماذا على هذا النحو أو لماذا تفعل أو تقوم بمثل ذلك السلوك ! ! والاستنتاج الوحيد الذى نستطيع التوصيل إليه فى هذا السياق هو أنه لابد من أن هناك قدرة تتجاوز قدرة الإنسان على الفهم ألا وهى قدرة الله سبحانه وتعالى .

ومن المؤكد أن هذه الدراسات سوف تجعلنا أكثر إيمانا بالله سبحانه وتعالى . ومن المؤكد كذلك أنه كلما كانت المعارف التى نتحصل عليها أكثر عمقا وشمولا ، كانت درجة إيماننا بما نكتشفه من خلال هذه الدراسات من معجزات ، أعظم مما كنا نعتقد للوهلة الأولى ، معجزات لا يقدر على صنعها سوى الله سبحانه وتعالى .

وبالرغم من ذلك فإننا نرى أن المسلمين يحجمون عن دراسة كل الأسرار التى تحيط بهم فى هذا الكون ، وعن اكتشاف عجائب خلق الله سبحانه وتعالى ، وعن استغلال الأنعام والنباتات للحصول على الطعام ، واستغلال جميع المخلوقات التى سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان لإدامة حياته فى هذا الكون وتحسين نوعيتها . ونظرا لأننا لا نسعى إلى التعمق فى المعارف ، فإن المسلمين فى عالم اليوم ليس أمامهم من طريق سوى الاعتماد على نتائج واكتشافات أصحاب الأديان الأخرى . فاليوم نجد أن كثيرا من دولنا تعتمد اعتمادا كاملاً على نتائج التطبيقات التى يقوم بها غير المسلمين فيما يتعلق بطعامنا ومواصلاتنا وقوتنا العسكرية وملبسنا ومسكننا ، ليس هذا فحسب ، بل إن الحقيقة هى أننا نعتمد على غير المسلمين فيما يتعلق بتصريف شئون عبادتنا .

إذا ، إن لم تكن هذه الحياة ، أو هذه النعمة التى أنعم الله سبحانه وتعالى ، بها على البشر قد خلقت لنا ، فلماذا إذا نشارك غير المسلمين نتائج الاكتشافات والمخترعات التى يتوصلون إليها ، بالتفكير فى عجائب خلق الله وقدراتها واستخدام المعارف التى يتوصلون اليها من خلال تعمقهم فى تحسين نوعية حياتهم وحياتنا على هذا الكوكب .

وبالرغم من الأوضاع السائدة الآن ، إلا أننا نعرف من خلال دراسة التاريخ أن المسلمين إبان العصر الذهبى للحضارة الإسلامية ، كانوا يتقدمون الصفوف ، وهم الذين كانوا يكتشفون نعم الله على الخلق من خلال الدرس والتعلم ، وهم الذين كانو ، ا يجعلون نتائج دراساتهم واكتشافاتهم متاحة لغير المسلمين فى تلك القرون المبكرة . والشئ الذى جعل المسلمين يتبوأون مركز الصدارة فى تلك الأيام ، هو أنهم كانوا قد قطعوا أشواطا بعيدة على مدارج الرقى والتقدم ، وأصبحوا متطورين للغاية فى كل فروع العلم والمعرفة السائدة فى ذلك الوقت ، مثل : الطب والرياضيات والعلوم والأحياء والفلك وغيرها .

وما لم نتوقف عن القيام بتصنيف العلوم وتقسيمها إلى علوم دنيوية وأخرى دينية ، وما لم نبدأ بالنظر إلى جميع أنواع المعارف والعلوم على اعتبار أنها بمثابة عوامل مساعدة على ترسيخ الإيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى ، وما لم نبدأ فى النظر إلى دراسة تلك العلوم والمعارف على أنها ليست فقط أمرا مباحا وإنما أمرا فى غاية الحيوية للمسلمين ودينهم ، فإننا لن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . وعندما يحدث ذلك فى الوقت الذى يتقدم فيه العالم من حولنا بخطى مذهلة ، فإنه سيؤدى بنا بعد قليل إلى التخلف عن ركب الحضارة والسقوط فى هاوية التخلف والظلام ، وسوف نصبح كمن يعيش فى ظلام العصور الوسطى ، مقارنة بما حولنا من تطور .

وبناء على ما تقدم يمكننا القول إن الخطوة الأولى التى يجب أن نخطوها هى أن نتخلى عن الفكرة القائلة بأن هذه الدنيا لم تخلق لنا وإنما خلقت لغير المؤمنين ، وكذلك عن الفكرة القائلة بأن أية معرفة غير المعرفة الدينية والروحية هى معرفة علمانية وبالتالى يجب تحريمها . وبدلا من ذلك يجب أن نسعى بقدر ما نستطيع إلى دراسة هذه المعارف والعلوم لأنها يمكن فعلا لا قولا أن تعزز إيماننا وتساعدنا على إحياء أمجاد الحضارة الإسلامية .

إننا نعرف أن العلماء العظماء فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية لم يكونوا متخصصين فى فرع واحد من العلوم وإنما كانوا محيطين بعدد كبير من المعارف السائدة فى تلك الأيام ، إضافة إليد تفقههم فى أمور دينهم وهو أمر فى غاية الأهمية للإسلام والمسلمين . هذا الوضع أتاح لهم القيام بتسخير معارفهم لخدمة دينهم . أما اليوم فإننا نجد من المسلمين من تخصصوا فى شئون الدين فقط ، أو تخصصوا فى العلوم الدنيوية . وبالتالى فإننا نجدهم غير قادرين على تسخير معارفهم وعلومهم العلمانية لخدمة دينهم . ونتج عن ذلك أن أولئك الذين تخصصوا فى الشئون الدينية دون القيام بربطها بما يدور فى العالم من أحداث وتطورات ، ودون محاولة لإدراك

العلاقة القائمة بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، قد تحولوا إلى أشخاص متعصبين دينيا يرفضون أى شيء لا يعرفونه لأنه دنيوى أى علمانى ، وبالتالى فهو محرم . كما نجد أيضا أن هناك فئة من المسلمين قد قامت بدراسة العلوم غير الدينية ولكنها مع ذلك لا تستطيع الدفاع عما درسته من علوم عندما يتعلق الأمر بإثبات انسجام تلك العلوم مع تعاليم الدين . أو بمعنى آخر لا تستطيع إيجاد سند دينى للعلوم التى درستها ، مما يؤدى إلى سقوطها فى براثن الحيرة والتخبط . فهم من ناحية يشعرون بالذنب لأنهم تعلموا علوما ليس لها سند من الدين أو لم يذكر عنها شئ فى الدين . ومن ناحية أخرى نجد أن أمثال أولئك قد يلجأون أحيانا إلى حل آخر وهو رفض الدين وإنكاره بسبب عجزهم عن التوفيق بين ما درسوه وبين تعاليم الإسلام .

وطالما استمر هذا الانفصال سيكون هناك فقر فى العلماء وفى العلوم غير المرتبطة بالدين لدى المسلمين ، مما يؤدى بدوره إلى تأخر المسلمين وتخلفهم والحيلولة بينهم وبين إعادة أمجاد الحضارة الإسلامية العظيمة .

لكن مع ذلك ، يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أننا عندما نتحدث عن إحياء الحضارة الإسلامية فليس معنى ذلك أن نقوم بإعادة انتاج نسخة طبق الأصل من تلك الحضارة ، بدءا من القرن السابع الميلادى وحتى سقوط دولة الخلافة العثمانية . وحتى عندما طلب الله سبحانه وتعالى ، منا أن نلتمس العبرة والهداية فى سنة رسوله الكريم ، فإن ذلك لا يعنى أن نقوم بخلق ظروف مشابهة لما كان سائدا فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم ، لنتمكن من تحقيق إنجازات مثل تلك التى حققها الرسول فى تلك الظروف . والحقيقة أن العصر الذهبى للحضارة الإسلامية لم يتحقق عن طريق إعادة إنتاج الظروف والإنجازات ذاتها التى تحققت فى عصر الرسول الكريم أو أثناء حياته فى مكة والمدينة . بيد أن الحضارة الإسلامية وصلت إلى ما وصلت إليه من مجد لأنها التزمت بتعاليم الدين الحقة التى لم يستطع أولئك الذين عاصروا الرسول أن

ينتفعوا بها بشكل كامل بسبب قصر الوقت . ومما لا شك فيه أن الحضارة الإسلامية التى ازدهرت بعد وفاة الرسول ، إذا ما تناولناها من ناحية الحجم ، ومن ناحية نطاق المعرفة ، نجد أنها كانت أكبر بكثير من العالم الإسلامى الذى كان موجودا على أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ومن نافلة القول ، أن تطبيق التعاليم الإسلامية وتطبيق العقيدة نفسها عبر القرون ، كان كفيلا بتحقيق أفضل النتائج .

على المنوال نفسه ، يجب أن يكون بناء الحضارة الإسلامية المعاصرة قائما على إنجازات البشرية فى عصرنا الرواهن . فهذه الحضارة يجب أن تعكس الحياة المعاصرة والأفكار الصالحة لزماننا ، على أن تظل فى الوقت نفسه ملتزمة بتعاليم الدين الإسلامى . أما إذا كنا نؤمن حقا بأن الإسلام مناسب لكل زمان ومكان ، فإننا سوف نكون تماما مثل من يناقض الدين فى جوهره ، إذا ما اعتبرنا أن الحضارة الإسلامية لن تتحقق إلا فى الظروف ذاتها التى كانت سائدة فى المدينة فى القرن السابع الميلادى .

على أنه يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أننا حتى إذا ما تخلصنا من التقسيم المتعسف للمعرفة ، إلى دينية وعلمانية ، وحتى إذا ما نجحنا فى اكتساب المعارف المتناغمة مع الحضارة الحديثة ، فسوف يكون لدينا بعد ذلك شروط معينة يجب استيفاؤها ، إذا ما أردنا إقامة حضارة عظيمة حقيقية . ومن أهم هذه الشروط ضرورة تأسيس نظام عملى للإدارة والحكم قابل للتطبيق بما ينسجم من ناحية مع تعاليم الإسلام ويفى من ناحية ثانية بمتطلبات العصر الحديث .

بيد أننا يجب أن نتذكر أن أشكال الحكم التى سادت فى مختلف مراحل الحضارة الإسلامية لم تكن بالضرورة مطابقة لنظام الحكم الذى كان قائما فى المدينة أو مكة ، فى حياة لارسول - صلى الله عليه وسلم . فأشكال الحكم التى تم تطبيقها اتخذت صورا

عديدة دون أن تفقد صفتها الإسلامية ، إن شكل الحكومة أو صورتها ليس هو المهم فى هذا الشأن ، وإنما المهم هو هل تنسجم مثل تلك الحكومات مع الدين الإسلامى أم لا؟

ومما يؤسف له أن نجد أن العالم الإسلامى اليوم يعج بالفوضى أو بالحكومات الضعيفة . فدول العالم الاسلامى تفتقر تماما إلى الاستقرار ، وتسودها صراعات طاحنة من أجل السلطة والنفوذ ينتج عنها مصرع أو هجرة الملايين من البشر ، كما ينتج عنها تدمير للمنشآت والممتلكات ، بالإضافة إلى فتح الباب على مصراعيه للفوضى والاضطرابات التى تؤدى بدورها إلى تفاقم الأوضاع والوصول بتلك البلاد إلى حافة المجاعة والإنهيار . هذا الوضع يكاد يكون سمة سائدة فى معظم البلدان الإسلامية ، دون أن تلوح أى بادرة أمل فى تغييره ، وبالرغم من كل هذا الخراب والدمار الذى حاق بالبلاد الإسلامية ، فإن القتال لا يتوقف ، والصراعات لا تنتهى ؛ لأن هناك أفرادا وربما جماعات تريد الاستئثار بالسلطة دون الآخرين .

والشيء الذى يندى له الجبين هو أن المؤمنين يقدمون الطلبات والالتماسات والنداءات للكفار كى يأتوا إلى بلادهم من أجل إحلال السلام أو إطعام الجوعى . والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل نحن حقا عاجزون عن إدارة شئوننا وهل نحن عاجزون عن استخدام وتطبيق المفاهيم الحديثة فى الحكم ، وفى تطبيق العدالة ، وفى التعامل مع المجتمع دائم التطور ، تحكمه حتميات إجتماعية واقتصادية معقدة؟ إذا ما نظرنا إلى البلاد الإسلامية من حولنا ، فإن الوضع يبدو هكذا بالفعل . فالدول الإسلامية غير مستقرة وغير آمنة ، وعاجزة عن التطور . وفى هذا السياق هناك نقطة يجب أن نلفت النظر إليها وهى أن أشكال الحكم المعاصرة أكثر اتساقا مع تعاليم الدين من أشكال الحكم الإستبدادية التى كانت سائدة إبان الحضارة الإسلامية .

ليس معنى ذلك أنه يجب أن نقبل كل ما يجئ به الغرب دون قيد أو شرط ، ففى

كل أمر من الأمور هناك نقاط إيجابية وأخرى سلبية . والنقاط السلبية بالطبع يمكن أن ينتج عنها عواقب وخيمة . فنحن نرى ، على سبيل المثال ، أن الفوضى والتحلل الأخلاقى يضربان النظام الديمقراطى الغربى . ولذلك فإننا يجب أن نأخذ من الغرب ما يناسبنا وأن نترك ما يتناقض مع قيمنا وأعرافنا الإجتماعية أو تعاليم ديننا الإسلامى الحنيف .

ولكن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال أن نقوم بإعادة تكوين نفس المجتمع الذى كان قائما أيام الرسول- صلى الله علية وسلم ، أو حتى ذلك الذى كان سائدا أيام العصر الذهبى للحضارة الإسلامية ، باعتبارو ذلك شرطا جوهريا لاحياء ذلك العصر الذهبى أو بعث الحضارة الإسلامية من جديد .

ويجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أننا لا نقصد بالحضارة التى سنبنيها مواجهة المجتمعات والحضارات الأخرى أو الوقوف ضدها . فهذه الحضارة يجب أن تصب فى المجرى العام للحضارة الإنسانية وأن تكون رافدا حيويا يثرى تلك الحضارة . ويجب أن تعكس هذه الحضارة توازنا سويا بين ما هو روحى وما هو مادى . . بين التقدم والقيم الأخلاقية وبين شئون الدين ومشاغل الدنيا . ويجب أن تكون هذه الحضارة قادرة على تقديم البديل المناسب لهذا العالم الذى بات من الواضح أنه قد فقد اتجاهه الصحيح . ويجب أن يكون هذا البديل مقبولا وقادرا على الحياة وعلى التطور ، ويجب أن يكون قائما على الإقناع والمنطق وليس على الإيمان الأعمى ببعض التفاسير المغرضة للإسلام .

وينبغى أن نعرف أن الإسلام قادر - رغم كل ذلك - على أن ينير الطريق ومن الممكن أن تنشأ حضارة إسلامية لا تكون مجرد محاولة لاعادة إنتاج ما كان قائما فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . . ولا مجرد تقليد أعمى لنظام غربى متحلل

أخلاقيا . إنما يمكن أن تكون هناك حضارة إسلامية قادرة على توفير الاحتياجات الروحية المادية للإنسان المعاصر فى كل مكان . وإذا ما قال قائل : إن هذا ليس إلا أضعاث أحلام ، أو أنه شأن دنيوى لا علاقة له بجوهر الدين ، وأن الطريق الوحيد لإنشاء حضارة إسلامية معاصرة هو إعادة بعث الحياة التى كانت قائمة فى القرن السابع الميلادى ، فمعنى ذلك أننا سوف نحكم على أنفسنا بالتخلف والفقر إلى الأبد .

وإذا ما فعلنا ذلك ، سنكون قد انفصلنا عن ديننا ، ويجب فى هذه الحالة ، عندما نرى أن عدد المؤمنين يتناقص ، بل ويتم استئصالهم فى بعض الأماكن ، ألا نلوم أحدا إلا أنفسنا . لأننا نكون قد أخطأنا بتصميمنا على فعل ما نعرف مسبقا أنه خطأ ، أو لأننا لا نمتلك الجرأة الكافية لمناقشة صحة أو صواب التفسير الشائع والمعاصر للدين الإسلامى .

وربما يكون من قبيل المبالغة أن نتوقع من مهرجان الحضارة الإسلامية الذى نحضره حاليا أن يوقظنا جميعا من الغيبوبة التى نحن فيها . ولكننا سوف نكون فى الوقت نفسه مقصرين فى حق ديننا إذا ما تركنا فرصة التعلم من دروس تاريخ الحضارة الإسلامية تفلت من أيدينا ، وليس الغرض من هذا المهرجان أن نحتفى بعظمة الماضى ، لأن أولئك الذين يتغنون بأمجاد الماضى ، يعترفون فى الحقيقة بتخلفهم الحالى ويقبلون به .

كما أن هذا المهرجان ليس المقصود به الاحتفاء بالأمجاد الماضية ، وإنما هو تذكرة ودرس للكيفية التى يمكن بها الدين عظيم أن يقود أمة إلى ذرى المجد ، وإلى تأسيس حضارة من أعظم الحضارات إن لم تكن هى الأعظم بالفعل ، على سطح الأرض . إن ما قام به الإنسان فى الماضى يستطيع بالتأكيد أن يقوم به اليوم ، وما عليه سوى أن يقرر السير فى هذا الطريق . وإن شاء الله سبحانه وتعالى ، سوف نستيقظ من سباتنا العميق ، وسوف نقوم باتخاذ هذا القرار .

الفصل الثالث والعشرون

العودة إلى القرآن *

الإسلام ؛ دين يقوم أساسا على التعليم التى جاء بها القرآن الكريم لهداية المسلمين فى جميع مناحى حياتهم . ولذلك فإن كتاب الله ليس مجرد كتاب مقدس نتبرك جميعًا بقراءته وإنما هو كتاب يعكس كيف أن الإسلام فى جوهره يمثل منهج حياة متكامل . ولكى ما يكون كذلك يجب أن نفهم كل ما ورد فيه من سور وآيات مباركة فهما صحيحا وعندما نقول إن الإسلام يشكل منهج حياة يجب ألا يفهم من ذلك أن المقصود هو أن يعيش المسلمون حياة بائسة يتعرضون فيها للقهر على أيدى الآخرين ، أو أن يعتمدوا كل الاعتماد على غير المسلمين فى توفير احتياجاتهم .

وبالرغم من أنه يجب علينا ، كمسلمين ، أن نقدر القرآن الكريم ونبجله ، فإن علينا ، لكى نفهمه فهما صحيحا أيضا أن ندرس الحديث الشريف والسنة النبوية ، وأن نقوم فى سياق اجتهادنا بتحليل وتفسير محتوياتها .

ومع أن القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من إمامه ولا من خلفه ، إلا أن أولئك الذين يقرأونه ويقومون بتحليله وتفسير آياته ، يمكن جداً أن يتعرضوا للخطأ . وهذا هو السبب الذى أدى إلى ظهور الملل والطوائف والمذاهب المختلفة فى الإسلام ، والتى يوجد لكل منها تفسيره وفهمه لما ورد فى فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو السنة النبوية . وعندما لا تقبل طائفة بتفسير طائفة أخرى للقرآن ، فإن ذلك لا يعنى على

* كلمة ألقيت في افتتاح الحلقة الدراسية الدولية الرابعة عن القرآن التى عقدت فى كوالالمبور – ماليزيا ، فى ٣ فبراير ١٩٩٤م .

الإطلاق أنها ترفض القرآن ذاته ، وإنما هى ترفض فقط تفسير تلك الطائفة أو الملة التى يمكن أن تكون مخطئة بالفعل فى ذلك التفسير . وهكذا فإننا نرى أن تعاليم وتفاسير المذهب السنى تختلف بشكل عام مع تعاليم وتفاسير المذهب الشيعى والعكس صحيح .

وهذا الاختلاف فى التفسير ممكن لسبب بسيط هو أن القرآن الكريم يقدم فى الكثير من الحالات إرشادات عامة تعالج أى موقف من المواقف الحياتية . وعملية التفسير لآيات القرآن وتعاليمه منوطة بأهل العلم فى الإسلام ؛ لأن تعاليم القرآن لم تكن موجهة فقط لمن عاشوا فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أنها لم تكن مقتصره على العرب فقط ، وإنما هى موجهة للمسلمين فى كل زمان ومكان ، إليها يرجعون وبها يستشهدون . ولسوء الحظ نرى اتجاها لبعض الطوائف وبعض العلماء نحو التشدد فى تفسير آيات القرآن ونحو الإيمان فقط بوجهة نظرهم دون الاستماع إلى الآخرين ، أو محاولة فهم ما جاءوا به من تفاسير لآيات الكتاب الكريم . ومثل هذا التشدد وهذا التصلب فى الرأى بين جماعات أو علماء معينين ، هو الذى يؤدى فى نهاية المطاف إلى ما نراه من سوء فهم للإسلام بين المسلمين ، كما يؤدى ليس فقط إلى نشوء طوائف وفرق وأحزاب ، وإنما يؤدى كذلك إلى وقوع حروب وصراعات بين تلك الجماعات المختلفة فى الرأى .

وهذه الاختلافات والانقسامات التى نراها فى صفوف المسلمين ليس مصدرها القرآن الكريم ، وإنما هى محصلة طبيعية للتصلب فى الرأى لدى بعض الطوائف وبعض العلماء .

كثيرا ما نرى أن القرآن يتم تفسيره بواسطة أصحاب المصالح الخاصة ، ولذلك فإنهم يقومون بتفسير آياته بما يتفق مع مصالحهم أو بما يؤدى إلى تحقيق تلك المصالح .

وعبر التاريخ الإسلامى كان هناك دائما من يفسرون القرآن تفسيرا خاطئا ويحرفون الآيات بما يتفق مع مصالحهم وأهوائهم . فعقب انتقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، إلى جوار ربه ، رأينا من يدعى النبوة ويقوم بتفسير آيات القرآن وتعاليمه تفسيرا خاطئا ومقصودا . ولولا قيام سيدنا أبى بكر الصديق بشن حرب على ذلك المدعى الكذاب ، لكان من الممكن جداً أن تنتشر تفاسيره وتعاليمه وسط المسلمين لكى تضلهم عن دينهم .

ونحن اليوم لا نستطيع أن نقول إن المسلمين الحاليين يعيشون حياة رغدة أو حتى إنهم قد صنعوا حضارة عظيمة معاصرة ؛ بمعنى أننا أينما نظرنا نرى المسلمين متخلفين ومقهورين على الدفاع عن أنفسهم أو عن دينهم ، لدرجة أن بعض المسلمين قد ضلوا طريقهم إلى الصواب ، فتخلوا عن الإسلام أو اكتفوا بأن يكونوا مسلمين بالاسم فقط . والحالة المتردية هذه التى انحدر إليها المسلمون لا يمكن أبدا أن تكون ناتجة عن اتباع تعاليم الإسلام . ويجب ألا يلقى المسلمون بالمسئولية عن عجزهم عن تحقيق التقدم والمجد فى حياتهم ، على الإسلام أو القرآن الكريم ، وإنما يجب أن يعلموا علم اليقين أن ذلك قد حدث لسبب واحد وهو أنهم فسروا آيات القرآن وتعاليمة تفسيرا خاطئا . وإنه ليس هناك سبب آخر لما لحق بهم من تخلف وضعف فى عالم اليوم .

إننا نعرف أن عرب الجاهلية قد تحولوا إلى إمة عظيمة بعد أن انتشر الإسلام بينهم ، ونقلهم من ظلمات الجهالة إلى نور الإيمان . كما أننا نعرف أيضا أنهم ، وبفضل الإسلام ، أصبحوا قادرين على استيعاب إتقان شتى المعارف والمهارات التى مكنتهم من الانطلاق إلى الأمام ومن نشر حضارتهم فى مختلف أنحاء العالم المأهول فى ذلك الوقت . لقد برزت فى ذلك الوقت أمة عظيمة وقوية قامت بدورها فى تعزيز نفوذ الإسلام وقوته بين مختلف الأمم والشعوب .

ولقد عاش المسلمون فى تلك الأيام الزاهرة حياة كريمة كان الآخرون ينظرون إليها بكل احترام وتقدير ، ويعملون على نقل ما فى الحضارة الإسلامية من علوم وفنون شتى . لم يتحقق ذلك إلا لأن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا قد استوعبوا الدين وفهموا تعاليمه واتبعوا أوامره وابتعدوا عن نواهيه . بذلك استطاع العرب الذين كانوا مجرد مجموعة من القبائل المتناحرة تمزقها الخلافات وتعصف بها النزاعات والحروب ، أن يتحولوا إلى أمة مسالمة تجيد فنون العصر وعلومه وتصنع حضارة عظيمة غطت أرجاء شاسعة تحظى باحترام جميع الأمم والشعوب فى تلك الأزمان . إن العرب والمسلمين لم يحققوا ما حققوه من مجد فى ذلك الزمان ، إلا لأنهم اتبعوا تعاليم الإسلام وساروا على نهج القرآن الكريم ، وما دام الأمر كذلك ، فما السبب فى تخلف المسلمين فى عصرنا الحديث؟ ما سبب ضعفهم وتفاهتهم؟ لماذا لا يستطيعون الذود عن حماهم والدفاع عن دينهم وعقيدتهم؟ هل هناك من يصدق أن القرآن الكريم الذى نقل العرب من الظلمات إلى النور وصهرهم فى بوتقة الحضارة وحولهم إلى أمة من أعظم الأمم فى ذلك الوقت ، هو المسئول حاليا عما حاق بالمسلمين من ضعف وتخلف وهوان؟

الإجابة قطعا بالنفى ؛ لأن القرآن هو القرآن ، لم يتغير ولم يتبدل فيه شئ كما حدث لبعض الكتب السماوية الأخرى التى تعرضت إلى التحريف فقرآن اليوم هو نفس القرآن الذى نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وهو نفس القرآن الذى تم جمعه وكتابته بواسطة الصحابة والتابعين .

وعلى الرغم من أن القرآن لم يتبدل ، فإننا نرى اختلافا بين المسلمين اليوم والمسلمين الذين صنعوا أمجاد حضارتهم العظيمة قبل نزول الدعوة وما بعدها لقرون عديدة . ولا يمكن لنا أن نرجح سبب هذا الاختلاف إلا لشئ واحد فقط وهو تعدد تفاسير القرآن وتعدد آراء الأئمة والعلماء واختلافهم وتناحرهم واستقطاب كل منهم

لطائفة أو فرقة من الناس ، مما أدى إلى تمزيق الأمة الإسلامية وتعريضها إلى ما تعانى منه اليوم من ضعف وتخلف فى مختلف المجالات .

إن القرآن الكريم كتاب لكل العصور والأزمنة ، وهو لا يرتبط بعصر أو بزمن أو بشعب أو بمكان بعينه ، فما معنى ذلك؟ معناه أن آيات القرآن عندما تحض المسلمين على أن يتزودوا بالسيوف ويعدوا الخيول للقتال ، فإنها لم تقل لهم كيف يصنعون هذه السيوف أو كيف يربون هذه الخيول . ومعنى ذلك أن المسلمين كان لا بد لهم من أن يجدوا إجابات عن تلك الأسئلة فى مكان آخر ، وليس فى آيات القرآن وسوره ؛ لأن الآيات تعطى إرشادات عامة وخطوطا عريضة ، وعلى المسلمين أن يفهموا ذلك .

ولمزيد من الشرح نقول إن الإسلام قد أمر المسلمين بالتزود بالسيوف وإعداد الخيول للحرب والقتال ، ولكنه لم يذكر شيئا مثلا عن الأقواس والأسهم والجمال وجنود المشاة والدروع المصنوعة من الحديد أو من الجلد . ولكن عدم ذكر هذه الأشياء لا يعنى بأى حال من الأحوال أن جيوش الإسلام يجب أن تتغاضى عن التزود بتلك الوسائل الحربية ؛ لأن القرآن الكريم نص فقط على السيوف والخيول ، وهذا ما حدث فى الفترة الباكرة من تاريخ الإسلام ، حيث فهم المسلمون الدين فهما صحيحا ، وفهموا أن المقصود بالسيوف والخيول تحديدا الإشارة إلى وسائل الدفاع والقوة ، فتزودوا بالوسائل الأخرى دون القيد بالتفسير الضيق للنص ، وهذا هو المقصود بالفهم السديد للآيات القرآنية .

من المنظور نفسه ، يجب أن نفسر الآيات التى دعت المسلمين فى بداية ظهور الإسلام إلى إعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لمقاتلة أعدائهم ، ونطبقها على واقعنا الحالى . لو تمسكنا حرفيا بالآية الكريمة كما يصر بعضنا ، فإن معنى ذلك أننا سوف نذهب إلى ساحة الوغى على ظهور الخيال وليس معنا من سلاح سوى

السيوف ، وذلك من أجل أن نقاتل عدوا مدججا بأحدث أسلحة العصر من طائرات ودبابات ومدافع وإلكترونيات وغيرها من الأسلحة الحديثة .

ولكن يجب أن يكون واضحا لنا أن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أن القرآن الكريم قد أصبح كتابا عفى عليه الزمن أو غير صالح للعصر ، لأن القرآن كما قلنا كتاب لكل زمان وكل بمكان ، بشرط أن نفهم خطوطه العريضة وإرشاداته العامة الواردة فى الآيات التى نزلت على العرب منذ ما يزيد عن ١٤٠٠ عام كى يفهموها حسب ما كان سائدا من ظروف وأحوال فى وقتها ولكن المسلمين المعاصرين يجب أن يفهموا مغزى هذه الآيات وما المقصود منها حسب ظروف وأحوال العصر وكل عصر .

وعندما يأتى نفر ليقولوا إننا يجب أن نتمسك بحرفية النص القرآنى كما نزل ، فإن مثل هؤلاء هم الذين يقفون حجر عثرة فى سبيل تطور الإسلام وتقدمه ، وفى سبيل قيام أتباع باستيعاب العلوم والمهارات الحديثة ، التى تكفل لهم خوض غمار الحرب المعقدة التى نراها سائدة فى عصرنا هذا .

أما ما نراه اليوم من تخلف المسلمين فى هذه المجالات ، فيرجع إلى الجمود الفكرى للعلماء المسلمين الذين اهتموا بالتفاهات وسفاسف الأمور على حساب القضايا الجوهرية التى تهم المسلمين فى دنياهم وآخرتهم . ولذلك فإننا نرى أولئك العلماء وهم يختلفون فى تفسير الآيات ، بل ويأتون بتفاسير عجيبة تؤدى إلى مزيد من الفرقة والانقسام فى صفوف الأمة الإسلامية ، كما تؤدى إلى زيادة تخلفها ، حتى لتكاد تصبح فى مؤخرة ركب الحضارة . أولئك العلماء هم السبب فى تخلف المسلمين ، وهم الذين يهتمون بالسفاسف على حساب الأمور المهمة ، ويدخلون المرة تلو الأخرى فى قضايا خلافية ، ويغضون الطرف عن الآيات التى تحض المسلمين على التزود بالقوة وتحقيق التقدم فى جميع المجالات .

لذلك كله ، نعود فنكرر أننا يجب أن نحذر الترجمة والتفاسير الحرفية لآيات القرآن . لأننا لو فعلنا ذلك سنظل نراوح مكاننا وسوف ندخل فى منازعات وصراعات واختلافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وسنكون قد غفلنا عن فهم حقيقة فى غاية الأهمية وهى أن تلك الآيات هى خطوط إرشادية عريضة ينبغى تفسيرها وفقا لظروف وأحوال كل عصر .

بالإضافة لذلك ، فإننا لو قمنا بتفسير القرآن تفسيرا حرفيا ، فإن ذلك سوف يجعله يبدو كما لو كان يدعو إلى شيء قد عفى عليه الدهر وهذا غير صحيح البتة ، ولكن من عفى عليه الدهر هم المفسرون الذين يفسرون القرآن تفسيرا حرفيا ، فهم الذين يضللون المسلمين ، وهم الذين يعيشون خارج حدود الزمن ويفتقرون إلى المعرفة السليمة .

لذلك لم يعد من المنطقى ولا من الممكن أن نعهد بمهمة تفسير آيات القرآن إلى علماء الدين فقط ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن تعقد الحياة المعاصرة وتشعب معارفها ، ويتطلب أن يعهد بالفتوى فى كل أمر من الأمور إلى المتخصصين فيها . فنحن فى عالم اليوم نرى تطورا هائلا فى ميدان الطب والچينات الوراثية والاكتشافات الفضائية والتجارة والصناعة . وكل تلك المجالات تتطلب أشخاصا متخصصين فيها كى يقوموا بإصدار الفتاوى أو تفسير الأمور المتعلقة بها ، على أن يكون لأولئك معرفتهم المختصصة فى تلك الحقول ، معرفة وافية بالأمور الدينية والشرعية ، وشروط الفتوى والتفسير وما إلى ذلك . ولو لم تتم الأمور بهذا الشكل فسيكون هناك خطر كبير ، لأننا فى هذه الحالة سوف نطلب من رجال الدين أن يفسروا أمورا ، أو يدلوا بفتاويهم فى مسائل لا يفقهون شيئا .

ومن المحتم ، فى مثل هذه الحالة ، أن تكون الفتاوى التى يصدرونها منبتة الصلة

بالموضوع الذى تم طلب الفتوى بخصوصه ، كما أن تلك الفتاوى سوف تصبح موضعا لسخرية غير المسلمين .

علينا إذن أن نعود إلى القرآن ، ونصرف النظر عن التفسيرات والفتاوى التى جاء بها العلماء فى الفترة التى أعقبت أفول شمس الحضارة الإسلامية العظيمة ، لأن هناك دلائل لا تقبل الجدل على أن بعض أولئك العلماء كانوا مهتمين بالمحافظة على استمرار نفوذهم على سلاطين الخلافة العثمانية ، أكثر من اهتمامهم بتقديم تفاسير وفتاوى صحيحة ، وخصوصا بعد أن رآوا كيف فقدت الكنيسة المسيحية نفوذها بعد فصل الدين التى تمثله عن الدولة ، ولذلك عمد أولئك العلماء إلى إدانة عملية تعلم العلوم غير الدينية خوفا من أن يأتى من تعلموا تلك العلوم وأتقنوها ، كى يزيحوهم عن مناصبهم . ولذات السبب أيضا قام أولئك العلماء بتصنيف تلك العلوم بأنها علوم دنيوية وبالتالى فإنها محرمة . وكانت نتيجة ذلك أن المسلمين الذين كانوا روادا فى العلوم والفنون ، تخلفوا عن غيرهم لدرجة أنهم أصبحوا الآن فى ذيل ركب الحضارة . وكان محتما ، والأمر هكذا ، أن تسقط الدول الإسلامية واحدة وراء الأخرى تحت نير الاستعمار الغربى . تلك التفاسير للدين كما تبين صادرة من أجل المصلحة الذاتية لأصحابها . ومما يؤسف له أن نرى بيننا حتى الآن من لايزالون متمسكين بتلك التفاسير ويصرون على إرغام الآخرين على قبولها .

إن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نعود إلى القرآن الكريم ونعمل على تفسيره صحيحا . ويجب أن يكون هذا التفسير فى صالح الإسلام والمسلمين ، وليس من أجل مصلحة أصحابها فقط كما كان الأمر فى الماضى . كما يجب على العلماء المسلمين المعاصرين عندما يقومون بذلك الآن أن يراعوا التغيرات التى حدثت فى العالم وأن يراعوا الظرف التاريخى الحالى والمناخ السائد .

إن هذه الحلقة البحثية عن القرآن يجب أن يكون دافعها وهدفها ، هو العمل على أن يكون القرآن الكريم هو الضوء الهادئ للمسلمين فى دروب العصر الحديث . كما أن القرآن الكريم قد أنار الطريق للمسلمين الأوائل فى بداية الدعوة الإسلامية ، فإنه لا بد من أن يقوم بالدور نفسه الآن من أجل إعادة أمجاد وعزة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . ولكن يجب علينا ، ونحن نقوم بذلك ، أن نحرص على تفسير تعاليم القرآن الكريم تفسيراً صحيحاً فى عالم يتغير تغيراً حثيثاً وجذريًا .

يمكننا القول إن إقامة هذه الندوة فى مثل هذه الظروف يعتبر أمراً ذا فوائد جمة ، وخصوصا من حيث الدور المهم الذى يمكن أن تسهم به ، فيما يتعلق بعودة المسلمين إلى المنابع الأصلية للقرآن الكريم والاسترشاد به فى أسلوب التفكير أو فى أسلوب تناول المشاكل التى تعترض طريق المسلمين اليوم ، أو فى المستقبل . إننى لآمل ألا تضيع من أيديكم هذه الفرصة التى يجب الاستفادة منها فى ترسيخ وتعزيز الإيمان بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف .

الفصل الرابع والعشرون

دور الأديان وتأثيرها في المجتمع *

إذا ما أردنا أن ندرك أهمية الأديان للمجتمعات ينبغى لنا أن نقوم بإجراء عملية فحص وتحليل نقدى للقضايا الرئيسية والأساسية فى حياة الإنسان مثل : الفلسفة والدولة والقانون والتعليم والأسرة ، وذلك من خلال منظور الديانتين : الإسلام والمسيحية .

والإنسان بطبيعته مصاب بالشيزوفرينيا (ازدواج الشخصية) كونه يمتلك فى وقت واحد كينونة جسدية ونفسا أو روحا . وقد وصف القرآن الكريم بأسلوبه الإعجازى عملية خلق الإنسان فى مرحلتين متميزتين عن بعضهما وهما : مرحلة خلق الجسم أو الوجود المادى من الصلصال ، والمرحلة الثانية وهى نفخ الروح فى الجسد التى يكتمل بها خلق الإنسان .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجر (الآيات ٢٦-٢٩) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ صدق الله العظيم .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة المؤمنون (الآيات ١٢-١٥) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

* ألقيت فى الحفل الافتتاحى للحلقة البحثية التى أقيمت حول الذهنية الإسلامية والمسيحية التى نظمها معهد الفهم الإسلامى بماليزيا ، بالتعاون مع معهد جوته فى كوالالمبور - ماليزيا ، بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٩٣م .

الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴿١٥﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

وتدل عملية خلق الإنسان على ثلاث نقاط وثيقة الصلة بالموضوع . **النقطة الأولى :** نفخ روح الله فى جسد الإنسان . وهذه العملية تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على الإنسان وكرمه ومنحه من لدنه علماً وإرادة ، إذا ما أحسن استخدامهما فسوف يكفلان للإنسان التفوق على المخلوقات كافة . وبالإضافة لذلك ، تعنى هذه العملية أيضاً أن الإنسان قد خلق طهوراً وصادقًا وحراً ميالاً لفعل الخير وإلى الفضيلة ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على الإنسان بالإدراك السليم لموضعه فى الكون ومكانته فيه ولربوبية الله وخيره وحكمته وقوته .

النقطة الثانية : وهى بما أن الإنسان قد خلق من طين ، فإن هناك دائماً احتمال لسقوطه فى شراك العادات والأوهام والخرافات والرغبات الغريزية والتعاليم الزائفة . وهذا الوضع هو ما يجعل الإنسان ميالاً إلى العدوان ، وغير طاهر ، وزائفاً وأنانيًا وتواقًا لكل ما هو محرم وممنوع كما نراه أيضاً منصرفًا عن حب أخوانه وعن الإنسانية وعن العبادة المخلصة لله الواحد الأحد .

النقطة الثالثة : وهى أن الشر يمس قلوب أولئك الذين يستسلمون له ، فى حين أنه لا يمتلك أى سطوة على قلوب عباد الله المخلصين ، الذين طهرت قلوبهم بفضل الله سبحانه وتعالى . إن هذا يعنى فى الوقت نفسه أن الإنسان عندما يكون مخلصا فى تسليم أمره لله سبحانه وتعالى ولإرادته ، فإن ذلك سوف يكون خيرَ واق من الشيطان الذى يسعى إلى تدمير الإنسان . ولهذا السبب تحديداً يتأرجح السلوك الإنسانى بين الخير والشر عندما يصيبه العنت والمشقة ويبتعد عنه وينسى نعمه وفضله عليه ، عندما يكون فى رغد من العيش . ولكن المؤمن الحق هو من يشكر الله على نعمته عندما يكون فى حال ميسورة أو رغد من العيش . وهو الذى يتمسك بدينه ويصبر عندما تدلهم الخطوب وتحيط به الشدائد . ولكى نتأكد من أن

هذا الإنسان سوف يتجه إلى عمل الخير ، وأنه سوف يسعى إلى الفضيلة دائماً ، ينبغى علينا أن نجعل هذا الإنسان يفهم نفسه فهماً صحيحاً أولاً ، ثم ينطلق بعد ذلك إلى فهم ما يحيط به من مظاهر الطبيعة لكى ينتهى إلى فهم الله سبحانه وتعالى ، خالق كل هذا فى نهاية المطاف . وهذا الفهم والإدراك لن يتأتى إلا باتباع التعاليم الدينية بشكل دائم ومستمر . فالدين هو الذى يمنح الإنسان القدرة على الفهم السليم ، وهو الذى يشجعه على فعل الخير واجتناب الشر . والدين هو البوصلة التى تساعد الإنسان على الحفاظ على اتجاهاته السليمة فى هذه الحياة ، وتحول بينه وبين الهيام على وجهه دون هدف ، مما قد يعرضه إلى السقوط فى براثن الشر .

وفى حياتنا الواقعية هناك مجتمعات ترفض جميع الآلهة والأديان . ولقد رأينا مثل هذه المجتمعات فى روسيا وفى دول أوروبا الشرقية التى ظلت سبعين عامًا كاملة تعيش بعيداً عن أى دين ، ثم انتهت بها الحال إلى التفكك والسقوط ، وأن ما أدى إلى ذلك السقوط السريع والمدوى لتلك المجتمعات هو عدم وجود دليل روحى يوجهها فى دروب الحياة ومسالكها المتشعبة . ومما لا شك فيه أن عدم قدرة هذه الشعوب وعجزها عن تحقيق أهدافها المادية يرجع إلى خوائها الروحى . لقد كان سقوط ملك الدول وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى السابق ، مروعاً لدرجة أننا نجد قوة عظمى مثل روسيا تتسول حاليا وتستجدى أعداءها السابقين .

أما دولة ألبانيا التى قام رئيسها الأسبق أنور خوجا بتمزيق القرآن والإنجيل والتوراة ، وحرم جميع الأديان ومنع نشر أى كتابات لها علاقة بالدين من قريب أو بعيد ، فقد تحولت الآن إلى أطلال دولة .

لقد تحولت أمم عظيمة ذات حضارات عريقة إلى أضعف وأفقر دول فى أوربا ، غير أن الأديان لا يمكن القضاء عليها أو إقصاؤها عن حياة الناس بواسطة التشريعات والقوانين . فها نحن اليوم نرى الألبان وقد عادوا إلى رحاب الدين الإسلامى الحنيف بعد سنوات طويلة من

قهر ومحاربة الدين باستخدام وسائل القمع والبطش . ومع عودة الدين إلى هذه البلاد عاد السلام ليرفرف عليها من جديد ويمنحها ثقة متجددة فى المستقبل .

إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده ، وإنما عليه أيضاً أن يروى ظمأة الروحى . فحتى إذا امتلأت معدة الإنسان ، فإنه سيظل يعيش خواءاً أو فراغاً يجعل حياته عديمة المعنى والجدوى . وإذا ما عاش الإنسان لكى يأكل فقط ، فإن معنى ذلك أنه لا يوجد فارق بينه وبين الحيوان ، فى حين أنه قد خلق من أجل هدف أسمى بكثير من ذلك . إن العالم قد أصبح على ما هو عليه اليوم بفضل الإنسان ، وهكذا فإن العقيدة التى تتجاهل حقيقة أن هناك فرقًا بين الإنسان والحيوان ، وكذلك العقيدة التى تقوم على إشباع الغرائز والحاجيات المادية للإنسان ولا شئ غير ذلك ، هى عقائد معادية للحضارة وتتجاهل عظمة العقل الإنسان وسمو المشاعر التى اختص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان . أما محاولة جعل البشر يعيشون بغير هدف فمعناها إنكار العقل والمنطق اللذين تميزت بهما عملية خلق الإنسان .

وإلى جانب المجتمعات التى تنكر وجود الإله والأديان والتى تحدثنا عنها آنفا ، هناك أيضا المجتمعات ذات الأغلبية المسيحية فى الغرب ، هذه المجتمعات قامت بالفصل بين ما هو دينى وما هو دنيوى ، ووقفت من الدين موقفًا سلبياً ، فلم تحاربه ولكنها لم تدعمه . . فماذا كانت النتيجة؟ لقد انتشر الانحلال والفساد الأخلاقى وتهافت الناس على إشباع رغباتهم الغريزية ، ونسوا الدين وتعاليمه نسياناً تامًا الأمر الذى أدى فى النهاية إلى حدوث شرخ فى بنية تلك المجتمعات .

والعلاقات التى تربط بين الأفراد فى المجتمعات الغربية تقوم الآن وإلى حد كبير ، على المكاسب المادية والإشباع الحسى . كما أن السعى لتحقيق هذه الأهداف فى تلك المجتمعات يتسم بالأنانية بعد أن أطلق المجتمع العنان لرغبات الفرد . وكان محتمًا والحال هكذا ، وأن تنهار المؤسسات والتقاليد الراسخة فى تلك المجتمعات . كما أن مؤسسة الزواج والأسرة

والقيم الخاصة باحترام الصغير للكبير واحترام التقاليد والعادات والمعاهدات ، قد اختفت أو كادت من تلك المجتمعات .

وترتب على اختفاء تلك القيم والتقاليد وانهيار تلك المؤسسات الراسخة ظهور قيم جديدة تقوم إلى حد كبير على رفض كل ما له صلة بالأديان . كما ظهر فى تلك المجتمعات على سبيل المثال ما يعرف بالأسر ذات العائل الواحد ، حيث تقوم الأم فقط أو الأب فقط بتربية الأطفال الذين ولدوا من خلال علاقات غير شرعية ، لتدفع بهم بعد ذلك إلى المجتمع . وقد انتشرت فى تلك المجتمعات كل الموبقات والمفاسد والشرور مثل : اللواط ، وإقامة الرجل والمرأة معًا فى سكن مشترك دون زواج ، كما سادت فيها المادية المطلقة ، وساد الجشع والخروج على الأدب ، وعدم الاحترام لأى شىء أو لأى شخص ، بالإضافة إلى رفض جميع الأديان وجميع القيم الدينية . وهكذا تحلل المجتمع الغربى ، ولم يعد هناك شىء يستطيع ذلك المجتمع أو أفراده أن يتشبثوا به لحمايتهم من الغرق أو لكى يهديهم إلى سواء السبيل ، بعد أن ضلوا الطريق وفقدوا الاتجاه السليم . كما أننا نراهم بعد أن نهلوا من الملذات حتى الثمالة وانغمسوا فى الشهوات بلا حدود ، قد بدأوا يشعرون بالملل ، وبالضجر من كل شىء ، ولا يجدون شيئًا يملأون به خواءهم التام سوى المخدرات والخمر وكل أنواع الموبقات والرذائل .

إن الغرب لم يصل حتى الآن إلى ما وصلت إليه الشيوعية من حال ، ولكن السوس بدأ ينخر فى البناء نحن لا نستطيع أن نتنبأ بالمستقبل ، ولكننا نقول للغرب إن الفرصة لم تضع بعد ، وعليهم أن يعودوا مرة أخرى إلى رحاب الإيمان والدين ، وإلا فإن ما حاق بالشيوعيين سوف يحيق بهم أيضاً .

أما المجتمع الإسلامى فهو يعانى من أمراض مختلفة . إنه ضعيف ومقهور ، ويعانى من جميع العلل النفسية والكثيرون من أفراده ينشدون السلوى والهروب من الواقع عن طريق الانخراط فى جماعات دينية سرية ، وهم عندما يفعلون ذلك فإنهم عادة ما يقومون بتفسير

الإسلام باتباع وسائل غير إسلامية . وبسبب تلك الجماعات اكتسب الإسلام والمسلمون سمعة سيئة فى العالم ، دون أن يكون هناك داع أصلاً لذلك . وبسبب تلك الجماعات فقد بات الآخرون ينظرون إلى الإسلام اليوم على أنه قيد معلق فى رقاب المؤمنين ، وأنه يحول دون تقدمهم . كما أصبح الدين بالإضافة لذلك مرتبطًا فى أذهان البعض ببعض الممارسات الشائنة التى تناقض مبادئ الإسلام مثل : الإرهاب وقيام بعض المسلمين بإيقاع الأذى بإخوانهم فى الدين ، وبأتباع الأديان الأخرى . لقد أدت مثل تلك الممارسات إلى تقسيم المسلمين إلى شيع وأحزاب متناحرة وهو أمر نتجت عنه مصائب لا يمكن وصفها ، مثل : المذابح التى تعتبر وصمة عار فى جبين كل مسلم . ليس هذا فحسب ، بل إنها جلبت سمعة سيئة للدين الإسلامى الذى- أصبح- وهو الدين الداعى أصلا للرحمة الإنسانية- ينظر إليه من قبل الآخرين فى مختلف أنحاء العالم على أنه دين العنف وسفك الدماء والإرهاب . لقد فقد المسلمون اليوم سيطرتهم على زمام أمورهم ، وتحولوا إلى أدوات فى أيدى الآخرين ، وإلى وكلاء يقومون بالصراعات فيما بينهم بالنيابة عن الغير . وهم يقومون بذلك- على ما فيه من معاناة- طواعية ملقين بالذنب على الآخرين أو حتى على القدر !

والمتطرفون المسلمون يفتخرون فيما بينهم وأمام الآخرين بتمسكهم بالدين ، ولكن الحقيقة هى أنهم سبب بلاء الإسلام ، فهم الذين عكسوا صورة سيئة عن الإسلام وهم الذين حالوا بين الآخرين وبين الفهم الصحيح لتعاليمه وهم الذين حالوا بين دخول البعض إلى رحابه بسبب ما رأوه من ممارساتهم ، كما أنهم هم الذين قاموا فى الحقيقة بحمل بعض المسلمين على الابتعاد عن عقيدتهم ودفعهم إلى التخلى عن الإسلام ، وإلى الاستجابة لإغراءات النظرية المادية وغيرها من العقائد الملحدة .

ولكن الحسنة الوحيدة التى تميز المسلمين عن غيرهم من أتباع الأديان الأخرى هى أنهم مازالوا موحدين بالله سبحانه وتعالى ، بصرف النظر عما إذا كانوا مسلمين ملتزمين بأداء فروض دينهم ، أو كانوا غير ذلك .

ومن بين نماذج المجتمعات المختلفة الموجودة فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا نكاد نجد مجتمعاً واحداً خليقاً بأن نتخذ منه قدوة ونموذجاً . فلدينا من ناحية ، المجتمعات الشيوعية التى ترفض الأديان رفضًا باتًا ، والتى دمرت نفسها فى النهاية . وفى الناحية الأخرى هناك بعض الجماعات الدينية المتطرفة التى تكرس وجودها بأسره لتحقيق ما تؤمن به من مبادئ وعقائد على حساب جميع الفرق والجماعات الأخرى . وهكذا فإنه فى الوقت الذى تعتقد فيه تلك الجماعات أنها تهرب بعقائدها وممارساتها من هذا العالم الملئ بالشرور ، إلا أن الحقيقة هى أنها تتحول هى الأخرى لتصبح من أكبر المشاكل التى تواجه العالم حالياً .

وبين هذين النقيضين ، يوجد لدينا ثلاث فئات من المجتمعات من حيث علاقتها بالدين . **أولاً** : المجتمعات الغربية ، ذات الأغلبية المسيحية تقصر الدين على أمور حياتها الشخصية أو الخاصة . بمعنى تحويل الدين إلى مجرد علاقة بين الإنسان وربه ، دون أن يكون لدى الدين فى تلك المجتمعات أى تأثير على مجالات الحياة الأخرى مثل : الاقتصاد والمجتمع والسياسة . وهذه المجتمعات تعلن أنها مجتمعات علمانية وأن «الله» لم يعد له وجود (تعالى الله سبحانه وتعالى عما يزعمون) .

وعلى الرغم من أن تلك المجتمعات قد حققت تقدماً هائلاً فى المجالات الاقتصادية ، إلا أنها فشلت فى الوقت نفسه فشلاً ذريعاً فى إعلاء قيم العدالة والحق وغيرها من القيم الفاضلة . هذه المجتمعات تعانى حالياً من الانحلال الأخلاقى ، وتمتلئ حياة أفرادها بكافة أنواع الشرور النفسية والبدنية . كما أنها تعيش فى خوف وتوتر بسبب الأمراض القاتلة الجديدة التى أدت إليها أساليب حياتهم الماجنة والتى تهدد بالانتشار على نطاق واسع بسبب امتناع هذه الشعوب عن التخلى عن نمط حياتهم القائم على الانفلات الأخلاقى والغرق فى الملذات .

ثانيا : توجد لدينا نماذج مجتمعات دول شرق آسيا ، التى حققت هى الأخرى تقدما

هائلاً فى المجالات الاقتصادية ، فى نفس الوقت الذى حافظت فيه على قيمها الأخلاقية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية وعلى أديانها وعقائدها .

وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات لا تلتزم التزاماً حرفيًا بتعاليم دياناتها ، إلا أنه لم تصل بعد إلى مرحلة علمنة هذه الأديان أو رفضها رفضا تامًا ، حيث تتبنى موقفاً يتميز بالمرونة الشديدة تجاهها .

ثالثاً : وأخيراً ، لدينا تلك المجتمعات التى تؤمن بالإسلام إيماناً راسخاً ، ولكنها أصبحت اليوم ضحية للاضطراب والحيرة بسبب ظهور العديد من الفرق والجماعات التى انحرف بعضها انحرافاً واضحاً عن التعاليم الأصلية للإسلام ، والتى لا يوفر ضعفها وإخفاقاتها الدنيوية ، نموذجاً جيداً للإنسانية يمكن لها أن تحتذيه أو تنسج على منواله .

لقد علمنا التاريخ دائمًا أن صعود وسقوط الحضارات ، يعود بصفة رئيسية إلى الشعوب ؛ فالشعوب هى التى تصنع الحضارات ، ونوعية أفراد تلك الشعوب هى أهم المكونات المطلوبة لإحداث تغييرات دراماتيكية فى المجتمعات والأمم .

لقد ربى الإسلام ، على سبيل المثال مجتمعه الأول على مبادئ العدل والحق ، لدرجة أنه استطاع خلال فترة زمنية قصيرة نشر نفوذه فى شبه الجزيرة العربية وفى أواسط آسيا وشمال إفريقيا ، بل وحتى جنوب أوروبا . كما أن الحضارة الإسلامية هى التى أسهمت إسهامات باهرة فى تقدم العلوم والمعارف فى مختلف أنحاء العالم المأهول فى تلك العصور . ولقد تحقق كل ذلك بسبب الجهود الموحدة والمشتركة والمتسقة التى قام بها المسلمون الأوائل من أجل دمج الجوانب المادية للحياة بجوانبها الروحية فى جميع المجالات . أما ما حدث فى أوروبا من فصل للكنيسة عن الدولة ، وما تلاه من عملية علمنة للمجتمع ، لم يشكل مشكلة للمسلمين على الإطلاق . ولكن الذى حدث بعد ذلك هو أن بعض علماء المسلمين ، وبعد أن رأوا كيف أن الكنيسة فقدت نفوذها الذى كانت تمارسه على الحكام بسبب عملية فصل

الدين عن الدولة ، تملكهم الخوف من أن يفقدوا أيضا نفوذهم على حكام المسلمين ، مما جعلهم يقومون بإصدار فتاوى وتقديم تفاسير تخدم مصلحتهم الشخصية ، ترتب عليها قصر التعليم على العلوم الدينية فقط والاهتمام بالشعائر والعبادات ، وإهمال العلوم الأخرى باعتبارها علومًا دنيوية لا يصح للمسلمين أن يتعلموها .

وهكذا ، ومن هذه النقطة ، بدأ انحدار شمس الحضارة الإسلامية وأفولها ، ومن ثم تمزق وانهيار العالم الإسلامى على النحو الذى نراه الآن .

وحتى من خلال هذه المراجعة المقتضبة للوقائع التى حدثت فى المجتمعات المختلفة ، فإنه يمكننا أن نتبين أن للدين دوراً مهمًا ينبغى أن يقوم به فى المجتمعات ، مما يعنى أنه يتعين علينا ألا ننظر إلى الدين أبداً باعتباره مجرد عبادات وشعائر لا تهم إلا الفرد الذى يقوم بها . فالدين الذى يسعى إلى الحقيقة من أجل تأسيس العدل فى المجتمع يجب أن ينظر إليه باعتباره دينًا نافعاً للمجتمع محققًا لمصلحته . إن الدين هو البوصلة أو هو المبدأ الرئيسى الذى يحكم ، ليس فقط الرفاهية المادية والجسدية للإنسان ، وإنما أيضا النمو الروحى الذى يساعد على الارتقاء بهذا الإنسان فى شتى مناحى حياته ، وهو الذى يوجه البشر نحو حياة أكثر توازنًا وهو أيضاً الذى يقدم الهداية الحقة والدافع القوى للعمل من أجل تحقيق حياة مثمرة مفعمة بالمعانى السامية .

إن الموضوع الذى نتناوله اليوم هو ضرورة إيجاد الطرق والوسائل التى يمكن لأمة من الأمم أن تقدم بها شعباً أو مجتمعاً يمتلك فى جوهره إحساساً عميقا بالمعتقدات الروحية ، ملتزماً بأسمى القيم الأخلاقية والمعنوية ، ومتصفًا بالإضافة لذلك بالتقدم والنشاط والاجتهاد والدأب والالتزام بكل ما من شأنه تحقيق التقدم والتطور . وهذه الأمور التى ذكرناها تعتبر فى غاية الأهمية ، كما أنها أيضا ذات صلة بالموضوع لأنها متى ما توفرت يصبح بإمكاننا أن نحقق التقدم المادى عن طريق التخطيط الدقيق والتنمية المدروسة . ولكن هناك حقيقة أساسية يجب ألا تغيب عنا أبداً وهى أن تضيع بكاملها إذا لم يكن لدينا المنظومة الأخلاقية المناسبة التى تحكم

حياة الشعب الذى يمتلك هذه الثروة .

ولقد رأينا أموراً مثل تلك التى تحدث على المستوى الفردى والعائلى ، كما أننا قرأنا فى التاريخ عن سقوط إمبراطوريات للسبب ذاته تقريباً ، بينما نشهد أمام أعيننا اليوم نماذج لحضارات أيضاً تنهار للسبب نفسه .

ثانيا : يجب أن نكون واعين بالحاجة إلى تحقيق نمو متوازن ومتكامل . بمعنى أن عملية التخطيط والتنمية يجب أن تأخذ فى الاعتبار الحاجة إلى السمو الروحى منذ البداية ، وأن تتجنب تأجيلها حتى النهاية . لقد قمنا حتى الآن بتجاهل هذا المكون المهم من مكونات التطور وخصوصاً خلال مرحلة التخطيط المبدئ . وحتى إذا ما قمنا بإدماجه فإننا نقوم بذلك بأثر رجعى أو كفكرة تطرأ على الذهن بعد الانتهاء من العمل . أى أننا نتذكر أننا قد نسينا إدماج الحاجة للسمو الروحى فى الخطة المرسومة ، فنقوم بإدماجها متأخرين استكمالاً للشكل فقط .

ثالثا : من الضرورى أن ندرك أننا قد ركزنا فى الماضى تركيزا كلياً تقريباً على التنمية المادية . وفى الآونة الأخيرة ، بدأنا ندمج بعض جوانب التنمية البشرية فى صورة تنمية غير روحية -أساسًا- للموارد البشرية . ولمن ما يجب ولكن ما يجب أن ننتبه إليه فى هذا السياق هو أن هناك فرقًا كبيراً بين التنمية البشرية وتنمية الموارد البشرية . فتنمية الموارد البشرية تتضمن إجراء مقارنة بين الطلب على المستويات المختلفة للفئات والمهارات الخاصة بالقوى البشرية وبين الإمداد بها بحيث لا نواجه نقصًا حاداً ، سواء فى عدد الأفراد أو فى الفئات والمهارات المختلفة . أما التنمية البشرية فتشمل نوعيات التعليم والتدريب والبيئة وما شابه ذلك من الأمور التى تعتبر ضرورية لتطوير جميع امكانيات الفرد سواء من الناحية المادية أو الروحية . وهذا الجانب من جوانب التنمية لم يحظ باهتمام كاف حتى الآن وليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن نواجه بالعديد من المشاكل البشرية . وكما جاء فى القرآن الكريم ، سورة الروم الآية رقم (٤١) : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ صدق الله والعظيـم .

يجب علينا أن ندرك من خلال فهمنا للآية المباركة السابقة أننا مسئولون عن جميع أنواع الشرور التى ظهرت على كوكب الأرض ، وبالتالى فإننا مسئولون بالطبع عن الشرور التى بالبيئة بأكملها . وهذه الشرور تعتبر نتاجا لتكالبنا على الشر . وذلك لأن نتيجة الشر لا يمكن ، فى نهاية المطاف ، سوى أن تكون شراً كذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته سوف يحقق التوازن فى النهاية عن طريق تطهير أولئك الذين يحيدون عن صراطه المستقيم أو يخرجون على ناموسه . وها نحن اليوم نشاهد بأعيننا شيئا مثل ذلك .

إن هذا الملتقى الذى يضم نخبة من أبرز العقول المسلمة والمسيحية ، يجب أن يعمل على تصحيح الصورة المشوهة التى يحملها كل طرف للطرف الآخر كما يجب عليه بالإضافة لذلك ، أن يعيد الدين إلى إطاره الصحيح فى جميع المجالات .

الفصل الخامس والعشرون

دور الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا *

اكتسبت الجامعة الإسلامية العالمية فى ماليزيا شهرة محمودة على نطاق واسع بوصفها مؤسسة للتعليم والدراسات العليا ، تحظى بمكانة مرموقة سواء فى البلاد أو خارجها على مستوى بلدان العالم الإسلامى .

وقد اثبتت هذه الجامعة كيف يمكن لأى جامعة إسلامية ناشئة مثلها أن تبلغ درجة رفيعة على المستوى الأكاديمى العلمى ، تؤهلها للوقوف على قدم المساواة مع الجامعات الأكثر عراقة بالمنطقة وعلى نطاق العالم ، متى ما تم الإعداد لذلك على نحو جيد ومدروس ، وطالما كان الهدف من إنشائها واضحاً فى أذهان القائمين على أمرها . ومما لا شك فيه أن هذا الإنجاز يرجع بالدرجة الأولى ، إلى ما تتمتع به الهيئة التعليمية والإدارة فى الجامعة من حكمة وتعقل وبعد نظر .

لقد راودت فكرة إنشاء جامعة إسلامية فى ماليزيا العديد من الجهات الإسلامية منذ الاستقلال عام ١٩٥٧ ويشرفنى كمسلم ماليزى أن أقول إننى كنت من بين من راودتهم تلك الفكرة ، كما يسرنى أننى كنت أيضا من بين من أسهموا بما استطاعوا من جهد وطاقة فى تأسيس هذا الصرح العلمى ، وإننى لأدين بالفضل فى هذا للبروفيسور **«إسماعيل الفاروقى»** الذى وقف من ورائى داعمًا ومشجعاً .

لقد ساد دائمًا اعتقاد فى البلدان الإسلامية بأن أى جامعة إسلامية يجب أن تكرس

---

* خطاب فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لإنشاء الجامعة الإسلامية العالمية فى ماليزيا ، بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٩٣م .

جهودها لدراسة الدين الإسلامي فقط لا لشيء آخر . والمرء يمكن أن يتفهم هذه النظرة الضيقة إذا ما كان الأمر يتعلق بأديان أخرى لا تنظر إلى الدين باعتباره منهج حياة . أما الإسلام فهو ليس عقيدة أو إيمانا فقط ، وإنما هو إلى جانب ذلك ، منهج حياة . وعندما يكون الإسلام منهج حياة يغطى كل ما يقول به الإنسان فى حياته ، فإن المنهج لابد من أن يتضمن إتقان جميع المعارف التى يمكن أن تسهم فى تلك الحياة . هكذا هى أهمية المعرفة الشاملة للإنسان لدرجة أن الله سبحانه وتعالى ، يأمرنا فى سورة الغاشية أن ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى الجبال كيف نصبت . والشيء الواضح أن هذه ما هى إلا أمثلة على قدرة الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء كما أنه من الواضح أيضاً أن لها علاقة بالحياة ذاتها .

إن الله سبحانه وتعالى ، عندما يأمرنا بالنظر إلى هذه الأشياء ، فإن معنى ذلك هو أن نقوم بدراستها دون أن تكون هناك أى قيود أو حدود لهذه الدراسة . والإسلام دين يحضنا على دراسة كل ما هو محيط بنا ، وكل ما يمثل جزءا من الحياة التى نعيشها . وهذه الدراسات التى يحضنا الإسلام عليها هى العلوم نفسها التى يتوصل إليها الإنسان عن طريق الملاحظة والبحث .

بالرغم من ذلك كله ، فإننا نجد من علماء المسلمين من يدعونا إلى قصر العلم والمعرفة على دراسة التعاليم والتفاسير الخاصة بالدين والقوانين والشرائع الإسلامية . وتأسيسًا على ذلك ينبغى ألا تقصر الجامعة الإسلامية جهودها على دراسة أمور الدين فقط أو دراسة الأمور المتعلقة بالإسلام كعقيدة فحسب ، وإنما يجب أن تشتمل كذلك على دراسة شتى العلوم الأخرى التى يتم تدريسها فى الجامعات المختلفة بدرجة الشمول والعمق نفسها .

إن الطالب الذى يتخرج فى الجامعة الإسلامية يجب أن يكون محيطاً بكل العلوم ، ملما بمختلف المعارف ، قادراً على العيش وعلى الإسهام فى أسلوب الحياة الذى ينتهجه المسلمون فى كافة المجالات . ويجب أن يكون أولئك الطلبة قادرين على إدارة شئون حياتهم

وشئون الأمة الإسلامية ، وأن يكونوا قادرين على الدفاع عن تلك الأمة بالقدر الذى يجب أن يقوموا فيه بأداء الشعائر الإسلامية .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو : مادامت الجامعة الإسلامية تقوم بتدريس العلوم نفسها التى يتم تدريسها فى الجامعات العادية ، فما الذى يجعلها إذا جامعة إسلامية؟ هذا فى الحقيقة سؤال مهم ، وللإجابة عنه نقول إن أسلوب الحياة لا يعتمد فقط على المعرفة وإنما يعتمد فى نفس الوقت على مجموعة من القيم ، كما يعتمد على الثقافة . بكلمات أخرى ، يجب أن يكون جزءاً من حضارة إسلامية متميزة . وإذا ما أريد للإسلام أن يكون منهجاً للحياة ، فإن ذلك الأسلوب يجب أن يكون قائماً على أساس من القيم الإسلامية . ولكى نعرف ماهية هذه القيم فإنه من الضرورى أن يكون لدينا على الأقل معرفة عملية بالدين الإسلامى وبالذات تلك المعرفة المتعلقة بتفكيرنا وتقييمنا للمشاكل التى تحيط بنا فى هذه الحياة ، وردود أفعالنا تجاهها .

وليس من المحتم على كل شخص فى كل المجتمعات الإسلامية أن يكون لديه معرفة شاملة بالإسلام ، بل يكفى أن يكون هناك واحد فقط أو حتى مجموعة قليلة الأشخاص الملمين إلماما تاما بكل جوانب الدين الإسلامى . أما الباقون فيلزم أن يكون لديهم المعرفة التى يصح بها الدين حتى لا يضلوا أو يخرجوا عن جوهر العقيدة الإسلامية . لذلك فإن الطلاب فى الجامعة الإسلامية يجب أن يتلقوا قدراً كافياً من التعليم الدينى يمكنهم من أن يصبحوا مسلمين صالحين ملتزمين بفرائض الدين ، يرشدهم فى الوقت نفسه عند قيامهم باستخدام العلوم الأخرى ، حتى لا يتحرفوا بها عن جوهر الدين وتعاليمه وأسلوبه فى الحياة . وبهذه الطريقة فإن طالب الجامعة الإسلامية لن يكون ضليعاً فى العلوم والمعارف الأخرى فقط ، وإنما سوف يكون مزوداً بالقيم والمبادئ الإسلامية التى سوف تحول بينه وبين إساءة استخدام تلك العلوم أو استخدمها بطريقة يحرمها الدين ، وحيث إن الإسلام لا يمنع المسلم- وإنما يحضه- على فعل الأشياء الإيجابية والنافعة فى هذه الحياة ، فإن الطالب لا بد من أن يعرف

الطريقة السلمية التى تمكنه أن يقوم بها على ذلك النحو وأن يعرف أيضا كيف يستخدم معرفته لصالح الإسلام وصالح قضاياه .

وهناك سؤال آخر قد يتبادر إلى الذهن أيضاً فى هذا السياق وهو : ما هو مقدار المعرفة الإسلامية التى يمكن اعتبارها ضرورية؟ هذا السؤال أو هذه النقطة تحديداً ، هى النقطة التى اختلف فيها العلماء المسلمون . فبعض العلماء يريد لهذه المعرفة أن تكون عميقة وشاملة دون حاجة لبقية العلوم وأنواع المعارف الأخرى . وهناك آخرون يريدون أن تكون هذه المعرفة ضحلة ومحددة بطريقة قد تعرض الدين لخطر التجاهل والإهمال التام .

إن الأشخاص الذين خططوا من أجل إنشاء الجامعة يستطيعون الادعاء بأنها سوف تقوم بتخريج خريجين ضالعين فى تعاليم الإسلام ، وحائزين على المعرفة التى سوف تسهم فى تحسين وترقية حياتهم وبالتالى حياة الأمة الإسلامية . أما عملية تحديد مستويات المعرفة الدينية والمعرفة غير الدينية التى يجب على الطلاب دراستها ، فأعتقد أنه يجب أن يترك للأكاديميين المتخصصين . إن الشىء الذى نرغب فى أن نراه هو أن يكون خريج الجامعة الإسلامية ليس فقط فى الموضوع الذى يدرسه ، وإنما يكون إلى جانب ذلك مسلما ملما تمام الإلمام بشئون دينه ، ملتزما بتعاليمه ، متمسكاً بشعائره وعباداته ، مسلما ليس بالاسم فقط أو بالوراثة فقط وإنما مسلماً قادراً على المضى قدما فى دروب الحياة مزودا بكل ما من شأنه أن يمكنه من أن يصنع وأن يعيش أسلوب حياة إسلامى مئة فى المئة .

إننا لا نستطيع أن نزعم اليوم أن جميع المسلمين يمارسون أسلوب الحياة الإسلامى و كيف يمكن لنا أن نزعم ذلك ونحن نرى المسلمين ممزقين ، بل ومتناحرين بين بعضهم بعضا ، ضعفاء متخلفين ، معتمدين اعتماداً كاملاً على إحسان الآخرين ونزواتهم فى بعض الأحيان من أجل إنقاذهم؟ وعلى الرغم من دعوة القرآن الكريم لنا بأن نعد للأعداء ما استطعنا من القوة ومن رباط الخيل كى ندافع عن أنفسنا ، فإنه يبدو واضحا أننا عاجزون عن

القيام بذلك . ففى كل مكان ، وأينما تلفتنا ، سواء شرقاً أو غرباً نرى المسلمين مقهورين دون أن يكون لدى أية أمة شعب مسلم ، القدرة على لعب أى دور حقيقى لكى يرفع عن إخوانه المسلمين الحيف والظلم ، ويحقق لهم الإنصاف والعدالة ، وينشر فى ربوعهم رايات السلام .

والقوى العظمى الموجودة فى عالم اليوم ليس بينها قوة واحدة مسلمة ليس هذا فحسب ، بل إننا لا نجد دولة مسلمة واحدة بين الدول المتقدمة فى المجالات العلمية أو التكنولوچية أو التنظيمية ، أو الإدارية . يحدث كل هذا فى الوقت الذى نعلم فيه علم القين أن الإسلام دين يدعو إلى طلب العلم ويؤكد الحاجة إلى المهارات اللازمة للمجالات التى يمكنها أن تحمى الأمة وتوفر لها الدعم والعون .

وبدلا من أن نقوم بذلك ، ترانا نقوم بتبديد مواردنا وإهدارها بالاقتتال فيما بيننا على أمور تافهة تؤدى إلى تمزق صفوفنا وتشتيت جهودنا . وبدلاً من أن نقوم بحل مشاكلنا عن طريق تطبيق المبادئ والتعاليم الإسلامية ، فإننا نلجأ إلى غير المسلمين للحصول على المساعدات على الرغم من أنهم لا يتعاطفون مع الإسلام أو مع المسلمين . والحق أننا لا نستطيع أن نزعم أبدا أننا نمارس الأسلوب الصحيح .

وعلى الرغم من أن القيام بأداء العبادات المحددة أمر مهم فى سياق الممارسة الإسلامية ، وفى سياق الالتزام بديننا وإيماننا إلا أن ممارسة أسلوب الإسلام فى الحياة يعتبر هو الآخر وبالدرجة نفسها التزاما بإيماننا وبديننا الحنيف إننا نؤمن بالحياة بعد الموت كما نؤمن أيضاً بالثواب والعقاب فى يوم القيامة . ولكن الإسلام ، وربما أكثر من أى دين آخر يهتم بالحياة قبل اهتمامه بالموت . وهذا هو السبب الذى يجعل من الإسلام أسلوب حياة ، بل إن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها للإسلام أن يكون منهجًا للحياة .

أما إذا ما نظرنا إلى الإسلام على أنه دين مكرس للموت ، أو أنه دين يهتم بما بعد الموت وبالحياة الأخرى ، فإن الإسلام فى هذه الحالة لن يمكنه أن يكون منهجاً للحياة كما ينظر إليه

الجميع .

نحن سعداء لكوننا مسلمين ، ونحن مسلمون لأن أجدادنا الأوائل الذين دخلوا إلى دين الله أفواجًا أيام الرسول- صلى الله عليه وسلم ، قد مارسوا المنهج الإسلامى فى الحياة . وعندما مارسوه ، فإن العرب البدو المتخلفين أصبحوا أمة قوية ذات معرفة بأسلوب الحياة سواء بوصفهم أفرادًا أو أمة الأمر الذى مكنهم من نشر الإسلام فى مناطق بعيدة كل البعد عن موطنهم الأصلى فى شبه الجزيرة العربية القاحلة الجدباء

إن تعاليم الإسلام كما نتلقاها اليوم تركز على الشعائر والعبادات وعلى ما هو حلال وما هو حرام كما تركز على أمور أخرى غير ذات أهمية لحياة المسلمين ، وفى الوقت نفسه تغفل هذه التعاليم الجوانب الأخرى التى تحض على اكتساب المعارف والتزود بالعلوم والمهارات اللازمة للتقدم فى مدارج الحضارة . وحتى عندما يدعو علماء العصر الحديث إلى المعرفة فإنهم لا ينسون أن يؤكدوا أن المقصود بها هو المعرفة الإسلامية أو المعرفة بالإسلام وبشرائعه المستمدة من التفاسير المختلفة للقرآن الكريم وسنة نبيه محمد - صلى الله علية وسلم .

وهناك نزوع لتقسيم المعرفة إلى دينية ودنيوية ، وهو ما يتماشى مع التقسيم الذى حدث فى أوروبا فى القرون الوسطى حين تم فصل الكنيسة عن الدولة ، أو الدين عن الدولة بمعنى أصح ، والذى جاء كرد فعل على النفوذ المتغلغل للكنيسة فى شئون الدولة .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن فى هذا السياق هو : هل هناك فى الإسلام فصل بين الحياة اليومية وبين التمسك بالدين من قبل المسلمين؟ وإذا كان الإسلام منهج حياة حقا . فهل يمكن فصل هذا الأسلوب الحياتى عن الممارسة الدينية؟ بالطبع لا ، لأن حياتنا محكومة فى كل جزئية منها بالدين الإسلامى وبتعاليمه السمحاء . وبالتالى فإن حياتنا يجب أن تشمل ما نقوم به من أجل الدفاع عن أنفسنا وعن ديننا . وما نقوم به من أجل دعم مكانة الإسلام ونشره

فى ربوع المعمورة ، وزيادة الاحترام والتقدير له من قبل الجميع دون استثناء .

ولكى نقوم بذلك كله ، لابد من أن نكون مزودين بالعلم والمعرفة والمهارات اللازمة . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان معروفا بمهاراته التجارية وحكمته الدنيوية . وقد أدى ذلك إلى احترام الجماعات التى كانت تعيش فى مكة والمدينة له بسبب تلك المهارات والحكمة ، وهو الأمر الذى كان له دور مهم فى النهاية فى نجاحه فى توصيل الرسالة وتبليغ الأمانة التى كلفه الله بها . كان الرسول - عليه الصلاة والسلام ، ضليعا فى شئون الحياة اليومية بالقدر ذاته الذى كان فى شئون الدين .

كيف يمكن لنا بعد ذلك كله أن نتبنى الدعوة المسيحية للفصل بين الدين وبين الدنيا؟ إن هذا الفصل غير جائز فى الدين الإسلامى ، ما دام الأمر كذلك فإنه يجب ألا يكون هناك فصل بين المعارف الدينية والمعارف الدنيوية أو العلمانية .

ومن هنا فإن الموضوعات والتخصصات المختلفة التى يجب على أى جامعة إسلامية أن تركز عليها وأن تدرسها وأن تفتح باب البحث فيها وتقوم بنشرها ، هى فى الحقيقة أجزاء من تعاليم الدين ، وليست موضوعات علمانية أو دنيوية . فالمعرفة بالعلوم والفروع غير المتخصصة فى جوهرها بالشعائر والشرائع الإسلامية ، يجب أن تكون هى الأخرى محكومة باحتياجات الإسلام كدين وكأسلوب حياة ، وكذلك بالقيم والأهداف المتصلة به . وهذه المعرفة لا تكون فى تلك الحالة معرفة دنيوية أو علمانية ، وإنما هى فى الحقيقة جزء من الدين ومن ثم فإنها يجب أن تعمل على الموازنة بين المعرفة بالشعائر والمعرفة بالشرائع الإسلامية . إن عدم القدرة على معرفة هذه الموضوعات والتخصصات العلمية وإتقانها ، حتى وإن كانت فى جوهرها أمورا غير دنيوية ، سوف يعرض المسلمين إلى خطر ضياع دينهم . وهذا الأمر يحدث بشكل خاص عندما يخضع المسلمون ، بسبب فقرهم المادى وخوائهم الثقافى ، وبسبب ضعف قوتهم ، أمام الضغوط الخارجية التى قد تنتهى إلى مرحلة الغزو . ولكن حتى

إذا كان المسلمون فقراء فقط ، ويفتقرون إلى المهارات والمعارف المختلفة ، فإن ذلك ينبغى ألا يشكل عائقا يمنعهم من القيام بواجبات دينهم . إن اكتساب المسلمين للمعرفة والمهارة وللثروة المادية هو فى الحقيقة جزء لا يتجزأ من الوسائل التى يجب عليهم أن يستعينوا بها فى المحافظة على دينهم ، بل أنها فى الحقيقة جزء من ممارستهم للدين ولأسلوبهم فى الحياة .

لقد كان القرآن الكريم واضحا بشأن موضوع الفقر حيث قال إن بين الفقر وبين الكفر خطوة واحدة ، ويجب علينا فى هذا السياق أن نتذكر أن الفقر ليس مقصودا به الفقر المادى فقط وإنما يقصد به أيضا الفقر الذهنى والمعرفى والفقر فى المهارات أيضا .

وهكذا ، فإن المسلمين يجب أن يسعوا إلى تحصيل شتى أنواع المعارف من أجل حماية دينهم فالمسلمون بسبب إهمالهم للمعارف من أجل حماية دينهم . فالمسلمون بسبب إهمالهم للمعارف التى لا ترتبط ارتباطا واضحا ومباشرا بالشعائر والقوانين المنظمة لممارسة الإسلام ، قد أصبحوا ضعفاء ومقهورين ، بل وخارجين عن تعاليم دينهم ، ومبتعدين عن الصراط المستقيم فى الكثير من الحالات . لذلك فإن من المهم والضرورى أن يقوم المؤمنون بتصحيح وجهة نظرهم الضيقة فيما يتعلق بالمحافظة على الدين الإسلامى وعلى منهج الحياة الإسلامى . ومن أجل تحقيق هذه الغاية يجب على جميع المسلمين ، دون استثناء وسواء أكانوا ذكورا أم إناثا ، يسهموا بجهودهم ؛ لأن المرأة كما تعرفون هى نصف المجتمع وأن استبعادها عن المشاركة فى الحياة العامة معناه أننا ننتقص نصف من قوتنا .

ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى حرية المرأة على النحو السائد فى المجتمع الغربى والذى أدى إلى ما نراه فى هذا المجتمع من الفساد وانحلال . ولكننا يجب أن نتذكر أن الإسلام هو الدين الذى أعطى المرأة حقوقا واسعة ، بل وأعطاها حقوقا أكثر مما أعطاها أى دين آخر . ولكن ، للأسف الشديد ، وفى نطاق محاولتنا لتجنب فتنة المرأة ، تسببنا فى حرمانها من المشاركة فى المجالات الثقافية ومن الإسهام فى الحياة العامة .

إن انهيار الدين فى الغرب يجب أن يكون إشارة تحذير لنا ، ويجب أن يكون معلوما لنا أيضا أنه إذا ما تساهلنا فى تفسير الإسلام ، فإن ذلك يمكن أيضا أن يؤدى إلى انهيار الدين . على أن خوفنا من ذلك يجب أن لا يدفعنا أيضا إلى المبالغة فى التشدد ، وإلى تحريم ما يحلله الدين ، بل يجب علينا أن نكون دائما على وعى بالحدود الحقيقية التى يرفضها الإسلام ، وأن نحترم هذه الحدود ونلتزم بها أشد الالتزام .

أيضا أن نكون مرنين ، خصوصا وأن الإسلام يأمرنا بالمرونة ، على أن يكون مرشدنا فى ذلك على الدوام هو حرصنا على حماية مصالح الأمة ورفاهيتها والتزامنا بجوهر الدين الإسلامى الحنيف .

لقد أنشأنا الجامعة الإسلامية العالمية من أجل حماية المعرفة الإسلامية الحقة فى سياق عالم يتغير بخطى حثيثة منذ مجىء الإسلام . كما أن هدفنا فى المقام الأول من إنشاء هذه الجامعة هو إعداد المسلمين لمواجهة مشاكل العالم المعاصر مع الحفاظ على دينهم سليما وراسخا ، وضمان أنهم فى مشارق الأرض ومغاربها يقيمون موازنة بين الاهتمام بالدنيا والاهتمام بالآخرة ، بحيث يبقى الإسلام دائما دينا صالحا لكل زمان ومكان .

ولا شك فى أن المهمة التى تنتظر هذه الجامعة وكل من له صلة بها أو مشارك فى نشاطها ، مهمة جسيمة . ولعلنا لا نبالغ عندما نقول إن هذه المهمة فى جوهرها تعنى بعث الإسلام وبعث المسلمين من جديد . وليس هناك من حاجة للقول إن الجامعة لن تكون وحدها فى هذه المهمة الجليلة ، ولكنها ستسهم ولو بالقليل الذى يعتبر أيضا ذا مغزى كبير فى التمكين للدين والأمة الإسلامية جمعاء .

إننى أعلم علم اليقين أن الكثيرين قد لا يشاركوننى آرائى هذه ، ولكننى مع ذلك ، أشعر أن من واجبى كمسلم أن أعبر عنها ، حتى إن كنت أعرف أنها سوف تتعرض إلى انتقادات شديدة وخصوصا من تيار الإسلام التقليدى المحافظ . يجب علينا أن نعترف أن

الإسلام والمسلمين قد تراجعا وتلك هى الخطوة الأولى نحو إصلاح الأمور . لكن هناك أناس لا يعترفون بهذه الحقيقة المرة ، وهناك من يزعمون أن الإسلام يشهد صحوة كبيرة هذه الأيام . ولكن الحقيقة هى أن الإسلام لم يتعرض خلال أى فترة من فترات تاريخه إلى مثل هذا القدر من المهانة ، كما هو الحال فى الوقت الراهن . كما لم يمر المسلمون أيضا فى تاريخهم بفترة مثل التى يمرون بها حاليا من حيث ما يقدمونه من تنازلات فى مختلف الجوانب المتعلقة بالدين .

ويهمنى هنا أن أؤكد أن هناك مسئولية ثقيلة تنتظر هيئة التدريس بالجامعة ، كما تنتظر الطلاب الذين يدرسون بها أنتم أيها الأخوة تمثلون محورا مهمًا من محاور النضال من أجل استعادة عزة الإسلام وأمجاده ، ومن أجل تعزيز الإيمان به ليعود قويًا كما كان ، مع العمل على استعادة الاحترام والعزة للمسلمين ، وتدعيم الدور الذى تضطلع به الأمة الإسلامية فى الشئون العالمية . وينبغى أيها الإخوة أن تقوموا بذلك دون أن تنسوا الآخرة ، حيث يجب عليكم أن تعملوا دائما لإيجاد التوازن الصحيح بين الاهتمام بالدنيا وبين الاهتمام بالآخرة ؛ لأن هذه الجامعة فى النهاية ليست مثل أى جامعة أخرى . فهذه أيها الأخوة جامعة إسلامية ، عليها واجب يجب أن تضطلع به نحو الإسلام ونحو الأمة الإسلامية . وأنتم أيضا عليكم واجب تجب أن تضطلعوا به نحو الإسلام ونحو الأمة الإسلامية . وفقكم الله لما فيه خير الإسلام والأمة .

الفصل السادس والعشرون
الإسلام والعدالة *

بعد مرور عدة قرون على أفول شمس الإمبراطورية الإسلامية، أصبح العالم الآن واقعا تحت سيطرة دول الغرب غير المسلمة، ولم تنجح هذه الدول فقط فى السيطرة على العالم بأسره تقريبا، ولكنها نجحت كذلك فى التأثير على تفكير معظم الشعوب التى تسيطر عليها، وفى فرض قيمها وفلسفتها عليها، بالإضافة لذلك قامت تلك الدول بنشر مفاهيمها ومبادئها الخاصة بالعدالة على نطاق واسع بين هذه الشعوب لدرجة أن العالم بأسره أصبح خاضعا لتلك المفاهيم والمبادئ العدلية ومؤمنا بها دون أن يفكر للحظة واحدة ما إذا كانت صحيحة أو لا .

وفى الوقت نفسه، أصبح الغرب من القوة بمكان على المستويين الاقتصادى والعسكرى وفرض سيطرته على مفاتيح المعرفة بضروبها المختلفة، بما فى ذلك تقنية المعلومات التى أتاحت له إخماد أى صوت يجهر بمعارضة هيمنته أو يسعى لتأليب الآخرين على قيمه ومبادئه التى يعلى من شأنها ويقوم ببثها على نطاق العالم .

هذا هو مفهوم الغرب للعدالة، فهم يتشدقون بكلمات بليغة مثل : سيادة القانون وحقوق الإنسان والديمقراطية وصوت الأغلبية دون أن يأخذوا فى حسبانهم أن هناك قوانين بعينها من صنع البشر، وأن تلك القوانين غير عادلة، أو أن هناك مبالغة فى حقوق الإنسان، ونوعا من عدم الفهم العقلانى فى مسألة حكم الأغلبية . ومن هنا يمكننا القول بأن القوانين

* كلمة ألقيت في مؤتمر «الإسلام والعدالة» الذى نظمه معهد الفهم الإسلامى بالعاصمة الماليزية – كوالالمبور – فى ٣ يونيو ١٩٩٣ .

فى الغرب تضع حقوق الفرد فى مقدمة أولوياتها ، وتسمح له بأن يفعل أى شىء يروق له ، حتى ولو كان مثل تلك الأفعال يشكل تهديدا للسلم والأمن الاجتماعيين .

وفى الوقت نفسه ، نجد أن القوانين الدولية قد تمت صياغتها بطريقة توفر للقوى المهيمنة الحق فى إلحاق الظلم بالضعيف . وينطبق الشىء نفسه على مبادئ حقوق الإنسان التى تحظى بهالة من التقدير لدرجة أنه يتم بموجبها توفير الحماية لبعض الجماعات بذريعة الديمقراطية ، حتى لو كانت أنشطتها تشكل تهديدا خطيرا للمجتمع والسلام والتقدم . أما الديمقراطية ، أو صوت الأغلبية (حسب التعريف الغربى لها) وبالطريقة التى تطبق بها على أيدى الصرب فى البوسنة والهرسك ، فيتم احترامها هى الأخرى حتى ولو كان هدفها هو قمع المسلمين البوسنيين . وعلى الرغم من أن الديمقراطية تقود فى كثير من الأحيان إلى الشقاق والنزاع وانهيار حكم القانون ، وإلى القمع والقسوة وإلى الفقر الذى نراه منتشرا فى كل مكان كما نراه فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق ودول أوروبا الشرقية ، إلا أنها ما زالت تحظى بالاحترام والتقدير حتى الآن .

بالمقابل نرى أن الغرب لا يتردد لحظة واحدة فى أن يتخلى عن مبادئ العدالة نفسها التى يجاهر بالإيمان بها ، إذا كان ذلك سيسفر عن تحقيق مصلحة له . ففى منطقة غرب آسيا على سبيل المثال ، كانت الصورة الظاهرة للعيان هى أن الغرب يقوم بحماية الكويتيين من بطش العراقيين . وقد بدأ الغرب فى ذلك الوقت يروج لفكرة مؤداها أن ما يقوم به فى هذا الصدد يستند إلى أسباب إنسانية تتمثل فى شعور الغرب بضرورة تحقيق العدالة وإنصاف المظلوم مهما تكلف الأمر . وعندما حدث الشىء نفسه فى البوسنة والهرسك وكان واضحا أن الصرب يقومون بقتل المسلمين ، وجد الغرب لنفسه ألف عذر وعذر كى لا يتخذ أى إجراءات ضد الصرب أو يقوم ضدهم بأى عمل كما حدث ضد العراق لدى غزوه الكويت . لقد تصرف الغرب فى موضوع الكويت على النحو الذى يحمى به النفط . أما عندما لم يكن لديه أى مصالح فى البوسنة والهرسك فإنه سمح للصرب بأن يقوموا بقمع المسلمين

وترويعهم وقتلهم . إن المبدأ الحقيقى الذى يتفق عليه الغرب وتتفق عليه الغالبية العظمى من دول العالم اليوم ، هو أن القوة فوق الحق . وعلى هذا الأساس فإن أى شىء يفعله الغرب يكون عادلا . لماذا؟ لأن الغرب قوى ، وهو بقوته تلك قادر على أن يقنع الآخرين بعدالة كل ما يقوله أو يفعله . وبالمقياس نفسه ، فإنه طالما أن الصرب كانوا هم الطرف الأقوى ، كان من المحتم أن يتم إغفال قيامهم بضم أراض بوسنية لدولتهم ، والتغاضى عنه . أما عندما يتعلق الأمر بالدول الإسلامية والمسلمين الضعفاء أصلا ، فإن الغرب ينظر إلى ما يقولونه أو يفعلونه على أنه خطأ غير عادل .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط ، بل إننا رأينا كيف أن الجهود التى بذلها المسلمون لإعادة التأكيد على مفهوم العدالة كما جاء فى الإسلام ، قد تعرضت هى الأخرى إلى انتقادات من قبل الغرب باعتبارها محاولات تهدف إلى إحياء تفكير سلفى عفا عليه الزمن . إن الخطر يكمن فى أن يقوم المسلمون ، كرد فعل للإحباط الذى يشعرون به بسبب ضعفهم وإخفاقهم ، بالتصرف بعكس ما تمليه عليه تعاليمهم الإسلامية . فبسبب تلك الإحباطات قد يقوم المسلمون بتصرفات طائشة ، وقد يرتكبون الجرائم نفسها التى سبق لأعدائهم أن ارتكبوها ضدهم . وعندما يقوم المسلمون بذلك فإنهم سوف يقدمون الدليل الذى يمكن للغرب أن يستخدمه فى ادعائه بأن المسلمين إرهابيون .

وتحفل صفحات التاريخ بنماذج وأمثلة على عدل الإسلام والمسلمين ، فعندما غزا الرومان فلسطين قاموا بطرد اليهود منها وشردوهم فى مختلف أنحاء العالم ، فيما أصبح يعرف تاريخيا باسم «الشتات اليهودى» . ولكن عندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب إلى القدس ، سمح للمسيحيين واليهود بأن يبقوا فى ديارهم . وحدث الشىء نفسه عندما قام القائد العربى صلاح الدين الأيوبى بغزو فلسطين حيث كان حريصا كل الحرص على توفير الحماية لغير المسلمين . وإذا ما قارنا ذلك بما يحدث اليوم ، فسوف نرى أن اليهود الذين استولوا على أرض فلسطين بمساعدة الغرب ، يقومون بممارسة القهر والتشريد والقتل ضد

سكان فلسطين بمن فيهم الأطفال كل يوم .

والشيء ذاته حدث فى إسبانيا التى حكمها المسلمون لمدة ٨٠٠ سنة ، فخلال تلك السنوات الطويلة بقى المسيحيون واليهود فى إسبانيا ، ومارسوا حياتهم الطبيعية جنبا إلى جنب مع المسلمين . ولكن عندما استرد «فرديناند وإيزابيلا» الأندلس من حكم المسلمين ، قاما بطرد العرب واليهود إلى شمال إفريقيا . أما من لم يستطع الهرب فإنه إما تعرض للقتل على أيدى الإسبان دون رحمة ، أوتمت مساومته للإبقاء على حياته مقابل التخلى عن دينه ودخول المسيحية تحت حملات تعذيب وحشية لم يسبق لها مثيل ، وكانت سماحة المسلمين هى السبب فى أن مسيحيين ويهود قد بقوا فى الأندلس طوال فترة الحكم الإسلامى التى استمرت لمدة ٨٠٠ سنة ، فى حين أن المسيحيين عندما استردوا الأندلس قاموا بطرد جميع المسلمين واليهود منها ولم يبقوا فيها على أحد .

وعندما كان الشيوعيون يتولون زمام السلطة فى الاتحاد السوفييتى السابق ، قاموا بقهر المسلمين ومحاربة الإسلام ، لدرجة أنه لم يكن هناك مسلم واحد فى ذلك العهد الرهيب يجرؤ على المجاهرة بدينه . وقد حدث الشيء نفسه فى «ألبانيا» أثناء الحكم الشيوعى .

واليوم نستطيع أن نرى بأعيننا المظالم والعدالة المعدومة السائدة فى البوسنة والهرسك ، وليس الأمر مقصورا على ذلك ، فالإسلام والمسلمون يواجهون القهر والعنت فى كل مكان فى العالم ، وذلك على الرغم من أن العالم يزعم أنه يدعو إلى مبادئ العدالة وسيادة حكم القانون .

مقابل ذلك ، فإننا نرى فى الإسلام الذى هو أيضا منهج حياة متكامل ، عدالة كاملة ومحددة بوضوح . ففى الإسلام يتم التأكيد بشكل لا لبس فيه على أن الهدف من خلق الكون هو إقامة العدل ونشر الحقيقة . وفى الآية رقم (٨٥) من سورة الحجر ، يقول الله سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ

فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ صدق الله العظيم . وهو المعنى ذاته الذى تضمنته الآيتان (٣٨ - ٣٩) من سورة الدخان ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ صدق الله العظيم .

إن هذه الأيات المحكمات تبين بجلاء لا لبس فيه أن الغرض الحقيقى من خلق السموات والأرض ، بل والكون بأكمله هو إقامة العدل ومحاربة القسوة والشر . ففى سورة الدخان ، الآيتان (٣٧ - ٣٩) بيَّن الله سبحانه وتعالى ، أن الكون لم يخلق عبثا وإنما بالحق . وتدحض الأية بوضوح أى مفهوم حول عبثية خلق الكون ، وتؤكد أنه لم يخلق إلا لإقامة العدل وإعلاء شأن الحقيقة فى الحياة الدنيا .

وإذا ما قبلنا حقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون من أجل إقامة العدل وإعلاء شأن الحق ، فإننا ، باعتبارنا من مخلوقات الله ، علينا أيضا أن نقيم العدل ؛ لأن إقامته فى حقيقة الأمر تعتبر من أهم المسئوليات الملقاة على عاتق البشر .

والعدالة فى الإسلام تعنى وضع الشىء فى مكانه الصحيح . وفى هذا السياق فإننا نجد أن العدالة لها ثلاثة جوانب فى غاية الأهمية هى :

أولا : وضع الشخص فى المنصب ، أو الوظيفة التى تتلاءم مع إمكاناته وقدراته .

ثانيا : إصدار الأحكام ، أو اتخاذ القرارات بما يتماشى مع الموقف أو مع الشخص الذى يتم إصدار الحكم عليه ، أو اتخاذ القرار بشأنه .

ثالثا : توزيع الثروة وحق الملكية لهؤلاء الذين يستحقونها عن جدارة .

فإذا أردنا اختيار شخص ما لشغل وظيفة أو منصب على قدر عال من الحساسية والأهمية مثل القضاء على سبيل المثال ، فإن الإسلام يطالبنا بإسناد هذه المسئولية لأكثر الناس تأهيلا وكفاءة . إننا عندما نوظف شخصا ما فى موقع هو غير متخصص فيه ولا خبرة له به ،

نكون قد ارتكبنا خطأين مجافيين للعدالة ، **أولهما** : أن ذلك الشخص لن يستطيع إدارة دولاب مهامه لافتقاره للخبرة والكفاءة الضروريتين لذلك ، وهو أمر يبث فى نفس الموظف أو المسئول الإحساس بالإحباط والضجر وعدم الثقة بالنفس ، وعدم الاهتمام بأداء مهام الوظيفة . **والوجه الآخر** المنافى للعدالة فى إجراء من ذلك القبيل : يكمن فى كون الموظف أو المسئول الضعيف غير الكفء ، لن يتمكن من أداء الدور المنوط به وهو أمر يتسبب فى إلحاق الضرر بمصالح المجتمع .

وفى هذا السياق ، نستشهد بما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق باختيار شخص معين لوظيفة مهمة ، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه إننا عندما نقوم باختيار رجل لعمل ما فى حين أن هناك من هو أكثر قدرة منه على القيام بهذا العمل ، فإننا نكون حينئذ مثل من خان ثقة الله سبحانه وتعالى ، وثقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل وثقة جميع المؤمنين . إن هذا يعنى أننا عندما نقوم باختيار شخص ما لتولى منصب معين ، يجب أن نتوخى الدقة البالغة والحرص فى انتقاء أكثر الأشخاص ملائمة وكفاءة لتلك الوظيفة من بين الأشخاص الموجودين أو المرشحين لشغل المنصب ، وذلك حتى لا نظلم أنفسنا فى المقام الأول ، أو نظلم الشخص الذى قمنا باختياره ، ونظلم فى النهاية الجماعة أو المجتمع الذى يفترض أن مثل ذلك الشخص سوف يقوم بخدمته .

وعندما نصدر حكما بحق شخص ما فإننا يجب أن نتقيد بالإرشادات التى جاءت فى القرآن الكريم وفى سنة نبيه الكريم ، بحيث يأتى الحكم عادلا . فالإسلام يرشدنا فى مثل هذه الحالة إلى القيام باختيار القاضى من بين الأشخاص الذين يتمتعون بأعلى درجات المعرفة والحكمة والمقدرة والطهارة والنزاهة الشخصية ، وأن نكون حريصين أيضا عند إصدار الحكم على استيفاء كل الحقائق ذات العلاقة ، وأن نقوم بتمحيص هذه الحقائق والنظر فيها بتأن ، منعًا لأى لبس أو شكوك .

كما أن هناك نقطة مهمة وهى أن الشهود الذين يشهدون فى القضية المنظورة ، يجب أن يكونوا عُدولاً حريصين على قول الحق ولا شىء غير الحق ، حتى ولو أدى ذلك إلى حدوث ضرر أو خسارة سواء بالنسبة لهم أو لعائلاتهم أو لأصدقائهم .

إذن نخلص من ذلك إلى القول بأن العدالة يجب أن تسود عند قيامنا باتخاذ أى قرار سواء أكان ذلك القرار اجتماعيا أم سياسيا أم اقتصاديا أم إداريا . وعندما تسفر القرارات الصادرة عن أوضاع أو مواقف عكس ما هو مطلوب ، فإن معنى ذلك أن تلك القرارات تفتقر إلى الإنصاف والعدالة .

والعدالة المطلوبة أيضا عند توزيع الثروات سواء أكانت فى شكل مادى أم فى شكل توزيع فرص لتكوين هذه الثروات وتجميعها . فى هذا السياق فإن عملية توزيع الفرص يجب أن تتم بأقصى قدر من العدالة مثلها فى ذلك مثل توزيع الثروات ، خصوصا تلك المتعلقة بمجال التعليم والتجارة وغير ذلك من المجالات .

والإسلام يتطلب العدل ليس فقط من القادة ، وإنما أيضا من المجتمع طالما كان أى جانب من الجوانب الثلاثة التى ذكرناها آنفا متوفرا . فإذا ما تم مثلا إعطاء الجماهير الحق فى اختيار قادتها ، فإن هذه الجماهير يجب أن تختار المرشحين الأحق بالمنصب والأكثر تأهيلا ، علما بأن جميع صور الفساد مثل : السعى لتحقيق المنافع الشخصية ، أو الحصول على مقابل نظير خدمات سابقة ، كما يحدث فى بعض الجهات ، تتعارض تعارضا تامًا مع قواعد العدالة الإسلامية .

إن الفوضى الضاربة بأطنابها فى العالم الآن ، ما هى إلا نتيجة ومحصلة حتمية لعدم اهتمام المجتمع الدولى بمبادئ العدالة ، أو إعطاء هذه المبادئ ما تستحق من احترام وتقدير . غير أن المجتمع الدولى لا يأبه بتلك المبادئ ، كما أنه لا يرحم الضعفاء . وهنا نستشهد مرة أخرى بالتجربة المريرة فى البوسنة ، حيث تتم الحيلولة بين المسلمين الضعفاء وبين الحصول

على الأسلحة ؛ حتى اللازم منها للدفاع عن النفس . يحدث ذلك في الوقت الذي يتم فيه السماح للصرب - الأقوياء أصلا - بالتزود بالمزيد من الأسلحة والمعدات . وها نحن اليوم نرى الدول الكبرى وقد قامت بإعطاء الصرب الأراضي التي انتزعتها من سكانها الأصليين وهم المسلمون من أهالي البوسنة ، دون أدنى مراعاة لحقوق أولئك السكان .

إن الغرب ينظر إلى الصرب الأقوياء على أنهم على صواب ، كما ينظر إلى المسلمين الضعفاء على أنهم على باطل ، وبالتالي فليس لهم أي حق في تلك الأراضي . ورغم كل ذلك نجد أن القوى الكبرى في الغرب ما زالت تصر على أنها عادلة ، وأن ما تقوم به من ممارسات مخجلة ، هو الحق والعدالة بعينهما ! .

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو : هل نستطيع القبول بالمفهوم الغربي للعدالة وكقاعدة للعدل الذي يجب أن يتوفر لمجتمعاتنا؟ أليس من الواجب أن نرفض هذا المفهوم ، وهذا المبدأ الخاص بالعدالة الغربية في جميع الحالات باستثناء حالة واحدة فقط وهي الحالة التي لا يتعارض فيها هذا المفهوم وهذا المبدأ مع مفهوم الإسلام ومبادئه فيما يتعلق بالعدالة؟

يبين لنا التاريخ القانوني الإسلامي أن المسلمين كانوا أول من قام بتحويل القوانين إلى تشريعات نظامية . وقد كانت هذه العملية سببا في أن أصبحت القوانين الإسلامية أكثر دقة واتساقا عما سواها من قوانين . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عملية تحويل القوانين الإسلامية إلى تشريعات منظمة قد تمت على أيدي بشر ، وأن أولئك البشر ليسوا معصومين من الخطأ ، وأن الأمر يستدعي إدخال تعديلات وعمل تنقيحات مستمرة على تلك التشريعات النظامية من وقت لآخر وحسب ما تتطلبه ظروف الزمان والمكان . وبهذه الطريقة فإن القوانين المستندة إلى القرآن الكريم وعلى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ستكون قابلة للتطبيق في جميع الأزمنة . فالجرائم على سبيل المثال تتغير بتغير الزمن ؛ إذ نرى في أيامنا هذا أنواعا من الجرائم التجارية المعقدة والبالغة الإتقان لدرجة تجعل من الصعب اكتشافها أو رصدها . وإذا

لم تبذل الجهود اللازمة للتعرف على تلك الجرائم وتقرير العقوبات والجزاءات بشأنها بما يتماشى مع تعاليم الدين الحنيف ، فإنها سوف تنتشر في المجتمع وتتغلغل في مفاصله . والشيء نفسه ينطبق على مئات الجرائم الأخرى التي نشهدها في أيامنا هذه . ولذلك يجب علينا بذل الجهود الكفيلة بجعل النظام القانوني في دولنا متماشيا مع مفهوم ومبادئ العدالة الموجودة في الإسلام .

وهناك جوانب عديدة للمرونة في الإسلام تأخذ في حسبانها البيئة والظروف السائدة . فالإسلام يراعي المرونة فيما يتعلق بالممارسات الإسلامية بحيث لا يتحول الأسلوب الإسلامي للحياة إلى عبء يعيق المسلمين عن مواجهة ما يعترض حياتهم من مصاعب ومشاق ، ويبعدهم عن مجرى تيار التطور الذي لن يتوقف أبدا .

ونحن نرى اليوم ، أن المسلمين موجودون في مختلف دول العالم وليس في الدول الإسلامية فقط . ولكن المشكلة تكمن في أن المسلمين يمثلون أقلية في معظم تلك الدول غير الإسلامية ، وبالتالي فإنهم عاجزون عن فرض تطبيق القوانين والشرائع الإسلامية المطبقة في الدول ذات الأغلبية الإسلامية .

ومن المهم في هذا السياق أن يتم قبول الإسلام باعتباره دينا عادلا ومنصفا حتى من قبل غير المسلمين . وهذا ليس بالشيء الجديد بالنسبة للإسلام ؛ لأن الحكم الإسلامي في المدينة أيام الرسول ، ثم في مكة بعد ذلك ، كان عادلا بالنسبة لغير المسلمين . فتحت راية الرسول – صلى الله عليه وسلم ، وأثناء حكم الخلفاء الراشدين ، لم يحدث أن تم إجبار غير المسلمين على القبول بالقوانين الإسلامية أو بالإسلام كدين ، كما لم تجر أيضا مصادرة ولأملاكهم وثرواتهم أو فرض القمع والكبت عليهم . ليس هذا فحسب ، بل كانت هناك أوقات في التاريخ الإسلامي كان يتم فيها إصدار الأحكام على غير المسلمين من واقع القوانين والشرائع الخاصة بأديانهم . ونتيجة للعدل الذي مارسه المسلمون في بداية عهد الإسلام مع غير

المسلمين ، اعتنق العديد منهم الإسلام دينا وخضعوا طواعية لشريعته وقوانينه السمحاء .

والنسبة لنا فى ماليزيا بوصفنا بلداً تتعدد فيه الأديان ، يتعين على الحكومة – التى يقودها مسلمون – أن تثبت بالدليل لجميع الجهات سواء أكانت إسلامية أم غير اسلامية ، أن إدراتها التى تقوم على مفهوم ومبادئ العدالة الإسلامية هى إدارة عادلة فعلا ولا قولا فحسب . وإذا كان هناك تصور سائد فى الوقت الحالى مؤداه أن الإسلام دين يتسم بالتطرف والقسوة ، فإن السبب فى ذلك ليس لأن الإسلام فعلا كذلك ، ولكن السبب هو أن هناك بعض المسلمين الذين ما أن يتولوا السلطة فى بلد ما ، حتى يتحولوا إلى أشخاص متغطرسين لا يلتزمون بتعاليم الإسلام ولا بأحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولا يقتدوا بالرسول – صلى الله عليه وسلم ، كقدوة فى الحكم ، أو بالنماذج التى قدمها الخلفاء الراشدون وغيرهم من الخلفاء العادلين الذين تعج بهم صفحات التاريخ الإسلامى .

والمسلمون الذين فى السلطة ، والقضاة ورجال الإدارة فى ماليزيا ، يجب ألا يتحولوا إلى أشخاص متغطرسين بفعل السلطة ، كما يجب عليهم ألا ينسوا مبادئ العدالة الإسلامية . ومن الأمور التى يجب مراعاتها أن تقوم الإدارة فى ماليزيا ، وهى الإدارة التى يقودها مسلمون ، بإثبات أن حكمها عادل للجميع دون استثناء ، وأنه حكم غير منحاز وغير قمعى . ومن واجب المسلمين جميعا أن يعملوا على تصحيح الصورة المشوهة للإسلام التى نتجت عن الأعمال والتصرفات التى قامت بها الجماعات الإرهابية والفئات المنحرفة التى أساءت للإسلام والمسلمين وشوهت صورتهم فى نظر الكثيرين .

ينبغى ألا ننسى دائما أن العالم اليوم ينظر إلى القوة على أنها هى الحق ، وهو أمر يحتم على البلدان الإسلامية بما فيها ماليزيا أن تسعى حثيثا لتقوية نفسها ، وهذا لن يتأتى إلا بواسطة استحداث جهاز إدارى عادل وكفء يقف على قدم المساواة مع الأجهزة الإدارية الموجودة فى الدول المتطورة . إننا لن نستطيع إعداد أنفسنا للدفاع عن بلداننا ومقدراتنا من خلال امتلاك

التجهيزات الدفاعية المتطورة إلا بعد أن نتطور بالقدر الذى أحرزته الدول المتقدمة فى جميع المجالات . هذا الأمر ينطوى على أهمية بالغة بدليل أنه ورد فى القرآن الكريم ، حيث جاء فى الآية – ٦٠ من سورة الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ صدق الله العظيم

وإذا كان هناك سبب يجعل بعض البلدان والإثنيات مثل : الصرب واليهود يتجرأون اليوم على قمع المسلمين وترويعهم ، فإنه يعود إلى ضعف الدول الإسلامية وعجزها بسبب إهمالها للأمر القرآنى بإعداد القوة لقذف الرعب فى قلوب الأعداء . إننا نجد الإدارة فى البلدان الإسلامية فى أغلب الأحيان معيبة غير عادلة وعاجزة عن بسط الأمن ونشر السلم ، ومتقاعسة عن الدفع باتجاه تطور المعرفة والكفاءة ومراكمة الثروة ، التى تشكل فى مجملها عماد القوة وتجلب الاحترام والتقدير والمهابة .

ينبغى على المسلمين قبل إلقاء اللوم على الآخرين أن يتساءلوا عن سلوكهم الإسلامى وممارساتهم خاصة فيما يتصل بتوفير الإدارة العادلة والخالية من العيوب . وإذا كانت إدارتنا لا تراعى العدالة الإسلامية فى أدائها وممارساتها ، ولا تقبل بذلك فينبغى علينا أن نقر بتحملنا المسئولية واللائمة ولو جزئيا . لكل ذلك لا بد من أن نولى أهمية خاصة ليس بدراسة العدالة الإسلامية وتبادل الأفكار حولها فحسب ، بل للتأكيد على أن مفهوم ومبادئ العدالة تكفل العدالة والاستقامة وتسهم فى تعزيز الانسجام والتماسك بين أطراف المجتمع .

إننا مطالبون بإلقاء الضوء الكاشف على مفهوم ومبادئ العدالة فى الإسلام بما يؤدى إلى تصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة التى انطبعت عنها ، لنقنع العالم أن بإمكانه التعلم والإفادة من الحكمة الكامنة فى العدالة الإسلامية وما تستبطنه من إمكانات كفيلة بإزالة شتى أوجه الظلم الناتجة عن الغطرسة التى تمارسها القوى المهيمنة على عالم اليوم .

الفصل السابع والعشرون

الفكر الإسلامي والحضارة *

بسم الله الرحمن الرحيم . بهذه البسملة نبدأ نحن المسلمين كل شيء ؛ لأننا لا نقوم بأي عمل دون ذكر اسم الله سبحانه وتعالى ، الرحمن الرحيم ؛ هاتان الصفتان هما الأكثر جريا على لسان المسلم من بين ٩٩ اسما وصفة من أسماء وصفات الله العلى القدير . وبما أنهما الأكثر ذكرا ، فإنهما بالتأكيد الأكثر أهمية وشأنا من باقى الصفات المتعددة للمولى الواحد الأحد ، الذى نعبده سبحانه وتعالى . ومع ذلك فإن هاتين الصفتين هما الأقل توفراً بين بنى البشر بمن فيهم المسلمون فنحن لسنا رحماء ولا نشفق أو نعطف على الآخرين خاصة أولئك الذين نعتبرهم خطائين .

وإننى لهذا السبب أعتبر تأسيس معهد الفكر الإسلامى والحضارة ، خطوة شجاعة ؛ لأن الفكر والإيمان لا يتلازمان دائما على الطريق نفسه . وحقيقة أقول إن الإيمان يتطلب الخضوع التام وإن التفكير يتطلب الأسباب والمنطق والتى تؤدى إلى نتيجتها المنطقية وهو ما لا يمكن فعله مع الإيمان . وبالتأكيد فإن أى مجتمع لا يفكر ولا ينتج فكرا ، لا يمكن أن يصنع حضارة . والحضارة الإسلامية لم تنشأ فقط من خلال الالتزام بالشعائر الدينية التى فرضها الله سبحانه وتعالى ، على عباده ، بل نشأت أيضا وتطورت من خلال إعمال العقل والتفكير مع أداء العبادات والالتزامات الربانية فى الوقت نفسه . ولهذا لا يمكن اعتبارها ؛ أى الحضارة الإسلامية ، مجرد حضارة قائمة على الإيمان والخضوع المطلق فقط ، ولكنها ارتفعت على أكتاف التأمل والتدبر والتعقل وفقا للتعاليم الإسلامية .

* فى افتتاح المعهد الدولى للفكر الإسلامى والحضارة (اي . اس . تي . سي) فى كوالالمبور – بتاريخ ٣ يونيو ١٩٩٣ .

إذا أراد هذا المعهد أن يكون بحجم وقيمة هذا الاسم الذى يحمله ، فإن أهم واجباته هى الدراسة العقلانية الواعية لاستيعاب واستنباط المنطق الكامن وراء هذا التعدد والتنوع الذى نجده اليوم فى الإسلام فى أداء الشعائر الدينية وفى تفسير القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية الشريفة وفى فقه السنة ، والذى لا يجعل من الإسلام مجرد إيمان روحى فقط ، وإنما منهج حياتى يومى للفرد المسلم .

إذا كان هذا المعهد والذين سيساهمون فى مسيرته البحثية العلمية سيقنعون فى النهاية بالسعى لإيجاد التفسيرات والتوضيحات للعبادات والطقوس الدينية القائمة ، والتى أصبحت تمارس فى وقتنا الحاضر على نحو تتفق أو تنسجم مع بعضها ، بل وقد تنطوى على جوانب خاطئة أو حتى غير إسلامية .

وإذا اكتفى المعهد والمشاركون فيه بالبحث عن مخرج للمسلمين فى عصر يختلف كل الاختلاف عن العصر الذى عاش فيه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، أو لو أنه اهتم فقط بإيجاد الأعذار للأوضاع المتردية للمسلين اليوم وإخفاقاتهم الواضحة ، وإذا ما أراد المعهد والباحثون فيه أن يفسروا كل شيء فقط بالحديث عن النعيم الذى ينتظر الأمة الإسلامية فى الدار الآخرة ، فإنه فى هذه الحالة لن يكون معهدا لإعمال الفكر ، ولكنه سيكون مجرد وسيلة لإيجاد الأعذار والمبررات ، والإسلام ليس فى حاجة إلى من يبحث له عن المبررات .

وعندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية ، هل نقصد العصر الذهبى للإسلام فى الماضى؟ أم إننا نتحدث عن الإسلام فى عصرنا الراهن؟ بعض الناس قد يعرفون الحضارة الإسلامية بالتزام أتباعها بأداء الشعائر الدينية المفروضة عليهم ، وليس بإنجازاتهم على المستوى العالمى . والبعض الآخر لا يفكر إلا بتلك الإنجازات فقط . وإذا نحن لم نحدد بدقة كافية ما الذى نعنيه بالحضارة الإسلامية ، فإننا سننتهى إلى جدل غير مجد ، ولن يؤدى بنا إلى الوجهة الصحيحة التى نريد وبمعنى أخر فى حالة عدم تحديد مفهوم الحضارة الإسلامية على نحو دقيق وواضح جداً فإننا لن نسهم بمثقال ذرة فى التعريف بالإسلام ونصرة قضايا

المسلمين .

ولكى يستحق معهدنا هذا الاسم الذى أطلق عليه ، ينبغى عليه دراسة وتحليل : ليس القواعد الأساسية التى ينى عليها الإسلام مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقط ، وإنما تلك التطبيقات الدينية والمعلومات والشعائر والقيم التى تجعل من الإسلام طريقا ومنهجا فى الحياة . نحن واثقون من أن محاولات من هذا القبيل ستجعل المعهد هدفا لانتقادات أولئك الذين يتحدثون عن أن الإسلام هو حزمة روحانيات فقط ، لا علاقة له بتفاصيل الحياة اليومية ، وكذلك لن نسلم من المتشددين ونقدهم ومن يفسرون الإسلام بذهنية القرن السابع الميلادى .

إن الذين يقللون من شأن معهدنا هذا وأهمية إسهاماته فى قضايا الإسلام ، لن يعرفوا التعقل فى الخصومة الفكرية ؛ لأنهم لا يعرفون معنى الرحمة والشفقة ، بل سيكونون أكثر شراسة عندما تتضارب مفاهيم المعهد وإسهاماته ، مع المعايير التى ينظرون بها إلى الدين الإسلامى .

ومما لا شك فيه أن السلام لم يأت لهذا العالم من فراغ ، ولكنه جاء من أزمنة الجاهلية عندما كان الجهل منتشراً على نطاق واسع ، لينير الطريق أمام سكان مكة وسكان الكوكب الأرضى بوجه عام . وكان التنوير الذى أطلق الإسلام إشعاعه ضروريًا لذلك المجتمع الجاهلى الذى كان العرب يئدون فيه البنات ، فى حين كانت النساء يعاملن معاملة القطيع . كانت الحروب والثارات القبلية لا نهاية لها ، واتخذ الناس الأصنام آلهة ، وساد الجشع والربا والولع بالتفاخر القبلى والشخصى ، وكلها ممارسات وسمات أبعدت أهل المجتمع الجاهلى عن صفاتهم الآدمية . وفى الوقت نفسه تم تحريف تعاليم الديانات السماوية السابقة للإسلام ، واتجه الكثيرون صوب عبادة الأوثان مرة أخرى ، واتخذ الكهنة والقساوسة دور الوسيط بين العبد المؤمن وربه ، وليس دور المبشر بالدين .

هكذا كانت الصورة القائمة عندما نزل الوحى على المصطفى عليه الصلاة والسلام ،

وكانت نبوءة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم ، تعنى إعادة غرس الإيمان بالله فى النفوس الضالة ، وتعنى خلق مجتمع أفضل ، وتعنى حضارة أكثر إنسانية . وقد جاء الإسلام لكى تبصر الإنسانية طريقها الجديد الصحيح فى ذلك الوقت وفى الحاضر وفى المستقبل البعيد . وبخلاف الديانات الأخرى ، فإن الإسلام ليس مجرد طقوس لعبادة الله سبحانه وتعالى ، بل هو مجموعة من القيم التى يسترشد بها المؤمن والمجتمع وكل الخلق فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية والإدارية فى مجال الحياة . ومنذ بدء الرسالة المحمدية ومن خلال تعاليمها ، كان الإسلام يشدد على ضرورة اكتساب المعرفة والعلم والتحصيل لإدراك كنه المخلوقات والعجائب التى خلقها المولى عز وجل فى الكون . ولهذا فإن الإسلام هو طقس إيمانى بقدر ما هو مشروع حياة يومية يعطى النصح والإرشاد ، ويمهد الطريق للسعادة والنجاح فى الدار الدنيا والدار الآخرة معا .

إن حركة التغيير هى إحدى السمات الإيجابية فى المجتمع البشرى الذى لا ينتهى إلى سكون فى يوم من الأيام ، بل يتبدل ويتغير باستمرار ، وعلى المسلمين مواكبة تيار التجديد لضمان النجاح فى الحياة . إن القرآن الكريم كامل شامل لجميع مناحى الحياة ، ويستطيع المؤمن من خلال دراسته والتأمل فيه أن يجد الطريق الصحيح وأن يقترب من فهم وتقديم الحلول للمشاكل العالمية التى تقع ، ويستطيع مجابهة التحديات . إلا أنه يجب الانتباه إلى أن القرآن الكريم لا يقدم الإجابات التفصيلية لأى سؤال يعترض أى فرد فى المعمورة ، ولن يكون المصدر الوحيد لكل أنواع المعارف بقدر كونه المصدر الذى يستحث المؤمن على أن ينهل من ينابيع المعرفة المختلفة . إن معرفة محتويات الكتاب الكريم فقط لن تجعل المؤمن شخصا قادرا على حماية العقيدة والدفاع عنها ؛ لأن حماية العقيدة تتطلب إتقان فنون الحرب وامتلاك الأسلحة والمهارات والتقنيات التكنولوجية اللازمة . لقد طلب القرآن الكريم من المسلمين إعداد الخيل والسيوف وهى الأدوات اللازمة للدفاع عن النفس والعقيدة والوطن ، والتى استخدمت فى ذلك الوقت . ومن البديهى أن يتزود المسلم بما هو متاح حاليا من المعدات الدفاعية لهذا الغرض .

وعندما يجد المؤمنون أنفسهم فى حالة ضعف وضياع وغير قادرين على مجابهة المعضلات التى تقف عائقا فى طريقهم ، فإن عليهم العودة إلى النبع القرآنى الكريم ليتزودوا بالنصح ، وبالجرعات الروحانية . وبكل تأكيد فإن الكتاب الكريم لن يقدم الحلول التفصيلية لكل مشكلة ، بقدر ما يقدم التوجيه العام . إنه يضيء الطريق الصحيح . وعلى المؤمن إعمال عقله وفكره لحل أى معضلة بناء على المسببات والمعرفة والمنطق .

المرء المسلم يصلى بطبيعة الحال طلبا للهداية والاسترشاد ، ولكنه مطالب بإعمال عقله وفكره لتخطى العقبات . أما أن يصلى فقط ويقف مكتوف الأيدى تاركا بقية الأمور للقدر ، فإن ذلك لن يؤدى إلا إلى الفشل الذريع . فهل ينحو المؤمن باللائمة على المولى عز وجل ، إن ذلك لا يمكن بالطبع أن يأتى من مسلم مؤمن بحق .

بعد قرون عديدة من وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، لجأ المسلمون للاهتداء بصحابته المقربين ورواة الحديث . ولكن بمرور الوقت ، وفى ظل غياب مصدر محدد للسنة والحديث ، ظهرت قضايا دينية متشعبة ، كان لا بد من الإجابة عنها فلجأ الناس للفتوى ليقوم علماء الدين بإعمال فكرهم مسترشدين بالقرآن والأحاديث النبوية وفقه السنة ، ومن ثم يصدرون الفتاوى التى تشكل حلا للإشكال الناشب . هؤلاء العلماء يتمتعون بثقة رعاياهم ويصدرون فتاوى تكفل حل القضايا الخلافية سواء أكانت دينية أم دنيوية بين الناس . لكن الأمور قد لا تسير بتلك السلاسة ، وقد تتدخل مجموعة أخرى من العلماء وتصدر فتوى أخرى فى الموضوع نفسه تخالف الفتوى الأولى . وبطبيعة الحال فإن الاختلاف وراد ، وقد لا يتفق شخصان أو مجموعتان بشكل تام فى موضوع ما . وعادة ما يقود الاجتهاد إلى الاختلاف والصراع بين المدارس الفكرية والمذهبية ، وبالتالى تتضارب الآراء والفتاوى .

ومما زاد الطين بلة أن بعض الفقهاء والعلماء قد انساقوا وراء مصالحهم ووراء نزوات الحكم ، فأصبحوا يصدرون فتاوى لا تخلو من غرض . ونتيجة لذلك فإن الدين الإسلامى الواحد الذى أتى به سيدنا محمد – صلى الله علية وسلم ، تفرّق إلى طوائف وفرق من شيعة

وسنة وخوارج ودروز . إلخ ، وقد ازدادت الانقسامات حدة بتعدد الأئمة واختلاف تفسيراتهم واجتهاداتهم وآرائهم ، فأصبح مجرد أداء الشعائر الدينية محل اختلاف وخصام .

لقد تسببت التفسيرات المختلفة والتعاليم المتباينة والفتاوى المتضاربة ، فى تقسيم المسلمين ، بل والإسلام نفسه الذى أصبح أكثر من عقيدة وأكثر من مذهب . وقد كان هناك اعتقاد بأن وقف الانقسامات فى صفوف المسلمين يستدعى وقف الاجتهاد تماما دون إتاحة الفرصة للناس للتأمل فى الإسلام أو التساؤل حول بعض جوانبه ومناقشتها ، على أن يقبل المسلمون بتفسيرات السلف دون تساؤل . لكن رأيا كهذا لن يؤدى إلى حل مشكلة تشرذم المسلمين مهما خلصت النوايا ، ولن يعالج التعاليم الدينية الخاطئة والتفسيرات المتعددة التى تشكل الأسباب الحقيقية لتشر ذم الإسلام والمسلمين .

لقد اتضح أن الكثير من التعاليم والتفسيرات فى الإسلام والتى وضعت لتكون مقدسة لأبعد الحدود ، اتضح أنها ضارة بالإسلام والمسلمين . وأن الحال التى تعيشها الأمة الإسلامية حاليا إنما هى نتيجة لمحاولة فرض تلك المفاهيم المغلوطة . ولقد تواضع المسلمون وغيرهم خلال السنوات الباكرة للدعوة المحمدية على أن الإسلام دين نقل العرب من الانحطاط وظلمات الجاهلية ، إلى المساهمة والإنجاز ، ليس فقط فى نشر التعاليم الإسلامية وإنما فى كل حقول المعرفة : فى الفنون والعلوم والطب والفلك . إلخ . وبعبارة أخرى جعل الإسلام من أولئك الأعراب المتخلفين ، مؤسسين لحضارة عالمية كبيرة .

وإذا كان المسلمون اليوم يعتمدون بشكل كامل على غيرهم حتى فى مجال التسليح ، وإذا كانوا اليوم مجبرين على الانحناء أمام أعدائهم عاجزين حتى عن مجابهة خطر الصهيونية الماحق ، فليس ذلك بسبب الإسلام ، بل بسبب الفهم والتفسير والتطبيق الخاطئ للإسلام . إن رجال الدين هم الذين فرضوا مفاهيمهم الخاطئة على المسلمين ، وجعلوا الدين الإسلامى مجرد عبادات . هم الذين أوصلونا لهذه الدرجة من الضعف والانحطاط ؛ إذ كان المسلمون من قبل أمة من أعظم الأمم ، حتى جاءت سيطرة علماء الدين الذين انتزعوا الحق

لأنفسهم بأن فرضوا على المسلمين واجب اتباع تفسيراتهم الخاطئة وشطحاتهم ، بل أنهم عمَّدوا أنفسهم خلفاء مباشرين للرسول – صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا من أنفسهم المصدر الوحدى لتفسير التعاليم الإسلامية وتقديم النصح ، وأن أى حديث لا يخرج من أفواههم هو رجس من عمل الشيطان حتى لو كان حديث أب وأم لأطفالهما .

يجب ألا تكون هناك كهانة فى الإسلام وألاّ يكون هناك وسيط بين المؤمن وربه ، حيث إن علماء الدين هم فى نهاية المطاف بشر من الممكن أن يصيبوا وأن يخطئوا ، وكثير منهم أتوا بهرطقات لم تجلب إلا الضرر للإسلام والمسلمين .

إن الصورة تبدو هكذا أيها المفكرون ، والمطلوب منكم العمل الفكرى الصبور من أجل رفعة الأمة الإسلامية . نعم ، من الممكن أن تقفوا فى الجانب السليم وتريحوا أنفسكم من عناء الجدل والنقد ، ولكنكم فى هذه الحال لن تقدموا فكرا ولن تكونوا مفكرين ، ولكن عليكم فضح الزيف وإزاحة القشور . عليكم تشخيص حالة التردى العامة للإسلام وتقديم العلاج وسوف تتهمون باليسارية تارة وبالهرطقة تارة أخرى ، ولكن عليكم مواصلة المسيرة ، وأن تجعلوا هذا المعهد يقوم بدوره الذى يجب عليه أن يقوم به . أقول لكم هذا وأحذر من أنكم عندما تكونون صادقين ستتعرضون لسهام أولئك المستفيدين من هذا التردى ، ولكنها مجازفة يجب السير فيها فالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم ، تعرض لمثل ذلك ولأكثر منه ، عندما بدأ بنشر دعوته . أنتم بالطبع بشر عاديون ليس لديكم الحماية الربانية التى أضفاها سبحانه وتعالى على رسوله الكريم ، ولكن المأزق الحالى الذى تردى إليه الإسلام والمسلمون جدٌّ خطير ، والخروج منه يتطلب جهود مفكرين شجعان لا يخشون فى الحق لومة لائم ، ولا يأبهون للمصالح الشخصية الضيقة .

الفصل الثامن والعشرون
الإسلام والتصنيع *

قد يبدو موضوع الإسلام والتصنيع غريبا بعض الشيء بالنسبة لبعض المسلمين، ويجعلنا نتساءل: هل هناك حقيقة وجود لما يمكن أن نطلق عليه «صناعة إسلامية» أو على الأقل صناعة تستند في إطارها العام إلى قواعد ومفاهيم إسلامية؟ وهل نستطيع أن نخضع الصناعات المتعددة المعروفة لدينا فى عصرنا الحالى، إلى عملية أسلمة؟

فى الواقع نحن لم ندرس حتى الآن المساهمة المهمة التى قدمتها الصناعة للإسلام والمسلمين وللشعائر وللطقوس الإسلامية، بالجدية التى تستحق. ويبدو أننا مقتنعون بأننا يمكن أن نكون مسلمين ملتزمين ومثاليين دون صناعات! صحيح أن الإسلام اتسع وازدهر فى عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، دون أن تكون هناك صناعات. إذا ما هى الحاجة التى تستدعى ربط الصناعة بالإسلام، وهل الصناعة ضرورة فى الأصل؟

إننا دائما ما ننظر إلى الصناعة على أنها مجال من مجالات التجارة والأعمال، يُدر على المشتغلين فيه الربح الوفير، وانطلاقا من ذلك المفهوم فإننا نعتبر أصحاب الصناعات مجرد أناسٍ جشعين لا همَّ لهم فى الحياة غير مراكمة الربح والتمتع بحياة رغدة مترفة؟ غير عابئين بقضايا الدين. كما أننا نميل دائما إلى الاعتقاد بأن أى نشاط استثمارى تجارى لمراكمة الثروة لا يسلم من أساليب غير نزيهة من غش واستغلال وغيره.

لكل ذلك، فإننا نعتبر الأنشطة الصناعية متعارضة مع الإسلام أم منحرفة عنه، وتشكل عائقا أمام أداء العبادات والالتزام بالواجبات الدينية المختلفة التى فرضها الإسلام.

* كلمة ألقيت في افتتاح مؤتمر (الإسلام والتصنيع) الذى انعقد بالعاصمة الماليزية كوالالمبور - بتاريخ ٢١ يناير ١٩٩٣.

لكننا إذا نظرنا لهذا الأمر من وجهة نظر إسلامية صحيحة ، فإننا سوف ندرك بكل بساطة أن الصناعة ما هى إلا قطاع خدمى مثلها مثل كل المرافق الأخرى التى يمكن أن تجلب الشر وما يخالف الدين إذا ما أسئ استخدامها بالقدر نفسه الذى يمكن أن تكون مفيدة ، وعلى قدر عال من الأهمية لديننا والعبادات الواجبة على المسلم ، فعلى سبيل المثال كان القرآن ينسخ باليد قبل ابتكار الطباعة وحتى فى هذه الحالة فقد كانت صناعة الورق ضرورية جداً للاستغناء عن استخدام أوراق النباتات . وعندما كان القرآن ينسخ باليد ، فإن عدد النسخ المتوفر كان محدودا للغاية ، وكان بالإمكان أن تختفى تماما من على وجه المعمورة بسبب الحروب والكوارث الأخرى من حرائق وغيرها . وإزاء ذلك الخطر كان لا بد من أن يقوم بعض أفراد المجتمع على الأقل بحفظ القرآن الكريم على نحو يبعد عنه خطر الاندثار .

وعندما ظهرت الطباعة فى بداية عهدها ، اتخذ عدد كبير من رجال الدين موقفًا سلبياً منها وأصدروا الفتاوى التى تحرم طباعة القرآن الكريم . وقد وجدت الفتاوى تهليلاً وتعضيداً من قبل الخطاطين الذين كانوا يقومون بعملية نسخ القرآن ؛ نظراً لأن الطباعة الآلية شكلت تهديدا مباشراً لمصدر رزقهم . وتسببت تلك الفتاوى فى حرمان الدعاة والعاملين فى الخدمة العامة ومعلمى العلوم الدينية ، من امتلاك المصحف ، بل إن مجرد فرصة الحصول على نسخة لقراءة القرآن ظلت نادرة للغاية على مدى قرون عديدة .

وبالمقابل عندما تم إلغاء تلك الفتاوى فى وقت لاحق ، تمكن المسلمون من امتلاك المصحف وقراءته بتمعن ، مما أدى إلى تعميق معرفتهم وإدراكهم للعلوم والمعارف الإسلام . ومما لاشك فيه أننا لا يمكن أن نتخيل اليوم أن هناك شخصاً ما على قدر من الحماقة التى تدفعه لاستصدار فتوى تحرم طباعة القرآن . غير أن إمكانية إصدار فتاوى مماثلة تحرم الإفادة من المنتجات الصناعية مازالت قائمة . إن المفهوم الضيق للصناعة وسط المسلمين أدى إلى إهمالهما وعدم إعطائها الاهتمام الذى تستحق .

الآن ، ينبغى أن نعترف بما أسدته الطباعة من خدمات جليلة غير محدودة للإسلام

والمسلمين . صحيح أن تقنية الطباعة يمكن أن يساء استخدامها لطباعة الأدبيات الخليعة المخلة بالأدب والسلوك القويم ، إلا أنه ينبغى عدم إلقاء اللائمة على الطباعة بقدر ما هو مسئولية القائمين على أمر هذه الصناعة . أنا على يقين بأن هناك إمكانية لاستنباط الأساليب الكفيلة بالحيلولة دون استغلال الصناعة لأغراض سيئة ، خاصة إذا سعى المسلمون لبسط سيطرتهم على المبتكرات الجديدة وعملوا على تكريس مفهوم يقضى بأن الصناعة بمجالاتها المختلفة ، ما هى إلا قطاع خدمى يلبى حاجات المجتمع . هب أن المسلمين وحدهم هم الذين يملكون الخبره فى مجال تصميم وإنتاج أدوات وتجهيزات الطباعة ، فإنه لن يكون عسيرا عليهم فرض الشروط التى يرونها مناسبة فى مناسبة صفقات البيع ومنع الجهات التى ترفض تلك الشروط من اقتناء السلعة . هكذا الحال فى صفقات التسليح ؛ إذ تضع الدول المتجة قيودا صارمة على الدول الإسلامية قبل الموافقة على تزويدها بالتقنيات الدفاعية بحيث لا يتم استخدامها إلا وفق الشروط المتضمنه فى العقد .

وفى غياب الصناعة توجد صعوبة حقيقية فى الامتثال لبعض التعاليم الإسلامية وأداء بعض الشعائر والعبادات . فعلى سبيل المثال لا يمكن للمسلم ستر عورته لأداء شعيرة الصلاة دون صناعة الغزل والنسيج وقد أدى التطور فى الصناعات الفضائية وإنتاج الطائرات إلى تمكين أعداد متزايدة من البشر من أداء فريضة الحج بينما أدى التقدم فى صناعة البناء إلى زيادة عدد المساجد التى تتسع لعدد كبير من المصلين . ويمكننا القول بشكل عام إنه لا توجد صناعة لا توفر للمسلم خدمة نافعة وتعينه على أداء واجباته الدينية .

ومما لا شك فيه أن إعداد العدة للدفاع عن النفس والعقيدة والعرض والوطن ، واحد من الواجبات التى فرضها المولى عز وجل على المجتمع الإسلامى وفى عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، كانت أدوات الدفاع تتمثل فى الخيول والسيوف ، وقد قامت صناعات آنذاك لإنتاج السيوف وخيول الحرب أما فى عصرنا الحديث فإن الإعداد للدفاع عن النفس يتطلب صناعة تقوم على التكنولوجيا الحديثة المتطورة . إن واجب كل من يلتزم

بالتعاليم الإسلامية أن يعمل على ابتكار وإنتاج وتوفير أدوات الدفاع عن المجتمع . وبالرغم من أهميتها البالغة للمسلمين ، فإن بلداننا الإسلامية لم تعر الصناعات الدفاعية اهتماما يذكر ، الأمر الذى أدى إلى عدم توفر صناعة دفاعية متطورة فى هذه البلدان . وتجدر الملاحظة إلى أن صناعة الأسلحة لا يمكن أن تنهض دون آلاف من فروع الصناعات الأخرى . ولا شك أن المعرفة والإمكانات الأخرى تشكل عماداً لابتكار وإنتاج الأسلحة والتجهيزات العسكرية الأخرى البرية والبحرية والجوية ، إضافة لوسائل النقل والطائرات الحربية . إذا ينبغى على المسلمين امتلاك واتقان جميع أنواع الصناعات وعدم الاكتفاء بإنتاج المعدات الدفاعية فقط .

إننا نشاهد اليوم ، وبكل أسف أعمال القتل والتنكيل التى يتعرض لها المسلمون فى البوسنة والهرسك ، بما فى ذلك اغتصاب النساء وقتل الأطفال والشيوخ ، فى وقت يقف فيه المسلمون موقف المتفرج ؛ لأنهم لا يملكون قوة عسكرية كافية لوقف هذه المذابح وعمليات الإبادة الجماعية . هذا الضعف المخزى ما هو إلا نتيجة للنظرة القائمة على أن الصناعة لا علاقة لها بالإسلام علما بأن الاختصاصيين فى مجال التصنيع فى البلدان الإسلامية لا يجدون اعترافا بمساهمتهم فى نشر الإسلام وتعزيز قدرات البلدان الإسلامية .

وعندما كانت تركيا قوة عظمى على المستوى العالمى ، استطاعت التوسع وبسط سيطرتها على أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية ، غير أن تحديث قوتها العسكرية لمواكبة التطورات التى استجدت فى هذا المجال آنذاك ، واجهته عقبات جمة من قبل الذين رفضوا مجرد تغيير الزى العسكرى التركى إلى البنطلون ، ولقد احتدم الجدل بين الفقهاء الأتراك حول البنطلون لبضعة عقود ، فى وقت تصاعدت فيه الضربات على الإمبراطورية العثمانية . الآن لم يعد هذا الأمر يشغل بال الفقهاء المسلمين ، أى امرئ بإمكانه أن يرتدى بنطلون ؛ لأنه لن يخرج من ملة الإسلام لمجرد قيامة بذلك .

ولقد تسبب ما أهدره العلماء الأتراك من وقت فى الجدل حول طبيعة الزى العسكرى ، فى إعاقة مسيرة تحديث وتطوير الجيش التركى وتعطيل تطور صناعاته الدفاعية ، للحد الذى

انتهى بهزيمة الإمبراطورية التركية وتقطيع أوصالها . إن ما يحدث حاليا فى البوسنة والهرسك يعود إلى ذلك الجدل العنيف حول البنطلون الذى أعاق تحديث وتطوير الجيش التركى . تلك المعارك الهامشية التى أصابت ضباط الجيش التركى وبخاصة الصغار منهم ، بإحباط شديد لدرجة جعلتهم ينحون باللائمة على الدين الإسلامى ، وعندما دانت لهم الأمور بالاستيلاء على السلطة فى تركيا ، أقاموا ما أسموه (الحكومة العلمانية) وبطبيعة الحال ، فقد انبرى عدد كبير من المسلمين لانتقاد الضباط الأتراك (حزب تركيا الفتاة) بافتراض أنهم اختاروا نظاما علمانيا للحكم فى البلاد . لكن ينبغى قبل أن نتبارى فى إصدار الإدانات ، علينا أن نتذكر جيدا أن الحكومة السلطانية فى تركيا قد بلغت آنذاك مبلغا من الضعف والهوان للحد الذى شجع القوى الغربية على البدء فى اتخاذ إجراءات لتقسيم تركيا إلى أجزاء وإلحاقها بالدول الغربية . وقد أدت شجاعة وصمود الضباط الأتراك فى (تركيا الفتاة) إلى إنقاذ بلادهم من خطر تقسيمها وتقطيع أوصالها بما فى ذلك الأراضى التابعة لها فى القارة الأوروبية ، الأمر الذى أبقى على تركيا بلادا متماسكة وحفظ لها هويتها الإسلامية .

إذن ، ما الصلة بين التاريخ التركى وبين الإسلام والتصنيع؟ الصلة تكمن فى أن المسلمين منشغلون بالقضايا الهامشية التافهة؟ تاركين قضاياهم الكبرى ومسئولياتهم الأساسية . ونحن دائما ما ننشغل بالقشور ونهمل قضايانا الرئيسية مثل : القدرات والإمكانات الصناعية الإسلامية . صحيح أن الصناعات التى تقوم من أجل الربح فقط دونما اعتبار للجوانب المتصلة بخدمة المجتمع ، لا تتناغم مع القيم والأخلاق الإسلامية . إلا أنه بإمكان رجال الأعمال المسلمين أن يركزوا جلّ اهتمامهم على الجوانب الخدمية فى استثماراتهم ، وأن يضعوا نصب أعينهم ما تسديه صناعاتهم لخدمة المجتمع .

صحيح ؛ أن المستثمر لابد من أن يجنى نسبة من الأرباح ، لكن لا بد أيضا من أن يخصص جزءا من تلك الأرباح لخدمة البحوث والتنمية بما يؤدى إلى ترقية نوعية الخدمات المقدمة لقاء كلفة منخفضة . هذا لا يعنى بالطبع أن تحول الصناعة إلى مؤسسة خيرية مع

ملاحظة أن الإسلام يبيح جنى الربح المناسب .

إن الاهتمام بالجوانب الخدمية سيجعل عملية التصنيع أمرا مقبولا فى المجتمعات الإسلامية . لكن بصرف النظر عن موقف المسلمين من الصناعات التى يتحكم بها أناس من غير المسلمين ، لا تهتم بالأبعاد الدينية ، ويمكن أن تتسبب فى دمار المسلمين كما يحدث فى البوسنة والهرسك ومنطقة غرب آسيا .

ومع ذلك ، فإن الصناعة ستظل تلعب دورا مهما كمصدر لتوفير الخدمات التى يطلبها المجتمع ، ولا يمكن لأى نوع من الصناعات أن يكون ناجحا ما لم يوفر على الأقل جانبا من احتياجات المجتمع . ولا بد من التأكيد على أن الصناعات الغذائية لا تقل أهمية عن الصناعات المتطورة الأخرى من ناحية الخدمات التى تقدمها للمجتمع . وإذا ما نظرنا للصناعة من هذا المنظور باعتبارها مجالا لتزويد الناس بالخدمات ، فمن الممكن أن تتفهم مجتمعاتنا الإسلامية ، الخدمة المهمّة التى يقدمها هذا المرفق للمسلمين والإسلام ، بما يدعم قطاع التصنيع فيها . وفى تقديرى أن المسلمين الذين يقتحمون مجال الاستثمار فى التصنيع ، دائما ما يكونوا أكثر قدرة على إدراك ارتباط الدين بالصناعة . وعندما ننظر إلى الصناعة على أنها مجال خدمى ، ينبغى ألا ينصب تركيزنا على مراكمة الربح والثروة فقط ، بل لابد من الاهتمام بنوعية وقيمة الخدمة التى يسديها ذلك القطاع للمجتمع .

ولا شك فى أن تبنى المستثمرين المسلمين لهذه الفلسفة سيجعل صناعاتهم ناجحة وأكثر تطورا من ناحية النوع والربح . إن اعتبار الصناعة مرفقًا خدميا لتلبية احتياجات المجتمع ، أمر ينسجم مع وجهة النظر الإسلامية إزاء الاستثمار ومراكمة الثروة ويسهم مساهمة مهمّة فى نجاح الصناعة نفسها .

وإذا ما اتفقنا على أن التصنيع واحد من القطاعات الخدمية التى تسدى خدمة على قدر عال من الأهمية للأمة الإسلامية وعقيدتها ، فإننا بلا شك سنعزز الاهتمام بالصناعة بين المجتمعات الإسلامية ، وسنسهم بالترويج لمختلف أنواع الصناعات ، وسندفع مجتمعاتنا لا

كتساب المعرفة ، ونهيئ الأرضية الملائمة لغرس مفاهيم سامية عن الصناعة فى أقطارنا الإسلامية وبين المسلمين أينما وجدوا . وبمشيئة المولى عز وجل ، سيسهم هذا النهج فى جعل دولنا الإسلامية والمسلمين عموما أكثر تطورا وتقدما ونجاحا ، بما يجلب الاحترام والتقدير لديننا الإسلامى والشعوب الإسلامية فى مشارق الأرض ومغربها .

من هذه الزاوية ، فإن مؤتمرنا هذا قد جاء حاسما وفى وقته المناسب ؛ إذ ينبغى على المسلمين الاهتمام بالصناعة واعتبارها وسيلة لتعزيز قوة ومنعة البلدان الإسلامية والمسلمين ، بما يفرض على الآخرين احترامهم ، ويعزز إمكاناتهم للدفاع عن النفس والعقيدة . ولا شك فى أنَّ المسلم الجاهل لا يمكن أن يساهم فى تعزيز رفعة الإسلام واستعادة أمجاده العظيمة ، وبالمقابل فإن القدرات الصناعية وإدارة وتوظيف ضروب المعارف الضرورية لتطوير التصنيع ، ستكفل للإسلام والمسلمين مزيدا من الاحترام والتبجيل .

إن النظرة السلبية لقضايا التصنيع ليست غير مجدية فحسب ، بل إنها فى الواقع ، ضد الإسلام وتعليمه السمحة .

لقد حان الوقت لكى يعمل المسلمون على بلورة مفهوم إسلامى صحيح إزاء قضايا التصنيع ، ولا بد من انسجام رؤى المسلمين إزاء الصناعة مع جوهر ومغزى دينهم الحنيف . وإذا ما تسنى للمسلمين بلورة مفهوم إسلامى صحيح عن الصناعة ، فإن جهودا لا حصر لها يمكن أن توظف بما يمكنهم من امتلاك وإدارة مختلف أنواع الصناعات على نحو فاعل يصب فى مصلحة الدين الإسلامى وأتباعه .

مُفْرَدَاتٌ وَمُصْطَلَحَاتٌ

الدين :

يشير للعقيدة الإسلامية كمنهاج متكامل للحياة ، ومنظمة أفكار وأفعال شاملة ، متضمنا الدلالات والمعانى المرتبطة بالعقيدة والمعتقدات والممارسات والتعليم والأوامر التى مارسها وعاشها المسلمون كأفراد ومجتمعات .

عدل :

العدالة الاجتماعية

الأخرة :

الإيمان بالحياة الأخرى وهو جانب أساسى فى العقيدة الإسلامية ، يقوم على أن الإنسان مسئول أمام الله عن سلوكه وأفعاله ، وأن الحياة الدنيا ما هى إلا فترة امتحان للمؤمن الذى سيلقى حسابه يوم القيامة بحسب امتثاله أو إغفاله لأوامر الله .

عالم :

العلماء والدارسون المتبحرون فى علوم الدين .

العصبيّة :

الولاء للطائفة أو الفصيل على حساب المسلمين والأمة الإسلامية جمعاء .

عورة :

تلك الأجزاء من جسم الإنسان التى نهى الإسلام عن كشفها ، وأمر بتغطيتها وهى بالنسبة للرجال تعنى الجزء الممتد من السرة إلى الركبتين . أما بالنسبة للمرأة فتشمل كل أجزاء الجسم ما عدا الوجه والكفين حتى المعصمين .

باريزان نايسونال :

حزب الجبهة الوطنية الحاكم فى ماليزيا وهو ائتلاف يضم بين جنباته جماعات عرقية متعددة ومجموعات إقليمية تمثل مختلف المصالح .

بوميبوترا :

عقب الاضطرابات العرقية التى وقعت فى البلاد بتاريخ ١٣ مايو ١٩٦٩ ، أصبح شائعا على نطاق واسع أن يشار إلى السكان الماليزيين الذين يتكونون مما يعرف «بالبوميبوترا» التى تعنى (أبناء الأرض) ومن هم ليسوا ببوميبوترا . ويشتمل البوميبوترا على الملايو والمرتبطين بهم والمواطنين الأصليين أو المجموعات «الأوبورجيثية» بينما يتألف غير البوميبوترا من السكان الماليزيين من أصول صينية وهندية ومجموعات صغيرة أخرى من غير الملاويين . وقد شكلت أحداث العنف الطائفى عام ١٩٦٩ نقطة تحول فى التاريخ الماليزى ، ودفعت باتجاه البحث عن أساليب جديدة تماما لإدارة المجتمع الماليزى القائم على التعددية بكافة جوانبها .

الدعوة :

النشاط الدعوى الإسلامى وقد أصبحت الدعوة الإسلامية الحديثة تتمركز بالدرجة الأولى وسط المسلمين بدلا من النفاذ إلى أصحاب العقائد والديانات الأخرى والسعى لهدايتهم للدين الإسلامى الحنيف .

دوكن :

طبيب بلدى أو الرجل الذى يداوى القرويين دون أن يتلقى نصيبا من علوم الطب الحديثة .

فرض كفاية :

التزام المسلم نحو مجتمعه ، العلم أو المعرفة الضرورية اجتماعيا .

الفتوى :

أفكار وأحكام قانونية مكتوبة (مدونة) يصدرها علماء أو دراسون .

الحديث :

جميع الأفعال والأحاديث التى رواها أو نقلها أصحاب الرسول وغيرهم من المسلمين الأوائل ، عن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . هذا الأثر النبوى قد تم جمعه وتوثيقه من قبل الدارسين والعلماء والمسلمين . ويشكل الحديث مصدرا من مصادر التشريع والقوانين الإسلامية (الشريعة) ويسهم فى مساعدة المسلمين فى تفسير القرآن الكريم من خلال توضيح معانى الآيات والكلمات الغامضة الواردة فى كتاب الله ، وسرد بعض الأحداث والمواقف التى وردت فيها بعض الآيات القرآنية فى عهد النبى - صلى الله عليه وسلم .

الحج :

تقاطر أفواج المسلمين على مكة المكرمة وبقية المشاعر المقدسة ، والذى يتم خلال الشهر الثانى عشر من السنة القمرية الإسلامية . وقد فرض الله الحج على المسلم البالغ المستطيع مرة واحدة على الأقل فى الحياة الدنيا . ويتركز الحج على الكعبة المشرفة (بيت الله الحرام) التى يوجد بها الحجر الأسود أو (الأسعد) . وقد قام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة المشرفة ، فيما حمل سيدنا جبريل الحجر الأسود الذى يرمز إلى قدرة المولى عز وجل ، إلى سيدنا إبراهيم من السماء ، ويتضمن الحج سلسلة من الشعائر الدينية الثرية بالطقوس الروحية عميقة الدلالة والمدلول ، تتم ممارستها على نحو جماعى من قبل جموع الحجاج . بإعادة التوحد وبعث الأمة الإسلامية على نحو جديد فى كل عام .

الفقه :

التبحر فى المعرفة فى مجال العلوم الإسلامية .

الحلال :

كل ما تسمح به الشريعة الإسلامية ولا تمنعه ، ويغطى كافة جوانب الحياة وبصفة خاصة أنواع الأغذية والمشروبات .

الحرام :

كل ما حرمه أو نهى عنه الإسلام .

الحسنة :

كل عمل أو فعل خيرى يجزى المولى عز وجل عنه المسلمَ بالحسنات .

الهجرة :

هجرة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأصحابه من مكه إلى المدينة عام ٦٢٢ ميلادية . ولكى يتم الاحتفاء بذكرى الهجرة ، فقد اعتبرت تلك السنة : العام الأول من التقويم الهجرة على أنها رفض رمزى لفقدان الأمل فى مواجهة القهر والتعسف من قبل الكفار ، بما يوحى بأن الهجرة أو الانسحاب من بيئة عدائية إلى بيئة أكثر ملائمة خيار مقبول فى الإسلام .

الحدود :

عقوبات إلزامية فى الشريعة الإسلامية تطبق بحق من يرتكبون جرائم منافية للأخلاق

الإسلامية مثل : الزنا والقذف والفسوق والسرقة والسطو المسلح وقطع الطريق والردة والسكر ، علما بأن تطبيق هذه الحدود مقيد بالأدلة والإثبات والشهود على نحو فى غاية الصرامة . فعلى سبيل المثال نجد أن الإدانة بالسرقة للمرة الأولى تثبت بشاهدين أو اعتراف الجانى تستوجب قطع الكف من المعصم ، فيما يتم قطع الكف الأخرى عند الإدانة بالسرقة للمرة الثانية . أمام بالنسبة لجريمة الزنا فإنها لا تثبت إلا بأربعة شهود عدول من الذكور أو اعتراف الجانى بنفسه . وتقضى العقوبات برجم الزانى أو الزانية ؛ المتزوج أو المتزوجة بالحجارة حتى الموت ، فيما يتم جلد غير المحصنين مئة جلدة .

العبادة :

أداء الواجبات والممارسات والطقوس الدينية .

الاجتهاد :

استنباط الأحكام وفق القياس والمضاهاة وإعمال الفكر .

إخوان مسلمين :

الأخوة الإسلامية .

الإمام :

الذى يؤم الناس فى صلاة الجماعة .

الجاهلية :

حضارة ما قبل الإسلام .

الكافر :

الوثنى الذى لا يؤمن بالإسلام .

الخليفة :

لقب يطلق على الحاكم المسلم وبصفة خاصة خلفاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

مدرسة :

مكان للصلاة والدراسات الدينية والدنيوية فى بعض الأحيان .

المفتى :

وظيفة ابتدعها حكام البلدان الإسلامية عقب وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، للمساعدة فى اتخاذ الأحكام والقرارات الخاصة بالشئون الدينية . وقد اقتضت الضرورة خلق هذا المنصب لكبح جماح وحماس من يضفون على أنفسهم صفة «عالم» ويصدرون الفتاوى والتفسيرات التى تناقض بعضها بعضا وتفشى البلبلة والاضطراب وسط صفوف المسلمين .

المرتد :

المرتد عن الدين .

الشماورة (الشورى) :

الاستشارة .

القرآن :

كتاب الله المقدس (الإسلام) .

الصلاة :

تلك الشعيرة الدينية التى يؤديها المسلمون خمس مرات فى اليوم الواحد : عند الفجر قبل طلوع الفجر ، وفى الظهيرة عند منتصف النهار ، وقبل غروب الشمس ، وما بين غروبها ومنتصف الليل ، مصوبين وجوههم باتجاه الكعبة المشرفة فى مكة .

السنة :

الأثر النبوى من قول وفعل ، وكل ما سمح لأصحابه وتابعيه بممارسته أو أدائه . وتشكل السنة إلى جانب القرآن الكريم واحدا من مصادر تأسيس وتشريع قواعد السلوك التى ينبغى على المسلم اتباعها والتزامها فى نفسه .

الشريعة :

الأحكام والقوانين الإسلامية

العلماء :

جمع عالم ؛ وهى تعنى الفقيه المتبحر فى شئون الدين الإسلامى . تاريخيا انتزع العلماء الحق فى تفسير القرآن والأحكام الإسلامية الأخرى ، غير أن هذا الحق بدأ يتراجع فى عصرنا الحديث . ومع ذلك فإن معظم العلماء مازالوا يصرون على أنهم وحدهم الذين يملكون

المعرفة الدينية الضرورية التى تؤهلهم لتحديد ما سيكون عليه القانون الإسلامى .

الأمة :

تتألف من جميع المجتمعات الإسلامية ومعتنقى الدين الإسلامى أينما وجدوا ، وهو مفهوم يتجاوز الحدود القطرية والكيانات السياسية ليشمل المسلمين كافة ، بصرف النظر عن ولاءاتهم السياسية .

أصول الدين :

مجموعة من المفاهيم الفلسفية والمبادئ التى يقوم عليها الدين الإسلامى .

الزكاة :

التزام دينى (ركن من أركان الإسلام الخمسة) يقوم المسلم بموجبه باستخراج نسبة من ثروته فى شكل صدقة أو ضريبة أو فطرة (فى عيد الفطر) . وتستخدم الزكاة والصدقة لمساعدة الفقراء والأرامل والأيتام إضافة إلى توظيفها لنشر الإسلام . ويعد استخراج الزكاة واجب دينى (ركن من أركان الإسلام) لا خيار فيه وليس عملا خيريا ، بل هو عبادة تهدف إلى تضييق الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء .

فهرس

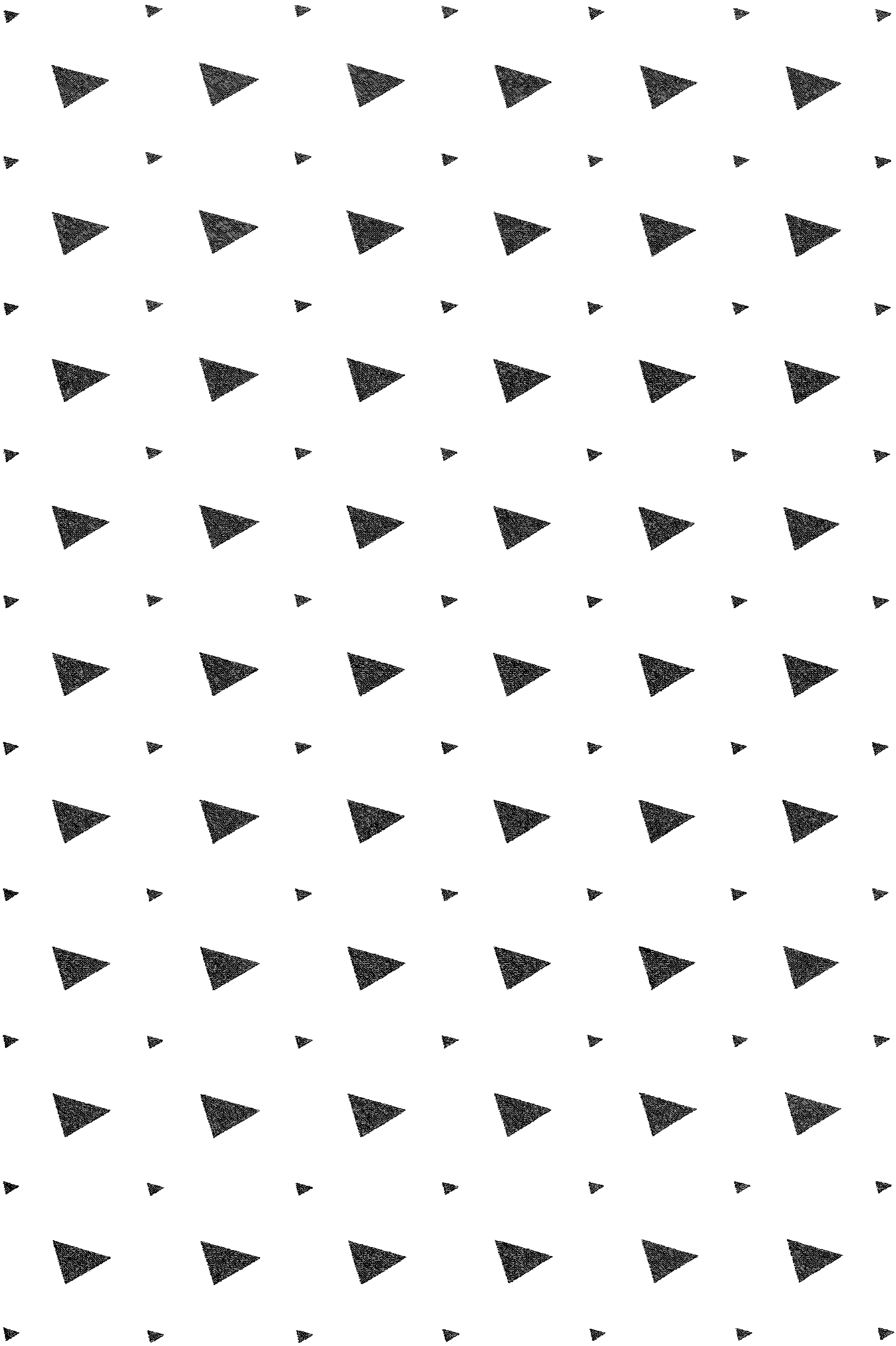
١- الأعلام

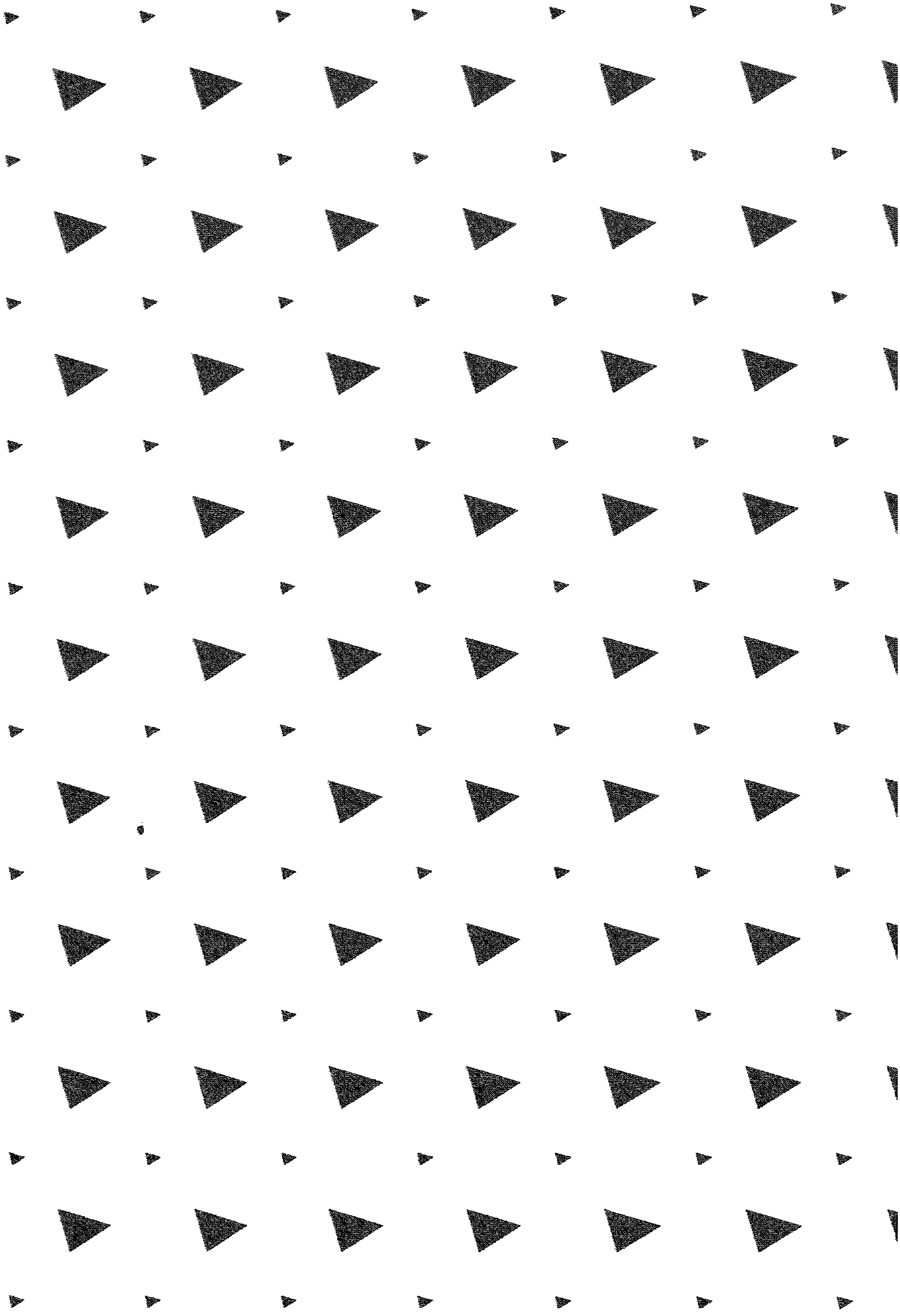
٢- الأماكن

٣- المُنَظَّمَاتُ وَالْهَيْئَاتُ وَالمُؤْتَمَرَاتُ

٤- الأحداث الكبرى

٥- مصطلحات وعبارات أساسية





موسوعة

الدكتور

محضير بن محمد

رئيس وزراء ماليزيا

المجلد الأول